

منا السيرة

طبعة فنية وجميلة

الشيخ محمد بن النعمان



فَتَا السَّيَرَةِ

كافة حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية

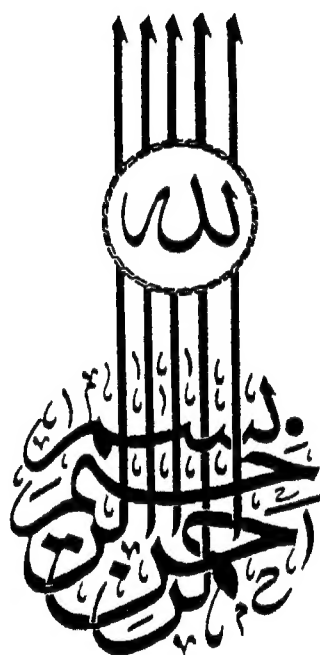
دار الدعوة
للطباعة والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤

فَقْرُ السَّيْرَةِ

طَبْعَةٌ مُنْقَحَةٌ وَمُحَقَّقَةٌ

محمَّد الغزالي





مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

هذا الكتاب ليس قصة تتضمن حياة الرسول ﷺ من مولده إلى أن آثر الرفيق الأعلى ، وإنما هي أضواء على جوانب العظمة في سيرته ، وشروح لما في حياته الجليلة من يقين وحكمة وسناء ...

فهو إذاً ليس تاريخ حوادث ، وإنما هو تفسير أحوال ، وبيان أسباب ونتائج .
إن الكتابة في تفاصيل الوقائع كثيرة ، والقارىء العادى يجد لها مراجع شتى ، أما الالمام إلى نواحي العظمة وحقائق الإعجاز في نفس صاحب الرسالة العظمى فإن ذلك يتطلب نشاط الكاتبين وتعبير آخر ، فإن واقع المسلمين الآن يتطلبه . إن حياة محمد ﷺ ليست بالنسبة للمسلم مسلاة شخص فارغ أو دراسة ناقد محايد ... كلا كلا ! . إنها مصدر الأسوة الحسنة التى يقتفيتها ، ومنبع الشريعة العظيمة التى يدين بها .

والسيرة من بعد ذلك فقهاً ينمى الإيمان ويزكى الخلق ، ويلهب الكفاح ، ويغرى باعتناق الحق والوفاء له . ومنبعاً للطاقة يحرك الجموع إلى الله فى ميادين العمل والنشاط والإبداع فلتكن هذه الكلمات تحية القلوب المؤمنة للرسول الكريم ﷺ .

الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقَدِّمَةٌ

هناك عظماء كثيرون ، يقرأ الناس قصص حياتهم ليتملأوا من عناصر النبوغ فيها ، وليتابعوا بإعجاب مسالكها في الحياة ، ومواقفها بإزاء ما يعرض لها من مشكلات وصعاب ، وقد تكون هذه القراءة المجردة هي الرباط الفذ بين أولئك العظماء ومن يتعرف عليهم ، وربما تطورت فأصبحت دراسة عميقة أو صلة إنسانية وثيقة .

وأبادر إلى القول بأني لم أكتب عن صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وفي نفسى هذا المعنى المحدود .

فأنا رجل مسلم عن علم ، أعرف لماذا آمنت بالله رب العالمين . ولماذا صدقت بنبو محمد . ولماذا تبعت الكتاب الذى جاء به . بل لماذا أدعو الآخرين إلى الإيمان بما سكنت إليه نفسى من هذا كله .

وقد سبق لى أن نشرت فى السيرة فصولاً مُنوعة . وهل ابتعدت عنها فى شئ مما كتبتُه . إن الرسائل التى عالجتها فيها بحوث العقيدة والخلق والمعاملة والحكم اعتمدت على سيرة النبی الكريم فى كيانها وسياقها . ولذلك يصح أن أقول .

إن هذا الكتاب ليس صلة محدثة برسول الإسلام ، ولا جملة من الدلائل على صدقه ، ولا لمحات تكشف للمؤلف عن عبقريته وسناء دعوته .

فإن ذلك قد استفاض به الكلام فى مواضع أخرى . ولكنى توفرت على إخراج هذا الكتاب وأمامى غاية معينة أرجو أن أكون بَلَّغْتُهَا .

إن المسلمين الآن يعرفون عن السيرة قشوراً خفيفة ، لا تحرك القلوب ولا تستثير الهمم . وهم يعظمون النبي وصحابته عن تقليد موروث ومعرفة قليلة ، ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان ، أو بما قلت مؤنته من عمل .

ومعرفة السيرة على هذا النحو التافه تساوى الجهل بها . إنه من الظلم للحقيقة الكبيرة أن تتحول إلى أسطورة خارقة . ومن الظلم لفترة نابضة بالحياة والقوة أن تعرض في أكفان الموتى . إن حياة محمد ليست - بالنسبة للمسلم - مسلاة شخص فارغ أو دراسة ناقد محايد ، كلا كلا . إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيها ، ومنع الشريعة العظيمة التي يدين بها . فأى حيف في عرض هذه السيرة ، وأى خلط في سرد أحداثها إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه .

— وقد بذلت وسعى في إعطاء القارئ صورة صادقة عن سيرة رسول الله ﷺ ، واجتهدت في إبراز الحكم والتفاسير لما يقع من حوادث ، ثم تركت للحقائق المجلوة أن تدع آثارها في النفوس دون افتعال أو احتيال .

وقد استفدت من السير التي كتبها القدامى والمحدثون استفادة حسنة .

إن المؤرخين المحدثين يميلون إلى التعليل والموازنة وربط الحوادث المختلفة في سياق متماسك . وذاك أحسن ما في طريقته ..

والمؤرخون القدامى يعتمدون على حشد الآثار ، وتمحيص الأسانيد ، وتسجيل ما دق وجل من الوقائع والشئون . وفي هذه المحفوظات الكثيرة نفائس ذات خطر أو أحسن الاستشهاد بها وإيرادها في مواضعها ..

ولعل هنا مزجت بين الطريقتين على نحو جديد ، يجمع بين ما في كليهما من خير ، فجعلت من تفاصيل السيرة موضوعاً متماسكاً يشد أجزائه روح واحد . ثم وزعت النصص والمرويات الأخرى بحيث تنسق مع وحدة الموضوع ، وتعين على إتمام صورته وإكمال حقيقته .

وقصدت من وراء ذلك أن تكون السيرة شيئاً ينمى الإيمان ، ويزكى الخلق ، ويلهب الكفاح ، ويغري باعتناق الحق والوفاء له ، ويضم ثروة طائلة من الأمثلة الرائعة لهذا كله .

إننى أكتب فى السيرة كما يكتب جندى عن قائده ، أو تابع عن سيده ، أو تلميذ عن أستاذه . ولست - كما قلت - مؤرخاً محايداً مبتوت الصلة بمن يكتب عنه .

ثم إننى أكتب وأمام عيني مناظر قائمة من تأخر المسلمين العاطفى والفكرى . فلا عجب إذا قصصت وقائع السيرة بأسلوب يومئ من قرب أو من بعد إلى حاضرننا المؤسف ، كلما أوردت قصة جعلتها تحمل فى طياتها شحنة من صدق العاطفة وسلامة الفكر وجلال العمل .

* * *

ومحمد ليس قصة تتلى فى يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن . ولا التنويه به يكون فى الصلوات المخترعة التى قد تضم إلى ألفاظ الأذان . ولا إكنان حبه يكون بتأليف مدائح له أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون ، ويتأهون أو لا يتأهون .. فرباط المسلم برسوله الكريم أقوى وأعمق من هذه الروابط الملفقة المكذوبة على الدين ، وما جنح المسلمون إلى هذه التعابير - فى الإبانة عن تعلقهم بنبيهم - إلا يوم أن تركوا الباب الملى وأعيامهم حمله ، فاكتفوا بالمظاهر والأشكال ؛ ولما كانت هذه المظاهر والأشكال محدودة فى الإسلام ، فقد افتنوا فى اختلاق صور أخرى .. ولا عليهم ، فهى لن تكلفهم جهداً ينكصون عنه ، إن الجهد الذى يتطلب العزمات هو فى الاستمسك بالباب المهجور ، والعودة إلى جوهر الدين ذاته . فبدلاً من الاستماع إلى قصة المولد يتلوها صوت رخيم ، ينهض المرء إلى تقويم نفسه وإصلاح شأنه ، حتى يكون قريباً من سنن محمد ﷺ فى معاشه ومعاده ، وحره وسلمه ، وعلمه وعمله ، وعادته وعباداته .

إن المسلم الذى لا يعيش الرسول فى ضميره ، ولا تتبعه بصيرته فى عمله وتفكيره ، لا يغنى عنه أبداً أن يحرك لسانه بألف صلاة فى اليوم واللييلة .

وأريد هنا أن أنبه إلى ضرورة الفصل بين الجد والهزل فى حياتنا . ولا بأس أن نجعل اللهو واللعب وقتاً لا يعدوه ، وللجد والإنتاج وقتاً لا يقصر عنه .

فإذا أراد أحد أن يغنى أو يستمع إلى غناء فليفعل . أما تحويل الإسلام نفسه

إلى غناء فيصبح القرآن ألحاناً عذبة . وتصبح السيرة قصائد وتواشيح ، فهذا مالا مساغ له ومالا يقبله إلا الصغار الغافلون . وقد تم هذا التحويل على حساب الإسلام ، فانسحب الدين من ميدان السلوك والتوجيه إلى ميدان اللهو واللعب . وحق فيمن فعلوا ذلك قول الله عز وجل :

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرِثُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. ﴾ (١) .

وتحول القرآن إلى تلاوة منغومة فحسب ، يستمع إليها عشاق الطرب ، هو الذى جعل اليهود والنصارى يذيعونه فى الآفاق ، وهم واثقون أنه لن يحى موتاً . وتحول السيرة إلى قصص وقصائد وغزل (١) وصلوات مبهمة جعل الاستماع إليها كذلك ضرباً من الخلل النفسى أو الشذوذ الناشئ - فى نظرى - من اضطراب الغرائز وفساد المجتمع .

وخير من هذا كله أن يستمع طلاب الغناء إلى اللهو المجرد والألحان الطروب ، فإذا ابتغوا العمل الجاد المهيّب طلبوه من مصادره المصفاة ، قرآناً يأمر وينهى ، ليفعل أمره ويترك نهيّه . وسنة تفصل وتوضح ، ليسار فى هديها وينتفع من حكمها ، وسيرة تنفح روادها بالأدب الزكى ، والقواعد الحصيفة .. والسياسة الراشدة .
وذلك هو الإسلام ...

* * *

بدأت أكتب هذه الصحائف وأنا فى المدينة المنورة ، فى الجوار الطيب الذى سعدت به حيناً ، وأعاننى على إتمام دراسات جيدة فى السنة المطهرة والسيرة العطرة .

ولله المنّة على ما أولى من نعمة . ولعله - جل شأنه - يجعلنى ممن يحبونه ويحبون رسوله ، ولما كنت لا أحسن القول والعمل إلا فى نطاق الصراحة ، فلا بد أن أشير إلى أن البون بعيد بين المسلمين ورسولهم ، مهما أكنوا له من حب وأدمنوا من

(١) الأنعام : ٧٠ .

صلوات . لقد رأيتهم يزورون الروضة مشوقين متلهفين ، ويعودون إلى مواطنهم ليجدوا من يغبطهم على حظهم ، ويود لو ظفر بما نالوا .

أما أن محبة رسول الله واجبة فهذا مالا يمارى فيه مؤمن . وما يفيض حبه إلا من قلب منافق جحود .

ولكن أن تكون هذه العاطفة مظهر الولاء له ، فهذا ما يحتاج إلى تهذيب وبيان .

إن يثرب من ناحية العمران العام أقل منها يوم كانت موطناً للأوس والخزرج في الجاهلية الأولى . وما يزرع اليوم من أرضها عشر ما كان يزرعه العرب قديماً . وجمهور السكان من رواسب المواسم المزدهمة بالحجيج والزوار . وهم يؤثرون الجوار العاطل على العودة للعمل في بلادهم .. ويسمون ذلك هجرة .. فهل ذلك إسلام أو حب لرسول الله ﷺ .. أذكر أنه قابلني نفر من أهل المغرب يزعمون أنهم قدموا إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتن . فأفهمتهم أنهم فارون من الزحف ، لأن إخوانهم يقاتلون الفرنسيين الغزاة . وهم مجرمون بتركهم المجاهدين يحملون وحدهم عبء هذا الكفاح (٢) .

إن هذا الحب لرسول الله ﷺ غير مفهوم ، وهذه الهجرة لمدينته غير متقبلة . وصلة نبي الله بعباد الله أشد وأحكم من أن تأخذ هذه السبيل الشاردة الملتوية . إن أعداء الإسلام تمكنوا - في غفلة أهله - أن يصدعوا بناءه ويجعلوه أنقاضاً . فكيف يترك تراث محمد نبياً للعوادي . وكيف يمهّد للجاهلية الأولى أن تعود . وكيف يقع هذا التبدل الخطير في سكون . بل في مظهر من الحب لرسول الله !

فليفقه المسلمون سيرة رسولهم . وهيهات أن يتم ذلك إلا بالفقه في الرسالة نفسها والإدراك الحق لحياة صاحبها ، والالتزام الدقيق لما جاء به .

(٢) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب وفرنسا تحت أقطار المغرب الثلاثة ، وغيرها من ديار الإسلام .

ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً ، وأغلاه عندما يكون قدوة وذماماً .

* * *

إننى أعتذر عن تقصيرى فى إيفاء هذا الموضوع حقه . فشأن رسول الله
كبير ، والإبانة عن سيرته تحتاج إلى نفس أرق وذكاء أنفذ .

وحسبى أن ذاك جهدى .

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد .. كما صليت على إبراهيم وعلى آل
إبراهيم .. وبارك على محمد وعلى آل محمد .. كما باركت على إبراهيم وعلى آل
إبراهيم .. فى العالمين إنك حميد مجيد .

محمد الغزالي

* * *

حَوْلَ أَحَادِيثَ هَذَا الْكِتَابِ

سرني أن تخرج هذه الطبعة الجديدة بعد أن راجعها الأستاذ المحدث العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني . وقد أثبت فيها كل التعليقات التي ارتآها على ما نقلت في هذه السيرة من آثار. نبوية .

وأرجو أن أكون معيناً على إبراز الحقيقة العلمية وضبط الوقائع التاريخية بإثبات هذا النقد . وشكره لمن تطوع به .

إن آفة المؤرخين للسيرة الشريفة . ولغيرها من أحداث الناس وأطوار الزمان قلة الثبوت وضعف التمهيص .

وقد وقع كثير من الأقدمين والمحدثين في هذا الخطأ ، على تفاوت بينهم في دقة المأخذ وحدة الانتباه .

وعندما شرعت أكتب سيرة لسيدى رسول الله ﷺ اجتهدت أن ألزم النهج السوى . وأن أعتمد على المصادر المحترمة .

وأظننى بلغت في هذا المجال مبلغاً حسناً . واستجمعت من الأخبار ما تطمئن إليه نفس العالم البصير . لكن القارئ سيرى في تعقيبات الشيخ ناصر الدين ما يبعث رييته في هذا الظن .

وهنا أرانى مكلفاً بشرح المنهج الذى سرت عليه .

قد يختلف علماء السنة في تصحيح حديث وتضعيفه . ويرى الشيخ ناصر - بعد تمحيصه للأسانيد - أن الحديث ضعيف . وللرجل من رسوخ قدمه في السنة ما يعطيه هذا الحق . ولغيره كذلك وجهة نظره . أو قد يكون الحديث ضعيفاً عند

جمهرة المحدثين . لكنى أنا قد أنظر لمتن الحديث فأجد معناه متفقاً كل الاتفاق مع آية من كتاب الله . أو أثر من سنة صحيحة . فلا أرى حرجاً من روايته . ولا أخشى ضيراً من كتابته . وأرأى في ذلك متسقاً مع المنهج العلمى المقرر .

إذ هو لم يأت بجديد في ميدان الأحكام والفضائل . ولم يزد أن يكون شرحاً لما تقرر من قبل في الأصول المتيقنة .

خذ مثلاً أول حديث حكم الأستاذ بتضعيفه : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبوني بحب الله » .

قد يرى الأستاذ المحدث أن تحسين الترمذى له وتصحيح الحاكم لا تعويل عليهما في قبول هذا الحديث . وله ذلك .

بيد أنى لم أجد في المطالبة بحب الله ورسوله ما يحملنى على التوقف فيه . ولذلك أثبتته وأنا مطمئن .

وفي الوقت الذى فسحت فيه مكاناً لهذا الأثر - على ما به - صددت عن إثبات رواية البخارى ومسلم مثلاً للطريقة التى تمت بها غزوة بنى المصطلق .

فإن رواية الصحيحين تشعر بأن الرسول ﷺ باغت القوم وهم غارون^(٣) ما عرضت عليهم دعوة الإسلام ، ولا بدا من جانبهم نكوص . ولا عرف من أحوالهم ما يقلق .

وقتل يبدؤه المسلمون على هذا النحو مستنكر في منطق الإسلام . مستبعد في سيرة رسوله .

ومن ثم رفضت الاقتناع بأن الحرب قامت وانتهت على هذا النحو . وسكنت نفسى إلى السياق الذى رواه ابن جريرة .. فهو - على ضعفه الذى كشفه الأستاذ الشيخ ناصر الدين - يتفق مع قواعد الإسلام المتيقنة . أنه لا عدوان إلا على الظالمين .

(٣) أحدهم على غرة .

أما الغارون الوداعون فإن اجتياحهم لا مساغ له ..

وحديث الصحيحين في هذا لا موضع له إلا أن يكون وصفاً لمرحلة ثانية من القتال ، بأن يكون أخذ القوم على غرة جاء بعد ما وقعت الخصومة بينهم وبين المسلمين ، وأمسى كلا الفريقين يبيت للآخر . ويستعد للنيل منه .

فاتتزم المسلمون فرصة من عدوهم - والحرب خدعة - وأمكنهم الغلب عليهم وهم غارون .

وفي هذه الحالة لابد من التمهيد لرواية البخارى ومسلم . بكلام يشبه ما نقله ابن جرير ووهنه فيه الشيخ ناصر .

ولست بدعاً في تلك الخطة التي اخترتها .. فإن أغلب العلماء جرى على مثلها في مواجهة المرويات الضعيفة والصحيحة على سواء .

وقرروا أن الحديث الضعيف يعمل به ما دام ملتصقاً مع الأصول العامة . والقواعد الجامعة .

وهذه الأصول والقواعد مستفادة - بداهة - من الكتاب والسنة .

وعلى ضوء هذا النظر المنصف حكيت استشارة رسول الله عليه الصلاة والسلام للحباب في موقعة بدر - وإن وهن المحدثون سندها - لأنها تدور في نطاق الفضائل التي أمر بها الله ورسوله ، وليس في سوقها ما يحذر قط ..

ذاك بالنسبة إلى الأحاديث الضعاف .

أما الصحاح فإن في تفاوت دلالاتها مجالاً رحباً للترجيح والرد . كما يعلم الأستاذ المحدث .

وما من إمام فقيه إلا ورد . بعض ما صح . إيثراً لما ظهر له أنه أصح . ومعاذ الله أن نشغب على السنة فهي الأصل الثاني للإسلام يقيناً .

بيد أنني إذا تتبععت السنن فعرفت أنها - في جملتها - تتفق مع القرآن الكريم في أنه لا حرب إلا بعد دعوة وإعذار . وتعريف مشرق لا تبقى معه شائبة غموض فكيف أقبل ما يوهم غير هذا .

اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ يَأْمُرُ نَبِيَّهِ فِي قُرْآنِهِ الْكَرِيمِ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ، وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ (٤) .

بعد هذا الإعلام الذي يستوى في الإحاطة به الداعون والمدعوون . وبعد أن سار النبي عليه الصلاة والسلام في مغازيه . وسار الخلفاء في معاركهم على هذا النحو من توضيح الدعوة ، وإتاحة الفرصة للناس يقبلوا أو يرفضوا .

بعد هذا لا أرى أن يلزمني أحد بقبول ما رواه الشيخان عن عبد الله بن عون . قال : « كتبت إلى نافع رحمه الله أسأله عن الدعاء قبل القتال . فكتب إلى : إنما كان ذلك في أول الإسلام (١) وقد أغار عليه الصلاة والسلام على بني المصطلق وهم غارون . فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم . وأصاب يومئذ جويرية .

قال . حدثني به عبد الله بن عمرو . وكان في ذلك الجيش ..

وكما تجاوزت هذا الحديث . تجاوزت عن مثله أن الرسول ﷺ خطب أصحابه وأعلمهم بالفتن ، وأصحابها ، إلى قيام الساعة ..

فقد صح من كتاب الله وسنة رسوله أنه لا يعلم الغيوب على هذا النحو المفصل الشامل العجيب .

آثرت هذا المنهج في كتابة السيرة ، فقبلت الأثر الذي يستقيم متنه مع ما صح من قواعد وأحكام ، وإن وهى سنده ..

وأعرضت عن أحاديث أخرى توصف بالصحة ، لأنها - في فهمي لدين الله ، وسياسة الدعوة - لم تنسجم مع السياق العام ..

ولا أرى مكاناً لبسط وجهة نظري في أمور كثيرة خالفت فيها الأستاذ المحدث ، وأثبت نقولاً قد يرى ضعفها ، وأرى أو يرى غيره قبولها ..

(٤) الأنبياء : ١٠٨ : ١٠٩ .

ولكنى أرى المكان متسعاً لتسجيل تعقيباته كلها على ما أوردت من
نصوص ، فإننى عظيم الحفاوة بهذا الاستبحار العلمى ، وهو يمثل وجهة نظر محترمة فى
تمحيص القضايا الدينية .

وأعتقد أن من حق القارئ على أن يعرف رأى أحد المحققين المتشددىن فى
المرويات التى أحصيتها هنا ، سواء خالفته أم وافقته ، وسواء أخطأ أم أصاب .
وشكر الله جهده فى المحافظة على تراث النبوة ، وهدانا جميعاً سواء السبيل .



الفصل الأول رسالة وإمام

الوثنية تسود الحضارات القديمة

إن تاريخ الحياة مؤسف ..

منذ هبط آدم وبنوه إلى الأرض ، ثم بعد أن شب بهم الزمن واطرد العمران وتشعبت الحضارات وأدبرت أجيال وأقبلت على أنقاضها أخرى ، منذ ذلك الحين السحيق والناس أخلاط متنافرون ، لا تستقيم بهم السبل يوماً إلا شردت أياماً ، ولا يشيرون بوارق الحق حيناً إلا أطبقت عليهم ظلمات الباطل أحياناً .

ولو تقصينا تاريخ البشر - على ضوء الإيمان بالله والاستعداد للقاءه - لوجدنا العالم أشبه بمخمور تربو فترات سكره على فترات صحوه ، أو بمحموم غاب عنه - في سورة الألم - رشده ، فهو يهذى ولا يدرى ..

ولقد كان في تجارب الناس مع أنفسهم ودنياهم مزدجر يزع عن الشر ويرد إلى الخير ، بيد أن الهوى الغالب لا تجدى معه معرفة .

كم سلخت الدنيا من عمرها قبل أن يظهر محمد ﷺ .

لقد مرت عليها قرون طوال أفادت فيها علماً كثيراً ، ووعت تجارب خطيرة ، ونمت آداب وفنون ، وشاعت فلسفات وأفكار .

ومع ذلك فقد غلب الطيش ، واستحكم ، وسقطت أمم شتى دون المكانة المنشودة لها ، فماذا كان مصير الحضارات في مصر واليونان ، وفي الهند والصين ، وفي فارس ورومة ؟ لا أقصد مصيرها من ناحية السياسة والحكم ، بل من ناحية العاطفة والعقل .

إن الوثنية الوضيعة اغتالتها ، وفرضت عليها السقوط في هذه الوهدة الزرية .

فأَمسى الإنسان الذى استخلفه الله ليكون ملكاً فى السموات والأرض ، أَمسى عبداً مسخراً لأدنى شئ فى السموات والأرض .

وماذا بعد أن تقدس العجول والأبقار ، وتعبد الأخشاب والأحجار ، وتطبق شعوب بأسرها على هذه الخرافة ؟

إن الوثنية هو أن يأتى من داخل النفس لا من خارج الحياة ، فكما يفرض المحزون كآبته على ما حوله ، وكما يتخيل المرعوب الأجسام القائمة أشباحاً جاثمة ، كذلك يفرض المرء الممسوخ صغار نفسه وغباء عقله على البيئة التى يحيا فيها ، فيؤله من جمادها وحيوانها ما يشاء .

ويوم يفسح القلب الضيق ويشرف الفكر الخامد ، وتثوب إلى الإنسان معانيه الرفيعة ، فإن هذه الانعكاسات الوثنية تنزاح من تلقاء نفسها .

ومن ثم كان العمل الأول للدين داخل الإنسان نفسه ، فلو ذبحت العجول المقدسة ، ونكست الأصنام المرموقة ، وبقيت النفس على ظلامها القديم ، ما أجدى ذلك شيئاً فى حرب الوثنية .. سيبحث العباد المفجوعون عن آلهة أخرى غير ما فقدوا ، يوفضون إليها من جديد .. وما أكثر الوثنيين فى الدنيا وإن لم يلتفتوا حول نصب !.. وما أسرع الناس إلى تجاهل الوجود الحق ، وربّه الأعلى ، والجري وراء وهم بعيد .

* * *

والخرافة لا تأخذ مجراها فى الحياة وهي تعلن عن باطلها أو تكشف عن هرائها . كلا ، إنها تدارى مجونها بثوب الجد ، وتستعير من الحق لبوسه المقبول ، وقد تأخذ بعض مقدماته وبعض نتائجه ، ثم تتزين بعد ذلك للمخدوعين .

وكذلك فعلت الوثنية .. لقد أغارت على الدين الصحيح وحقائقه الناصعة ، لا كما يغير النحل على أزهار الربيع ، بل كما تتغير الديدان وأسراب الجراد على الحقائق الغناء ، فتحيلها قاعاً بلقياً ..

وهي إذ أفسدت ما تركت لم تصلح ما أخذت ، ولكن كان ما أخذته خيراً قبل أن تتصل به ، لقد أصبح شراً بعد ما تحول في جوفها إلى سموم .
وهذا هو السر في أن الوثنية التي لا تعرف الله تزعم أنها بأصنامها تتقرب إليه وتبغي مرضاته ..

جزء من الحق ، في أجزاء من الباطل ، في سياق يصرف الناس آخر الأمر عن الله ، ويبعدهم عن ساحته ..

وأعظم نكبة أصابت الأديان إثر عدوان الوثنيات عليها ، ما أصاب شريعة عيسى بن مريم عليه السلام من تبدل مروّع ، رد نهارها ليلاً ، وسلامها ويلاً ، وجعل الوحدة شركة ، وانتكس بالإنسان ، فعلق همته بالقرايين ، وفكره بالألغاز المعماة .

إن خرافة الثلاث والفداء تجددت حياتها بعد ما أفلحت الوثنية الأولى في إقحامها إقحاماً على النصرانية الجديدة ، وبذلك انتصرت الوثنية مرتين ، الأولى في تدعيم نفسها ، والأخرى في تضليل غيرها .

فلما جاء القرن السادس لميلاد عيسى عليه السلام ، كانت منارات الهدى قد انطفأت في مشارق الأرض ومغاربها ، وكان الشيطان يذرع الأقطار الفحيح ، فيرى ما غرس من أشواك قد نما وامتد ..

فالمجوسية في فارس طليعة عنيدة للشرك الفاشي في الهند والصين ، وبلاد العرب وسائر المجاهيل ..

والنصرانية التي تناوى هذه الجبهة قبست أبرز مآثرها من خرافات الهنود والمصريين القدماء ، فهي تجعل لله صاحبة وولداً ، وتغري أتباعها في « رومة » ومصر والقسطنطينية بلون من الإشراف أرق مما ألف عبّاد النيران وعبّاد الأوثان .

شرك مشوب بتوحيد يحارب شركاً محضاً ..
ولكن ما قيمة هذه النقائص التي جمعت النصرانية بين شتاتها ؟

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (١) .

ويظهر أن آصرة الشرك بين المجوسية والديانات السماوية المشوهة هي التي جعلت هذه الأحزاب إلهاً على المسلمين يوم بدأوا يقيمون جماعتهم على عبادة الأصنام ، ومن أهل الكتاب في آن ، ووصاها أن تتذرع بالصبر أمام هذا التحامل :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٢) .

* * *

والظلام الذي ران على الأفئدة والعقول في غيبة أنوار التوحيد طوى في سواده أيضاً تقاليد الجماعة ، وأنظمة الحكم . فكانت الأرض مذابة يسودها الفتك والاعتقال ، ويفقد فيها الضعاف نعمة الأمان والسكينة .

وأى خير يُرجى في أحضان وثنية كفرت بالعقل ، ونسيت الله ، ولانت في أيدي الدجالين ..

لا غرابة إذا رفع الله عنها يده كما جاء في الحديث : « إِنْ اللَّهُ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقْتَهُمْ ، عَرَبِهِمْ وَعَجَمَهُمْ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » (٣) .

هذه البقايا هي التي ظلت مستعصية على الشرك برغم طوفان الكفر الذي طم البقاع والتلاع .

(١) يونس : ٦٨ - ٧٠ .

(٢) آل عمران : ١٨٦ .

(٣) من حديث طويل رواه مسلم في صحيحه .

لقد عمت الدنيا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيرة وبؤس ، ناءت
بهما الكواهل .

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام في صنم
فعاهل الروم يطغي في رعيته وعاهل الفرس من كبر أصم عمي
حتى تأذن الله ليحسن هذه الآثام ، وليسوقن هدايته الكبرى إلى الأنام ،
فأرسل إلى الأمة محمداً عليه الصلاة والسلام .



طبيعة الرسالة الخاتمة

وتمتاز بعثة محمد ﷺ بأنها عامة ودائمة .

والله عز وجل كان يستطيع أن يبعث في كل قرية نذيراً ، ولكل عصر مرشداً .

وإذا كانت القرى لا تستغنى عن النذر ، والأعصار لا تستغنى عن المرشدين ، فلم استعيز عن ذلك كله برجل فذ .

الحق أن هذا الاكتفاء أشبه بالإعجاز الذي يحصل المعنى الكثير في اللفظ اليسير ، وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام كانت عوضاً كاملاً عن إرسال جيش من النبيين يتوزع على الأعصار والأمصار . بل إنها سدت مسد إرسال ملك كريم إلى كل إنسان تدب على الأرض قدماه ، ما بقيت على الأرض حياة ، وما تطلعت عين إلى الهدى والنجاة .. ولكن كيف ذلك ؟؟

في المزالق المتلفة قد يقول لك ناصح أمين : أغمض عينيك واتبعني ، أو لا تسلني عن شيء يستثيرك ! وربما تكون السلامة في طاعته . فأنت تمشي وراءه حتى تبلغ مأمنك . إنه في هذه الحال رائدك المعين ، الذي يفكر لك ، وينظر لك ، ويأخذ بيدك . فلو هلك هلكت معه .

أما لو جاءك من أول الأمر رجل رشيد فرسم خط السير ، وحذرک مواطن الخطر ، وشرح لك في إفاضة ما يطوى لك المراحل ويهون المتاعب . وسار معك قليلاً ليدربك على العمل بما علمت . فأنت في هذه الحال رائد نفسك ، تستطيع الاستغناء بتفكيرك وبصرک عن غيرک .

إن الوضع الأول أليق بالأطفال والسذج . أما الوضع الأخير فهو المفروض عند معاملة الرجال وأولى الرأي من الناس .

والله عز وجل عندما بعث محمداً عليه الصلاة والسلام لهداية العالم ، ضمن
سأله الأصول التي تفتق للألباب منافذ المعرفة بما كان ويكون .

والقرآن الذي أنزله على قلبه هو كتاب من رب العالمين إلى كل حي ، ليوجهه
إلى الخير ويلهمه الرشد .

لم يكن محمد عليه الصلاة والسلام إماماً لقبيل من الناس صلحوا بصلاحه ،
فلما انتهى ذهبوا معه في خبر كان ، بل كان قوة من قوى الخير ، لها في عالم المعاني ما
لاكتشاف البخار والكهرباء في عالم المادة . وإن بعثته لتمثل مرحلة من مراحل التطور
في الوجود الإنساني ، كان البشر قبلها في وصاية رعاتهم أشبه بطفل محجور عليه ، ثم
شب الطفل عن الطوق ورشح لاحتمال الأعباء وحده . وجاء الخطاب الإلهي إليه -
عن طريق محمد ﷺ - يشرح له كيف يعيش في الأرض ، وكيف يعود إلى
السماء . فإذا بقي محمد ﷺ أو ذهب فلن ينقص ذلك من جوهر رسالته ، إن
رسالته تفتح الأعين والآذان ، وتحلية البصائر والأذهان ، وذلك مودع في تراثه
الضخم من كتاب وسنة .

إنه لم يبعث ليجمع حول اسمه أناساً قلوا أو كثروا . إنما بعث صلة بين الخلق
والحق الذي يصح به وجودهم ، والنور الذي يبصرون به غايتهم .

فمن عرف في حياته الحق ، وكان له نور يمشي به في الناس ، فقد عرف محمداً
ﷺ ، واستظل بلوائه وإن لم ير شبحه ويعش معه ..

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا . فَأَمَّا الَّذِينَ
آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا﴾ (٤) .

فإذا رأيت بعض الناس يتناسى دروس الأستاذ ، ويتشبث بشيابه وهو حي ، أو
يتعلق برفاته وهو ميت ، فاعلم أنه طفل غرير . ليس أهلاً لأن يخاطب بتعاليم الرسالة
بله أن يستقيم على نهجها .

(٤) النساء : ١٧٤ ، ١٧٥ .

في مسجد النبي ﷺ بالمدينة رأيت حشداً من الناس يتلمس جوار الروضة الشريفة ويود أن يقضى العمر بجانبها .

ولو خرج النبي حياً على هؤلاء لأنكر مرآهم وكره جوارهم .

إن رثاءة هيئتهم وقلة فقههم ، وفراغ أيديهم ، وضياح أوقاتهم ، وطول غفلتهم تجعل علاقتهم بنبي الإسلام أوهى من خيط العنكبوت .

قلت لهم : ما تفيدون من جوار النبي . وما يفيد هو نفسه منكم ؟

إن الذين يفقهون رسالته ويحبونها من وراء الرمال والبحار أعرف بحقيقة محمد ﷺ منكم . إن القرابة الروحية والعقلية هي الرابط الوحيد بين محمد عليه الصلاة والسلام ومن يمتون إليه .

فأنى للأرواح المريضة والعقول الكليلة أن تتصل بمن جاء ليودع في الأرواح والعقول عافية الدين والدنيا .

أهذا الجوار آية حب ووسيلة مغفرة .

إنك لن تحب لله إلا إذا عرفت أولاً الله الذي تحب من أجله . فالترتيب الطبيعي أن تعرف قبل كل شيء : من ربك . وما دينك . فإذا عرفت ذلك - بعقل نظيف - وزنت - بقلب شاكر - جميل من بلغك عن الله وتحمل العنت من أجلك . وذاك معنى الأثر « أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمة وأحبوني بحب الله .. » (٥) ومعنى الآية :

(٥) هذا حديث ضعيف الاسناد أخرجه الترمذى (٣٤٣/٤ + ٣٤٤ بشرح التحفة) والحاكم (١٥٠/٣) وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢١١/٣) والخطيب في تاريخه (١٦٠/٤) من طريق هشام بن يوسف بن عبد الله بن سليمان النوفلى عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن ابن عباس مرفوعاً به . وقال الترمذى : « حديث حسن غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه » وقال الحاكم : « صحيح الاسناد » ووافقه الذهبي . وهذا من تساهلهم جميعاً . لا سيما الذهبي . فقد أورد النوفلى هذا الحديث في « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » قال فيه : « فيه جهالة .. حدث عنه سوى « هشام بن يوسف » ثم ساق له الحديث فأنى له الصحة ؟؟ وقد تغرد به هذا المجهول . ولم يوثقه أحد . ولنا قال فيه الحافظ ابن حجر في « التقریب » : انه « مقبول » يعنى =

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٦) .

ثم إن نبي الإسلام لم ينصب نفسه « باباً » يهب المغفرة للبشر ويمنح البركات إنه لم يفعل ذلك يوماً ما ، لأنه لم يشغل بالدجل قط .

إنه يقول لك : تعال معي ، أو أذهب مع غيرك من الناس لنقف جميعاً في ساحة رب العالمين نناجيه ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (٧) . فإذا رضى عنك - هذا النبي - دعا الله لك .. وإذا رضيت أنت عنه ووقر في نفسك جلال عمله وكبير فضله فادع الله كذلك له .. فإنك تشارك بذلك الملائكة الذين يعرفون قدره ويستزيدون أجره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٨) .

وليس عمل محمد عليه الصلاة والسلام أن يجرك بحبل إلى الجنة ، وإنما عمله أن يقذف في ضميرك البصر الذي ترى به الحق ، ووسيلته إلى ذلك كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ميسر للذكر ، محفوظ من الزيغ .. وذاك سر الخلود في رسالته ..

* * *

فلننظر : كيف عالج الرسول عليه الصلاة والسلام البيئة التي ظهر فيها على ضوء هذه الطبيعة المفروضة في رسالته ، ولننظر قبل ذلك إلى أحوال هذه البيئة نفسها .

* * *

= عند المتابعة فأنى المتابع له ؟؟ ولذلك فقد أصاب ابن الجوزى حين قال : « هو غير صحيح » كما نقله المناوى في « فيص القدير » وتعقبه بما لا طائل تحته

(٦) آل عمران : ٣١ .

(٧) الفاتحة : ٦ ، ٧ .

(٨) الأحزاب : ٥٦ .

العرب حين البعثة

كان أهل مكة ضعاف التفكير أقوياء الشهوات .

إذ لا صلة بين نضج الفكر ونضج الغريزة ، ولا بين تخلف الجماعات من الناحية العقلية وتخلفها من ناحية الأهواء والمطامع .

إن عرام الشهوات الذى نسمع عنه فى « باريس » و « هوليوود » لا يزيد كثيراً عما وعته القرون الخالية من مفاسد الإنسان على ظهر الأرض .

وتقدم الحضارة لا أثر له من هذه الناحية إلا فى زيادة وسائل الإغراء فحسب .

أما الشهوات نفسها فهي هي من قبل الطوفان ومن بعده .. الأثرة والجشع والرياء والتهارش والحقد ، وغير ذلك من ذميم الخصال ، ملأت الدنيا من قديم ، وإن تغيرت الأزياء التي تظهر بها على مر العصور .

وإن الإنسان ليرى فى القرية التافهة ، وفى القبيلة الساذجة من التنافس على المال والظهور ما يراه فى أرق البيئات . وكثير من الناس تفوتهم أنصبة رائعة من العلم والفضل ، ولكن لا تفوتهم أنصبة كبيرة جداً من الاحتيال والتطلع والدس .

وقد تستغرب إذ ترى الشخص لا يحسن فهم مسألة قريبة من أنفه . ومع ذلك فهو يفهم جيداً ألا يكون فلان أفضل منه .

من عهد نوح والحياة تجمع أمثلة شتى لهذا الغباء وهذا العناد .

فعندما دُعي قوم نوح إلى الإيمان بالله وحده . كانت إجاباتهم لنوح لا تهتم بموضوع الدعوة قدر اهتمامها بشخص الداعي وما سيحرزه من فضل بهذه الرسالة .

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة .. ﴾ (٩)

ما أكثر منافذ الهوى إلى الأعمال والأحكام ، وما أعقد مخلفات الهوى في الأخلاق والأفكار ، والسير والسياسات .

وقد كانت « مكة » على عهد البعثة تموج بحركة عاصفة من الشهوات والمآثم ، وكان الرجال الذين يحيون فيها أمثلة قوية لنضج الأهواء ، وشلل الأفكار ، أو نماؤها في ظل الهوى الجامح وخدمته وحده ..

كفر بالله واليوم الآخر ، إقبال على نعيم الدنيا وإغراق في التشبع منه ، رغبة عميقة في السيادة والعلو ونفاذ الكلمة عصبية طائشة تسالم وتحارب من أجل ذلك ، تقاليد متوارثة توجه نشاط الفرد المادى والأدنى داخل هذا النطاق المحدود .

من الخطأ أن تحسب « مكة » يومئذ قرية منقطعة عن العمران في صحراء موحشة ، لا تحس من الدنيا إلا الضرورات التي تمسك عليها الرمق . كلا ، إنما شبت حتى بطرت . وتنازعت الكبرياء حتى تطاحت عليها . وكثر فيها من تغلغل الإلحاد في أغوار نفسه حتى عز إخراجها منه . فهم بين عم عن الصواب أو جاحد له ، وفي هذا المجتمع الذى لم ينل حظاً يذكر من الحضارة العقلية بلغ غرور الفرد مداه ، ووجد من يسابق فرعون عتوه وطمغواه .

قال عمرو بن هشام - معللاً كفره برسالة محمد عليه الصلاة والسلام - : زاحمنا بنى عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يوحى إليه . والله لا نؤمن به ، ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه ..

وزعموا أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله ﷺ : لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك . لأنى أكبر منك سنأ وأكثر منك مالاً .

وهذه السفاهات العاتية ، لم تنفرد مكة بها . فما كان كفر عبد الله بن أبي في المدينة إلا لمثل هذه الأسباب .

(٩) المزمود : ٢٤ .

ذهب رسول الله ﷺ - بعد الهجرة - يعود سعد بن عباد في مرض أصابه قبل وقعة بدر ، فركب حمراً وأردف وراءه أسامة بن زيد ، وسارا حتى مرا بمجلس فيه عبد الله بن أبي . وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود . وفي المسلمين عبد الله بن رواحة . فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله أنفه بردائه ، ثم قال : لا تغبروا علينا . فسلم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ثم وقف ونزل ، فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن .. فقال له عبد الله : أيها المرء إنه لا أحسن ما تقول ، إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا . وارجع إلى رحلك . فمن جاءك فاقصص عليه ..

فقال ابن رواحة : بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا ، فإننا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتشاورون . فلم يزل الرسول عليه الصلاة والسلام يخفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب وسار حتى دخل على سعد ابن عباد ، فقال النبي ﷺ : « ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب ؟ » - يعني ابن أبي - قال سعد : وما قال ؟ قال رسول الله ﷺ : قال كذا وكذا . فقال سعد : اعف عنه يا رسول الله ، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك ، ولقد اجتمع أهل هذه البحيرة - يعني المدينة - على أن يتوجوه ، ويعصبوه بالعصاة فلما أتى الله ذلك بالحق الذي أعطاك ، شرق بذلك ، فذلك الذي فعل به ما رأيت (١٠) .

إن ابن أبي غص بالإسلام لأنه رآه خطراً على زعامته ، وكذلك فعل أبو جهل من قبل ، ولئن كان هؤلاء قد ازوروا عن الحق بعد ما تبينوه ، إن هناك ألفاً غيرهم لا يدركون قبلاً ولا يهتدون سبيلاً ، كرهوا الإسلام وحاربوه .

ووسط هذه الجهالات البسيطة أو المركبة ، والعداوات المقصودة أو المضللة ، وسط نماذج لا حصر لها من الضلال والغفلة ، أخذ الإسلام رويداً رويداً ينشر أشعته ، فأخرج أمة من الظلام إلى النور ، بل جعلها مصباحاً وهاجاً يضيئ ويهدي .

(١٠) حديث صحيح أخرجه البخاري (١٨٥/٧ - ١٨٦ شرح فتح الباري) ومسلم (١٨٢/٥ - ١٨٣) وأحمد (٣٠٣/٥) من حديث أسامة بن زيد .

والدروس التي أحدثت هذا التحول الخطير والتي رفعت شعوباً وقبائل من السفوح إلى القمم ليست دواءً موقوتاً أو مخصوصاً ، بل هي علاج أصيل لطبيعة الإنسان إذا التاثت . وستظل ما بقى الإنسان وبقيت الحياة تكرم الإنسان وتجدد الحياة .



رسول معلم

كانت الإشاعات قد فاضت بين أهل الكتاب الأولين أن نبياً قد اقترب ظهوره ، ولهذه الإشاعات ما يبررها ، فإن عهد الناس بالرسول أن يتتابعوا فلا تطول فترة الانقطاع بين أحدهم والآخر ، وكثيراً ما تعاصر المرسلون فجمعهم أقطار واحدة أو متجاورة ، لكن الأمر تغير بعد عيسى ، فكادت المائة السادسة تتم بعد بعثته ، ولما يأت نبي جديد .

فلما اكتظت الأرض بالمفاسد والضلالات زاد التطلع إلى مقدم هذا المصلح المرتقب ، وكان هناك رجال ممن ينكرون الجهالة السائدة يستشرفون للمنصب الجليل ، ويتمنون لو اختيروا له . منهم « أمية بن أبي الصلت » الذي حفل شعره بالحدث عن الله وما يجب له من محامد ، حتى قال الرسول ﷺ فيه : « كاد أمية أن يسلم »^(١١) . وعن عمرو بن الشريد عن أبيه : ردفت رسول الله ﷺ يوماً فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت : قلت : نعم . قال : هيه ، فأنشدته بيتاً ، فقال : هيه ، حتى أنشدته مائة بيت^(١٢) .

غير أن القدر الأعلى تجاوز أولئك المتطلعين من شعراء وناثرين ، وألقى بالأمانة الكبرى إلى رجل لم يتطلع إليها ولم يفكر فيها ﴿ وما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، فلا تكوننّ ظهيراً للكافرين ﴿^(١٣)﴾ .

إن الاصطفاء للرسالات العظيمة ليس بالأمل فيها ولكن بالطاقة عليها .

(١١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٤٩/٧) وابن ماجه (٤١٠/٢) من حديث أبي هريرة ، وأخرجه أيضاً من حديث الشريد وهو تمام الحديث الآتي بعده .

(١٢) حديث صحيح أخرجه مسلم وابن ماجه .

(١٣) القصص : ٨٦ .

وكم في الحياة من طامحين لا يملكون إلا الجرأة على الأمل ، وكم من راسخين يطويهم الصمت ، حتى إذا كلفوا أتوا بالعجب العجاب .

ولا يعلم أقدار النفوس إلا بارئها ، والذي يريد هداية العالم أجمع يختار للغاية العظيمة نفساً عظيمة ، وقد كان العرب في جاهليتهم يرمقون محمداً ﷺ بالإجلال ، ويحترمون في سيرته شارات الرجولة الكاملة ، إلا أنهم لم يتخيلوا قط أن مستقبل الحياة قد ارتبط بمستقبله ، وأن الحكمة ستنفجر من ذلك الفم الطهور ، فتطوى السهوب والجدوب ، وتثب الوهاد والنجاد ..

إنهم لا يرون منه إلا ما يراه الطفل من سطح البحر . تشغله الصفحة الهادئة عن الغور البعيد .

كان اصفاء الله لمحمد مفاجأة لم تلبث روعتها أن تكشفته عنه ، ثم ثبت الكاهل الجلد لما ألقى عليه ، ومضى على النهج مسدداً مؤيداً ..

ومكث الوحي ينزل ثلاثاً وعشرين سنة ، كانت الآيات تنزل خلالها حسب الحوادث والأحوال ، وهذه الفترة الطويلة الحافلة هي فترة تعلم وتعليم .

الله عز وجل يعلم رسوله ، والرسول يتلقى هذه المعارف الحية ، فيديرها في نفسه حتى يحيلها جزءاً من كيانه ، ثم يعلمها الناس ويأخذهم بها أخذاً ..

ونزول القرآن على هذه الوتيرة مقصود للشارع الحكيم ، فإن الزمن جزء من علاج النفوس وسياسة الأمم وتقرير الأحكام .

واتساق القرآن في أغراضه ومعانيه - على طول المدة التي استغرقها في تجميعه - يعتبر من وجوه إعجازه . فإن خواتيمه - بعد ربع قرن - جاءت مطابقة مساوقة لفواتحه ، يصدق بعضها بعضاً ويكمله ، كأنما أرسلت في نفس واحد ..

وقد تساءل العرب : لم نزل القرآن كذلك ؟ ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جُملةً واحدةً ، كذلك لَنُثْبِتَ بِهِ فؤادك ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ (١٤) .

(١٤) الفرقان : ٣٢ ، ٣٣ .

إن القرآن يشرح حقيقة الدين عند الله ، وتاريخ هذه الحقيقة ، وهو - في دعوته العامة - ييسط الشبهات العارضة ويفندها ، ويسوق أدلته وهو على بينة من آراء خصومه ، ويتبع أقصى ما يثار ضده ثم يكر عليه بالحجة فيمحقه ، وقد بدأ القرآن بين قوم تشعب الكفر في نفوسهم ، ومرنت على الجدل ألستهم ، وكان القدر تخير هذه البيئة لتكون مجعاً يمثل آخر ما يحيك في القلوب من ريبة ، وآخر ما يبذله الباطل من التحدى ، فإذا أفلح الإسلام في تبديل هذه الريب ، وتذليل هذه العوائق ، فهو على ما دونها أقدر ..

والأسئلة التي توجه للنبي ﷺ ، أو التي ينتظر أن توجه إليه في مختلف العقائد والأحكام وجدت إجابتها الشافية في القرآن ، باعتبار أن السؤال لا يمثل حاجة صاحبه وحدها ، بل حاجات الناس على مر الأيام .

وفي هذا الجو الملى بالسؤال استفهاماً أو استنكاراً كان الإلهام يلاحق الرسول ﷺ : قل كذا ، قل كذا .

وما أكثر الآيات التي صدرت بهذا الأمر إجابة لسؤال ورد أو مفترض .. وأنت تحس - إذ تقرأ هذه الأجوبة المستفيضة - فيضاً من اليقين ينساب إلى قلبك ، كأنها حسمت وساوس عرضت لك أو في الإمكان أن تعرض .. والرسالة الخالدة هي التي تصلها بضمائر الناس هذه الأواصر المتينة . إن القرآن رسول حي تسأله فيجاوبك وتستمع إليه فيقنعك .

انظر .. كيف يؤسس عقيدة البعث والجزاء ، وينوه بشمول الإرادة والقدرة في ثنايا إجابة على سؤال موجه . وكيف صيغت المعاني في أخذ ورد ، واعتراض ودفع . كأنها حوار سيال ، يتعدى أصحابه حتى يجمع الناس إلى آخر الدهر :

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشَّجَرِ الْأَخْضَرَ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَى وَهُوَ

الخلق العليم . إنما أمرُهُ إذا أَرَادَ شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴿١٥﴾ .

إن هذا مثل للاستدلال القائم على النظر الصائب ، لا يختص به زمان دون زمان ولا مكانه دون مكان . فهو خطاب للعقل العام في البشر أجمعين ، وهو بيان لحكمة نزول القرآن منجماً إذ جاءت الآيات للرسول : قل كذا ، رداً على ما عرض له من أسئلة في أثناء تطوافه هنا وهناك يدعو إلى الله ، ثم ثبت السؤال والجواب ليكون منهما علم ينفع الناس آخر الدهر .

* * *

وقد استوقف الأمر بـ « قل » نظر العلماء ، إنه تعليم من الله لرسوله ، وتعليم من الرسول للناس ، وقد سبقت بعد هذا الأمر الأقوال التي تضمنت ما شاء الله من النصائح والعظات والأحكام .

فعندما أحب المشركون - على عادتهم - أن ينقلوا ميدان الجدل من حقيقة الدين ، إلى شخص الرسول وأتباعه نزلت الآيات ﴿ قل أرأيتم إن أهلكنى الله وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . قل هو الرحمن آمناً به وعليه توكلنا ، فستعلمون مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١٦) .

فانظر .. كيف يستخلص اللباب وسط غبار الجدل : ما يجديكم تنقص الرسول ومن معه ، فكروا في أنفسكم كيف أهلكتها الخرافات وشردت بها من الجادة ، إنه ليس للرسول ومن معه تفكير في أنفسهم وحظوظها ، إنهم دعاة الرحمن آمنوا به ، وتوكلوا عليه . فإن شئتم فالطريق إلى الرحمن ميسرة .

وليس من الضروري أن يقع سؤال ما لتأتى الإجابة عليه من لدن الله « قل » .. فربما يجي السياق على هذا النحو ابتداء عند عرض أصول الدعوة وآدابها ،

(١٥) يس : ٧٧ - ٨٣ .

(١٦) الملك : ٢٨ ، ٢٩ .

وتكون الغاية منه التعريف بالإسلام ونبه تعريفاً مشبعاً مقنعاً يستأصل الريب قبل أن تولد :

﴿ قل إنني هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيماً ملة إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وما كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قل إن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لا شَرِيكَ لَهُ ، وبذلك أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ . قل أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، ولا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (١٧) .

فالخطاب للرسول هنا يتضمن أمراً إلى كل حي وجد في عهده ، أو يوجد من بعده أن يتدبر - بعقله - ما يلقي إليه ، وأن يحكم - بضميره - على مدى صحته وإخلاصه .

فإذا تعلق بقلبه إيمان فهو إيمان برب كل شيء . وعمل الرسول ينتهي عند هذا الحد ، عند وصل العقول والقلوب ببارئها وإيضاح الصراط المستقيم لها ، وعلى كل إنسان أن يحمل تبعته في فعل الخير أو الشر بعد ذلك .

فليس الرسول ﷺ وسيطاً يحمل لك خيراً قدمته ، ولا قرباناً يحمل عنك عقاباً استحققتها ؛ لأنه لا تكسب كل نفس إلا عليها ؛ ولا تزر وازرة وزر أخرى .. وهنا يبدو بعد الشقة بين المسيحية والإسلام .

الإسلام يغالي بقدر الإنسان ؛ ويعطيه جزاءه الحق على الرفعة والضعة .

أما النصرانية فالمرء عندها أنزل قدراً من أن يتصل برب العالمين من تلقاء نفسه لا بد من آخر يحمل قربته ويقبل توبته ؛ ومن ذلك الآخر .. شخص دعى . فإذا اقترب ذنباً فليس هو الذي يلقي قصاصه . إن القربان ذبح قديماً من أجل خطيئته تلك ، وعليه أن يصدق بذلك لينجو إن أراد الحياة ..

هذا الخطب يحتاج إلى جرارات ثقيلة . ليسير في الحياة مراغماً المنطق والعدالة أما الإسلام فإن الله يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام قولاً تنفتح له الأعين والأفهام :

(١٧) الأنعام : ١٦١ - ١٦٤ .

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ ، قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (١٨) .

إن هذه الاستفهامات المترادفة سياط تلدغ الباطل . وتجعل العقل النائم يصحو من سباته . وتحفز الإنسان إلى اعتناق الحقيقة . والتسامي بها .

وذلك ما يعلمه ويعمل له رسول الإسلام .

* * *

وقد لقي الإسلام مقاومة عنيفة أشد العنف من الوثنية السائدة . فهي لم تلفظ أنفاسها في معركة أو معركتين . بل قاتلت ببأس شديد على كل شبر من الأرض وكان الظن أن قواها خارت وانماعت عندما أدى الرسول أمانته وذهب إلى الرفيق الأعلى بيد أن الجزيرة انتفضت بأسرها في عهد أبي بكر ، وانحصر المسلمون وسط طوفان الردة العمياء شرعوا يكافحونه مرة أخرى فما استطاعوا كسر شوكته إلا بعد ما تكبدوا من الخسائر أكثر مما فقدوا على عهد النبي ﷺ في مقاتلة أولئك المشركين .

إن الرجال الذين ثبتوا على الحق بعد رحيل نبيهم عنهم هم المسلمون حقاً . فإن الإسلام رباط بمبادئ لا بأشخاص . وقد علم الله نبيه ، وعلم المسلمين في شخصه أن يلتزموا الحق الذي عرفوا ، وأن يتشبثوا به مهما غلبوا وحاربوا ..

والدنيا طافحة بأسباب الزيف ، وهي تحاول أولاً ألا تبقى للإيمان مكاناً بها ؛ فإذا ظفر بكسب بعد طول عناء حاولت أن تلاينه حتى ينزل عن شيء ويكتفى بشيء . ولو أفلحت في استدراجه إلى هذه المنزلة لأمكنها الإجهاز عليه ، ولذلك جاءت أوامر الله في كتابه حاسمة تقضي بأن الإيمان كل لا يتجزأ ، وأن مناجرة الكافرين على هذه

(١٨) الرعد : ١٦ .

الحقيقة لا يجوز أن تهدأ ، فلا بد من الاستمسك بهذه التعاليم المترابطة ؛ والحب والبهض عليها ، والمسألة أو المحاربة دونها . فإن نصيب العاطفة في خدمة العقيدة ، لا يقل عن نصيب العقل .

والآيات الواردة في ذلك هي أوامر للمسلمين تنزلت في شكل خطاب للرسول ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (١٩) .

فليس الرسول ﷺ مظنة أن يطيع الكافرين والمنافقين حتى ينبه إلى التحرز منهم . ولكننا - نحن - المعنون بهذا الإرشاد .

ومن ذلك : ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ (٢٠) .

لقد كان الرسول ﷺ من بدء دعوته حرباً على الشرك وعلى الآلهة الأخرى . ومنه تعلم الناس هذه الخصومة . ويستحيل أن يتوقع منه غيرها .

ومن ذلك : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢١) .

﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا . وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٢٢) .

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢٣) .

(١٩) الأحزاب : ١ - ٣ .

(٢٠) القصص : ٨٧ ، ٨٨ .

(٢١) الحجر : ٨٨ .

(٢٢) الكهف : ٢٨ ، ٢٩ .

(٢٣) يونس : ٩٤ ، ٩٥ .

قال المفسرون : خوطبت الأمة في شخص رسولها كما تصدر الأوامر إلى القائد مع أن الجند هم المنفذون .

وقيل : بل الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام على طريق الإهاجة واستثارة الهمة . يقال للقوى البادية العزم : لا تن . وللعاقل الصحيح الذهن : لا تغفل . وليس يخاف عليهما وهن ولا غفلة ، ولكن الأمر تحريض على استدامة القوة والذكاء . والشجاع يزداد على الموت إقبالاً إذا قيل له : لا تهين ..

وسواء أكان هذا أم ذاك ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام مناط الأسوة الحسنة ، ومن سلوكه يأخذ الناس مثلهم الأعلى . وقد أمرنا معه بالتوجس من الضالين ، والتناؤ عن خلقهم وعملهم ، وازدراء متاعهم وغرورهم ..

وذلك لأن هناك أحياناً شتى يضعف فيها الحق ويعز التمسك به . ويقوى فيها الباطل وتكثر المغريات على مصادقته ، أو مهادنته .

ومن حق العقائد على أصحابها أن يتشددوا في تدعيم جانبها ، وأن يتنكروا لما يمسها من بعيد .

والأوامر التي تنظم هذه المشاعر لن تنقصها الصرامة ، وماذا بعد أن يقول الله لنبيه : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢٤) .

إن هذا الخطاب يقرع آذاننا وله مغزاه ، كما قيل : « إياك أعنى واسمعي يا جارة » وقد كان لهذا الأسلوب أثره في تأليب المسلمين على الفساد وترهيبهم من الركون إليه ، بله الوقوع فيه .

وأقوال المفسرين التي سردناها تنطبق أيضاً على الآية :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ .. ﴾ (٢٥) .

(٢٥) يونس : ٩٤ .

(٢٤) الزمر : ٦٥ ، ٦٦ .

الخطاب للقارئ ، أو السامع . أو للرسول عليه الصلاة والسلام نفسه على جهة التهييج والتحريض كما علمت . إذ أن الرسول عليه الصلاة والسلام لن يقع منه شك في أمر نبوته ، والكلام هنا فرض للمستحيل كما قيل في سورة أخرى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَايِدِينَ ﴾ (٢٦) .

لكن ما معنى سؤال أهل الكتاب ؟
قالوا : المراد الثقات المنصفون منهم . فهم لن يكتموا شهادة الحق إذا طلبت إليهم .

وعندى أن العدول الصادقين من أهل الكتاب قلة لا يعول على حكمها وما أظن الآية تعنى ذلك .

ولكن المرء يزداد بصراً بنفاسة ما عنده من خير إذا رأى ما عند غيره من خلط ، ولو ارتبت لحظة في أن القرآن من عند الله ، ثم تصفحت كتب العهدين القديم والجديد ، لعدت - على عجل - إلى كتابك تتشبت به ، وتحمد الله ألف مرة أن هديت إليه ..

وأحسب أن هذا ما تشير إليه الآية ، فإن تبين ما في الإسلام من حق يزداد قوة عند اكتشاف ما طراً على الأديان الأولى من تشويه ، وهذا يتفق مع قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٢٧) ويزكى فهمنا هذا في الآية الكريمة ما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : « يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب ؟ وكتابكم الذى أنزل على نبيكم أحدث الكتب بالله ، تقرأونه محضاً لم يشب وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغروه ، وكتبوا بأيديهم وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً . ألا ينهاكم من العلم عن مسألتهم أو لا ؟ والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم » .

* * *

إن الإسلام من الناحية العقلية معرفة للحقيقة ، ومن الناحية العاطفية حب لها وإعزاز ، وكراهية للباطل وعداء صريح .

إن هناك أناساً في مشاعرهم برودة يلقون بها الرأي وضده . وقد يتصور هذا في بعض المسائل التافهة . أما أن يتعلق الأمر بالإيمان والإلحاد والفجور والعفاف ، فلا ..

إن الله علّم رسوله الكتاب والإيمان ، فكان من عرفان الرسول ﷺ بهذا الفضل الإلهي أن غالى بإيمانه واعتز بقرآنه ، فعاش بهما وعاش لهما ، وخاصم وسالم فيهما ، وطالما تمنى عداته أن يركن إليهم شيئاً قليلاً ولكن هيهات !
﴿ وَذُودُوا لَوْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٨) .

والأمة الجديرة بالانتماء إليه هي الأمة التي تناضل على الحق ، فلا تسمح بانتقاص له ولا حيف عليه ، ومن خصائصها بأنها أمة فكرة ومنهاج . يقوم كيانها المادى والأدبى على ما تبذل في ذلك من جهد وتثمر من نتاج .

منزلة السنة من الكتاب الكريم

من حق المسلم أن يرتب المصادر التي يأخذ عنها دينه ، وأن يدرك الوضع الصحيح للمحفوظ من قول النبي عليه الصلاة والسلام وفعله إلى جوار السجل الثابت للوحي الإلهي الذي خصت به الرسالة الخاتمة .

إن القرآن روح الإسلام ومادته ، وفي آياته المحكمة شرع دستوره وبسطت دعوته ، وقد تكفل الله بحفظه فصينت به حقيقة الدين ، وكتب لها الخلود أبد الآبدين ، والرجل الذي اصطفاه الله لإبلاغ آياته وحمل رسالاته ، كان « قرآنًا » حياً يسعى بين الناس . كان مثلاً لما صوره القرآن من الإيمان وإخبات ، وسعي وجهاد ، وحق وقوة ، وفقه وبيان ، فلا جرم أن قوله وفعله وتقريره وأخلاقه وأحكامه ونواحي حياته تعد ركناً في الدين ، وشرية للمؤمنين .

إن اختاره ليتحدث باسمه ويبلغ عنه ، فمن أولى منه بفهم مراد الله فيما قال ؟ ومن أولى منه بتحديد المسلك الذي يتواءم مع دلالات القرآن القريبة والبعيدة ؟

إن تطبيق القانون لا يقل خطراً عن صياغته ، وللقانون نص وروح ، وعند علاج الأحداث المختلفة لتسير وفق القانون العتيد ، تجدد فتاوى وتدون نصائح وتحفظ تجارب وعبر ، وتثبت أحكام بعضها أقرب إلى حرفية النص وبعضها أدنى إلى روحه .. وهكذا .

والقرآن هو قانون الإسلام ، والسنة هي تطبيقه ، والمسلم مكلف باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه ، وقد أعطي الله نبيه حق الاتباع فيما يأمر به وينهي عنه لأنه - في ذلك - لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه ، فطاعته هي طاعة الله ، وليست خضوعاً أعمى لواحد من الناس .

قال الله عز وجل : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (٢٩) ، وقال : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣٠) وقال : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (٣١) .

عَلَى أَنْ الإلهام الأعلى لا يعطل مواهب الإنسان الراق ، فمن الخطأ أن نتصور المرسلين أناساً مسخرين تنطقهم الملائكة أو تسكنهم ، إنهم لو لم يكونوا أنبياء لكانوا رجالاً يرمقون باحترام ، ويقدمون عن جدارة .

إن الوحي لا يصيب الناس اتفاقاً . بل يرشح له أكمل الناس رشداً ، وأسبغهم فضلاً ، وأنبأهم خلقاً ، وأنضجهم رأياً ، وسيرة هؤلاء في الحياة ليست مما ينبذ وكلمهم ليس مما يهمل ، فكيف إذا تأيدت هذه العراقة بالعصمة ، وهذا الذكاء بالتسديد ؟

إن السير في ركاب المرسلين هو الخير كله ، ومن ثم كانت سنة محمد عليه الصلاة والسلام مصدراً لشريعته مع الكتاب الذي شرفه الله به . وجمهور المسلمين على هذا الفهم .

إلا أن السنن المأثورة عرض لها ما يوجب اليقظة في تلقيها ، فليس كل ما ينسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام سنة تقبل ، ولا كل ما صحت نسبته صح فهمه ، أو وُضع موضعه ..

والمسلمون لم يؤذوا من الأحاديث الموضوعة قدر ما أودوا من الأحاديث التي أسئ فهمها واضطربت أوضاعها . حتى جاء أخيراً من ينظر إلى السنن جمعاء نظرة ريبة واتهام ، ويتمنى لو تخلص المسلمون منها ..

(٢٩) النساء : ٨٠ .

(٣٠) النحل : ٤٤ .

(٣١) الحشر : ٧ .

وهذا خطأ من ناحيتين : إهمال الحقيقة التاريخية أولاً ، فإن الدنيا لم تعرف بشراً أحصيت آثاره ، ونقدت بحذر ، ومحضت بدقة ، كما حدث ذلك في آثار محمد بن عبد الله ، فكيف ترمى بعد ذلك في مطارح الإهمال ! والناحية الأخرى أن في السنة كنوزاً من الحكمة العالية لو نسب بعضها إلى أحد من الناس لكان من عظماء المصلحين ، فلماذا تضيع على صاحبها ويحرم الناس خيرها ؟؟

عندما درسنا تراث محمد عليه الصلاة والسلام في « الأخلاق » وذاكرنا أحاديثه التي تربو على الألوف في شتى الفضائل خيل إلينا : لو أن جيشاً من علماء النفس والتربية اجتمع ليسوق للعالم مثل هذا الأدب لعجز ، والأخلاق شعبة واحدة من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الضخمة ، إلا أن الاشتغال بالسنة - مع هذا - يجب أن يحظر على من لم يستجمع الشروط التي تجعل مثل هذا الاشتغال مفيداً للإسلام والمسلمين .

١ - فلا يجوز أن يشتغل بالسنة من لم يدرس علوم القرآن ويضرب فيها بسهم وافر ، فإن القرآن هو الدستور الأصيل للإسلام ، وهو الذي يحدد للمسلم بدقة تامة واجباته ، وحقوقه . ويرتب التكالييف المنوطة به ، ويوزع العبادات على حياته ، فلا تطغي عبادة على أخرى ، ولا تطغى كلها على عمله للحياة ومكانه فيها .

والمرء الذي يعجز عن تحصيل هذه الحقائق من القرآن لن يعوضه عن فقدانها شئ آخر والصورة التي تستقر في نفسه للإسلام - من غير القرآن - تضطرب فيها النسب والألوان ، وربما لحقها اختلاف كبير .

ولذلك حرص أئمة الصحابة على أن يخلو الطريق للقرآن الكريم ليحتل مكانته الأولى في القلوب ، وحرصوا على ألا يزاحمه في موضع الصدارة شئ .

روى ابن عبد البر في كتابه « جامع بيان العلم وفضله » بأسانيده التي ذكرها ، قال :

عن جابر بن (٣٢) عبد الله بن يسار قال : سمعت علياً يقول : أعزم على كل من

(٣٢) كذا هو في « جامع بيان العلم » (٦٢/١) وهو خطأ من الناسخ أو الطابع ، ومثله فيه كثير =

كان عنده كتاب إلا رجع فمحاها ، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم ، وعن الزهري عن عروة^(٣٣) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام في ذلك ، فأشاروا عليه بأن يكتبها ، فطفق عمر ليستخير الله فيها شهراً . ثم أصبح يوماً ، وقد عزم الله له ، فقال : إني كنت أريد أن أكتب السنن ، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله . وإني - والله - لا أشوب ، وفي رواية : لا أنسى كتاب الله بشئ أبداً .

وعن ابن سيرين قال : إنما ضل بنو إسرائيل بكتب ورثوها عن آبائهم . ودخل علقمة والأسود على عبد الله بن مسعود ومعهما صحيفة فيها حديث حسن فقال عبد الله بن مسعود : يا جارية هاتي بطشت واسكبي فيه ماء ، فجعل يمحوها بيده ويقول : ﴿ نَحْنُ نَقْصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾^(٣٤) فقالا له : أنظر فيها حديثاً عجيباً ، فجعل يمحوها ويقول : إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره - كانت الصحيفة تضم طرفاً من علوم أهل الكتاب ..

وعن عامر الشعبي عن قرظة بن كعب قال : خرجنا نريد العراق ، فمشى معنا عمر إلى (صرار) ثم قال : أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا : نعم نحن أصحاب رسول الله ﷺ ، مشيت معنا تريد أن تشيعنا وتكرمنا ، فقال إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم . جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ . امضوا وأنا شريككم . فلما قدم « قرظة » قالوا : حدثنا . قال : نهانا عمر بن الخطاب .

« والصواب : » عن جابر عن عبدالله بن يسار « وجابر هذا ، هو الجعفي وهو ضعيف جداً ، وقد كذبه الجوزجاني وغيره .

(٣٣) عروة هو ابن الزبير لم يسمع من عمر بل لم يدركه . فهذا الأثر منقطع ضعيف . وكذلك رواه الخطيب في (تقييد العلم) (ص ٤٩ - ٥١) من طرق عن عروة . اللهم إلا رواية راشد عن الزهري فإنه وصله بذكر عبد الله بن عمر بين عروة وعمر وهي شادة كما أشار إلى ذلك الخطيب نفسه .

(٣٤) يوسف : ٣ .

وعمر وعلى وغيرهما من الأئمة لا يجحدون السنة . ولكنهم يريدون إعطاء القرآن حظه الأوفر من الحفاوة والإقبال . وذلك هو الترتيب الطبيعي فلا بد من معرفة القانون كله معرفة سليمة قبل الخوض في شروح وتفاصيل لبعض أجزائه . إذ أن هذه التفاصيل والشروح لا يحتاج إليها كل أحد ، وربما شغلت الأذهان فلم تترك بها فراغاً للأصول اللازمة والقواعد الهامة .

وخصوصاً لأن الطريقة التي تروى بها الأحاديث تجمع في صعيد واحد ما صدر عن الرسول عليه الصلاة والسلام متناً في أمكنة شتى وأزمنة شتى وملابسات شتى .

عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : ألا يعجبك أبو هريرة ؟ جاء يجلس إلى جانب حجرتي يحدث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام . يسمعي . وكنت أسبح . فقام قبل أن أقضى سبحتي - أنهى صلاتي - ولو أدركنت لرددت عليه ، إن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يكن يسرد الحديث كسردكم (٣٥) ...!!!

٢ - ويحيى - بعد رسوخ القدم في فهم القرآن - فهم ما يروى من السنن على وجهه الحق ، فخير لمن يقصر عن فهم السنن أن يحبس لسانه في فمه فلا يقول : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام . ثم يسوق حديثاً لا يعرف ما المقصود منه ؟ وإن كان يفهم عبارته الظاهرة وحدها .

وقد بليت السنة من قديم بمن يحفظ منها الكثير ولا يعي إلا اليسير . وتعجب السيدة عائشة من أبي هريرة حين جلس يروي ليس لأنها تتهمه بكذب ، بل لأن أسلوب تحدّثه يهدر الملابس التي قيلت فيها هذه الأحاديث بعد ما طويت طياً في سرده الموصول ، وقد روى مسلم في صحيحه : أن عمر ضرب أبا هريرة لما سمعه يحدث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » ولعل عمر فعل ذلك لأنه وجد أبا هريرة ، يذكر الحديث لمن لا يعي منه إلا أن الإسلام

(٣٥) أخرجه الشيخان في صحيحهما ، وأبو داود (١١٥/٢ - طبع التازي) وابن عبد البر (١٢١/١٢) .

كلمة تقال باللسان ولا يعمل وراءها^(٣٦) ومنع الحديث - ولو صح - إذا أوحى بهذه الجهالة أفضل من إباحة روايته .

وروى ابن عبد البر عن أبي هريرة نفسه قال : لقد حدثتكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر بن الخطاب لضربني عمر بالدرة ..

وفقه عمر في هذا المنع أنه يريد - كما علمت - بناء المجتمع على تعاليم القرآن وشغل الأفكار بتدبرها والاستنباط منها ، فإذا رويت السنن بعدئذ تلقفتها أذهان نيرة ، فلم تعد بها معناها الصحيح .

يستطيع أبو هريرة - لجودة حفظه - أن يسرد مائة حديث في الصلاة مثلاً وعمر ربما لا يرى حرجاً من سرد هذه السنن في مدرسة خاصة ، ولكنه يكره أن يشغل جمهور المسلمين بأمر يكفهم منه القليل ، ثم ينصرفون بعده إلى أعمال أجدي على الإسلام وأهله ..

وذلك سر مطاردته للرواة الكثيرين .

لقد روى ابن حزم قرابة ألف صفحة من الأحاديث في الوضوء . ولمن شاء أن يتوفر على هذا اللون من العلم ، لكن شغل عامة المسلمين به حمق . فماذا يبقى بعدئذ للقرآن نفسه ؟ بل إن شغل المسلمين بالقرآن على هذا النحو ليس من الدين . قال رسول الله ﷺ « اقرأوا القرآن ، ولا تغلوا فيه ، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به »^(٣٧) !!

وإن يكن هؤلاء الحفاظ فضل فلأنهم حملوا العلم إلى من يحسن الاستفادة منه .

(٣٦) قلت : هذا الاحتمال بعيد بل باطل فإن في الحديث نفسه عند مسلم (٤٤/١ - ٤٥) أن عمر رضى الله عنه كان من أول من لقيه أبو هريرة وأول من حدثه هذا الحديث فلعل الأستاذ المؤلف يعيد النظر فيه . أقول : لقد آذى عمر أبا هريرة لا لكذبه - معاذ الله - ولكن لما قد يقع من وضعه الكلم في غير موضعه ، وما ذكرناه حق .

(٣٧) حديث صحيح أخرجه أحمد (٤٢٨/٣ - ٤٤٤) والطحاوى في « شرح معاني الآثار » (١٠/١) من حديث عبد الرحمن بن شبل مرفوعاً . وسنده صحيح وقواه الحفاظ في « الفتح » (٨٢/٩) .

على نحو ما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « رب حامل فقه ليس بفقيه ، رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »^(٣٨) عن أنى يوسف قال : سألتى الأعمش عن مسألة وأنا وهو لا غير . فأجبت ، فقال لى : من أين قلت هذا يا يعقوب ؟ فقلت : بالحديث الذى حدثتنى أنت . ثم حدثته . فقال لى : يا يعقوب ، إنى لأحفظ هذا الحديث من قبل أن يجتمع أبواك ، ما عرفت تأويله إلا الآن ..

وقد يبصر أبو يوسف الفقيه ما يغيب عن الأعمش الحافظ ، ولكن المحذور ليس فى الحفظ بلا فهم ، بل يفهم الأمر على غير وجهه ..
والترتيب الفنى للسنن - كما دونت وثلقيناها - يجعل ما ورد فى الإيمان باباً وما ورد فى القضاء باباً .. وهكذا ..

ولما كان الإسلام . جملة هذه الحقائق . فإن السنة أصبحت كمتجر كبير للملابس وزعت فيه أنواعها على مختلف الجوانب ، هنا أغطية الرأس ، وهنا سراويل ، وهنا قمصان ، وهنا حلل سابغة .. إلخ .

والطبيعى أن من يريد كسوة كاملة يمر بهذه الجوانب كلها ليأخذ ما يغطيه من رأسه إلى قدمه ، ولكن يحدث كثيراً أن ترى من يشتري قلنسوتين ويخرج حافياً ، أو من يشتري منديلاً ويخرج عارياً .

إن هذا مثل طوائف اشتغلت بالسنة ، ثم - بعد طول تطواف - خرجت على الناس ، وفى يديها من السنن سواك ، وعمامة مقطوعة الذنب اعتبروها شعار الإسلام ، وسر ذلك أنهم دخلوا المعرض الحافل ثم خرجوا منه بعد أن ظنوا الدين كله فى حديث أو سنة محدودة ، فأساءوا بذلك إلى القرآن والسنة جميعاً ..

٣ - إن قصر الباع فى السنة - على كثرة الاشتغال بها - أضر بتوجيه المسلمين ؛ وأشاع بينهم طائفة من الأحكام المبتسرة والتقاليد الضيقة ، تنبو عنها روح القرآن والسنة وإن اعتمدت على حديث لم يفهم ، أو أثر لم يفقه ..

(٣٨) حديث صحيح رواه ابن عبد البر (٣٩/١) وكذا أصحاب السنن والدارمى وأحمد ، فى حديث يزيد بن ثابت وسنده صحيح ، وصححه ابن حبان وابن حجر وغيرهم .

وذلك أن الإسلام - في الشؤون الهامة - جاء بطائفة من الأحكام ، ذكرت في الكتاب العزيز أو وردت على لسان النبي . وهي جميعاً متكاملة يفصل بعضها بعضاً ويوثقه ، فإذا ظهر في دليل منها ما يعارض سائر الأدلة ، بُحث في تأويله حتى يتم الجمع بينها كلها ، أو قبل الأرجح سنداً ورد الآخر .

ولذلك يرى المحققون أن سنن الآحاد ترفض إذا خالفت ظواهر الآي ، وعموم النص ، أو خالفت قياساً يعتمد على أحكام القرآن نفسه . وهم يفرقون بين الأحاديث التي يرويها رجال فقهاء ، والتي يرويها رجال حفاظ فحسب .. ولنضرب لك مثلاً يكشف عما يصيب الأمم من عقم وضياع نتيجة فهمها الخاطئ لأثر وارد .

كثير من المسلمين يحكمون على المرأة ألا ترى أحداً ولا يراها أحد . وفي المدينة تسبح النسوة في الطرق يرتدون خياماً مغلقة طامسة . بها خرقان من أعلى لإمكان الرؤية . وقد تختفى هذه الخروق وراء قطع من الزجاج أو الباعة ..

وهذا التقليد السائد يعتمد على حديث سمعت إمام الحرم النبوي يردده من فوق المنبر في خطبة الجمعة ، أن رسول الله ﷺ كره لنسوته أن يرين عبد الله ابن أم مكتوم ، فلما احتججن بأنه أعمى لا يراها . قال لهما : « أفعميوا أنما » (٣٩) .

وقد استنكرت على الخطيب إيراد هذا الحديث . فإن علماء السنة تكلّموا في

(٣٩) أخرجه أبو داود (١٨٣/٢) والترمذي (١٥/٤) وابن سعد في « الطبقات الكبرى » (١٢٦/٨ ، ١٢٠) والبيهقي (٩١/٧) من طريق الزهري . قال : حدثني نيهان مولى أم سلمة عن أم سلمة قالت : كنت عند رسول الله ﷺ - وعنده ميمونة : فأقبل ابن أم مكتوم ، وذلك بعد أن أمر بالحجاب فقال - ﷺ : - : احتجبا منه ، فقلنا : يا رسول الله أليس أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال : أفعميوا أنما ، ألسنا تبصرانه ؟

وقال الترمذي : (هذا حديث حسن صحيح) وقوى الحافظ اسناده في (الفتح) وفيه نظر ، فإن = نيهان هذا لم يوثقه غير ابن حبان ، وهو معروف بتساهله في التوثيق كما بينه الحافظ نفسه في مقدمة « لسان الميزان » ولهذا نراه في « التقريب » لم يوثق نيهان هذا بل قال فيه « مقبول » أي عند المتابعة ، وليس له متابع على هذا الحديث ، فكلامه يقتضي أن هذا الحديث غير مقبول . وقد قال ابن عبد البر : انه ليس ممن يحتج بحديثه ، وإن حديثه هذا منكر . كما نقله ابن التريكان في « الجواهر القى » .

معناه ومن الجهل بالسنة تقريره عند بيان وظيفة المرأة ، وأسلوب حياتها ، وقواعد اتصالها بالاجتمع العام ، ولم لا تذكر السنن التي رواها البخارى في ذلك وهى أدق وأصح ؟

أثبت البخارى تحت عنوان « باب غزو النساء وقتلهن مع الرجال » عن أنس رضى الله عنه قال : لما كان يوم « أحد » انهزم الناس عن النبى ، قال : ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر ، وأم سليم ، وإنيهما لمشمرتان أرى خدام سوقهما تنقلان القرب على متونهما - ظهورهما - ثم تفرغانه - الماء - فى أقواه القوم ، ثم ترجعان فتملأنها ، ثم تحيضان فتفرغانها فى أفواه القوم .

وذكر تحت « باب غزو المرأة فى البحر » .. سمعت أنساً رضى الله عنه يقول : دخل رسول الله ﷺ على « ابنة ملحان » فاتكأ عندها ثم ضحك . فقالت : لم تضحك يا رسول الله ؟ فقال : ناس من أمتى يركبون البحر الأخضر فى سبيل الله . مثلهم مثل الملوك على الأسرة . فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : اللهم اجعلها منهم . ثم عاد فضحك . فقالت له : مم ذلك . فقال لها مثل ذلك . فقالت : ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : أنت من الأولين . ولست من الآخرين . قال أنس : فتزوجت عبادة بن الصامت فركبت البحر مع بنت قرظة . فلما قفلت ركب دابتها ، فوقعت بها فسقطت عنها فماتت .

وذكر تحت عنوان « باب حمل النساء للقرب إلى الناس فى الغزو » .. أن عمر ابن الخطاب قسم مروطاً بين نساء المدينة . فبقى مرط جيد يقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله ﷺ التى عندك - يريدون أم كلثوم بنت على - فقال عمر : أم سليط أحق - وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله عليه الصلاة والسلام - قال عمر : فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم « أحد » : أى تحيطها .

وذكر تحت عنوان « باب مداواة النساء الجرحى فى الغزو » عن الربيع بنت معوذ . قالت : كنا مع النبى عليه الصلاة والسلام نسقى ، ونداوى الجرحى ، ونرد القتلى إلى المدينة .. إلخ .

ولنفرض أن البخارى لم يرو هذه الأحاديث الصحاح . أفكان حديث العمياوين يسلط على المجتمع ، ويحجر به على النساء فى دورهن فلا يخرجن من هذا السجن أبداً ؟ إن حكماً مثل هذا لا يعرف من القرآن . بل إن القرآن يجعل هذا الحكم عقوبة للنسوة اللاتى يرتكبن الفواحش :

﴿ وَاللّٰتِى يَأْتِيْنَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِّسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوْنَ عَلَيْهِنَّ اَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، فَاِنْ شَهِدُوْا فَاُمْسِكُوْهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتّٰى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ اَوْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لَهُنَّ سَبِيْلًا ۝۴۰ ﴾ .

لكن المسلمين لما استوعروا سبل التربية المهذبة للذكور والإناث - بسبب انحرافهم عن القرآن - لجأوا إلى السجن والقصر فكان ما كان .

هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث ..
ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة ..
ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين ..
ثم هجروا المقلدين وتزمتهم إلى الجهال وتخطبهم ..

وكان تطور الفكر الإسلامى على هذا النحو وبالأعلى الإسلام وأهله . روى ابن عبد البر عن الضحاك بن مزاحم : « يأتى على الناس زمان يعلق فيه المصحف حتى يعيش عليه العنكبوت ، لا ينتفع بما فيه ، وتكون أعمال الناس بالروايات والأحاديث ، وسبيل الرشd فى هذه العماية أن نعود إلى القرآن ، فنجعله دعامة حياتنا العقلية والروحية ، فإذا وصلنا إلى درجة التشبع منه ، نظرنا فى السنة فانتفعنا بحكمة رسول الله عليه الصلاة والسلام وسيرته وعبادته وخلقه وحكمه ، ولا يجوز أن يتكلم فى السنة رجل قليل الخبرة بالقرآن ، أو قليل الخبرة بالروايات ، أو ضعيف البصر بمواقعها ومناسباتها » .

* * *

(٤٠) النساء : ١٥ .

النبي وخوارق العادات

جرت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام - الخاصة والعامة - على قوانين الكون المعتادة ، فلم تخرج - في جملتها - عن هذه السنن القائمة الدائمة .

هو - من حيث إنه بشر - يجوع ويشبع ، ويصح ويمرض ، ويتعب ويستريح ويحزن ويسر ، ولكن الناس أنفسهم ، في هذه النواحي ، صنوف لا تجمعها قاعدة عامة ، منهم المتهالك على ضروراته ، فلو نقص حظه منها قليلاً طاش له وخارت قواه . ومنهم الجلد الصبار يجزئه النزر اليسير ، ويمضي لغايته رافع الرأس موطد العزم .

إن الآلات التي تدار بالزيوت تتفاوت : منها الرديء الذي يستهلك أثقال الوقود ولا يجدي فتيلاً . ومنها الجيد الذي يروع إنتاجه على قلة إمداده .

والبشر كذلك مع أبدانهم وضروراتها ومرفهاتها ..

والمطالع لسيرة محمد بن عبد الله يرى من طبيعة حياته الخاصة صلابة المعدن الذي صبغ منه بدنه صياغة أعجزت العمالقة ، وأمكنت صاحبه من أن يحمل أعباء الحياة ومشاق الجهاد ، ولأواء العيش ، وهو منتصب مقدام .

نعم . هناك من العباقره عمي وصم ومعمودون ومصدورون . غير أن العبقريه^(٤١) شأن دون النبوة . ومن تمام نعمة الله على امرئ ما أن يرزق العافية من هذه الأدواء كلها لتم بهذه العافية السابغة العناصر التي تصحح نظرتة إلى الحياة ومسلكه فيها .

(٤١) راجع كتابنا (عقيدة المسلم) .

وقد كان محمد عليه الصلاة والسلام - من هذه الناحية - بشراً كاملاً .
وكانت حياته متسقة مع سنن الله الكونية في البطولات الممتازة .

* * *

أما حياته العامة - رسولاً يبلغ عن الله ويرى المؤمنين ، ويقاوم الكافرين ،
ويدأب على نشر دعوته حتى توثى ثمارها في الآفاق - فلا شك أن القرآن العزيز هو
مهادها وبنائها .

ومع أن القرآن كتاب معجز إلا أنه يقوم على إيقاظ المواهب العليا في الإنسان
فهو أشبه بالأحداث الجليلة التي تعرض لك فتحملك على التفكير بأصالة وبصر ،
ومن ثم فهو كتاب إنساني يعين الوعي العام على النضج والسداد .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٢) ﴿ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا
عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٤٣) .

والفارق بين توجيه العرب بالقرآن ، وتوجيه اليهود بنتق الجبل ، كالفارق
بين صوت الإرشاد يهذى العاقل إلى الطريق ، وصوت العذاب يلسع الدابة البليدة
لتمضي إلى الأمام ، فلا تسير خطوة إلا رمت بعجزها إلى الوراء خطوات ..

وكان عبد الله بن رواحة ينشد :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق، مكنون من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

ومن المحققين من يرى أن القرآن هو المعجزة الفريدة لرسول الله عليه الصلاة
والسلام . وهم يلحظون في هذا الحكم التعريف اللفظي للمعجزة من أنها خارق
للعادة مقرون بالتحدى ، ولم يعرف هذا التحدى إلا بالقرآن .

(٤٢) يوسف : ٢ .

(٤٣) فصلت : ٣ ، ٤ .

وقد ملنا إلى قريب من هذا الرأي^(٤٤) ، لا بالنظر إلى التعريف اللفظي للمعجزة ، بله بالنظر إلى القيمة الذاتية للخوارق الأخرى بالنسبة إلى الأهداف الرفيعة التي جاء بها الإسلام .

على أنه لا صلة للعقيدة ولا للعمل بهذه البحوث ، فالرجل الفاسد لا يغفر له فساده إيمانه بأن الرسول عليه الصلاة والسلام أظلمته غمامة ، أو كلمه جماد . والرجل الصالح لا يغمر مكانته إنكاره لهذه الخوارق ..

فإن هذه البحوث ترجع إلى التقدير العلمي لأدلة الإثبات ، والتقييم المحض لما في الوقائع نفسها من معان ، وليس للخطأ والصواب فيها مساس بإيمان .

* * *

وقد سرت في المسلمين لومة شنعاء في نسبة الخوارق إلى الصالحين منهم ، حتى كادت جمهرتهم تقرن بين علو المنزلة في الدين وخرق قوانين الأسباب والمسببات ، وحتى جاء من المؤلفين في علم التوحيد من يقول :

وأثبتن للأوليا^(٤٥) الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه ..

وصلة هذا الإثبات بعلم التوحيد كصلته بعلم النحو أو علم الفلك .. أى أن حقيقة الدين بعيدة عن هذه البحوث ، سواء انتهت بالسلب أو بالإيجاب .

والخوارق التي يتهمس بها المفتونون لأوليائهم هي تعبير سيئ عن ردائل الكسل والحمق التي تكمن في طواياهم . كما أن الأحلام الطائشة التي تعتري النائم تعبير عن الاضطراب الذي يملأ نفسه ويرهق أعصابه .

هذا فتح الباب الموصل من غير مفتاح ، وهذا طار في الهواء بغير جناح ، وهذا بال على حجر فانقلب ذهباً . وهذا أطلع الغيب واتخذ عند الرحمن عهداً ..

(٤٤) راجع كتابها (عقيدة المسلم) مبحث النبوات .

(٤٥) الثابت في الفكر الإسلامي أن الإيمان والتقوى هو أساس الولاية وصاحبهما خارق للعادة أم لا ، وأن خوارق العادات تقع للمؤمن والكافر والبر والفاجر ، فلا دلالة لها على رفعة وقرب .

وأمثال هذه السخافات كثير .. وهى تدل على جهل بحقيقة الدين وحقيقة الدنيا . وتدل على أن مروجيها أضل عقولاً وقلوباً من أن يعرفوا سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام وسيرة أصحابه .

ما كان محمد رجل خيال يتيه فى مذاهبه ثم يبنى حياته ودعوته على الخرافة ، بل كان رجل حقائق يبصر بعيدها كما يبصر قريبها . فإذا أراد شيئاً هياً له أسبابه . وبذل فى تهيتها - على ضوء الواقع المر - أقصى ما فى طاقته من حذر وجهد ، وما فكر قط ولا فكر أحد من صحابته أن السماء تسعى له حيث يقعد ، أو تنشط له حيث يكسل ، أو تحتاط له حيث يفرط . ولم تكن خوارق العادات ونواقض الأسباب والمسببات أساساً ولا طلاء فى بناء رجل عظيم أو أمة عظيمة .

إن محمداً وصحبه تعلموا وعلموا ، وخاصموا وسالموا ، وانتصروا وانهمزوا ، ومدوا شعاع دعوتهم إلى الآفاق ، وهم على كل شبر من الأرض يكافحون ، لم ينخرم لهم قانون من قوانين الأرض ، ولم تلن لهم سنة من سنن الحياة ، بل إنهم تعبوا أكثر مما تعب أعداؤهم ، وحملوا المغارم الباهظة فى سبيل ربهم ، فكانوا فى ميدان تنازع البقاء أولى بالرسوخ والتمكين .

وقد لقنهم الله عز وجل هذه الدروس الحازمة حتى لا يتوقعوا محاباة من القدر فى أى صدام . وإن كانوا أحصف رأياً من أن يتوقعوا هذا .

قال الله لرسوله ﷺ : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ (٤٦) .

فانظر : كيف يكلفون - وهم فى الصلاة وبين يديهم الله - بأشد الحذر والانتباه ؟ إن الله لم يدع أملاً يخامر أنفسهم بأن الملائكة سوف تنزل لعونهم . إن لم

يخدموا أنفسهم فلن يخدمهم أحد . ذلكم هو خطاب الله لمحمد وصحبه ..

وعندما ذهل المسلمون عن هذا الدرس في غزوة « أحد » لطموا لطمه موجهة جندلت من أبطالهم سبعين ، وأمضهم خزي الهزيمة ، فوقف زعيم الكفر يومئذ - أبو سفيان - يقول : أعل هبل ..

وأبلى النبي عليه الصلاة والسلام بلاء شديداً لينقذ الموقف ، وقاتل وقتل ، وأصيب في نفسه .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام يوم أحد : « اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه هكذا - ويشير إلى ربايته - اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله - ﷺ - في سبيل الله » (٤٧) .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ كُسرَت ربايته يوم أحد وشج رأسه فجعل يسלט الدم عن وجهه ويقول : « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا ربايته وهو يدعوهم إلى الله » ؟ فأنزل الله عز وجل قوله :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٤٨) .

أرأيت للتفريط في أسباب النصر جلب شيئا غير الهزيمة ؟ أو لو كان الذين انهزموا هم ممثلي التوحيد الحق ؟ أو لو كان الذين انتصروا هم سدنة الوثنية المحضة ؟

وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا أراد غزوة ورى بغيرها ويقول : الحرب خدعة (٤٩) ، ومع قيامه بالأسباب على ما أوجب الله . واحترامه للقوانين الطبيعية التي تنظم حياة البشر . مع ذلك فقد استطاعت بعض قبائل العرب أن تخدعه ، وأن تستدرج طائفة من القراء من أفضل أصحابه ليقتلوهم عن آخرهم في بئر معونة ، فما

(٤٧) حديث صحيح ، أخرجه البخاري (٢٩٨/٧) ومسلم (١٧٩/٥) في « صحيحهما » .

(٤٨) حديث صحيح ، أخرجه الشيخان فيما تقدم أيضاً ، والآية من سورة آل عمران : ١٢٨ .

(٤٩) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود (٤١١/١) بسند صحيح من حديث كعب ابن مالك وهو في

الصحيحين بنحوه .

دلت على مصارعهم إلا الطيور تحلق في الجو مرفوفة على أشلاء الشهداء ..

إن هؤلاء الرجال الذين ذهبوا ضحية الغدر من أحب خلق الله إلى الله ، ومع ذلك فما أذن لأحد منهم أن يطير بغير جناح ، أو يتحول عن هذا القدر المتاح كما يفكر متأخرة المسلمين اليوم .

ولكن كان الحذر والحيلة من سنن النبوة ، إن الإعداد واستنفاد الجهد فيه من أكد هذه السنن ، وبماذا تحسب محمداً عليه الصلاة والسلام انتصر على الناس ؟ لقد أنضج رجاله بالإيمان كما ينضج الصيف بلهبه البطيئ أطايب ثماره ، فلما أرسلهم إلى أنحاء الدنيا طوفوا بها ، ولهم زئير كزئير العاصفة المكتسحة المهتاجة ..

بل إن الإسلام - من يوم بدئه - كان معركة يقودها الوحي ، ولذلك شبه الله بواده الهامية بعاصفة ذات صواعق ورعود :

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٥٠) .

أترى للتراخي والتواكل ثغرة في هذه الصفوف المتزاحفة ؟ يا ويل مسلمي اليوم من انتظارهم لخوارق العادات في دنيا كشرت عن أنيابها لاستئصال شأفتهم .

نحن لا ننكر أن هناك عجائب خارقة تقع للناس . بيد أنها تقع للمؤمن والكافر والبر والفاجر . فلو أن رجلاً سار على الماء دون أن تبتل قدماه ، ما دل ذلك على صلاحه ؛ لأن مناط الصلاح بما شرع الله من عمل وإيمان فحسب ، وإثبات هذه الخوارق لأصحابها مسألة تاريخية بحثة لمن شاء تقصى العجائب ، ولا ارتباط لها بأصل الإيمان والتكليف ، وذلك - بداهة - غير المعجزات الشاهدة للمرسلين بصحة التبليغ عن الله ، على أن النبوات بما قاربها من خوارق قد انتهت مع الماضي البعيد ، فليس للتحكك بها من جدوى - وقد علمت أن معجزة محمد بن عبد الله ﷺ لم تكن على غرار ما سبقها ، بل كانت معجزة إنسانية عقلية دائمة . ثم نظم الله له حياته ودعوته وفق قوانين الأسباب والمسببات كما رأيت .

* * *

(٥٠) البقرة : ١٩ .

ولم يكن محمد ﷺ يعرف الغيب ، كان كأي بشر حي لا يدري ماذا يكسب غداً ؟

ولا ينبغي أن يُنتظر منه شيء من ذلك بعد أن انتهى إليه أمر الله :
﴿ قُلْ لَا أُمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥١) .

وربما اقترب منه من يضر له الشر ويظهر الود - وهو لا يعلم به - حتى تفضحه التجارب ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، مَرَدُّوا عَلَيَّ الْتِفَاقٍ لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ (٥٢) .

وسيفاجأ يوم القيامة برجال تركهم وهو يعدهم مؤمنين ثابتين . ثم تكشف الفتن عن سواد باطنهم وسوء عقباهم . فيقول ما قال عيسى من قبل : ﴿ وَكُنْتُ عَلِيمٌ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيَّ ﴾ (٥٣) .

وقد يطلعه الله على بعض الغيوب لحكم خاصة . كما جاء في التنزيل الإنبياء بهزيمة الفرس أمام الروم بعد النصر الكبير الذي سبق لهم أن أحرزوه ، وسارت بحديثه الركبان ، وشمت له الوثنيون ، وحزن له المسلمون ، مظاهرة منهم لأهل الكتاب .

وقد وردت أحاديث صحاح تُحسب على ظاهرها كأن الرسول ﷺ يعرف ما يكون . مثل ما ورد عن عدى بن حاتم قال : بينما أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل . فقال : « يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ » قلت لم أرها ، وقد أنبئت عنها . قال « إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله » قلت

(٥١) الأعراف : ١٨٨ .

(٥٢) التوبة : ١٠١ .

(٥٣) معنى هذا في « صحيح البخارى » في « التفسير » عن حديث ابن عباس رضى الله عنه ، والآية من سورة المائدة : ١١٧ .

في نفسى : فأين دَعَا طِيءُ الذين سَعَرُوا في البلاد ؟؟ « ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى » قلت : كسرى بن هرمز ؟؟ قال « كسرى بن هرمز .. »

قال عدى : فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز (٥٤) .

والحق أن هذه الأحاديث وأشباهاها لم تكن إخباراً بغيب (٥٥) ، إنما كانت تصديقاً لوعد الله بأن المستقبل للإسلام ، وبأن هذا الدين سيسود المشارق والمغارب ؛ فكانت تفسيراً من رسول الله ﷺ لقول الله في كتابه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (٥٦) ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (٥٧) .

وقريب من ذلك الأحاديث المنبئة عن الفتن .

إن الرجل الخبير بالأسواق لا يلبث - بعد استعراض يسير لأحوالها - حتى يصدر حكماً صائباً عليها ، والخبير بطوايا النفوس يستطيع من نظرة خاطفة أن يستشف ما وراءها ويستكشف خباياها ، ومن ذلك قول الشاعر .
والألمعى الذى يظن بك الظن من كأن قد رأى وقد سمعا

وقد كان محمد عليه الصلاة والسلام خبيراً بالنفوس ومعادنها ، والدنيا وأطوارها ؛ والزمان وتقلبه ، والأديان الأولى وما عانت وعانى رجالها وهم يشقون طريقهم في الحياة ، وعقول الأنبياء من ورائها فطر مجلوة وإلهام لماح ، فكيف بشيخ

(٥٤) أخرجه البخارى (٤٧٧/٦ - ٤٧٩) وغيره عن عدى .

(٥٥) بل هي من الأخبار بالغيب باعلام الله تعالى إياه ، والتأويل المذكور لا مبرر له ما دام أن المؤلف حفظه الله يسلم بأصل الاعلام كما ذكر آنفاً . وفي هذا الحديث ما يشير إلى ذلك ، إذ أنه قال : « إن طالت بك حياة » .. فهل هذا التحديد الدقيق للزم يمكن أن يعرفه « الخبير » إلا باعلام اللطيف الخبير سبحانه وتعالى ؟

(٥٦) الفتح : ٢٨ .

(٥٥) النور : ٥٥ .

الأنبياء الذي تعهده القدر من نشأته ليحمل رسالة معجزتها في أسلوبها . وأسلوبها يقوم على ترقية الفطر وتفتيق الألباب ..؟

إن هذا يجعله أشد الناس تقديراً للواقع ، وانتظاراً لما يفد به ، هل يستطيع السائر في مناطق الشمال أن يقدر خلو الجو من الشباب الداكن ، أو هل يستطيع السائر في مناطق خط الاستواء ألا يتوقع عواصف القيظ . فكيف يليق بصاحب دين خطير أن يتناسى الفتن العارضة لتعاليم دينه ولرجالها ، ما قرب منه وما بعد ، ما ظهر منها وما بطن ..

ولذلك كثر كلام الرسول عن الفتن ، وليس القصد الإخبار عنها ، بل التحذير منها تحدث عن الفتن التي تلحق الأشخاص من اختلاف أفكارهم وتنافر أمزجتهم . وتحدث عن الفتن التي تصيب القلوب من إقبال الدنيا والتحاسد عليها .. وتحدث عن الفتن التي تصيب الأمة بعد أن يثوب الكفر من هول الهزائم التي منى بها ويتأسك مرة أخرى بعدما انحلت عراه .. فكان أن خوف أصحابه من ذلك كله في أحاديث يطول سرداها .

وأخطر هذه الفتن ما يصيب تعاليم الإسلام نفسها من ذبول واضمحلال . فالصلاة تفقد روحها ، وهو الخشوع ، ثم يتآكل جسمها فتتحول نقراً سخيلاً .

والجهاد ، يفقد روحه وهو الإخلاص ، ثم يتحول انتهاباً للغنائم واستعباداً للأحرار ، ثم تفتت حدته ، ثم يبطل ..

والصيام ينتهى من صبر على الحرمان ، وتأديب للغرائز المتطلعة ، إلى استعداد للولائم ، ومضاعفة للنفقة ..

والحكم يتطور من خدمة للجمهور برضاه إلى تأله عليه ، عن بغى واستكراه ، ثم يسقط ، ويضيع الحاكم والمحكوم معاً ..

وحتى محبة المسلمين لرسولهم تتحول بعد موته إلى سوق حول قبره تضج بالصياح المنكر والهمهمة الحائرة ..

وعندما زرت المدينة توجهت إلى قبر الرسول الجليل ، وكانت المشاعر التي تنبعث من قلبي تطن في أذني . فلما تبينت لي معالم الضريح يمت شطره وأنا أتضاءل في نفسي . وكأني كرة تندرج تحت أقدام عملاق ..

وسلّمتُ بالعبرة التي شرع الله ، لم أزد عليها إلا بيتاً من الشعر لم أدر ما وراءه لما عراني من اضطراب غمغت به شفتاي ولم تسمعه أذنأي :
يا خير من دُفِنَتْ في التُّراب أعظمهُ فطاب من طيبهن القاع والأكم

ثم انصرفت ..

بيد أني لاحظت أمواجاً تفد فتصرخ بكلام طويل ، هذا يقرأ في كتاب ، وهذا يسمع من حافظ ، وهذا يشوش على ذاك ، والكل يشوش على المصلين ، وتتواكب هذه الوفود في هرج ومرج لا ينقطعان .

ألم يكن الرسول ﷺ يعني تلك الحال عندما قال : « اللهم لا تجعل قبري بعدى وثناً يعبد » (٥٨) ؟ ..

وما إن تعرفت أحوال العاكفين في المسجد والبادين ، حتى كدت أدع الصلاة فيه ، فإني أكره أشد الكراهية البدع والفوضى والجهل .

وتذكرت قصة عروة بن الزبير لما بنى له قصراً بوادي العقيق وابتعد عن المدينة ، فقال له الناس : قد جفوت مسجد رسول الله ﷺ .. فقال : إني رأيت مساجدكم لاهية ، وأسواقكم لاغية ، والفاحشة في فجاجكم عالية ، وكان فيما هنالك عما أنتم فيه عافية . وقيل : إنه لما عوتب في ذلك قال : وما بقى ؟ إنما بقى شامت بنكبة ، أو حاسد على نعمة ..

نسأل الله العفو والعافية ..

* * *

(٥٨) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٢٤٦/٢) وابن سعد في الطبقات (ح ٢ ق ٢ ص ٣٦) من حديث أبي هريرة . وسنده صحيح .

الفصل الثاني مِنَ الْمَيْلَادِ إِلَى الْبَعْثِ

ولد محمد ﷺ من أسرة زكية المعدن نبيلة النسب . جمعت خلاصة ما في العرب من فضائل ، وترفعت عما يشينهم من أوصار . قال رسول الله ﷺ عن نفسه : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم »^(١) .

وعراقة الأصل لا تمنح للرجل الفاشل فضلاً ، كالصلب إذا ترك للصدأ يمسى لا غناء فيه ، أما إذا تعهدته اليد الصناع فإنها تبدع منه الكثير .

ولذلك لما سئل النبي ﷺ : أى الناس أكرم ؟ قال : ... « فغن معادن العرب تسألوني ؟ قالوا : نعم . قال : « فخيرهم فى الجاهلية خيرهم فى الإسلام إذا فقهوا »^(٢) .

وكان منبت محمد ﷺ فى أسرة لها شأنها ، بعض ما أعد الله لرسالته من نجاح . فالجتماع العربى الأول كان يقوم على العصبيات القبلية الحادة . العصبيات التى تفنى القبيلة كلها دفاعاً عن كرامتها الخاصة ، وكرامة من يمت إليها .

وقد ظل الإسلام حيناً من الدهر يعيش فى حمى هذه التقاليد المرعية حتى استغنى بنفسه كما تستغنى الشجرة عما يحملها بعد ما تغلظ وتستوى .

وكان « لوط » يتمنى شيئاً من هذه التقاليد ، عندما أحس الخطر على الأضياف النازلين به . ولم يجد عشيرة تدفع أو أهلاً تهيجهم الحمية ، فقال لقومه : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾^(٣) ؟ ثم قال ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾^(٤) .

* * *

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٥٨/٧) من حديث وائلة بن الأسقع وصححه الترمذى (٢٩٢/٤) .

(٢) حديث صحيح . أخرجه البخارى (٤١٢/٦ - ٤٢٣) ومسلم (١٨١/٧) من حديث أبى هريرة .

(٣) هود : ٧٨ .

(٤) هود : ٨٠ .

لكن محمداً عليه الصلاة والسلام ، على كرم محنته ، لم يرزق حظاً وافراً من الثراء ، فكانت قلة ماله مع شرف نسبه سبباً في أن يجمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات . إن أبناء البيوتات الكبيرة تغريهم الثروة بالسطو ، فإذا فقدوا هذا السلاح ، وكانت لهم تقاليد كريمة ، بذلوا جهوداً مضنية ليحتفظوا بمكانتهم وشممهم ، ولذلك يقول قائلهم :

وإننا- على عض الزمان الذى بنا - نعالج من كره المخازى الدواهي
وربما لا يرى بعض الناس حرجاً من أن يعلن فاقته ويكشف صفحته .

غير أن هناك بعضاً يطوون همومهم في همتهم ثم يبرزون للدنيا مثيرين ، ومن هؤلاء عبدالله بن عبد المطلب ..

كان عبد المطلب سيد مكة ، بيد أن هذه السيادة التى انتهت إليه انتهت به ، ولم تستقر في عقبه ، إذ اشتد ساعد منافسهم في زعامة أم القرى . وبدا كأن الأمر سيؤول إليهم ، بل إن هى إلا أعوام حتى تصدرت أسرة عبد شمس ، ثم تمر أعوام أخرى فإذا أبو سفيان يتزعم مكة ، وبذلك تنتقل السيادة عن بنى هاشم .

و « عبد الله » أصغر أبناء عبد المطلب وله في قلبه منزلة جليلة ، وقد زوجه بآمنة بنت وهب ، ثم تركه يسعى في الحياة وحده ، فخرج وهو عروس ، بعد أشهر من بنائه بآمنة ، خرج في مناكب الأرض ابتغاء الرزق ، وذهب في رحلة الصيف إلى الشام ، فذهب ولم يعد .. عادت القافلة تحمل أنباء مرضه ، ثم جاء بعد قليل نعيه .

وكانت آمنة تنتظر رجلها الشاب الجلد لتنهأ بحياها معه ، ولتشعره بأن في أحشائها جنيناً يوشك أن تقر به عينهما . غير أن القدر - لحكمة عليا - حسم هذه الأمانى الحلوة ، فأمست الزوج المحسودة أيماً .

تعد الليالى لتودع الحياة الموحشة « يتيمها » الفريد ...

قال الزهرى : أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمرأ فمات بها . وقيل : بل كان بالشام ، فأقبل في غير قریش ، فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفى بها ودفن في دار النابغة الجعدى وله خمس وعشرون سنة ، وتوفى قبل أن يولد رسول الله ﷺ .

ولد محمد ﷺ بمكة ولادة معتادة ، لم يقع فيها ما يستدعى العجب او يستلفت النظر ، ولم يتمكن المؤرخين تحديد اليوم والشهر والعام الذى ولد فيه على وجه الدقة ، وأغلب الروايات تتجه إلى أن ذلك كان عام هجوم الأحباش على مكة سنة ٥٧٠ م فى الثانى من ربيع الأول سنة ٥٣ ق. هـ .

وتحديد يوم الميلاد لا يرتبط به من الناحية الإسلامية شئ ذو بال ، فالأحفال التى تقام لهذه المناسبة تقليد دنيوى لا صلة له بالشرعية .

وقد روى البعض أن إرهابات بالبعثة وقعت عند الميلاد ، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ، ومحدث النار التى يعبدونها الجوس ، وانهدمت الكنائس حول بحيرة « ساوة » بعد أن غاضت . قال البوصيرى :

أبان مولده عن طيب عنصره يا طيب مبتدأ منه ومختم
يوم تفرس فيه الفرس أنهم قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات إيوان كسرى وهو منصدع كشم أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف عليه ، والنهر ساهى العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها ورد واردة بالغيظ حين ظمى

وهذا الكلام تعبير غلط عن فكرة صحيحة ، فإن ميلاد محمد كان حقاً إلهياً بزوال الظلم واندثار عهده وإنذراك معالمة . وكذلك كان ميلاد موسى ، ألا ترى أن الله لما وصف جبروت فرعون ، واستكانة الناس إلى بغيه ، ثم أعلن عن إرادته فى تحرير العبيد واستنفاد المستضعفين ، قص علينا قصة البطل الذى سيقوم بهذه الأعمال فقال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ ۝٥٠ ﴾ .

وقد كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلى والمادى وكان جند القرآن أعدل رجال وعاهم التاريخ ، وأحصى فعالهم فى تدوين المستبدين وكسر شوكتهم ، طاغية إثر طاغية .

فلما أحب الناس - بعد إنطلاقهم من قيود العسف - تصوير هذه الحقيقة ، تخيلوا هذه الإرهاصات ، وأحدثوا لها الروايات الواهية ، و « محمد » غنى عن هذا كله ، فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرف يزهدنا في هذه الروايات وأشباهها .

* * *

استقبل « عبد المطلب » ميلاد حفيده باستبشار وجذل ، ولعله رأى في مقدمه عوضاً عن ابنه الذى هصرت المنون شبابه ، فحوّل مشاعره عن الراحل الذاهب إلى الوافد الجديد يكلّؤه ويغالى به .

ومن الموافقات الجميلة أن يلهم « عبد المطلب » تسمية^(٦) حفيده « محمداً » . إنها تسمية أعانه عليها ملك كريم . ولم يكن العرب يألّفون هذه الأعلام ، لذلك سألوه . لم رغب عن أسماء آبائه ؟ فأجاب : أردت أن يحمد الله فى السماء ، وأن يحمد الخلق فى الأرض ، فكأن هذه الإرادة كانت استشفافاً للغيب ، فإن أحداً من خلق الله لا يستحق إزجاء عواطف الشكر والثناء على ما أدى وأسدى كما يستحق ذلك النبى العربى المحمّد .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا تعجبون كيف يصرف الله عنى شتم قريش ولعنهم ؟ يشتمون مذمماً ، ويلعنون مذمماً ، وأنا محمد »^(٧) .

ولكن الحقيقة القاسية - برغم حفاوة الجد الحنون - باقية . فإن « محمداً » يتيم برز إلى الدنيا بعد ما غادر أبوه الدنيا . ليكن .. ولنفرض عبد الله بقى حياً .. فماذا عسى كان يفعل لابنه ؟ أكان يريه ليهب له النبوة ؟. ما كان له ذلك . إن الأب عنصر واحد من عناصر شتى تتحكم فى مستقبل الطفل وتحفر له فى الحياة مجراه . ولو كانت النبوة بالاكْتساب لما قربتها حياة الوالد شبراً . فكيف وهى اصطفاء ؟.

كان « يعقوب » حياً يرزق ، له شيخوخته وتجربته وحكمته بل له نبوته ، وقد نظر يوماً ما فلم يجد يوسف قريباً منه . إنه فقدته فى أخطر فترات العمر ، فترة

(٦) سماه كذلك بعد ما ختنه فى يومه السابع .

(٧) الحديث صحيح أخرجه البخارى (٤٣٥/٦ - ٤٣٦) .

الصبا اللدن واليفاعة الغضة . ومع فساد البيئات التي احتوت يوسف فقد كان باطنه ينضح بالتقى والعفاف ؛ كما يتقد المصباح في أعماء الليل المدهم ، فلما التقى الابن بوالده بعد لأى ، رأى يعقوب ابنه نبياً صديقاً .

لقد ولى عبد الله وترك ابنه يتيماً ، بيد أن هذا اليتيم كان يُعد من اللحظة الأولى لأمر جلل ، أمر يصبح به إمام المصطفين الأخيار وما الأب والجد ، ما الأقربون والأبعدون ، ما الأرض والسماء إلا وسائل مسخرة لإتمام قدر الله ، وإبلاغ نعمة الله من اصطنعه الله .

* * *

أقبلت « آمنة » على ابنها تحنو عليه في انتظار المراضع المقبلات من البادية ، يتلمسن تربية أولاد الأشراف . والأعرابيات اللاتي يقصدن مكة لهذه الغاية هن طالبات رزق ويسار . ولم يكن لمحمد أب تُرَقب عطاياه ، أو غنى تغرى جدواه . فلا عجب إذا زهدت فيه المراضع وتطلعن إلى غيره .

وكانت حليلة ابنة أبى ذؤيب من قبيلة بنى سعد إحدى القادِمات إلى مكة ابتغاء العودة برضيع تستعين على العيش بخضانتة . ولم يرض طموحها أول الأمر طفل يتيم إلا أنها لم تجد طلبتها واستحييت أن تعود صفر اليدين فرجعت إلى « آمنة » تأخذ منها « محمد » .

وكانت البركة في مقدمه معها ، كانت سنواتها عجافاً من قبله . فامتن الله عليها بخير مضاعف : درت الضروع بعد جفاف ولان العيش وأخصب ، وشعرت حليلة وزوجها وولدها بأن أوتيتهم من مكة كانت باليمن والغنم لا بالفقر واليتيم ، مما زاد تعلقهم بالطفل وإعزازهم له .

وتنشئة الأولاد في البادية ، ليرحوا في كنف الطبيعة ، ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل ، أدنى إلى تزكية الفطرة ، وإثماء الأعضاء والمشاعر ، وإطلاق الأفكار والعواطف .

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها علب

أغلقت على من فيها ، وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش .
ولا شك أن اضطراب الأعصاب الذى قارن الحضارة الحديثة يعود - فيما
يعود إليه إلى البعد عن الطبيعة ، والإغراق فى التصنع . ونحن نقدر لأهل مكة
اتجاههم إلى البادية لتكون عرضاتها الفساح مدارج طفولتهم . وكثير من علماء التربية
يود لو تكون الطبيعة هى المعهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع حقائق الكون
الذى وجد فيه ، ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق .



شق الصدر

مكث « محمد » في مضارب « بنى سعد » خمس سنوات ، صح فيها بدنه ، وإطرد ثماؤه . وهذه السنوات الخمس هي عمر الطفل . فلا ينتظر أن يقع فيها شيء يذكر . غير أن السنن الصحاح سجلت في هذه الفترة ما عرف بعد بحادث « شق الصدر » .

عن أنس : « أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرجه ، فاستخرج منه علقه ، فقال : هذا حظ الشيطان منك . ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه . وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني مرضعته - أن محمداً قد قتل . فاستقبلوه وهو منتقع اللون » (٨) .

وهذه القصة التي روعت حليلة وزوجها . ومحمد مسترضع فيهم ، تجدها قد تكررت مرة أخرى ومحمد عليه الصلاة والسلام رسول جاوز الخمسين من عمره ، فعن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أُسرى به قال : « بينا أنا في الحطيم - وربما قال في الحجر - مضطجع بين النائم واليقظان ، أتاني آت ، فشق ما بين هذه إلى هذه - يعني ثغرة نحره إلى شعرته - قال : فاستخرج قلبي . ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً ، فغسل قلبي ، ثم حشى ثم أعيد .. » (٩) .

(٨) حديث صحيح : أخرجه مسلم (١٠١/١ - ١٠٢) وأحمد (١٢١/٣ - ١٤٩ ، ٨٢٨) وزاد في آخره : « قال أنس : وكنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره » وللحديث شواهد كثيرة ، منه عن عتبة ابن عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٣٩/٥) ومنها عن أبي ذر عند ابن جرير في تاريخه (٥١/٢ - ٥٢) .
(٩) حديث صحيح أخرجه البخاري (٢٣٣/٦) ومسلم (١٠٣/١ - ١٠٤) والنسائي (٧٦/١) من حديث مالك بن صعصعة .

ولو كان الشر إفراز غدة في الجسم ينحسب بانحسامها ، أو لو كان الخير مادة يزود بها القلب كما تزود الطائرة بالوقود فتستطيع السمو والتحليق .. لقلنا : إن ظواهر هذه الآثار مقصودة . ولكن أمر الخير والشر أبعد من ذلك ، بل من البديهي أنه بالناحية الروحية في الإنسان ألصق . وإذا اتصل الأمر بالحدود التي يعمل الروح في نطاقها ، أو بتعبير آخر عندما ينتهي البحث إلى ضرورة استكشاف الوسائل التي يسير بها الروح هذا الغلاف المنسوج من اللحم والدم ، يصبح البحث لا جدوى منه ، لأنه فوق الطاقة .

وشيء واحد هو الذي نستطيع استنتاجه من هذه الآثار ، أن بشراً ممتازاً كمحمد لا تدعه العناية غرضاً للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس . فإذا كانت للشر (موجات) تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع إلى الالتقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين - بتولى الله لها - لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها . وبذلك يكون جهد المرسلين في متابعة الترقى لا في مقاومة التبدل ، وفي تطهير العامة عن المنكر لا في التطهير منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » (١٠) .

وفي حديث عائشة ، قال لها رسول الله ﷺ : « أغرت ؟ » قالت : وما لمثل لا يغار على مثلك . فقال لها رسول الله ﷺ : « لقد جاءك شيطانك » . قالت : أو معي شيطان ؟ قال : « ليس أحد إلا ومعه شيطان » قالت : ومعك ؟ قال : « نعم ولكن أعانني الله عليه فأسلم » (١١) . أى انقاد وأذعن فلا يستطيع أن يهيج بشر .

ولعل أحاديث شق الصبر تشير إلى هذه الحصانات التي أضفاها الله على محمد ﷺ فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبع الإنساني ومفاتن الحياة

(١٠) حديث صحيح أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٩/٨) عن ابن مسعود .

(١١) حديث صحيح أخرجه مسلم عنها ، في الموضع السابق .

الأرضية ، وقد أورد الخازن في تفسيره القصة الأولى - أيام الرضاعة - عند تفسيره لقول الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ (١٢) .

وشرح الصدر الذي عنته الآيات نتيجة جراحة يجريها ملك أو طبيب .
ويحسن أن تعرف شيئاً عن أساليب الحقيقة والمجاز التي تقع في السنة .

عن عائشة أن بعض أزواج النبي ﷺ قلن : يا رسول الله ، أينما أسرع بك لحوقاً ؟ قال : « أطولكن يداً » . فأخذن قصبة يذرعنها (١) فكانت سودة أطولهن يداً . فعلمنا بعد أنما كان طول يدها بالصدقة . وكانت تحب الصدقة وكانت أسرعنا لحوقاً به (١٣) ..

* * *

آب « محمد » ﷺ إلى مكة بعد أعوام طيبة قضاها في البداية ، آب ليجد أمّاً كريمة حبست نفسها عليه ، وشيخاً مهيباً يلتمس في مرآة العزاء عن ابنه الذي خلى مكانه في شرح الشباب وكان الأيام أثبت له قراراً بين هذه الصدور الرقيقة ، فأخذت تحرمه منها ، واحداً بعد الآخر .

رأت « أمّنة » - وفاء لذكرى زوجها الراحل - أن تزور قبره : « يثرب » فخرجت من « مكة » قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلو متر في الذهاب غير مثيلتها في الإياب . ومعها في هذه السفرة الشاقة ابنها « محمد » ﷺ وخادمتها « أمّ أمين » وعبد الله لم يمت في أرض غريبة ، فقد مات بين أخواله بني النجار . قال ابن الأثير :

(١٢) سورة الشرح : ١ - ٣ .

(١٣) حديث صحيح ، أخرجه البخاري (٢٢٢/٣) من طريق مسروق عن عائشة بهذا السياق إلا أنه قال : « وكانت أسرعنا لحوقاً به ، وكانت تحب الصدقة » وأخرجه مسلم (١٤٤/٧) من طريق عائشة بنت طلحة والحاكم من طريق عمرة كلثام عن عائشة بنحوه ، وفي روايتهما ، « فكانت أطولنا يداً زيب . لأنها كانت تعمل يدها وتتصدق » وهذا يخالف رواية البخاري . فإن ظاهرها أن سودة هي التي لحقت به أولاً . وهو خطأ بين كما حققه الحافظ في الفتح . وقد رجح فيه رواية مسلم وهو الحق . فمن شاء الزيادة في التحقيق فليرجع إليه . وزينب هذه هي بنت جحش لا بنت خزيمه كما توهم بعضهم .

إن هاشماً شخص في تجارة إلى الشام . فلما قدم المدينة نزل على عمرو بن لبيد الخزرجي ، فرأى ابنته (سلمى) فأعجبته ، فتزوجها ، وشرط أبوها ألا تلد ولداً إلا في أهلها ، ثم مضى هاشم لوجهه . وعاد من الشام فبنى بها في أهلها ثم حملها إلى مكة فحملت . فلما أثقلت ردها إلى أهلها ومضى إلى الشام . فمات به (غرة) وولدت له (سلمى) عبد المطلب فمكث في المدينة سبع سنين .

وقد ظل محمد عليه الصلاة والسلام لدى أخواله قريباً من قبر أبيه نحو شهر . ثم قفل عائداً إلى مكة . وإذا المرض يلاحق أمه ويلح عليها في أوائل الطريق فماتت به « الأبواء » وتركته وحيداً مع الخادم المشدوهة لحال طفل يفقد أباه وهو جنين ، ويفقد أمه وهو ابن خمس سنين إن المصاب الجديد نكأ الجروح القديمة مما جعل مشاعر الحنو في فؤاد عبد المطلب تربو نحو الصبي الناشئ ، فكان لا يدعه لوحده المفروضة ، بل يؤثر أن يصحبه في مجالسه العامة . كان إذا جلس على فراشه بجوار الكعبة ، أدناه منه في حين يجلس الشيوخ حوله .

وقد تأخرت سن عبد المطلب حتى قيل : إنه توفي وله مائة وعشرون سنة إلا أنه فارق الحياة وعمر (محمد) يناهز الثمانية . فرأى - قبل وفاته - أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب .

ونفض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه ، ضمه إلى ولده وقدمه عليهم ، واختصه بفضل احترام وتقدير . وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه ويبسط عليه حمايته ، ويصادق ويخاصم من أجله .

ودرج محمد عليه الصلاة والسلام في بيت أبي طالب والسن تمضي به قدماً إلى الوعي العميق بما حوله . فأصر على أن يشارك عمه هموم العيش ، إذ كان أبو طالب - على كثرة أولاده - قليل المال ، فلما قرر أن يمضي على سنن آبائه في متابعة الرحيل إلى الشام للتجارة والربح قرر أن يكون معه . وكان عمره نحو الثلاث عشرة سنة .

* * *

بحيرا الراهب

ولا نجد في السنن الصحاح أنباء تصف هذه الرحلة . إن الأسفار من أخصب أبواب المعرفة ، وأعمقها أثراً . ومثل محمد عليه الصلاة والسلام في صفاء ذهنه ونقاء قلبه ، لا يعزب عنه وجه العبرة فيما يرى . في حله أو ترحاله ؛ على أن من المقطوع به أنه لم يخرج للدراسة دين أو فلسفة ، ولم يلق من يتحدث معه في ذلك وقد روت كتب الأخبار بعض خوارق ، ذكرت أنها وقعت له ، من ذلك التقاؤه بالراهب « بحيرا » الذي تفرس فيه ورأى معالم النبوة في وجهه وبين كتفيه ، فلما سأل أبا طالب ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني ، قال : ما ينبغي أن يكون أبوه حياً . قال : فإنه ابن أخي مات أبوه وأمه حبلى به . قال : صدقت ، ارجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود .

وقد تكون هذه القصة صحيحة . فإن البشارة بنبي بعد عيسى عليه السلام موجودة في الكتاب المقدس عند النصارى . وهم - منذ تكذيبهم برسالة محمد عليه الصلاة والسلام - يرقبون هذا النبي - المنتظر . ولن يجئ أبداً .. لأنه جاء فعلاً ..

وسواء أصبحت قصة « بحيرا » هذه أم بطلت^(١٤) فمن المقطوع به أنها لم تخلف بعدها أثراً ، فلا محمد عليه الصلاة والسلام تشوف للنبوة أو استعد لها - لكلام الراهب - ولا أصحاب القافلة تذاكروا هذا الحديث أو أشاعوه . لقد طويت كأن لم تحدث مما يرجح استبعادها .

(١٤) بل هي صحيحة : فقد أخرجهما الترمذى (٢٩٦/٤) من حديث أبى موسى الأشعرى . وقال : « هذا حديث حسن » قلت : واسناده صحيح ، كما قال الجزرى . قال : « وذكر أبى بكر وبلال فيه غير محفوظ » . قلت وقد رواه البزار فقال : « وأرسل معه عمه رجلاً » .

وقيل أيضاً : إن كوكبة من فرسان الروم أقبلت على « بحيرا » كأنها تبحث عن شئ فلما سألتها : ما جاء بكم ؟ قالوا : جئنا لأن نبأ يخرج هذا الشهر . فلم يبق طرق إلا بعث إليها ناس - للقبض عليه . فجادلهم « بحيرا » حتى أقنعهم ببعث ما يطلبون .

والمحققون^(١٥) على أن هذه الرواية موضوعة مضاهاة لما يذكره الإنجيليون من أن ناساً طلبوا المسيح عقب ولادته لقتله ، وهي عند المسيحيين مضاهاة لما عند الوثنيين من أن « بوذا » لما وضعت أمه العذراء (١) طلبه الأعداء ليقتلوه ..

إن علماء السنة يهتمون بالأخبار الواردة - من ناحية المتن والسند - فإذا لم تفد علماً ثابتاً ، أو ظناً راجحاً لم يكثرثوا بها . وقد انضمت أساطير كثير إلى سير المرسلين . عندما تعرض على القواعد المقررة في فن التحديث يظهر عوارها ويسد اطراحها .

* * *

(١٥) من هم هؤلاء المحققون ، ومن أين جاء الوضع المذكور . وهذه الرواية هي في حديث أبي موسى المتقدم وقد علمت صحته . وماذا تضر المضاهاة بعد الثبوت ؟ أفلا ترى أن ما يذكره الإنجيليون يضاهي ما هو ثابت في القرآن الكريم من طلب فرعون لموسى في قتله الأنبياء ؟ أفترد هذا للمشابهة المذكورة ؟ اللهم : لا . - على غير عادتنا في تعقب كلام الأستاذ العلامة : الشيخ ناصر نذكو طرفاً من كلام العلماء حول هذه القصة : قاله الجزري - كما نقل الشيخ ناصر - : اسناذه صحيح ، ورجاله رجال الصحيح ، أو أحدهما ، وذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ وعده أئمتنا وهما (١) وهو كذلك (١) فإن سن النبي ﷺ - إذ ذاك اثنتا عشرة = سنة ، وأبو بكر أصغر منه بستين ، وبلال لعله لم يكن ولد في ذلك الوقت هـ . وقال الذهبي في ميزان الاعتدال : قيل مما يدل على بطلان هذا الحديث قوله : « وبعث معه أبو بكر بلالاً » وبلال لم يخلق بعد وأبو بكر كان صبياً . اهـ قال صاحب « تحفة الأحوذى » وضعف الذهبي هذا الحديث لقوله : « وبعث معه أبو بكر بلالاً » فإن أبا بكر إذ ذاك ما اشترى بلالاً ، وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة رجاله ثقات وليس فيه سوى هذه النقطة فيحتمل أنها مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهما من أحد رواته . كنا في المواهب اللدنية . قال ابن القيم في زاد المعاد : ووقع في كتاب الترمذى وغيره : أنه بعث معه أبو بكر بلالاً وهو من الغلط الواضح (١) فإن بلالاً إذ ذاك لعله لم يكن موجوداً ، وإن كان فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر . راجع تحفة الأحوذى طبع الهند (٢٩٣/١ كتاب المناقب) .

هذا وقال الحافظ ابن كثير في السيرة (٢٨٤/١ ط الحلبي) : روى هذا الحديث الترمذى والحاكم والبيهقى وابن عساکر . قلت : - أي ابن كثير - فيه من الغرائب أنه من مراسلات الصحابة فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم في سنة خيبر (سبع من الهجرة) وعلى كل تقدير فهو : « مرسل » .

حياة الكدح

عاد محمد عليه الصلاة والسلام من هذه الرحلة ليستأنف مع عمه حياة الكدح ، فليس من شأن الرجال أن يقعدوا . ومن قبله كان المرسلون يأكلون من عمل أيديهم ، ويحترفون مهناً شتى ليعيشوا على كسبها . وقد صح أن محمداً عليه الصلاة والسلام اشتغل صدر حياته برعي الغنم وقال : كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة^(١٦) كما ثبت أن عدداً من الأنبياء اشتغل برعايتها ، أترى ذلك تعويداً لهم على سياسة العامة والرفق بالضعفاء والسهر على حمايتهم ؟؟

وقد تسأل : أنتقدح المعارف المتصلة بالكون وما وراءه ، الناس وما يفيضون فيه - أنتقدح حقائقها في نفوس المرسلين فجأة ، دون إعداد سابق أو تهيئة حكيمة ؟.

والجواب كلا . فالأنبياء - وإن لم يتعلموا بالطرق التي يتعلم بها أمثالنا - لهم من سلامة فكرهم واستقامة نظرهم ما يجعلهم في طليعة العلماء وإن لم يتعلموا بما نعهد من أساليب .

ما العلم الذي ترقى به النفس ؟ أهو حفظ الدروس واستيعاب القواعد والقوانين ؟

إن هناك ببغاوات كثيرة تردد ما تسمع دون وعي . ولقد ترى أطفالاً صغاراً يلقون - بإتقان وتمثيل - خطباً دقيقة لأشهر الساسة والقادة .

فلا الأطفال - بما است حفظوا من كلام الأئمة - أصبحوا رجالاً ، ولا الببغاوات تحولت بشراً .

(١٦) أخرجه البخارى (٣٤٩/٤) من حديث أبى هريرة مرفوعاً بلفظ : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم . فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : نعم . كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة » .

وقد تجد من يحفظ ، ويفقه ، ويجادل ويغلب ، ولكن العلم في نفسه كعروق الذهب في الصخور المهملة . لا يبعث على خير ولا يزجر عن شر .

وقد شبه القرآن أحبار اليهود الذين يحملون التوراة ولا يتأدبون بها بالحمير ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ (١٧) .

وهذه الطبائع التي تحمل العلم لا تصلح به إنما تسيء إليه ، ولذلك يحسن الظن به عليها . وفي الأثر : « واضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجواهر واللؤلؤ والذهب » (١٨) .

ثم هناك الخرافيون الذين يغالطون في الحقائق أنفسهم كأن عقولهم ميزان ثقلت إحدى كفتيه - لغير سبب - فهو لا يضبط وزناً أبداً ، ينسبطون للمستحيلات ويقبلونها . ويتحمسون للوقائع ويرفضونها .

وقد بلونا أناساً ظلوا يتعلمون قرابة عشرين سنة تعرض عليهم القضية فيخبطون فيها خبط عشواء ، فإذا عرضت القضية نفسها على أمي سليم الفطرة نقي العقل صدع فيها بالحق لأول وهلة . ومعنى ذلك أن هناك من تبذل في إقامة عوجه العقل عشرين سنة حافلة بالبحث والدرس ، فتعجز عن الوصول به إلى مرتبة رجل أوتي رشده بأصل الخليقة .

ونحن موقنون من مطالعة سيرة محمد عليه الصلاة والسلام بأنه طراز رفيع من الفكر الصائب والنظر السديد وأنه - قبل رعي الغنم وبعده ، وقبل احتراف التجارة وبعدها - كان يعيش يقظ القلب في أعماء الصحراء ، صاحباً بين السكارى والغافلين .

وجو الجزيرة العربية يزيد خمول الخامل وحدة اليقظان ، كالشعاع الذي ينمي

(١٧) الجمعة : ٥ .

(١٨) حديث ضعيف جداً ، علقه ابن عبد البر في « جامع العلوم » (١١/١) ووصله ابن ماجه في سننه (٩٧/١) . وفي سننه حفص بن سليمان . وهو الأسدي القاري . قال ابن خراش : « كذاب يضع الحديث » وضعفه غيره ، وقال أبو حاتم : « متروك » وكذا قال الحافظ في « التقریب » .

الأشواك والورود معاً وقد كان محمد ﷺ يستعين بصمته الطويل ، صمته الموصول بالليل والنهار ، صمته المطبق على الرمال الممتدة وال عمران القليل . كان يستعين بهذا الصمت على طول التأمل ، وإدمان الفكر ، واستكناه الحق ودرجة الارتقاء النفسى التى بلغها من هذا النظر الدائم أرجح يقيناً من حفظ لا فهم فيه ، أو فهم لا أدب منه ومثله فى احترام حقائق الكون والحياة أولى بالتقديم من أولئك الذين اعتنقوا الأوهام وعاشوا بها ولها .

ولا شك أن القدر حاطه بما يحفظ عليه هذا الاتجاه الفذ . فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا - وذلك من قبيل الصغائر التافهة- تتدخل العناية للحيلولة بينه وبين هذه الأمور .

روى ابن الأثير : قال رسول الله ﷺ « ما هممت بشئ مما كان الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك ، يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمني رسالته . قلت ليلة للغلام الذى يرعى معي بأعلى مكة ، لو أبصرت لى غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب . فقال : أفعل . فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً ، فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع ، فضرب الله على أذنى ، فنمت فما أيقظنى إلا حر الشمس . فعدت إلى صاحبي ، فسألنى فأخبرته . ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة .. ثم ما هممت بعده بسوء » (١٩) .

* * *

(١٩) حديث ضعيف أخرجه الحاكم (٢٤٥/٥) من طريق ابن إسحاق حدثني محمد بن عبد الله ابن مخزوم عن الحسن بن محمد بن علي عن جده علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول فذكره ، وقال : (هذا حديث على شرط مسلم) ووافقه الذهبي . قلت : وهو وهم منهما معاً لأمرين : الأول : أن ابن إسحاق إنما يروى له مسلم مقروناً بغيره كما ذكر ذلك الذهبي نفسه فى الميزان ، والحاكم لم يروه عنه مقروناً بغيره كما ترى ، فليس هو على شرط مسلم . الثانى : أن محمد بن عبد الله بن قيس ليس مشهور العدالة ، فلم يوثقه غير ابن حبان ، وتوثيقه عندما ينفرد به لا يوثق به لأن من آفته أن - يوثق المجاهولين كما أفاده المحققون كالحافظ ابن حجر فى اللسان ولهذا لما أورد الحافظ ابن قيس هذا فى « التقريب » لم يوثقه بل قال فيه : مقبول . يعنى أنه لين الحديث حيث لا يتابع كما نص على هذا فى مقدمة الكتاب . ثم هو ليس من رجال مسلم خلافاً لمن =

إن مراتب التعليم المختلفة هي مراحل جهد متصل لتهديب العقل وتقوية ملكاته ، وتصويب نظريته إلى الكون والحياة والأحياء ، فكل تعليم يقصر بأصحابه عن هذا الشأن لا يؤت له ، مهما وسم بالشهادات والإجازات . وأحق منه بالحفاوة ، وأسبق منه إلى الغاية المنشودة ، أن ينال المرء حظاً وافراً من حسن الفطنة وأصالة الفكرة ، وسداد الوسيلة والهدف . وقد أشار القرآن الكريم إلى نصيب « إبراهيم » من هذه الخصال عندما قال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ (٢٠) .

ومحمد عليه الصلاة والسلام في هذا المنهج كجده إبراهيم . إنه لم يتلق علماً على راهب أو كاهن أو فيلسوف ممن ظهرُوا على عهده ، ولكنه بعقله الخصب وفطرته الصافية . طالع صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات . فعاف ما ساءه من خرافة ونأى عنه . ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم . فما وجده حسناً شارك فيه بقدر ، وإلا عاد إلى عزلته العتيدة ، يتابع النظر الدائم في ملكوت السموات والأرض . وذلك أجدى عليه من علوم هي بالجهل المركب أشبه ، ومن مجتمع فقد الهداة من قرن ، فهو يضم ضللاً جديداً إلى الضلال القديم كلما مرت ليلة وطلع صباح ..

وقد رأى أن يشهد الأعمال العامة التي اهتم بها قومه ، لأنه لم يجد أى حرج إذ يشارك فيها . ومن ذلك خوضه مع عمومته وقبيلته « حرب الفجار » ثم شهوده من بعد « حلف الفضول » .

* * *

= وهم ، وقد ضعف هذا الحديث الحافظ ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية (٢٨٧/٢) بعد أن ساقه بالسند المذكور من رواية البيهقي حيث قال : « وهذا حديث غريب جداً » وقد يكون عن علي نفسه (يعنى موقوفاً عليه) ويكون قول : « حتى أكرمى الله عز وجل بنبوته » مقحماً والله أعلم . وشيخ ابن اسحاق هذا ذكره ابن حبان في الثقات ، وزعم بعضهم أنه من رجال الصحيح قال شيخنا في تهذيبه ، « ولم أقف على ذلك . والله أعلم » ثم وجدت الحديث في تاريخ مكة (ص ٧) للفاكهي ، وتاريخ ابن جرير (٣٤/٢) من الطريق المذكور . ورواه الطبراني في المعجم الصغير (ص ١٩٠) من حديث عمار بن ياسر ، وفي سنده جماعة لم أعرفهم ، وذكر نحو هذا الحديث الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٦/٧) .

أقول : أليس في ذلك ما يحسن الرواية ، ويرشح لقبولها ؟

(٢٠) الأنبياء : ٥١ ، ٥٢ .

حرب الفجار

كانت حرب الفجار بالنسبة إلى قريش دفاعاً عن قداسة الأشهر الحرم ، ومكانة أرض الحرم . وهذه الشعائر بقية مما أحترمه العرب من دين إبراهيم . وكان احترامها مصدر نفع كبير لهم ، وضماناً لانتظام مصالحهم وهدوء عداوتهم . كان الرجل يلقي قاتل أبيه خلالها فيحجزه عن إدراك ثأره شعوره بهذه الحرمات . وقد جاء الإسلام بعد فأقر هذه المكانة الموروثة عن ديانة إبراهيم : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ .. ﴾ (٢١) .

ولكن أهل الجاهلية ما لبثوا أن ابتلوا بمن استباحها ، فظلموا أنفسهم بالقتال فيها ، وكانت حرب الفجار من آثار هذه الاستباحة الجائرة ، وليس هنا تفصيل خبرها وقد ظلت أربعة أعوام ، كان عمر محمد في أثنائها بين الخمسة عشر والتسعة عشر ، قيل : قاتل فيها بنفسه ، وقيل : بل أعان المقاتلين ..



(٢١) التوبة : ٣٦ .

حلف الفضول

أما حلف الفضول فهو دلالة على أن الحياة مهما اسودت صحائفها ، وكلحت شرورها ، فلن تخلو من نفوس تهزها معاني النبيل . وتستجيشها إلى النجدة والبر ..

ففى الجاهلية الغافلة نهض بعض رجال من أولى الخير ، وتواثقوا بينهم على إقرار العدالة وحرب المظالم ، وتجديد ما اندرس من هذه الفضائل فى أرض الحرم ..

قال ابن الأثير : « ... ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف ، فتحالفوا فى دار « عبد الله بن جدعان » لشرفه وسنه . وكانوا بنى هاشم ، وبنى المطلب ، وبنى أسد ابن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة . فتحالفوا وتعاهدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه ، حتى تُرد مظلّمته . فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، فشاهده رسول الله ﷺ وقال - حين أرسله الله تعالى : « لقد شهدت مع عمومى حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت » (٢٢) .

إن بريق الفرخ - بهذا الحلف - يظهر فى ثنايا الكلمات التى عبّر بها رسول الله عنه . فإنه الحميّة ضد أى ظالم مهما عز ، ومع أى مظلوم مهما هان . هي روح

(٢٢) رواه ابن إسحاق فى السيرة كما فى ابن هشام (٩٢/١ من الطبعة الجمالية) قال ابن زيد بن المهاجر قنفذ التيمى أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهرى يقول : قال رسول الله ﷺ : فذكره ، قلت : هذا سند صحيح لولا أنه مرسل . ولكن له شواهد تقويه ، فرواه الحميدى بإسناد آخر مرسلأ أيضاً كما فى « البداية » (٢٩/٢) وأخرجه الإمام أحمد (رقم ١٦٥٥ ، ١٦٧٦) من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعاً دون قوله « ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت » وسنده صحيح .

الإسلام ، الأمر بالمعروف ، الناهي عن المنكر . الواقف عند حدود الله . ووظيفة الإسلام أن يحارب البغي في سياسات الأمم ، وفي صلات الأفراد على سواء ..

وقيل في سبب الحلف : إن رجلاً من بني « زبيد » أتى بتجارة ، فاشتراها العاصي بن وائل السهمي . ثم حبس حقها وأتى أن يدفعه : فاستعدى عليه قبائل قريش والأحلاف فلم يكثرثوا له . فوقف الغريب المظلوم عند الكعبة وأنشد :
يا آل فهر مظلوم . بضاعته ببطن مكة . نأتى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر .
إن الحرام لمن تمت كرامته . ولا حرام بثوب الفاجر الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك ، فاجتمع الذين ذكرهم ابن الأثير آنفاً ، وذهبوا إلى العاصي بن وائل ، واستخلصوا منه حق الزبيدي ، بعدما أبرموا حلف الفضول .

ويظهر أن العاصي هذا رجل مماثل سمج ، فهو صاحب القصة كذلك مع خباب بن الأرت ، وكان خباب قيناً ، فصنع سيفاً للعاصي وأتاه به لينقذه ثمة . فقال له العاصي : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ، فقال له خباب : لا أكفر حتى يميئك الله ثم تبعث ، قال العاصي : وإني لميت ثم مبعوث؟؟ قال : بلى ، قال : دعني حتى أموت ، وأبعث فأوتى مالاً وولداً ، فأقضيك - حق السيف - فنزلت الآيات :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا . أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ ائْتَحَدَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا . كَلَّا ، سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنُؤَمِّدُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا . وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ (٢٣) .

وأمثال العاصي هذا في ميدان التجارة والسياسة كثير ، ومحمد ﷺ أولى الناس بخصومتهم ، وأولى الناس بمحمد ﷺ من أعان عليهم وواتق على حريمهم .

* * *

قوة ونشاط

عندما انتهت « حرب الفجار » وأبرم حلف « الفضول » كان محمد عليه الصلاة والسلام يستقبل المرحلة الثالثة من عمره . وهذه الفترة وما قبلها هي عهد الشباب الحار ، والغرائز الفائرة ، والطماح البعيد . ومحمد عليه الصلاة والسلام رجل قوى البدن على الهمة . رفيع المكانة . وقد لوحظت طاقته الواسعة حتى بعد هذه السن بنحو أربعين سنة . قال أبو هريرة : ما رأيت أحسن من رسول الله . كأن الشمس تجرى في وجهه ، وما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله ، لكأنما الأرض تُطوى له ، كنا إذا مشينا معه نجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث « (٢٤) ..

ومثل هذا الرجل تقبل عليه الحياة لو لم يقبل هو عليها . وعلى من تقبل الحياة بعده ؟ على الواهين والمنكمشين والمتشائمين ؟

لكن محمداً عليه الصلاة والسلام - على ما يملك من وسائل المتاع - ما أثرت عنه قط شهوة عارضة أو نزوة خادشة . أو حكيت عنه مغامرة لنيل جاه أو اصطيد ثروة : بل على العكس بدأت سيرته تومض في أنحاء مكة بما امتاز به على أقرانه - إن صحت الإضافة - من خلال عذبة ، وشمائل كريمة ، وفكر راجح - ومنطق صادق - ونهج أمين .

وليس شرف النفس أن تنتفى شهوة الإنسان إلى الحياة . أو توجد الشهوة وتنتفى وسائل بلوغها . بل الشرف أن تكون قوة العفاف أرى من نوازع الهوى فإذا

(٢٤) هذا حديث ضعيف الإسناد أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٦/٤) وفي الشمائل (٢١٧/١) وضعفه بقوله : « هذا حديث غريب » والسبب أنه من رواية ابن لهيعة وهو ضعيف لسوء حفظه واحتراق كتبه . - أقول : الضعف القريب مقبول عند سرد المناقب .

ظلت النفس في حالة سكون فلتعادل القوى السالبة والموجبة فيها . وقد تجدد رجلاً
تافهاً هزياً لا يخفى له طمع ولا تنجس له شهوة لو قست غرائزه المنفلتة بغرائز غيره
المضبوطة ما بلغت عشر قوتها ، لكن هذه وجدت زمماً من الرشد فكظم عليها ،
وتلك لم تجد عقلاً يردع ولا خلقاً يعصم فثارت وتمردت ..

وقد كانت رجولة محمد عليه الصلاة والسلام في القمة ، بيد أن قواه الروحية
وصفائه النفسي جعلوا هذه الرجولة تزدان بمحامد الأدب والاستقامة والقنوع . ثم إنه
كان معافى من العقد الكريهة التي تزين للشباب تعشق العظمة عن طريق التظاهر
والرياء . أو تطلب الرياسة عن طريق المداينة واشتراء العواطف . فإذا انضم لهذا
كرهه الشديد للأصنام التي عكف عليها قومها ، وازدراؤه للأوهام والأهواء التي
تسود الجزيرة وما وراءها . وإدراكه أن الحق شيء آخر وراء هذه الخرافات الغالبة ..
تبين السر في استثنائه للرجال والفضاء ، واستراحته إلى رعى الغنم في هذه الأنحاء
القصية ، مكتفياً بالقليل الذي يعود عليه من كسبها .

هذا زهد في المال أو إعراض عن الحياة الدنيا ؟ لا . إنما هو إنشغال بالحقائق
العليا التي تصلح بها ويسخر فيها المال ، والرجال الكبار لا تشبعهم كنوز الذهب
والفضة إذا ظمئوا إلى الحق . ولا يريهم أن يكونوا ملوك قومهم أو ملوك الحياة . إذا
رأوا المساهر الشائنة تسير بالحياة كلها إلى منحدر تسقط فيه أقدار الناس ، وتتعرى
فيه الدنيا جمعاء من كل خير وبر .

كذلك استقبل محمد عليه الصلاة والسلام المرحلة الثالثة من عمره ، وهي
المرحلة التي تعرف فيها إلى زوجته الأولى « خديجة بنت خويلد » .



خديجة

و « خديجة » مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم . إن أصحاب الرسائل يحملون قلوباً شديدة الحساسية . ويلقون غبناً بالغاً من الواقع الذي يريدون تغييره ، ويقاسون جهاداً كبيراً في سبيل الخير الذي يريدون فرضه ، وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه ، بله الإدراك والمعونة ! وكانت خديجة سبّاقة إلى هذه الخصال وكان لها في حياة محمد ﷺ أثر كريم .

قال ابن الأثير : « كانت - خديجة - امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشئ تجعله لهم منه . فلما بلغها عن رسول الله ﷺ صدق الحديث ، وعظم الأمانة ، وكرم الأخلاق ، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ، ومعه غلامها ميسرة » .

وقد قبل محمد عليه الصلاة والسلام هذا العرض ورحل إلى الشام عاملاً في مال السيدة التي اختارته ، ويظهر أن التوفيق حاله في هذه الرحلة ، أكثر من سابقتها مع عمه أبي طالب ، فكان ربحها أجزل ، وسرت خديجة بهذا الخير الذي أحرزته ولكن إعجابها بالرجل الذي اختبرته كان أعمق .

إنها امرأة عريقة النسب ممدودة الثروة ، وقد عرفت بالحزم والعقل : ومثلها مطمح لسادة قريش لولا أن السيدة كانت تحقر في كثير من الرجال أنهم طلاب مال لا طلاب نفوس . وأن أبصارهم ترنو إليها بغية الإفادة من ثرائها وإن كان الزواج عنوان هذا الطمع ! لكنها عندما عرفت محمداً عليه الصلاة والسلام وجدت ضرباً آخر من الرجال . وجدت رجلاً لا تستهويه ولا تدنيه حاجة . ولعلها عندما حاسبت غيره في تجارتها وجدت الشح والاحتيال . أما مع محمد ﷺ فقد رأت رجلاً تقفه

كرامته الفارعة موقف النبل والتجاوز ، فما تطلع إلى مالها ولا إلى جمالها . لقد أدى ما عليه ثم انصرف راضياً مرضياً .

ووجدت خديجة ضالتها المنشودة . فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها « نفيسة بنت منبه » وهذه ذهبت إلى محمد ﷺ تفاتحه أن يتزوج من خديجة ، فلم يبطئ من إعلان قبوله . ثم كلم أعمامه في ذلك فذهب أبو طالب وحمزة وغيرهما إلى عم خديجة عمرو بن أسد - إذ أن أباهما مات في حرب الفجار - وخطبوا إليه ابنة أخيه ، وساقوا إليها الصداق عشرين بكرة . ووقف أبو طالب يخطب في حفل الزواج قائلاً : « إن محمداً لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلًا وفضلاً وعقلاً ، وإن كان في المال قليلاً فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة . وله في خديجة بنت خويلد رغبة . ولها فيه مثل ذلك » . فكان جواب ولي خديجة - عمها عمرو - : هو الفحل الذي لا يجدع أنفه ، وأنكحها منه ..

وقيل : إن العبارة الأخيرة جرت على لسان « أبي سفيان » عندما تزوج محمد رسول الله ابنته حبيبة . وكانت الحرب بينهما على أشدها . فاعتذر أبو سفيان عن ذلك بأن محمداً الرجل من الكفاءة بحيث يعتبر الإصهار إليه منقبة ! والخصومة القائمة بينهما لا تنزل بقدر محمد عليه الصلاة والسلام أبداً ، ونكاحه لبنت أبي سفيان لا يثنين أبداً ، وإن كان يومئذ ألد عدو له .

* * *

كان محمد عليه الصلاة والسلام في الخامسة والعشرين عندما تزوج خديجة . وكانت هي قد ناهزت الأربعين ، وظل هذا الزواج قائماً حتى ماتت خديجة عن خمسة وستين عاماً . كانت طواها محل الكرامة والإعزاز ، وقد أنجب رسول الله ﷺ أولاده جميعاً منها ما عدا إبراهيم .

ولدت له أولاً « القاسم » وبه كان يكنى بعد النبوة ثم « زينب » و « رقية » و « أم كلثوم » و « فاطمة » و « عبد الله » يلقب بالطيب والطاهر . ومات « القاسم » بعد أن بلغ سنّاً تمكنه من ركوب الدابة والسير على النجبية . ومات

عبد الله وهو طفل . ومات سائر بناته في حياته . إلا « فاطمة » فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به .

كان قران محمد عليه الصلاة والسلام بخديجة خيراً له ولها . ولا شك أن هذا البيت الجديد قد اصطبغ بروح رب البيت ، روح التطهر من أدران الجاهلية ، والترف عن تقديس الأوثان .

وقد استأنف محمد عليه الصلاة والسلام ما ألفه بعد زواجه من حياة التأمل والعزلة . وهجر ما كان عليه العرب في أحفاهم الصاخبة من إدمان ولغو وقمار ونفار ، وإن لم يقطعه ذلك عن إدارة تجارته ، وتدبير معاشه ، والضرب في الأرض والمشى في الأسواق . إن حياة الرجل العاقل وسط جماعة طائشة تقتضى ضرباً من الحذر والروية ، وخصوصاً إذا كان الرجل على خلق عظيم يتقاضاه لين الجانب وبسط الوجه .

ولم يكن ثمة ما يقلق في هذه الزيجة الموفقة إلا ألم خديجة لهلاك الذكور من بنينا مع ما للذكور من منزلة خاصة في أمة كانت تمد البنات وتسود وجوه آبائهن عندما ييشرون بهن !!

والغريب أن العرب بعد البعثة كانوا يعيرون محمداً ﷺ بهذا ، ويعلمون ارتقابهم لانقطاع أثره وانتهاء ذكره . فعن ابن عباس رضى الله عنه ، أن قريشاً تواصلت بينها في التمداد في الغي والكفر : وقالت : الذى نحن عليه أحق مما عليه هذا الصنبور المنبت - والصنبور النخلة التى اندق أصلها - يعنون أن محمداً عليه الصلاة والسلام إذا مات لم يرثه عقب ، ولم يحمل رسالته أحد ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبِ الْمُتَوَنِّينَ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبَّصِينَ ﴾ (٢٥) !!

ومحمد ﷺ ورسالته فوق هذه الأمانى الصغيرة . إلا أن الأسى كان يغزو قلب الوالد الجليل وهو يودع أبناءه الثرى ، فيجدد الشكل ما رسب في أعماقه من آلام اليتيم . إن غصنه تشبث بالحياة فاستطاع البقاء والنماء رغم فقدانه أبويه . وها هو ذا

يرى أغصانه المنيثقة عنه تذوى مع رغبته العميقة ورغبة شريكة حياته في أن يراها
 مزهرة مثمرة ، وكأن الله أراد أن يجعل الرقة الحزينة جزءاً من كيانه ! فإن الرجال
 الذين يسوسون الشعوب لا يجنحون إلى الجبروت إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت
 على القسوة والأثرة وعاشت في أفراح لا يخامرها كدر ، أما الرجل الذي خبر الآلام
 فهو أسرع الناس إلى مواساة المحزونين ومداواة المجروحين .



الكعبة

ومن بقايا كلمة إبراهيم التي أجمع العرب في جاهليتهم على احترامها « الكعبة » وهي أشبه بغرفة كبيرة مشيدة من أحجار قوية ، يعتمد سقفها من الداخل على أعمدة من الخشب الثمين . وأول من قام في بنائها أبو الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل ، والغرض من بنائها أن تكون معبداً لله ، ومسجداً يذكر فيه اسمه وحده فإن إبراهيم لقي العناء الأليم في حرب الأصنام وهدم المعابد التي تنصب فيها ، ثم ألهمه الله أن يبنى هذا البيت ليكون أساساً للتوحيد وركناً ، ومثابة للناس وأمناً ، ومن البديهي أنه لا يسم القصاد جميعاً فألحق ما حوله به وصار حرماً مقدساً .

ومعنى ذلك أن الكعبة نفسها حجارة لا تضر ولا تنفع ، وأن الحرمة التي اكتسبتها هي من الذكريات والمعاني التي حفت بها ، ولذلك أكد رسول الله ﷺ أن تأمين الأعراض والأموال والدماء أقدس عند الله من هذه الكعبة ، وأعظم حرمة وأكبر حقاً

ومن الوثنية التي يعادها الإسلام - إلى آخر الدهر - الظن بأن الكعبة أو شيئاً منها له أثر من نفع أو ضرر .

وأنت خبير بأن الرؤساء والقادة والجنود عندما يحيون أعلام بلادهم ويتفانون دونها . فليس هذا عبادة لقطع معينة من القماش ، إنما هو تقديس لمعان معينة ارتبطت بها . ومن الأمور التي يسهل فهمها أن تكون ، لأول مسجد في الأرض مكانة تاريخية خاصة . وأن يكون قبلة لما يستجد بعده من مساجد .

أما الوجهة في كل صلاة والمقصود في كل خشوع فهو الله وحده .

عن أنى ذر : سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض قال :

« المسجد الحرام . قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عاماً . ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل فإن الفضل فيه » (٢٦) .

وقد تعرضت الكعبة - باعتبارها أثراً قديماً - للعوادى التى أوهت بنيانها وصدعت جدرانها وقبل البعثة بسنوات قلائل جرف مكة سيل عرم ، انحدر إلى البيت الحرام ، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار ، فلم تر قريش بدأً من أن تجدد بناء الكعبة حرصاً على مكانتها .

وقد اشترك سادة قريش ورجالاتها الكبار فى أعمار التجديد ونقل الأحجار بعد ما هدموا الأنقاض الواهية وشرعوا يعيدونها كما كانت .

وبناء - نفع إبراهيم وإسماعيل من قواعده قبل قرون سحيقة لا يوكل أمره لصغار الفعلة ، فلا غرو إذا أقبل عليه الشيوخ وأهل النهي والصدارة ، ومن بينهم محمد ﷺ وأعمامه .

عن عمرو بن دينار سمعت جابر بن عبد الله يقول : لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ والعباس ينقلان الحجارة فقال العباس للنبي : اجعل إزارك على رقبتك يقيك الحجارة . ففعل - كان ذلك قبل أن يبعث - فخر إلى الأرض ، فطمحت عيناه إلى السماء . فقال : إزارى إزارى ، فشده عليه فما رأى بعد عرياناً (٢٧) .

وتنافست القبائل فى هذا المضمار ، كل يبغى الصدارة فيه والذهاب بفخره ، حتى كاد هذا السبق يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم . واستفحل الشر بين المشتغلين بالبناء عندما بدأوا يستعدون لوضع الحجر الأسود فى مكانه من أركان الكعبة لولا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي اقترح على المتطاحنين أن يحكموا فيما شجر

(٢٦) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (٣١٥/٦ - ٣١٧ ، ٣٥٩) ومسلم (٦٣/٢) والنسائى وابن ماجه والبيهقى والطيالسى وأحمد من حديث أبى ذر .
(٢٧) حديث صحيح أخرجه البخارى (٣٧٧/١) ومسلم (١٨/١) وغيرهما .

بينهم أول داخل من باب الصفا ، وشاء الله أن يكون ذلك محمداً .. فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، ارتضيناه حكماً .

وطلب محمد ﷺ ثوباً ، فوضع الحجر وسطه ، ثم نادى رؤساء القبائل المتنازعين ، فأمسكوا جميعاً بأطراف الثوب حتى أوصلوا الحجر إلى الكعبة ، فحمله محمد صلوات الله وسلامه عليه ثم وضعه في مكانه العتيد (٢٨) .

وهذا حل للحصيف رضى به القوم ومن قبل كانت رؤيتهم لمحمد ﷺ مثار تيمنهم واطمئنانهم . وهذا يدل على سناء المنزلة التي بلغها فيهم .

ومع جهد قريش في بناء الكعبة فقد عجزت عن إبلاغها قواعد إبراهيم ولكن رسول الله ﷺ بعد أن استقر له الأمر في الجزيرة لم يجد ضرورة لتجديد زيادتها . واثّر تركها على ما انتهت إليه . عن عائشة قالت : قال لي النبي ﷺ : « ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ قلت يا رسول الله ، ألا تردّها إلى قواعد إبراهيم ؟ فقال : لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت ! قال ابن عمر : لمن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ . ما أرى أن رسول الله ﷺ ترك استلام الركبتين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم (٢٩) . قال العلماء : والمراد بقول الرسول ﷺ الآنف ؛ قرب العهد بالجاهلية وضعف استمكان الإيمان . مما يجعل العرب ينفرون من هدم الكعبة وتغيير هيئتها .

ولو كانت إعادة الكعبة كما بناها إبراهيم فريضة ما تركها رسول الله ، ولكن الأمر أخف من أن تثار لأجله مشكلات عويصة .

* * *

(٢٨) حديث حسن أخرجه الإمام أحمد (٤٢٥/٣) من حديث السائب بن عبد الله بسند حسن . ويحسن بالمؤلف أن ينقل نصه فهو أولى من نصوص كتب السيرة التي لا سام ولا خطام ؟ ثم وجدت للحديث شاهداً من حديث علي ، رواه الطيالسي في مسنده (٨٦/٢) ترتيب الشيخ عبد الرحمن البنا .
(٢٩) حديث صحيح أخرجه الشيخان في « الحج » من « صحيحهما » .

باحثون عن الحق

قلنا إن الوثنية^(٣٠) تزين باطلها بطلاء من الحق ليسهل على النفوس ازدراد ما فيها من مرارة فهي تزعم الإيمان بإله خلق السموات والأرض . وفي الوقت نفسه تشرك معه آلهة أخرى هي مزدلف إليه ووسيلة ، ولما كان خلق السموات والأرض بعيداً عن مرأى الأعين ، فقد أنس العباد المشركون بالآلهة القريبة من أيديهم والتي يترددون عليها صباحاً ومساءً ، حتى صارت صلتهم بها أحكم من الصلة بالإله الأصيل وأصبح ذكر هذا الإله المتوسل إليه بغيره - لا يرد إلا في معرض الجدال والاعتذار :

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ . وَقِيلَ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ . فَاصْنَعْ عَنْهُمْ قُلُوبًا سَلَامًا ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠) .

غير أن التعصب لهذا السخف جاوز الحدود فأما العامة فهم بهم ، أحلاس ما توارثوا ، فقدوا نعمة العقل الحر ، بل العقل المدرك وعاشوا يهرفون بما لا يعرفون .

وأما الذين أوتوا حظاً من التفكير ، فإن تفكيرهم يرتطم بحدود شهواتهم ، وربما كتموا ما عرفوا ، بل ربما حاربوا ما عرفوا وقليل من الناس من يتجرأ على التقاليد المتحكمة ويجهر بالحق . وأقل من ذلك من يعيش له ويضحى في سبيله .

وقد وُجد قبل البعثة من نظر إلى وثنية العرب نظرة إستهزاء ومن عرف أن قومه يلتقون على أباطيل مفتراة ولكنه لم يجد الطريق أو الطاقة على كفهم . أخرج البخاري^(٣١) أن ابن عمر حدث عن رسول الله ﷺ أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل

(٣٠) الزخرف : ٨٧ - ٨٩ .

(٣١) وأخرجه الإمام أحمد (رقم ٥٣٦٩) من حديث ابن عمر ، وقد رواه أيضاً من حديث سعيد

ابن زيد بن عمرو (١٦٤٨) ، وفيه زيادة منكراً . وهي تتنافى مع التوجيه الحسن الذي وجه به الحديث حضرة =

بأسفل « بلدح » - وذلك قبل أن ينزل الوحي على النبي ﷺ - فقدّم إليه رسول الله ﷺ سفرة فيها لحم فأبى أن يأكل منها . ثم قال زيد : إني لا آكل مما تذبحون (٣٢) على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه . وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله ، وأنزل لها من السماء ماء ، وأنبت لها من الأرض الكلاً . تذبحونها على غير اسم الله - إنكاراً لذلك .

وفي رواية : أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالماً من اليهود . فسأله عن دينهم . وقال : لعلى أن أدين دينكم ! فقال : لا تكون على ديننا حتى نأخذ بنصيبك من غضب الله !! قال : زيد ما أفر إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيعه !! فهل تدلني على غيره ؟ فقال : ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم . لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله .

فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى . فذكر له مثل ذلك ، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ! قال : ما أفر إلا من لعنة الله أبداً وأنا أستطيع !!.. فهل تدلني على غيره . فقال : لا أعلمه إلا أن تكون حنيفاً قال : وما الحنيف ؟ فقال : دين إبراهيم عليه السلام ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يعبد إلا الله . فلما رأى زيد قوله في إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه . وقال : اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم عليه السلام .

وهذا الحديث يبين مقدار الحيرة التي سادت الدنيا وغطت بضبابها الكثيف على الأديان الظاهرة . اليهود يشعرون بأنهم مطاردون في الأرض منبذون من

= المؤلف وهي قوله بعد (أني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم) قال : فما رأى النبي ﷺ بعد ذلك أكل شيئاً مما ذبح على النصب وعله هذه الزيادة أنها رواية من المسعودي وكان قد اختلط ! وروى هذا الحديث عنه - يزيد ابن هارون سمع منه بعد اختلاطه ، ولذلك لم يحسن صنعاُ حضرة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر حيث صرح في تعليقه على المسند أن إسناده صحيح » ثم صرح بعد سطور أنه إنما صححه مع اختلاطه لأنه ثبت معناه من حديث ابن عمر بسند صحيح . يعني هذا الذي في الكتاب ، وليس فيه هذه الزيادة المنكرة ، فكان عليه أن ينبه عليها لكي لا يتوهم أحد أن معناها ثابت أيضاً في حديث ابن عمر .

(٣٢) توهم زيد أن اللحم المقدم إليه من جنس ما حرم الله : ومن المقطوع به أن بيت محمد ﷺ لا يطعم ذبائح الأصنام ، ولكن أراد الاستيثاق لنفسه والإعلان عن مذهبه . وقد حفظ محمد له بذلك وسر به .

أقطارها ، فعلى الداخل فى دينهم أن يحمل وزراً من المقت المكتوب عليهم .
والنصارى وقع بينهم شقاق رهيب فى طبيعة المسيح ووضعه ، ووضع أمه ،
من الإله الكبير ، وقد أثار هذا الخلاف بينهم الحروب المهلكة ، وقسمهم فرقاً يلعن
بعضها بعضاً .

وكان نصارى الشام الذين سألهم زيد « يعاقبة » يخالفون المذهب الرسمي
لكنييسة الرومان . فلا غرابة إذا أشعروا زيداً بما يقع عليه من عذاب لو دخل دينهم .
أو لعل هذه اللعنة المرهوبة هى تبعات الخطيئة التى اقترفها آدم واستحقها من بعده
بنوه كما يدعى ذلك النصارى وهم يبررون صلب المسيح ، ومن حق زيد أن يدع
هؤلاء وأولئك ، ويرجع إلى دين إبراهيم عليه السلام يبحث عن أصوله وفروعه .

وأخرج البخارى عن أسماء بنت أبى بكر قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل
قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش : والله ما منكم على دين إبراهيم
عليه السلام غبرى ، وكان يحيى المؤودة ، يقول للرجل - إذا أراد أن يقتل ابنته . أنا
أكفيك مؤنتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك ، وإن
شئت كفيتك مؤنتها » (٣٣) .

إن زيداً واحد من المفكرين القلائل الذين سخطوا ما عليه الجاهلية من نكر
وإنه ليشكر على تحريره الحق ، ولا يغمط هو ولا غيره أقدارهم بين قومهم ، لكن
القدر كان يتخير رجلاً يبصر الحق ، ويملك من الطاقة ما يدفعه به إلى آفاق العالمين فى
وجه مقاومة تسترخص النفس والنفيس للإبقاء على الضلال والإمساك ببليله البارد
الثقيل .

كان القدر يعد لهذه الرسالة الضخمة رجلها الضخم والعظام كفوها
العظماء !

(٣٣) حديث صحيح ، والبخارى وإنما أخرجه (١١٤/٧ - ١١٥) معلقاً فكان يحسن تقييد العزو إليه
بهذا ، وقد وصله جماعة ذكرهم الحفاظ فى الفتى .. وفاته أن الحاكم وصله أيضاً فى المستدرک (٤٤٠/٣) وقال :
« صحيح على شرط الشيخين » .

فى غار حراء

أخذ سن محمد ﷺ تصعد نحو الأربعين . وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه ، فأمست نظرتهم نظرة عالم الفلك - فى عصرنا - إلى جماعة يؤمنون بأن الأرض محمولة على قرن ثور ، أو نظرة عالم الذرة إلى جماعة يتراشقون بالحجارة إذا تحاربوا ، ويتنقلون بالمطايا إذا سافروا ..

ذلك من الناحية الفكرية أما من الناحية النفسية فإن الإلحاد الذى شاع فى الجاهلية . وجعل أهلها يقسمون بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . هذا الإلحاد المغرق الطامس غزا نفوس الأخيار بالقلق البالغ إلى أين تصير هذه القلة الحائرة ! لكن كان الوجود - أولاً وآخراً - هذه الأعمار المستنفدة على ظهر الأرض . إن الفناء خير وأجدى !!

أما من بصيص نور خلال هذا الظلام المخيم ؟

وكان محمد ﷺ يهجر مكة كل عام ليقضى شهر رمضان فى غار حراء وهو غار على مسافة بضعة أميال من القرية الصاخبة ، فى رأس جبل من هذه الجبال المشرفة على مكة والتى ينقطع عندها لغو الناس وحديثهم الباطل ، ويبدأ السكون الشامل المستغرق . فى هذه القمة السامقة المنزوية ، كان محمد ﷺ يأخذ زاد الليالى الطوال ثم ينقطع عن العالمين متجهماً بفؤاده المشوق إلى رب العالمين !.. فى هذا الغار المهيب المحجب ، كانت نفس كبيرة تطل من عليائها على ما تموج به الدنيا من فتن ومغارم واعتداء وانكسار ثم تتلوى حسرة وحيرة لأنها لا تدرى من ذلك مخرجاً ، ولا تعرف له علاجاً !!

وفى هذا الغار النأى كانت عين نفاذة محصية تستعرض تراث الهداة الأولين من رسل- الله ، فتجده كالمنجم المعتم لا يستخلص منه المعدن النفيس إلا بعد جهد

جهيد ، وقد يختلط التراب بالتبر فما يستطيع بشر فصله عنه ..

في غار حراء كان محمد عليه الصلاة والسلام يتعبد ، ويصقل قلبه ، وينقى روحه ويقترب من الحق جهده ويتبعد عن الباطل وسعه . حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية انعكست بها أشعة الغيوب على صفحته المجلوة ، فأمسى لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح .

في هذا الغار اتصل محمد ﷺ بالملائكة الأعلى .

ومن قبله شهد بطن الصحراء أخاً لمحمد عليه الصلاة والسلام يخرج من مصر فاراً متوحشاً ، ويجتاز القفار متلمساً الأمن والسكينة والهدى ، لنفسه وقومه فبرقت له من شاطئ الوادي الأيمن نار مؤنسة ، فلما تيممها إذا النداء الأقدس يغمر مسمعه ويتخلل مشاعره :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (٣٤) .

إن شعلة من هذه النار اجتازت القرون لتتقد مرة أخرى في جوانب الغار الذي حوى رجلاً يتحنث ويتطهر - نائياً بجسمه وروحه - عن أرجاس الجاهلية ومساوئها ، لكن الشعلة لم تكن ناراً تستدرج الناظر بل كانت نوراً ينبسط بين يدي وحى مبارك يسطع على القلب العاني بالإلهام والهداية ، والتشيت والعناية ، فإذا محمد ﷺ يصغى في دهشة وانبهار إلى صوت الملك يقول له :

« اقرأ .. » . فيجيب مستفسراً : « ما أنا بقارئ » ، ويتكرر الطلب والرد لتنساب بعده الآيات الأولى من القرآن العزيز :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٣٥) .

* * *

(٣٤) طه : ١٤ .

(٣٥) حديث صحيح سياق تخريجه قريباً - والآيات من سورة العلق : ١ - ٥ .

ورقة بن نوفل

إن محمداً ﷺ بشر مثلنا ، لكن الوجود لا يعرف تفاوتاً بين أفراد جنس واحد كما يعرف ذلك في جنس الإنسان ، إن بعضهم أرقى من الأفلاك الزاهرة ! وبعضهم الآخر لا يساوى بعرة .. وإن كان الكل بشراً !!

وذاك التفاوت واقع بين من لم يؤيدوا بوحي . فكيف إذا اصطفى إنسان ما . وزيد أطوار كماله المعتاد طوراً آخر ، تومض فيه أشعة التسديد والتوفيق والإرشاد والإمداد ؟؟

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (٣٦) .

إن الجنين بعد نفخ الروح فيه ينشئه الله خلقاً آخر ، يغير الأطوار الستة الأولى التي مر بها ، سلالة الطين ، فالنطفة ، فالعلقة ، فالمضغة ، فالعظام ، فالجسم المكسو باللحم !!

والأنبياء بعد اتصال الوحي بهم وسريان روحه الجديدة في أرواحهم يتحولون بشراً آخرين ، لا يدانهم غيرهم أبداً في مجادة وإشراق .

وهذا التغير الملحوظ سر تذكير الله لمحمد عليه الصلاة والسلام بالقدرة التي خلقت الإنسان من علق ، إن القدرة التي خلقت هذا الإنسان العجيب من علقه طفيلية ، هي التي ستساق بنعمة الله إلى جعل محمد بشراً رسولاً ، يقرأ بعد ما كان أمياً .

(٣٦) النحل : ٢ .

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٣٧) .

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بُدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله يتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء ، فجاء الملك فقال « اقرأ » قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٣٨) .. الخ .

فرجع بها رسول الله ترجف بوادره ! حتى دخل على خديجة بنت خويلد فقال : « زملوني ، زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ثم قال لخديجة : « أرى خديجة ، مالى ؟ وأخبرها الخبر : ثم قال : لقد خشيت على نفسي .. »

قالت له خديجة : كلا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتصديق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل - وهو ابن عم خديجة - وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : أرى ابن عم : اسمع من ابن أخيك ! فقال له ورقة : يا ابن أخي ما ترى ؟ فأخبره رسول

(٣٧) الشورى : ٥٢ ، ٥٣ .

(٣٨) العلق : ١ ، ٢ .

الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال ورقة له : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى . وإن يدركنى يومك حياً أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي (٣٩) .

لكأن الأربعين عاماً السابقة يوم واحد ، وبدأ الوحي صبيحة يوم جديد !! إن العقل الجواب الباحث المستفسر أخذ يشيم أنوار الحق .

والصدر المخرج المثقل بالتشاؤم والارتباك أخذ يحس برد اليقين وفسحة الأمل ، والنقلة الطارئة بعيدة المدى .. إنها النبوة .

ألا ما أجمل هذا الفضل المقبل ، وما أعظم ما يواجه محمداً فيه من شئون وشجون !!

ولذلك سرعان ما تراجعت إليه نفسه ، وكان موقف زوجه خديجة منه من أشرف المواقف التى تحمد لامرأة فى الأولين والآخرين . طمأنته حين قلق ، وأراحته حين جهد ، وذكرته بما فيه من فضائل ، مؤكدة له أن الأبرار أمثاله لا يخذلون أبداً وإن الله إذ طبع رجلاً على المكارم الجزلة والمناقب السمحة فلكيما يجعله أهل إعزازه وإحسانه ، وبهذا رأى الراجع والقلب الصالح استحقت خديجة أن يحبها رب العالمين ، فيرسل إليها بالسلام مع الروح الأمين (٤٠) .

* * *

(٣٩) حديث صحيح أخرجه البخارى (١٨/١ - ٢٣) ومسلم (٩٧/١ - ٩٨) من حديثها .
(٤٠) يشير المؤلف إلى الحديث الصحيح عن أبى هريرة قال : أتى جبريل النبی ﷺ فقال : يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام - أو طعام - أو شراب . فإذا هي أتتك فأقرأها عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب . أخرجه البخارى (١٠٩/٧) ومسلم (١٣٣/٨) .

الفصل الثالث جهاز الدَّعْوَة

تقلصت ظلال الحيرة ، وثبتت أعلام الحقيقة ، وعرف محمد عليه الصلاة والسلام معرفة اليقين أنه أضحى نبياً لله الكبير المتعال ، وأن ما جاءه سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء ..! إلا أن الروعة التي انتابته من هذه الصلة بين إنسان وملك ، تركت في نفسه أثراً من الجهد ، كأنما كان يعالج عملاً مرهقاً صعباً .

ولا عجب فقد ظل يعاني من التنزيل شدة ، أمداً طويلاً وشاء الله أن يفتر الوحي بعد ابتدائه على النحو الذي أسلفنا حتى يكون تشوف الرسول ﷺ وارتقابه لمحبيته سبباً في ثباته واحتماله عندما يعود ، ومع ذلك ، فإن الطاقة البشرية ناءت أمام وطأته .

جاء جبريل عليه السلام للمرة الثانية ، قال جابر بن عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي : فقال لي في حديثه : فيينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسى بين السماء والأرض ، ففزعت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجئت إلى أهلي ، فقلت : زملوني زملوني ، فذروني ..

فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ .. ﴾ (١) .

كانت هذه الأوامر المتتابعة القاطعة إذناً للرسول ﷺ بأن الماضي قد انتهى بتمامه وهدوئه وسلامه ، وأنه أمام عمل جديد يستدعي اليقظة والتشمير ، والانداز والإعذار ، فليحمل الرسالة وليوجه الناس . وليأنس بالوحي . وليقوى على عنائه ، فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته .

والوحي إلهام ينضح على القلب بمراد الله في صورة واضحة لا تحتمل الريبة وله مراتب شتى بعضها أيسر من بعض . فعن عمر « كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي ، يُسمع عند وجهه كدوى النحل » (٢) .

(١) أخرجه البخاري (٥٤٩/٨ - ٥٥١) ومسلم (٩٨/١) - والآيات من سورة المدثر : ١ - ٥ .
(٢) حديث ضعيف ، أخرجه الترمذي (٢ / ١٥١ - ١٥٢) وذكر أن في سنده اختلافاً . ومصادره على =

وكان أحياناً يأتي في مثل صلصلة الجرس - وكان أشده عليه - فيلتبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم شديد البرد^(٣) وحتى أن راحلته لتبرك به على الأرض إذا كان راكبها^(٤) ، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه إلى فخذ زيد بن ثابت فتقلت عليه حتى كادت ترضها^(٥) . وقد يأتي أيسر من ذلك وأخف .

وربما قيل : لم كانت أوائل الوحي بهذه المثابة من الشدة ؟ ولماذا لم يبدأ نزول القرآن إلهاماً في منام . أو إلهاماً في يقظة على نحو ما قال رسول الله ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب .. »^(٦) أو ليس هذا أبعد عن دواعي الفزع والإعياء ؟؟

والجواب أن نزول القرآن اتخذ هذه الطريقة أول الأمر ، ونزول الملك به في هذا المظهر^(٧) قطعاً لكل شبهة في أنه ألفاظاً ومعاني - من عند الله ، وأن محمداً حمله تحميلاً بعد أن اصطفى له واختص به . فهو ليس افتعال عابد منقطع تخيل

= يونس بن سليم ، رواه عنه عبد الرزاق ، ويونس هذا مجهول ومن طريقه أخرجه أحمد رقم (١٢٣) والحاكم (٥٣٥/١ و ٢٩٢/٢) والنسائي « كما نقلوا عنه » وقال : هذا حديث منكر لا نعلم أحداً رواه غير يونس ويونس لا نعرفه » وقال الحاكم : « صحيح الإسناد » وهذا من تساهله ، وأما الذهبي فتناقض فإنه في الموضوع الأول وافق الحاكم على تصحيحه ، واغتر بذلك الشيخ أحمد شاكر ، وأما في الموضوع الآخر فقد تعقبه بقوله : قلت : سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا ، فقال أظنه لا شيء » وفي الميزان أقر النسائي على قوله : « هذا حديث منكر » وتوثيق ابن حبان لأن سليم هذا مما لا يعتد به ، لاسيما وتلميذه عبد الرزاق أدري به من ابن حبان .

(٣) روى معنى هذا البخاري (١٤/١ - ١٧) من حديث عائشة .

(٤) أخرج معناه - أحمد والحاكم (٥٠٥/٢) من حديث عائشة ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي وهو كما قال ، وله شاهد من حديث أسماء بنت يزيد عند أحمد (٤٤٥/٦) وآخر عند (٦٦٤٣) من حيد ابن عمرو .

(٥) أخرجه البخاري (١٨٢/٥) من حديث زيد بن ثابت .

(٦) حديث صحيح جاء من طرق . الأول عن ابن مسعود أخرجه الحاكم (٤/٣) . والثاني : عن ابن أبي أمامة . أخرجه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في « حلية الأولياء » ٧ (٢٢٨/١٠) . الثالث : عن حذيفة أخرجه البزار كما في الترغيب (٧/٣) والهيثم في مجمع الزوائد (٧١/٤) فهذه طرق يقوى بعضها بعضاً ولهذا - والله أعلم - جزم ابن القيم في « زاد المعاد » بنسبة الحديث إليه ﷺ .

(٧) إن اتصال الأبدان بعالم الغيب يرهق الطبيعة البشرية : واعتبر - لذلك بما يعانيه الوسطاء مثلاً في حالات التنويم المغناطيسي مع بعد الفارق .

فخال ، ولا صناعة فيلسوف ماهر يجيد سوق الأدلة وتنميق المقال ، إنما هو كلام
الأحد الحق الكبير المتعال .

﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحِي . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ
بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا
أَوْحَى . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ (٨) .



(٨) النجم : ٤ - ١٢ .

إلام يدعو الناس ؟

شرع محمد ﷺ يكلم الناس في الإسلام ويعرض عليهم الأخذ بهذا الدين الذى أرسله الله به .

وسور القرآن الذى نزل بمكة تبين العقائد والاعمال التى كلف بها عباده وأوصى رسوله أن يتعهد قيامها ونمائها ، وأول ذلك :

١ - الوجدانية المطلقة : فالإنسان ليس عبداً لكائن فى الأرض أو عنصر فى السماء ، لأن كل شئ فى السماء والأرض عبد الله ، يعنو لجلاله ويذل فى ساحته ويخضع لحكمه وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء ومن حق كل امرئ أن يهرع إلى ربه رأساً غير مستصحب معه خلقاً آخر . كبر أو خسر . وحق على كل امرئ أن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقامهم غيرهم زلفى ، وأن ينزل بهم إلى مكانهم المخلود إن كانوا بشراً أو حجارة أو ما سوى ذلك ، ويجب أن تبني جميع الصلات الفردية والجماعية على أساس تفرد الله فى ملكوته بهذه الوجدانية التامة .

ونتيجة هذه العقيدة أن الحجارة التى يعبدها العرب أصبحت لا تزيد عن الحجارة التى تبني بها البيوت أو تُرصف بها الطرق ، وأن البشر الذين أُلُهاوا فى ديانات أخرى صحت أوضاعهم . فعرفوا على أنهم عبيد لمن خلقهم ورزقهم ، يتقدمون عنده بالطاعة ويتأخرون بالمعصية ولا شأن لهم فى خلق أو رزق .

٢ - الدار الآخرة : فهناك يوم لا شك فى قدومه ، يلقي الناس فيه ربهم فيحاسبهم حساباً دقيقاً على حياتهم الأولى .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٩) .

(٩) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

فإما نعيم ضاحك يمرح فيه الأخيار ويستريحون ، وإما جحيم مشؤمة ، يشقى فيها الأشرار ويكتسبون ..

والنظر إلى الدار الآخرة في كل عمل يأتيه المرء أو يذره من أصول السلوك الصحيح في الإسلام . فكما أن راكب القطار موقن بأنه سينزل في محط قادم فكذلك المسلم يعلم أن الأيام الجارية به ستقف - حتماً - لترده إلى مولاه ، حيث يلقي جزء العمر ، ويجني ما غرست يده ..

٣ - تركية النفس : وذلك بلزوم عبادات معينة شرعها الله عز وجل . وترك أمور أخرى حذراً من مغبتها :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، وَالْعَهْدُ أَلْفُ عَهْدٍ ، لَا تُكَلِّفُوا نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى . وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٠) .

قال أكرم بن صيفى : « إن ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام لو لم يكن ديناً لكان في أخلاق الناس حسناً » .

٤ - حفظ كيان الجماعة المسلمة : باعتبارها وحدة متماسكة تقوم على الأخوة والتعاون : وذلك يقتضى نصر المظلوم وإعطاء المحروم وتقوية الضعيف . وفي سورة « المدثر » وهي أول سورة أمر الرسول فيها بالبلاغ - نقرأ قول الله تبارك وتعالى :

(١٠) الأنعام : ١٥١ - ١٥٣ .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ . فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ . وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَّوْمَ الدِّينِ . حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ . فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ (١١)

وكان أبو بكر لا يرى مستضعفاً يُعذب من المسلمين ، إلا بذل جهده وماله في سبيل فك إيساره وإنقاذه مما به . وذلك حق الفرد على الجماعة .



الرعي الأول

أخذت الدعاية للإسلام تنتشر في مكة وتعمل عملها في أصحاب الأئمة الكبيرة فسرعان ما يطرحون جاهليتهم الأولى ويخفون إلى اعتناق الدين الجديد وكانت آيات القرآن تنزل على القلوب التي استودعت بنور الإيمان كما ينزل الوابل على التربة الخصبة .

﴿ فَإِذَا أُنْزِلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴾ (١٢) .

كان أصحاب العقائد يتجمعون - في تودة - حول عقائدهم ، ويلتفون - في حب وإعجاب - حول إمامهم ، ويشرحون في حذر - أصول فكرتهم .

والإيمان قوة ساحرة ، إذا استمكنت من شباب القلب وتغلغلت في أعماقه تكاد تجعل المستحيل ممكناً .

ولقد رأينا شباباً وشيوخاً يلتقون عند فكرة من الفكر . ويحلونها من أنفسهم محل العقائد الراسخة . ومع أنها فكرة مادية بحتة . إلا أنهم يجعلون من حياتهم وقود حركتها ، ويتحملون أعباء الأذى في سبيل نصرتها .

وفي السجون - الآن - رجالاً تخرجوا من جامعات الغرب ، يقضون شطراً من أعمارهم مع القتلة وتجار المخدرات !...

ويرون ذلك بعض الجهد الواجب لإنجاح مبادئهم ودفعها إلى الأمام . فكيف إذا كان الإيمان الذي ظهر في صدر الإسلام إيماناً بالله رب السموات والأرض ، وإيماناً بالدار الآخرة حيث ينفلت الإنسان من هذه الدنيا لتستقبله في جوار الله ،

(١٢) الحج : ٥ .

الحدائق الغناء . والقصور الزهر ، من تحتها الأنهار الجارية والنعم المقيم ؟..

إن الرعيل الأول يتكوّن ويتزايد على الأيام .

ومن الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ - أولاً - الإسلام على الصق الناس به من آل بيته وأصدقائه . وهؤلاء لم تخاطبهم ريبة قط في عظمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وجلال نفسه وصدق خبره ، فلا جرم أنهم السابقون إلى مؤازرته واتباعه .

آمنت به زوجته « خديجة » ومولاه « زيد بن ثابت » وابن عمه « علي بن أبي طالب » - وكان صبيّاً يحيا في كفالة الرسول ﷺ - وصديقه الحميم أبو بكر ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام فأدخل فيه أهل ثقته ومودته . عثمان بن عفان . وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص . وآمن القس ورقة بن نوفل وقد روى^(١٣) أن الرسول ﷺ رآه في المنام - بعد مماته - في هيئة حسنة تشهد بكرامته عند الله . وأسلم الزبير بن العوام ، وأبو ذر الغفاري وعمر بن عنبسة ، وسعيد ابن العاص ، وفشا الإسلام في مكة بين من نور الله قلوبهم . مع أن الإعلام به كان يقع في استخفاء ، ودون مظاهرة من التحمس المكشوف أو التحدى السافر ..

وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماماً . ولعلها حسبت محمداً عليه الصلاة والسلام أحد أولئك الديّانين الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها كما صنع أمية بن الصلت ، وقيس بن ساعدة . وعمر بن نفيل وأشباههم . إلا أنها توجست خيفة . من ذيوع خبره ، وامتداد أثره ، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته .

واستمر هذا التطور السري للدعوة ثلاث سنين ، ثم نزل الوحي يُكلف الرسول ﷺ بمعالجة قومه . ومجابهة باطلهم ، لمهاجمة أصنامهم جهاراً .

(١٣) هذا حديث حسن فتصديره بصيغة (روى) غير حسن ، لأنه يشير إلى تضعيفه وليس بضعيف فقد جاء من طريقين حسنيهما الحافظ ابن كثير في البداية : (٠/٣) أخرجه أحدهما أحمد من حديث عائشة ، والآخر أبو يعلى من حديث جابر ، فلا أقل من كون الحديث حسناً بمجموع الطريقين ، ويشهد له قوله ﷺ : « لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين » أخرجه البزار والحاكم (٤٠٩/٢) وابن عساكر من حديث عائشة أيضاً ، وقال الحاكم « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي : « وهو كما قال » ، وقال ابن كثير : « واسناده جيد » .

إظهار الدعوة

قال ابن عباس رضى الله عنهما ، لما نزلت الآية ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (١٤) . سعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادى : « يا بنى فهر ، يا بنى عدى - لبطون قريش - حتى اجتمعوا ، فجعل الذى لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر . ما هو . فجاء أبو لهب وقريش ، فقال النبي ﷺ : « أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدق ؟ » قالوا : ما جربنا عليك كذبا قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد !! » فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ! فنزل قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ .. ﴾ (١٥) .

وعن أبى هريرة : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ فقال : « يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئا » (١٦) .

هذه الصبيحة العالية هي غاية البلاغ . فقد فاصل الرسول عليه الصلاة والسلام قومه على دعوته ، وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو

(١٤) الشعراء : ٢١٤ .

(١٥) حديث صحيح أخرجه البخارى (٤٠٨/٨ - ٤٠٩ - ٥١٠) ومسلم (١٣٤/١) والآية من سورة المسد : ١ .

(١٦) حديث صحيح أخرجه البخارى : (٤٠٨/٨) ومسلم (١٣م/١) من طريقين عن أبى هريرة .

حياة الصلة بينه وبينهم وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله .

لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام كبير المنزلة في بلده مرموقاً بالثقة والمحبة ، وها هو ذا يواجه مكة بما تكره : ويتعرض لخصام السفهاء والكبراء وأول قوم يغامر بخسران مودتهم ، هم عشيرته الأقربون . لكن هذه الآلام تهون في سبيل الحق الذي شرح الله به صدره . فلا عليه أن يبيت بعد هذا الإنذار ومكة تموج بالغرابة والاستنكار . وتستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة ، وتحشى أن تأتى على تقاليدها وموروثاتها .

وبدأت قريش تسير في طريقها ، طريق اللدد ومجانبة الصواب . ومضى محمد ﷺ كذلك في طريقه ، يدعو إلى الله . ويتلطف في عرض الإسلام ويكشف النقاب عن مخازي الوثنية ، ويسمع ويحيب ، ويهاجم ويدافع .. غير أن حرصه على هداية آل الأقربين جعله يجدد مسعاها محاولاً عرض الإسلام عليهم مرة أخرى ، فإن منزلتهم الكبيرة في العرب تجعل كسبهم عظيم النتائج .

وهم - قبل ذلك - أهله الذين يود لهم الخير ، ويكره لهم الوقوع في مساخط الله ، روى ابن الأثير : قال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم (١٧) لما أنزل الله على رسوله : ﴿ وَأُنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ اشتد ذلك عليه ، وضاق به ذرعاً فجلس في بيته كالمرضى ، فأتته عماته يعدنه فقال : ما اشتكيت شيئاً . ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي . فقلن له : فادعهم ، ولا تدع أباً لرب فيهم ، فإنه غير مجيبك . فدعاهم فحضرُوا ومعههم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلاً ، فبادره أبو لُهب وقال : « هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة ! واعلم أنه ليس بقومك بالعرب قاطبة طاقة ! وأنا أحق من أخذك ! فحسبك بنو أبيك . وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يشب بك بطون قريش . وتمدهم

(١٧) لم أجد في الرواة هذا الرواي وإنما فهم ؟ « جعفر بن عبد الله بن الحكم » وهو أنصاري دوسي تابعي صغير يروى عن أنس والتابعين ، فإذا كان هو هذا ، فالإسناد مرسل ضعيف ، ولم أقف على إسناده إليه وإن سطر غيره فلم أعرفه .

العرب فما رأيت أحداً جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به » .

فسكت رسول الله ولم يتكلم في ذلك المجلس ، ثم دعاهم ثانية . وقال :
« الحمد لله أحمده وأستعينه . وأؤمن به وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له .. ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله . والله الذى لا إله إلا هو ، إني
رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة . والله لتموتن كما تنامون . ولتبعثن كما
تستيقظون . ولتحاسبن بما تعملون .. وإنها للجنة أبداً أو النار أبداً » .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك . وأقبلنا لنصيحتك . وأشد تصديقنا
لحديثك !! وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون . وإنما أنا أحدهم ، غير أنى أسرعهم إلى ما
تحب فامض إلى ما أمرت به .

فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين
عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة !!! خذوا على يديه قبل أن يأخذكم غيركم .
فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا .



أبو طالب

إن أبا طالب برغم بقائه على الشرك واستمساكه بدين الآباء - ظل حي العاطفة ظاهر الحذب على ابن أخيه . وهو مدرك كل الإدراك ما سوف تجره هذه الدعوة من متاعب عليه وعلى أسرته ، بيد أن إعزازه لمحمد وتأذيه من مواجهته بما يكره حملاه على ضمان الحرية له . بل على التعهد بحمايته وهو يبلغ عن ربه !!

وأبو طالب من رجال مكة المعدودين . كان معظماً في أهله . معظماً بين الناس فما يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته . وكان بقاءه مع أهل مكة - محترماً للأوثان - من أسباب امتداد نفوذه ورعاية حقوقه .

أما أبو هلب فصورة لأرباب الأسر المتهاكين على مصالحهم وسمعتهم من غير نظر إلى حق أو باطل . فأى عمل يعرض مصالحهم للبور ، أو يخدش ما لاسمه من منزلة يهيج ثائرته ، ويدفعه لاقتراف الحماقات ...؟

وفي طبيعة أبا هلب قسوة تغريه باقتراف الدنيا . كان أبنائه متزوجين بنات محمد ﷺ ، فأمرهم بفراقهن . فطلق عتبة وعتيبة . رقية ، وأم كلثوم .

ولعل أبا هلب كان متأثراً في هذه البغضاء المتنزية بزوجه أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان . وهي امرأة سليطة . توزها على كراهية محمد ودينه علل شتى ولذلك بسطت فيه لسانها . وأطالت عليه الافتراء والدس !

وإذا كانت أهواء الجاهلية تدفع عم محمد ﷺ إلى الإغلاظ معه على هذا النحو الوضيع . فكيف يكون مسلك الأبعاد الذين يتمنون العثار للسليم والتهمة للبرئ .

ولكن ما أبو هلب ؟ وما قريش ؟ وما العرب ؟ وما الدنيا كلها ؟ بإزاء رجل يحمل رسالة من الله الذي له ملك السموات والأرض يريد أن يعيد بها الرشد

لعالم فقد رشده ، وأن يحو بها الأوهام ، في حياة مرغتها الأوهام في الرغام .
ما تجدى وقفة جهول ؟ أو غصبة مغرور في منع هذه الرسالة الكبيرة من المضى إلى هدفها البعيد .

إن الطحالب العائمة لا تقف السفن الماخرة ولكن نقم الجاهليون على المسلمين مروقهم من بين قومهم بهذه الدعوة - حتى ليسمونهم الصباة - فإن المسلمين لأشد نقمة عليهم ، أن سفهوا أنفسهم ، وحقروا عقولهم . وتشبثوا بخرافات ما أنزل الله بها من سلطان .

إن الدعوة التي بدأ بها محمد ﷺ من بطن مكة لم تكن لبناء وطن صغير بل كانت إنشاءً جديداً لأجيال وأمم تظل تتوارث الحق وتندفع به في رحاب الأرض إلى أن تنتهى من فوق ظهر الأرض قصة الحياة والأحياء ..

فماذا تصنع خصومة فرد أو قبيلة لرسالة هذا شأنها في حاضرها ومستقبلها ؟
ومن أولئك الخصوم ؟

* .. متعصبون تحجرت عقولهم تزين لهم سطوتهم البطش بمن يخالفهم
﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ،
يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ..﴾ (١٨) .

* .. أم مترفون سرتهم ثروتهم يحجون الباطل لأنه على أرائك وثيرة ، ويكرهون الحق لأنه عاطل عن الحلى والمتاع .

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾ (١٩) .

* .. أم متعنتون يحسبون هداية الرحمن عبث صبية ، أو أزياء غانية فهم يقولون : دع هذا وهات هذا .

(١٨) الحج : ٧٢ .

(١٩) مريم : ٧٣ .

﴿وَإِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بُقْرَانِ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ..﴾ (٢٠) .

* .. أو مهرجون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر عندما تُقرأ الآيات ، حتى لا تسمع فتفهم فتترك أثراً في عقل نقى وقلب طيب .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢١) .

لو أن أهل مكة ترددوا في تصديق محمد ﷺ حتى يبحثوا أمره ويُحصوا رسالته ، ويزنوا - على مهل - ما لديهم وما جاء به ، لما عابهم على هذا عاقل . ولكنهم نفروا من الإسلام نفور المذنب من ساحة القضاء بعد ما انكشفت جرميته وثبتت إدانته .

وقد حزن رسول الله ﷺ لهذا الإعراض المقرون بالتكذيب والتحدى ، ومن حق كل رجل صدوق نبيل أن يأسف ويألم إذا ألقى نفسه مكذباً مهجوراً .

إلا أن الله واساه ، فأبان له بواطن أولئك المكذبين المتألمين .

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٢٢) .

إن المعتوه إذا اعترض طريقك ووقع في عرضك بلسان حاد ، سمعت من يقول لك : هذا لا يقصد العدوان عليك ولكنه يستجيب لنوازع الجنون في دمه . وكذلك أولئك المشركون ، إن فظاظتهم وإنكارهم تمشى مع دواعي الجحود في طباعهم قبل أن تكون انتقاصاً للرجل الذي يحدثهم أو طعناً في خلقه .

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ .

(٢٠) يونس : ١٥ .

(٢١) فصلت : ٢٦ .

(٢٢) الأنعام : ٣٣ .

ومن ثم فعلى محمد ﷺ أن يمضى فى سبيل البلاغ وأن يجتاز ما يلقي أمامه من صعاب وعقاب ، وعلى المؤمنين برسالته أن يثبتوا ، وليس ثباتهم لمصلحتهم الخاصة فقط ولا حق الإيمان عليهم وكفى ، بل هو لمصلحة الأجيال المقبلة . إن النبيان الشاخص الذى لا يرتكز على سطح الأرض ، إنما يرتكز على دعائم غائرة فى الثرى . وهى التى تحمل ثقله وترفع عمده ، وقد كان أصحاب محمد ﷺ الأول - بصلابة يقينهم وروعة استمساكهم - دعائم رسالته وأصول امتدادها من بعد ، فى المشارق والمغارب .



الاضطهاد

قرر المشركون ألا يألوا جهداً في محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام . ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلى الله ، وعالن قومه بضلال ما ورثوه عن آبائهم . انفجرت مكة بمشاعر الغضب وظلت عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثائرين ، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم ، واستباح في الحرم الآمن من دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، وجعلت مقامهم تحملاً للضميمة وتوقعاً للويل .

وصاحبت هذه السخائم المشتعلة حرب من السخرية والتحقير قصد بها تخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية ، فرمى النبي ﷺ وصحابته بتهم هازلة وشتائم سفهية . وتآلفت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورجاله . على نحو ما تفعل الصحافة المعارضة عندما تنشر عن الخصوم نكتاً لاذعة وصوراً مضحكة للحط من مكانتهم لدى الجماهير .

وبهذين اللونين من العداوة وقع المسلمون بين شقي الرحى .

فرسولهم ينادى بالجنون ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٢٣) .

ويوصم بالسكر والكذب ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (٢٤) .

(٢٣) الحجر : ٦ .

(٢٤) سورة ص : ٤ .

ويشيع ويستقبل بنظرات ملتهمة ناقمة وعواطف منفعة هائجة ﴿وَإِنْ يَكَاذُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٥) .

وليس حظ سائر المسلمين بأفضل من هذه المعاملة ؛ فهم - في غدوهم
ورواحيهم محل التندر واللمز ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ .
وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا
إِنْ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ . وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ (٢٦) .

وانقلبت هذه الحرب إلى تنكيل وسفك دم بالنسبة إلى المستضعفين من
المؤمنين فمن ليست له عصبية تدفع عنه لا يعصبه من الهوان والقتل شيء بل يحبس على
الآلام حتى يكفر أو يموت أو يسقط إعياء .



(٢٥) القلم : ٥١ .

(٢٦) المطففين : ٢٩ - ٣٣ .

عمار بن ياسر

من هؤلاء «عمار بن ياسر» وهو من السابقين الأولين في الإسلام ، وكان مولى لبنى مخزوم . أسلم أبوه وأمه ، فكان المشركون يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرماً ، ومر بهم النبي عليه الصلاة والسلام وهم يعذبون . فقال صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة^(٢٨) فمات ياسر في العذاب . وأغلظت امرأته «سمية» القول لأبي جهل فطعنها في قبلها بحربة في يديه ، فماتت . وهي أول شهيدة في الإسلام ، وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة ، وبوضع الصخر على صدره أخرى ، وبالتغريق أخرى ، وقالوا : لا نتركك حتى تسب محمداً ﷺ أو تقول في اللات والعزى خيراً ففعل ، فتركوه فأقى النبي ﷺ يبكي فقال : ما وراءك ؟ قال :

(٢٧) حديث حسن صحيح . رواه ابن إسحق في السيرة (٢٠٣/١) بلاغاً . ووصله الحاكم (٣٨٨/٣ - ٣٨٩) والطبراني في الأوسط كما في «المجمع» (٢٩٣/٩) عن جابر ابن عبد الله ، وقال الحاكم «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي وأخرجه أبو أحمد الحاكم كما في (الاصابة) من طريق عقيل عن الزهري عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه . وهذا سند صحيح عن مراسيل الصحابة وهي مقبولة عند العلماء وأخرجه أحمد (٤٣٩ رقم) وأبو نعيم في الحلية (١٤٠/١) عن عثمان بن عفان ورجاله ثقات إلا أنه = منقطع كما قال الحافظ . فهذه طرق تشهد لصحة الحديث .

(٢٨) في ثبوت هذا السياق نظر : وعلته الإرسال أخرجه ابن جرير في تفسيره (١١٣/١٢) وأبو نعيم (١٤٠/٩) وأبو بكر الجصاص في (أحكام القرآن) (٢٣٦/٣) من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عثمان ابن ياسر . قال : أخذ المشركون عماراً فلم يتركوه حتى سب رسول الله ﷺ وذكر آلتهم بخير .. الحديث . وأخرجه الحاكم (٣٥٧/٢) عن أبي عبيدة هذا عن أبيه . ثم قال : (صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي . كذا قال . وقد كنت قديماً اغتررت بقولهما ، والآن تبين لي خطأهما إذ أن الجماعة روه عن أبي عبيدة . وهب أن قوله : (عن أبيه) (صحيح) فأبوه تابعي وليس بصحابي فالحديث مرسل إن لم يكن معضلاً ، ثم أن أبا عبيدة وأباه لم يخرج لهما الشيخان شيئاً . بل أن الأول قال فيه ابن أبي حاتم (٢/٤ - ٤٠٥) عن أبيه : (منكر الحديث) ووافقه ابن أبي معين وغيره : فأقى للحديث الصحة ؟ بله على شرطهما . نعم إنما يصح منه نزول الآية في عمار مجيء ذلك من طرق ساقها ابن جرير . والله أعلم .

شر يا رسول الله ، كان الأمر كذا وكذا قال : فكيف تجد قلبك ؟ قال : أجدته مطمئناً بالإيمان . فقال : يا عمار .. إن عادوا فعد . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾^(٢٩) وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

* * *

بلال

ومن هؤلاء « بلال بن رباح » كان سيده أمية بن خلف - إذا حميت الشمس وقت الظهيرة - يقلبه على الرمال الملتبهة ظهراً لبطن ، ويأمر بالصخرة الجسيمة فتلقى على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فما يزيد بلال عن ترديد : أحد .. أحد ..

* * *

خباب

ولما اشتدت ضراوة قريش بالمستضعفين ذهب أحدهم - خباب بن الارت - إلى رسول الله ﷺ يستنجد به ، قال خباب : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بُرْدَه في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا . ألا تدعونا ؟؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه ، والله ليتمنن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » .

* * *

ماذا عسى يفعل محمد ﷺ لأولئك البائسين ؟ إنه لا يستطيع أن يسط حمايته على أحد منهم ، لأنه لا يملك من القوة ما يدفع به عن نفسه ، وقد كان في صلاته

:

(٢٩) النحل : ١٠٦ .

يُرمى عليه - وهو ساجد - بكرش الجزور أو رحم الشاة المذبوحة ، وكانت الأنجاس تُلقى أمام بيته ، فلا يملك إلا الصبر .

إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لم يجمع أصحابه على مغنم عاجل أو آجل ، إنه أزاح الغشاوة عن الأعين ، فأبصرت الحق الذي حجبت عنه دهرأ ، ومسح الران عن القلوب ، فعرفت اليقين الذي فطرت عليه وحرمتها الجاهلية منه ، إنه وصل البشر برهم فربطهم بنسبهم العريق وسببهم الوثيق ، وكانوا - قبلاً - حيارى محسورين ، إنه وازن للناس بين الخلود والفناء ، فآثروا الدار الآخرة على الدار الزائلة ، وخيرهم بين أصنام حقيرة وإله عظيم . فازدروا الأوثان المنحوتة ، وتوجهوا للذي فطر السموات والأرض .

حسب محمد ﷺ أن قدّم هذا الخير الجزيل ، وحسب أصحابه أن ساقته العناية لهم ، فإذا أودوا فليحتسبوا ، وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان فليلزموا ما عرفوا ، والحرب القائمة بين الكفران والإيمان سينجلي غبارها يوماً ما ، ثم تتكشف عن شهداء وعن هلكى ، وعن مؤمنين قائمين بأمر الله ومشركين مدحورين بإذن الله :

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ . وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاغْبِئْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٠) .

وكان رسول الله ﷺ يث عناصر الثقة في قلوب رجاله ، ويقض عليهم ما أفاضه الله على فؤاده من أمل رحيب في انتصار الإسلام ، وانتشار مبادئه ، وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفرة في المشارق والمغارب وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة مادة لسخريتهم وضحكهم ، كان الأسود بن المطلب وجلساؤه :

... إذا رأوا أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام - يتغامزون بهم ويقولون : قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيفلبون - غداً على ملك كسرى وقيصر ، ثم يصفرون ويصفقون .

وتواصى المشركون بعد مصادرة الدعوة بهذا الأسلوب أن يمنعوا الوافدين إلى مكة من الاستماع إليها ، قال الوليد بن المغيرة لرجال قريش : إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد - ﷺ - فتختلف فيه أقوالكم ، يقول هذا : ساحر ، ويقول هذا : كاهن ، ويقول هذا : شاعر ، ويقول هذا : مجنون ، وليس يشبه واحداً مما يقولون ، ولكن أصلح ما قيل فيه : ساحر ، لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته ، وقد اقتسم هؤلاء المتآمرون مداخل مكة أيام الموسم ، يحذرون الناس من الداعية الخارج على قومه ، وينعتونه بما تواصوا به من سحر مفرق ! .

ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى الحجيج في مجامعهم ، ويحدثهم عن الإسلام ، ويطلب منهم النصرة .

عن جابر بن عبد الله : كان رسول الله يعرض نفسه بالموقف فيقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه ! فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي » (٣١) .



(٣١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٢٧٨/٢) (٥٧/٤) وابن ماجة (٧٨/١) بإسناد صحيح عنه وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » ، وأخرجه الحاكم (٦١٢/٢ - ٦١٣) وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي .

مفاوضات

ظن المشركون أن بطشهم بالمستضعفين ، ونيلهم من غيرهم سوف يصرف الناس عن الاستجابة لداعى الله ، وظنوا أن وسائل السخرية والتهكم التى جنحوا إليها ستهد قوى المسلمين المعنوية فيتوارون خجلاً من دينهم ويعودون كما كانوا إلى دين آبائهم ، غير أن ظنونهم سقطت جميعاً ، فإن أحداً من المسلمين لم يرتد عن الحق الذى شرفه الله به ، بل كان المسلمون يتزايدون ! ولم تفلح طرق الاستهزاء فى الصد عن سبيل الله وتشويه معالمها ، إنها زادت شعور المسلمين بما تزخر به الوثنية من معرات ومخاز تستحق الفضيحة والاستئصال ، ما تصنع سخرية الجهول بالعالم :

﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَجْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ..﴾ (٣٢) .

رأت قريش أن تجرب أسلوباً آخر ، تجمع فيه بين الترغيب والترهيب ، ف لترسل إلى محمد ﷺ تعرض عليه من الدنيا ما يشاء ، ولترسل إلى عمه الذى يحميه ، تحذره مغبة هذا التأيد ، حتى يكلم هو الآخر محمداً أن يسكت ، فلا يجز المتاعب على كاهله ووليه .

* * *

أرسلت قريش « عتبة بن ربيعة » - وهو رجل رزين هادئ - فذهب إلى رسول الله ﷺ يقول : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ؛ فاسمع منى أعرض عليك

(٣٢) هود : ٣٨ ، ٣٩ .

أموراً لعلك تقبل بعضها : إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالأً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالأً .

وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا فلا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتىك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبدلنا فيه أموالنا حتى تبرأ .

فلما فرغ من قوله تلا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، عليه صدر سورة السجدة :

﴿ حَم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَزَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .. ﴾ (٣٣) .

حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿ .. فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَذَلُّكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (٣٤) .

تخير رسول الله ﷺ هذه الآيات من الوحي المبارك ليعرف محدثه حقيقة الرسالة والرسول . إن محمداً عليه الصلاة والسلام يحمل كتاباً من الخالق إلى خلقه يهديهم من ضلال وينقذهم من خيال وهو - قبل غيره مكلف بتصديقه والعمل به والنزول عند أحكامه . فإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا إليه ويستغفروه

(٣٣) هذه القصة أخرجه ابن إسحاق في المغازى (١٨٥/١ من سورة ابن هشام) بسند حسن عن محمد ابن كعب القرظى فرسلاً ، ووصله عبد بن حميد وأبو يعلى الغوى من طريق أخرى من حديث جابر رضى الله عنه ، كما في تفسير ابن كثير (٩٠/٤ - ٩١) وسنده حسن . إن شاء الله . والآيات من سورة فصلت : ١ - ٧ .

(٣٤) فصلت : ١٣ .

فمحمد عليه الصلاة والسلام ألهم الناس بالاستغفار وألزمهم للاستقامة وما يطلب ملكاً ولا مالاً وجاهاً ، لقد أمكنه الله من هذا كله فعف عنه وترفع أن يمد يده إليه . وبسط العطاء مما سبق إليه من خيرات ، فأنفق وادياً من المال في ساعة من نهار ، وترك الحياة غير معقب لذريته درهماً .

إن عتبة - باسم قريش - يريد أن يترك محمد عليه الصلاة والسلام الدعوة إلى الله وإقامة العدالة بين الناس ! ماذا تصير إليه الحياة لو أن صخرة من الأرض انخلعت عنها وصعدت إلى دارات الفلك تطلب من الشمس أو أى كوكب آخر أن يقف مسيره وإشعاعه ، ويحرم الوجود من ضيائه وحرارته ؟!

ألا ما أغرب هذا الطلب ؟ وما أجدر صاحبه أن يرتد إلى مكانته لا يعدوها ولذلك ، بعد ما استمع عتبة إلى آيات القرآن توقظ ما كان نائماً من فكره ، استمع إلى الوعيد يهدر فيحرك ما كان هاجعاً من عاطفته :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ .

لقد وضع عتبة يده على جنبه وقام كأن الصواعق ستلاحقه ، وعاد إلى قريش يقترح عليها أن تدع محمداً وشأنه !

* * *

أما وفد قريش إلى أبى طالب ، فقد أخذ يقول : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آهتنا . وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا . فيما أن تكفه عنا وإما أن تخل بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً وردهم رداً رقيقاً . فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ بما هو عليه ثم استشرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا ، وأكثر قريش ذكر رسول الله ﷺ ، وتآمروا فيه . فمشوا إلى أبى طالب مرة أخرى فقالوا : يا أبا طالب إن لك فينا سناً وشرفاً ، وإننا قد استنهييناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل ، وإننا - والله - لا نصبر على هذا من شتم آهتنا وآبائنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا أو ننزله وإياك في ذلك ، إلى أن يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا عنه .

عظم على أى طالب فراق قومه وعداوتهم له ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله ﷺ وخذلانه ، وبعث إلى رسول الله ﷺ ، فأعلمه ما قالت قريش وقال له : أبق على نفسك وعلى ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيع فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدأ لعمه رأى ، وأنه خذله وضعف عن نصرته فقال رسول الله ﷺ صلوات الله وسلامه عليه : « يا عمه .. والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » (٣٥) .

ثم بكى رسول الله ﷺ وقام ، فلما ناداه عمه أبو طالب فأقبل عليه وقال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً ، وأنشد :
والله لن يصلوا إليه بجمعهم حتى أوسد في التراب دفيناً

* * *

وهكذا أخفق الإغراء والإرهاب في تعويق الدعوة . وأدركت قريش أن ما تصبو إليه بعيد المنال . فعادت سيرتها الأولى ، تصب جام غضبها على المؤمنين ، وتبذل آخر ما في وسعها للتشكيل بهم ومحاولة فتنهم عن دينهم .

وحزن الرسول الكريم للمآسى التي تقع لأصحابه وهو عاجز عن كفها ، فأوعز إلى من قل نصيره ، ونبا به المقام في مكة أن يهجروا إلى الحبشة . وكان ذلك لخمس سنين من مبعثه . أو بعد سنتين من جهره بالبلاغ .

* * *

(٣٥) حديث ضعيف أخرجه ابن إسحاق (١٧٠/١) ومن طريقه ابن جرير (٢٧/٢) عن يعقوب ابن عتبة بن المغيرة بن الأخفش به وهذا إسناد معضل ، يعقوب هذا لم يدرك أحداً من الصحابة فهو من أتباع = التابعين وقد أخرج هذه القصة مختصراً الطبراني في الأوسط والكبير من حديث عقيل بن أبى طالب ، وفيه مكان قوله : « لو وضعوا الشمس .. » ما نصه « والله ما أنا باقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحد عن هذه الشمس شعلة من نار » وفيه عقب هذا فقال أبو طالب : « والله ما كذب ابن أخي أرجعوا راشدين » قال الهيثمي في المجمع « (١٥/٦) : « رواه أبو يعلى باختصار يسير من أوله ، ورحال أبى يعلى رجال الصحيح » .

هجرة إلى الحبشة

كان الرحيل إلى الحبشة تسليلاً في الخفاء ، حتى لا تستيقظ قريش للأمر فتحبطه ، ولم يبدأ كذلك على نطاق واسع ، بل كان الفوج الأول مكوناً من بضعة أسر ، فيهم رقية ابنة النبي عليه الصلاة والسلام وزوجها عثمان بن عفان ، ونفر آخر من المهاجرين لم يزدوا جميعاً عن ستة عشر . وقد يمموا شطر البحر حيث قيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة ، فلما خرجت قريش في آثارهم إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين . ولم يمكث أولئك المهاجرون طويلاً حتى ترامت إليهم الأخبار بأن المشركين هادنوا الإسلام وتركوا أهله أحراراً ، وأن الإيذاء القديم انقطع فلا بأس عليهم إن عادوا .

وتركت هذه الإشاعة أثرها في قلوب المؤمنين ، فقرروا العود إلى وطنهم ، حتى إذا اقتربوا من مكة تبينت لهم الحقيقة المحزنة : وعرفوا أن المشركين أشد ما يكونون خصاماً لله ورسوله والمؤمنين ، وأن عدوانهم لم ينقطع يوماً ..

ويزعم بعض المغفلين أنه وقعت هدنة حقاً بين الإسلام والوثنية أساسها أن محمداً ﷺ تقرب إلى المشركين بمدح أصنامهم والاعتراف بمنزلتها (١) وأن هذه الهدنة الواقعة هي التي أعادت المسلمين من الحبشة ..

وماذا قال محمد عليه الصلاة والسلام في مدح الأصنام ؟ يجيب هؤلاء المغفلون بأنه قال : (تلك الغرائق العلا . وإن شفاعتهم لترتجى) (٢) .

وأيضاً وضع هذه الكلمات ؟ وضعها في سورة « النجم » مقحمة وسط الآيات التي جاء فيها ذكر هذه الأصنام . فأصبحت هكذا :

﴿ أفرأيتُم اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (تلك الغرائق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنَّ هِيَ إِلَّا

أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ .. ﴿٣٦﴾

ويكون معنى الكلام على هذا : خبروني عن أصنامكم : أهي كذا وكذا ؟ إن شفاعتها مرجوة ، إنها أسماء لا حقائق لها . خرافات ابتدعت واتبعت . ما لكم جعلتموها إناثاً ونسبتموها لله وأنتم تكرهون نسبة الإناث لكم ؟ تلك قسمة جائزة !.

فهل هذا كلام يصدر عن عاقل فضلاً من أن ينزل به وحي حكيم ؟
ولكن هذا السخف وجد من يكتبه وينقله !

إن محمداً ﷺ لو كذب على الله باختلاق كلام عليه لقطع عنقه بنص الكتاب الذي جاء به . قال الله جل شأنه :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (٣٦) .

بيد أن كتب التاريخ والتفسير التي تركت للوراقين والزنادقة يشحنونها بالمفتريات اتسعت صفحاتها لذكر هذا اللغو القبيح . ومع أن زيفه وفساده لم يخفيا على عالم إلا أنه ما كان يجوز أن يدون مثله .

إنك تفتح « الخازن » في تفسير القرآن (سورة هود) فتقرأ ما يلي : لما كثرت الأرواث في سفينة نوح أوحى الله إليه أن اغمر ذنب الفيل فغمزه فوقه منه خنزير وخنزيرة ، ومسح على الخنزير فوقه منه الفأرة . فأقبلوا على الروث فأكلوه . فلما أفسد الفأر في السفينة وجعل يقرضها ويقطع حبالها ، أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد ، فضرب فخرج من منخره قط وقطة . فأقبلا على الفأر فأكلاه .

أرأيت هذا الكلام الفارغ ؟ أرأيت من قبله حديث الغرائيق ؟ إن كثيراً من

هذه الخرافات الصغيرة توجد في كتب شتى عندنا . ولا ندرى متى تنظف هذه الكتب القديمة منها . فهي لا ريب مدخولة عليها أيام غفلة المسلمين وغلبة الدسائس اليهودية على أفكارهم ومخطوطاتهم .

والذى ورد في الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قرأ سورة « النجم » في محفل يضم مسلمين ومشركين ، وخواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب . فلما أخذ صوت الرسول ﷺ يهدير بها ويرعد بنذرهما حتى وصل إلى قول الله : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى . أَرَأَيْتَ الْآزِفَةَ . لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ . أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ (٣٧) .

كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين ، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين ، مع غيرهم من المسلمين .

فلما نكبسوا على رؤوسهم وأحسوا أن جلال الإيمان لوى زمامهم ، لدموا على ما كان منهم ، وأحبوا أن يعتذروا عنه ، بأنهم ما سجدوا مع محمد ﷺ إلا لأن محمداً ﷺ عطف على أصنامهم بكلمة تقدير (٣٨) (كذا) وليس يُستغرب - وهو ابن خال النبي عليه الصلاة والسلام - أن يقول له ساخراً : كلمت اليوم من السماء يا محمد ؟

وليس أسمع من اعتذار المشركين عن سجودهم إلا تصديق هذا الاعتذار .. قد حاول المشركون أن ينشروا فريتهم هذه ليعكروا على الرسول عليه الصلاة والسلام ويشوشوا على الوحي وليوهموا بأن محمداً ﷺ في بعض أحيانه مال إليهم . وهيئات

(٣٧) النجم : ٥٣ - ٦١ .

(٣٨) أين الدليل النقلى عن هذا الاعتذار ؟ وإن المشركين هم الذين اختلقوا فريتهم هذه وحاولوا نشرها ؟ مثل هذه الأمور لابد لها من دليل منقول ، وما المانع أن تكون هذه الفرية حديث من بعد ؟ وهذا هو الأقرب ، فإنها - أعني هذه الفرية - لم ترو بسند معتبر عن صحابى ، بل كل طرقها مرسل لا يدرى من الذى حدث بها ممن يمكن أن يدرك عصر النبوة والرسالة وقد فصلت القول في بطلان هذه القصة من الوجهة الحديثية في كتابى « نصب المجانيق لنسف قصة الغرائيق » ولما يطبع .

فإن الحرب التي شنها محمد ﷺ على الوثنية لم تزدها الليالي إلا ضراماً ، ولم تزده من عبيدها إلا خصاماً .

* * *

عاد من هاجر إلى الحبشة لياغت بأن الاضطهاد الواقع على الإسلام أحد وأشد فدخل بعضهم مكة مستجيراً بمن يعرف من كبرائها ، وتوارى الآخرون .

لكن قريشاً أثبت إلا أن تنكل بالقادمين ، وأن تغرى سائر القبائل بمضاغفة الأذى للمسلمين . فلم ير الرسول ﷺ بداً من أن يشير على أصحابه بالهجرة مرة أخرى إلى الحبشة . وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها . بيد أن المسلمين كانوا أسرع . فخرج منهم في هذا الفوج ثلاثة وثمانون رجلاً وتسع عشرة امرأة ، ويسر الله لهم السفر فانحازوا إلى نجاشي الحبشة . ووجدوا عنده ما يبغون من أمان وطيب جوار وكرم وفادة .

والظاهر أن هذا النجاشي كان رجلاً راشداً نظيف العقل ، حسن المعرفة لله ، سليم الاعتقاد في عيسى عبد الله ورسوله عليه السلام . وكانت مرونة فكره سر المعاملة الجميلة التي وفرها لأولئك اللاجئين إلى مملكته ، فارين بدينهم من الفتن .

* * *

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم وأغرتهم كراهيتهم للإسلام أن يبعثوا إلى النجاشي وفدًا منهم محملاً بالهدايا والتحف ، كي يحرم المسلمين وده ، ويطوى عنهم بشره .

وكان الوفد من عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة - قبل أن يسلموا - واستعان الوفد على النجاشي برجال حاشيته بعد أن ساقوا إليهم الهدايا ، وزودوهم بالحجيج التي يطرد بها أولئك المسلمون ! قالوا : إن ناساً من سفهائنا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دين الملك ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم .. » .

واتفقوا معهم أن يسيروا على النجاشي بإقصائهم ..

فلما فوتح النجاشى فى الأمر وأشير عليه بإبعاد القوم ، رأى أن لابد من تمحيص القضية وسماع أطرافها جميعاً .

ثم أرسل إلى أصحاب النبى ﷺ فدعاهم . فحضرُوا ، وقد أجمعوا على صدقه ، فيما ساءه وسره .

وكان المتكلم عنهم جعفر بن أبى طالب . فقال لهم النجاشى :

ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من الناس ؟

فقال جعفر : أيها الملك .. كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام . ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف .

حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا لتوحيد الله وأن لا نشرك به شيئاً ، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة والصيام - وعدد عليه أمور الإسلام - قال جعفر : فآمنا به ، وصدقناه ، وحرّمنا ما حرّم علينا ، وحللنا ما حل لنا . فتعدى علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان . فلما قهرونا وظلمونا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورجونا أن لا نظلم عندك .

فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله شئ ؟ قال : نعم . فقرأ عليه سطوراً من « كهيعص » فبكى النجاشى وأساقفته ، وقال النجاشى : « إن هذا الذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة . انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكما أبداً » - يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه - فخرجا وقال « عمرو » لعبد الله بن أبى ربيعة : والله لآتينه غداً بما يبید خضراءهم .

فلما كان الغد قال للنجاشى : إن هؤلاء يقولون فى عيسى بن مريم قولاً عظيماً . فأرسل النجاشى يسألهم عن قولهم فى المسيح . فقال جعفر : نقول فيه الذى

جاءنا به نبينا ، هو عبد الله ورسوله وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء
البتول .

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال : ما عدا عيسى ما قلت قدر هذا
العود^(٣٩) فنخرت بطارقه ! فقال : وإن نخرتم ! وقال للمسلمين : اذهبوا فأنتم
آمنون ، ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأنني آذيت رجلاً منكم ! ورد هدية قريش
وقال : ما أخذ الله الرشوة مني حتى آخذها منكم ، ولا أطاع الناس فيّ حتى
أطيعهم فيه^(٤٠) وأقام المسلمون عنده بخير دار .

أخفقت حيلة عمرو ، وعاد الوفد إلى مكة يجر أذيال الخيبة . وعرفت قريش
أنها لن تشبع ضغيتها على الإسلام وآله إلا في حدود سلطانها ، فعزمت أن تشفى
غيطانها من يقع تحت أيديها .



(٣٩) اختلف النصارى قديماً في طبيعة المسيح على مذاهب شتى . وكان هناك مذهب يقوم على اعتباره
بشراً مرسلأً ، وليس إلهأً ولا نداً لله . ولا يزال في الغرب المسيحي أناس يعتقدون هذا المذهب الموحد . ونعتقد أن
نجاشي الحبشة على هذا الرأي . وإن كان بطارقة الكنيسة يستنكرونه أشد الاستنكار .
(٤٠) أخرج هذه القصة ابن إسحاق في المغازي (٢١١/١ - ٢١٣ من ابن هشام) وأحمد (رقم
١٧٤٠) من طريق ابن إسحاق بسند صحيح ، من حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ .

إسلام حمزة وعمر

إن الأفق المتلبد بالسحب قد يتولد منه برق يضيئ . لقد غبرت على المسلمين في مكة أيام غلاظ ، اضطرت بيوتاً عديدة أن تفر بدورها ، وبقي من بقي منهم يكابد العنت من شطط المشركين وكيدهم ، إلا أن عناصر جديدة دخلت في الإسلام جعلت قريشاً تتروى في أمرها قبل أن تقدم على إساءتها المبيتة .

أسلم « حمزة » بن عبد المطلب ، عم النبي عليه الصلاة والسلام وأخوه من الرضاع ، وهو رجل أيدّ جلد قوى الشكيمة . وسبب إسلامه الغضب لما بلغه من تهجم أبي جهل على رسول الله ﷺ تهجماً بذيئاً . قالت له أمة لعبد الله بن جدعان : يا أبا عمار .. لو رأيت ما لقي ابن أخيك « محمد » من أبي الحكم بن هشام فإنه سبه وآذاه ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد - وكانت المرأة قد شهدت هذا الحادث في مسكن قريب - فأسرع « حمزة » محملاً لا يلوى على شئ وصعد إلى أبي جهل وهو في مجلسه من قومه ، ثم ضرب رأسه بالقوس ، فشجه شجة منكرة وقال : أتشتمه وأنا على دينه ؟

وكما يقول البعض : طلبنا العلم للدنيا فأبى الله إلا أن يكون للدين ! كان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل أبي أن يهان مولاه ، ثم شرح الله صدره فاستمسك بالعروة الوثقى . واعتز به المسلمون أيما اعتزاز .

أما عمر بن الخطاب فكان من أول الفتانين المستهزين بالإسلام ، كان معروفاً بحدة الطبع ، وقوة الشكيمة . وطالما لقي المسلمون منه ألوان الأذى .

روت زوجة عامر بن ربيعة قالت : إنا لنرحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر لبعض حاجته ، إذ أقبل عمر - وهو على شركه - حتى وقف عليّ وكنا نلقى منه البلاء ، فقال : أتطلقون يا أم عبد الله ؟ قالت : نعم .. والله لنخرجن في أرض

الله ، فقد آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا فرجاً . قالت : فقال عمر :
صحبكم الله ، ورأيت له رقة وحزناً ..!! قالت : فلما عاد عامر أخبرته وقلت له :
لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا .. قالت : أطمعت في إسلامه ؟ قلت : نعم .
فقال . « لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب » !! - لما كان يراه الرجل من شدته
وغلظته على المسلمين .

ولكن قلب المرأة كان أصدق من رأى الرجل فإن غلظة عمر كانت قشرة
خفيفة ، تكمن وراءها ينابيع من الرقة والعطف والسماحة .

والظاهر أن عمر كانت تصطرع في نفسه مشاعر متناقضة : احترامه للتقاليد
التي سنّها الآباء والأجداد . واسترساله مع شهوات السكر واللهو التي ألفها .. ثم
إعجابه بصلافة المسلمين واحتمالهم البلاء في سبيل عقيدتهم ، ثم الشكوك التي
تساوره - كأي عاقل - في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من
غيره ، ولهذا ما أن يثور حتى يخور . ذهب ليقتل محمداً ﷺ ثم نثته عن عزمه
كلمة . ولما علم بإسلام أخته وزوجها اقتحم عليهما البيت صاخباً متوعداً . وضرب
أخته فشجها ، وأعادته منظر الدم المراق إلى صوابه . فرجحت نواحي البر والخير في
نفسه ، وتناول ورقة كتبت فيها بعض الآيات ، وتلاها . ثم قال : ما أحسن هذا
الكلام وأكرمه ..؟

واستكان عمر للحق فمشى إلى رسول الله ، يعلن إسلامه .

فلما خلصت نفسه من شوائبها ، وتمحصت للإسلام ، كان مدداً عظيماً لجند
الله فازداد المسلمون بن منعة ، ووقعت في نفوس الكافرين منه حسرة .

ورأت قريش أن أمر الإسلام ينمو ويعلو ، وأن وسائلها الأولى في محاربتهم لم
تمنع انتشاره أو تنفر أنصاره ، فأعادت النظر في موقفها كله لترسم خطة جديدة
أقسى وأحكم ، وأدق وأشمل .

* * *

المقاطعة العامة

وتمخض حقد المشركين عن عقد معاهدة تعتبر المسلمين ومن يرضى بدينهم أو يعطف عليهم ، أو يحمي أحداً منهم حزباً واحداً دون سائر الناس ، ثم اتفقوا ألا يبيعوهم أو يبتاعوا منهم شيئاً وألا يزوجهم أو يتزوجوا منهم ، وكتبوا ذلك في صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة ، توكيداً لنصوصها .

ولا شك أن المتطرفين من ذوى النزق والحدة نجحوا في فرض رأيهم وإشباع ضغنتهم . فاضطر الرسول ومن معه إلى الاحتباس في شعب بني هاشم وانحاز إليهم بنو المطلب كافرهم ومؤمنهم على سواء ما عدا أبا لهب فقد آزر قريشاً في خصومتها لقومه

وضيق الحصار على المسلمين ؛ وانقطع عنهم العون ، وقل الغذاء حتى بلغ بهم الجهد أقصاه ، وسمع بكاء أطفالهم من وراء الشعب ، وعضتهم الأزمات العصبية حتى رثى لحالهم الخصوم . ومع اكفهار الجو في وجوههم فقد تحملوا في ذات الله الولايات .

ولم تفتّر حدة الوثنيين في الحملة على الإسلام ورجاله ، وفي تأليب العرب عليهم من كل فج .

قال السهيلي : كانت الصحابة إذا قدمت غير إلى مكة ، يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام قوتاً لعياله فيقوم أبو لهب فيقول : يا معشر التجار غالوا علي أصحاب محمد - ﷺ - حتى لا يدركوا معكم شيئاً . وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فأنا ضامن لا خسار عليكم ، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع . وليس في يده شيء يطعمهم به . ويغلبو التجار على أبي لهب فيرجعهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعاً وعرياً .

وروى يونس عن سعد بن أبي وقاص قال : خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقة تحت البول ، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة ، فأخذتها وغسلتها ، ثم أحرقتها ورضضتها بالماء ، فقيت بها ثلاثاً .

فانظر كيف انتهى الحصار بالمسلمين . وكيف أضناهم الحرمان وألجأهم أن يطعموا مالا مساغ له ؟؟ . وقد أحزنت تلك الآلام بعض ذوى الرحمة من قريش . فكان أحدهم يوقر البعير زاداً ثم يضربه في اتجاه الشعب ويترك زمامه ليصل إلى المحصورين فيخفف شيئاً مما بهم من إعياء وفاقة ..

كم بقيت هذه الضائقة ؟ ثلاث سنين كالحلة كان رباط الإيمان وحده هو الذى يمسك القلوب ويصير على اللاأواء ..

ومن الطبيعي أن يستعجل المسلمون الخروج من هذه المآزق . لطالما وعدوا بالنصر والتمكين ، فما وجلوا إلا الروح والشغب ! وها هم أولاء مخرجون فى أرض تنكرت لهم ، واقشعرت تحت أقدامهم . ولا ريب أن قلوبهم امتلأت غيظاً على أولئك المشركين الذين سخروا من جميع القيم الفاضلة ، وكفروا بانتصارها فى الدنيا كفرهم بمجئ اليوم الآخر ولو لم يطلب أولئك المعذبون النصر لينقذهم من بأسائهم لطلبوه ، كى يخزوا به المكذبين ويؤبوا المتوقحين ، بيد أن الوحي كان ينزل فيطالب المسلمين باليقين والثبات دون ارتقاب لهذه النتائج المتوقعة ، يجب أن يحملوا على حقائق الإيمان التى عرفوها ، وأن يستملوا من سموها وصدقها ما يراغمون به الأيام والأحداث .

﴿ وَإِذَا تُرِيتَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّنَا فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ . وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤١) .

وكان المشركون أيضاً يتعجلون خاتمة الصراع بينهم وبين أولئك المسلمين ؛ ويتعجلون لأنهم يضحكون منها فما يثقون ببعث أو جزاء ، ولا يظنون أبداً أن يوماً

(٤١) يونس : ٤٦ : ٤٧ .

قريباً أو بعيداً سينشق فجره ، فإذا مكة خالية من الأصنام ، وإذا أذان التوحيد يرن في أرجائها ، وإذا المحصورون في الشعب هم أصحاب الأمر والنهي . والسادة الحاكمون بأمرهم اليوم أسرى يرجون العفو !! وكان يقينهم من أن اليوم والغد لهم يزين لهم الاستهزاء بهذا الوعد والتعريض به .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن آتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ماذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ . أَنتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ، آلآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ؟ ﴾ (٤٢) .

وكان الدخول في الإسلام والبقاء عليه أبعد ما يكون عن التهمة . ربما اعتنق فريق من الناس مبدأ ما - عن صدق واقتناع - وليس يمنعهم ذلك من التماس النفع به والتقدم من ورائه .

أما أولئك السابقون الأولون فقد علموا أن فقدان المنافع وهلاك المصالح الخاصة أول ما يلقون من تضحية في سبيل عقيدتهم .

ولا أحسب شيئاً يرى النفوس على التجرد كهذا التفاني في الحق ، للحق ذاته ، ثم إن القرآن كان صارماً في قمع المتاجرة بالعقائد . والإثراء على حسابها ، والعلو في الأرض باسمها .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْحَسُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤٣) .

وقد أفاد الصحابة من ذلك عفة ونقاء وإخلاصاً لا يعرف لها في التاريخ نظير ، فلما تعثرت تيجان الملوك بأقدامهم ، واستسلمت الأقطار المكتظة بالخير لجيوشهم ، كانت دوافع العقيدة وأهدافها هي التي تشغل بالهم قبل الفتح وبعده . فلم يكثرثوا

(٤٢) يونس : ٤٨ - ٥١ .

(٤٣) هود : ١٥ ، ١٦ .

بذهب أو فضة . إنما عناهم - أولاً وآخرأ - إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

* * *

وفي أيام الشَّعب كان المسلمون يلقون غيرهم في موسم الحج ، ولم تشغلهم الآلامهم عن تبليغ الدعوة وعرضها على كل وفد ، فإن الاضطهاد لا يقتل الدعوات بل يزيد جذورها عمقاً وفروعها امتداداً ، وقد كسب الإسلام أنصاراً كثيراً في هذه المرحلة ، وكسب - إلى جانب ذلك - أن المشركين قد بدأوا ينقسمون على أنفسهم ويتساءلون عن صواب ما فعلوا . وشرع فريق منهم يعمل على إبطال هذه المقاطعة ونقض الصحيفة التي تضمنتها .

وأول من أبلى في ذلك بلاءً حسناً « هشام بن عمرو » فقد ساءته حال المسلمين ورأى ما هم فيه من عناء ، فمشى إلى زهير بن أبي أمية ، وكان شديد الغيرة على النبي ﷺ والمسلمين ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب . فقال : يا زهير ، أرضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت ؟

أما إني أحلف بالله : لو كانوا أخوال أبي الحكم - يعني أبا جهل - ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك أبداً ، فقال : فماذا أصنع ؟ وإنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لنقضتها ! فقال : قد وجدت رجلاً ، قال : ومن هو ؟ قال : أنا . قال زهير : أبغنا ثالثاً . فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له : أرضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد ذلك موافق عليه ؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إلى مثلها منكم أسرع !! قال : ما أصنع ؟ وإنما أنا رجل واحد . قال : قد وجدت ثانياً . قال : من هو ؟ قال : أنا . قال : أبغنا ثالثاً . قال : قد فعلت . قال : من هو ! قال : زهير بن أبي أمية : قال : أبغنا رابعاً . فذهب إلى أبي البختري بن هشام ، وقال له نحواً مما قال للمطعم . قال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ قال : أنا وزهير والمطعم . قال : أبغنا خامساً . فذهب إلى زمعة بن الأسود ، فكلمه وذكر له قرابته ، قال : وهل على هذا الأمر

مُعِين ؟ قال : نعم . وسمى له القوم .

فاتعدوا « خطم الحجون » الذى بأعلى مكة ، فاجتمعوا هنالك وتعهدوا على القيام فى نقض الصحيفة . فقال زهير : أنا أبدؤكم . فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير فطاف بالبيت . ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ، أناكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة !! قال أبو جهل : كذبت والله لا تشق . قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا بها حين كتبت !! قال أبو البختري : صدق والله زمعة لا نرضى ما كتب فيها . قال المطعم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك !! وقال هشام بن عمرو نحواً من هذا . فقال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل ! فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها ، لوجد الأرضة قد أكلتها إلى كلمة « باسمك اللهم » . وكان العرب تفتتح بها كتبها ..



عام الحزن

انطلق المسلمون من الشعب يستأنفون نشاطهم القديم بعد ما قطع الإسلام في مكة قرابة عشرة أعوام مليئة بالأحداث الضخمة ، وما إن تنفس المسلمون من الشدة التي لاقوها حتى أصيب الرسول ﷺ بوفاة زوجه خديجة ثم بوفاة عمه أبى طالب .
أى أنه نكب في حياته الخاصة والعامة معاً ..

إن « خديجة » من نعم الله الجلييلة على « محمد » عليه الصلاة والسلام ، فقد أزرتة في أخرج الأوقات ، وأعانتة على إبلاغ رسالته ، وشاركتة مغارم الجهاد المر ، وواسته بنفسها وماها ، وإنك لتحس قدر هذه النعمة عندما تعلم أن من زوجات الأنبياء من نُحِنَ الرسالة وكفرن برجالهن ، وكنَّ مع المشركين من قومهن وآهن حرباً على الله ورسوله .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةً تُوْحٍ وَأَمْرًا لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ (٤٤) .

أما خديجة فهي صديقة النساء ، حنّت على رَجُلها ساعة قلق ، وكانت نسمة سلام وبرّ ، رطبت جبينه المتصبّب من آثار الوحي ، وبقيت ربع قرن معه ، تحترم قبل الرسالة تأمله وعزلته وشمائله ، وتحمل بعد الرسالة كيد الخصوم وآلام الحصار ومتاعب الدعوة ، وماتت والرسول ﷺ في الخمسين من عمره ، وهي تجاوزت الخامسة والستين ، وقد أخلص لذكرها طول حياته .

(٤٤) التحريم : ١٠ .

أما أبو طالب ، فإن المرء يحار في أمره ! ويقدر ما ينحني إعجاباً لنبله في كفالة محمد ﷺ ، ثم لبطلته في الدفاع عنه ، حين نُبئ ، وحين صدع بأمر ربه ، وأنذر عشيرته الأقربين .

إنه - بقدر ذلك - يستغرب المصير الذي ختم حياته . وجعل يصرح - قبل موته - أنه على ملة الأشياخ من أجداده ..

وقد حزن رسول الله ﷺ لموت أبنى طالب حزناً شديداً . ألم يكن الحصن الذي يحمي به الدعوة من هجمات الكبراء والسفهاء ؟ وها قد ولى الرجل الذي سخر جاهه وسلطانه في اللؤد عن ابن أخيه وكف العوادي أن تناله .

إن قريشاً أصبحت لا تهاب في محمد عليه الصلاة والسلام أحداً بعد .

رؤى أن رسول الله ﷺ قال : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات « أبو طالب »^(٤٥) وذلك أنهم تجرأوا عليه ، حتى نثر بعضهم التراب على رأسه .

وعن ابن مسعود قال : « بينا رسول الله ﷺ يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس : فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيضعه بين كتفي محمد - عليه الصلاة والسلام - إذا سجد ؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه .

فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه ، فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض . وأنا قائم أنظر ، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهره والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة .

فجاءت - وهي جويرية - فطرحته عنه . ثم أقبلت عليهم تشتمهم .

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم . وكان إذا دعا ، دعا ثلاث مرات ، وإذا سأل ، سأل ثلاثاً . ثم قال : « اللهم عليك بقريش » ثلاثاً فلما سمعوا صوته ، ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته .

(٤٥) حديث ضعيف أخرجه ابن إسحق (٣٥٨/١) بسند صحيح عن عروة بن الزبير مرسل .

ثم قال : « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمّية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط » وذكر السابع ولم أحفظه .

فو الذي بعث محمداً ﷺ بالحق . لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم « بدر » ثم سحبوا إلى القليب ، قليب بدر « (٤٦) .

لقد مضت مكة في طريق الكفر حتى أوغلت فيه وبلغت نهايته ، فهي الآن تستمرئ تلويث الساجدين بالأفذار . وتمايل - ضحكاً - من منظر الأنجاس ، وهي تسيل على كتفى المصلى . لم يبق في هذه القلوب مكان للزرة من الخير .

والبنت - في المجتمع العربي - تعيش في كنف أبيها ، وتفخر بقوته ، وتأنس بحمايته .

فما يحزُّ في قلب الرجل أن يرى نفسه في وضع تدفع عنه ابنته . وتشعر بالعجز وقلة الناصر ، وقد كظم محمد ﷺ على أله ، وتحمل في ذات الله ما لقي . إلا أنه أخذ يفكر في التوجه برسالته إلى قرية أخرى ، عليها تكون أحسن قبولاً وأقرب استجابة ، فاستصحب معه « زيد بن حارثة » وولى وجهه شطر « ثقيف » يلتمس نصرتها ..



(٤٦) حديث صحيح أخرجه البخارى (٢٧٨/١ - ٢٨٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢) ومسلم (١٨٠/٥) والسنن (٥٨/١) وأحمد (رقم ٣٧٢٣ - ٣٧٢٥ ، ٣٩٦٢) والقال : « وذكر السابع ولم أحفظه هو أبو إسحاق وهو السبيعي كما صرح بذلك مسلم في روايته وقد سمى السابع « عمارة . ابن الوليد » في رواية للبخارى وأحمد ، وراجع فتح الباري .

فى الطائف

ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف حيث تقطن ثقيف وهى تبعد عن مكة نحو الخمسين ميلا ، سارها محمد ﷺ على قدميه ، جيئة وذهوباً فلما انتهى إليها ، قصد إلى نفر من رجالها الذين ينتهى إليهم أمرها ، ثم كلمهم فى الإسلام ، ودعاهم إلى الله . فردوه - جميعاً - رداً منكراً ، وأغلظوا له الجواب . ومكث عشرة أيام ، يتردد على منازلهم دون جدوى ..

فلما يئس الرسول عليه الصلاة والسلام من خيرهم قال لهم : إذا أبيتم ، فاكنموا على ذلك - كراهية أن يبلغ أهل مكة ، فتزداد عداوتهم وشماتهم - لكن القوم كانوا أحسن مما ينتظر . قالوا له : اخرج من بلدنا ، وحرشوا عليه الصبيان والرعاع فوقفوا له صفين يرمونه بالحجارة . و « زيد بن حارثة » يحاول - عبثاً - الدفاع عنه حتى شجَّ فى ذلك رأسه .

وأصيب الرسول عليه الصلاة والسلام فى أقدامه ، فسالت منها الدماء واضطره المطاردون أن يلجأ إلى بستان لعتبة ، وشيبة ، ابنى ربيعة ، حيث جلس فى ظل كرمة يلتمس الراحة والأمن .

وكان أصحاب البستان فيه ، فصرفوا الأوباش عنه ، واستوحش الرسول عليه الصلاة والسلام لهذا الحاضر المرير ، وثابت إلى نفسه ذكريات الأيام التى عاناها مع أهل مكة ، إنه يجزر وراءه سلسلة ثقيلة من المآسى المتلاحقة فهتف يقول :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ..
أنت أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ..

إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى !!...

أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل عليّ غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .. » .

وتحرّكت عاطفة القرابة فى قلوب ابني ربيعة فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يدعى « عداساً » وقالوا له : خذ قطعاً من العنب ، واذهب به إلى الرجل .

فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ مدّ يده إليه قائلاً : باسم الله .. ثم أكل .

فقال « عداس » إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال له النبى : من أى البلاد أنت ! قال : أنا نصرانيّ من « نينوى » فقال رسول الله ﷺ : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال له : وما يدريك ما يونس ؟ قال رسول الله ﷺ : ذلك ، أخى ، كان نبياً وأنا نبى . فأكب « عداس » على يدي رسول الله ﷺ ورجليه يقبلهما .

فقال ابنا ربيعة ، أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاء « عداس » قالوا له : ويحك ما هذا ؟ قال : ما فى الأرض خير من هذا الرجل (٤٧) .

فحاول الرجلان توهين أمر محمد ، وتمسك الرجل بدينه القديم . كأنما عز عليهما أن يخرج محمد ﷺ من الطائف بأى كسب !!

* * *

وقفل الرسول عليه الصلاة والسلام عائداً إلى مكة ، إلى البلد الذى لفظ خيرة أهله ، فهاجر بعضهم إلى الحبشة . وأكره الباقى على معاناة العذاب الواصب ، أو الفرار إلى شَعَف الجبال .

(٤٧) أخرج هذه القصة ابن إسحاق (٢٦٠/١ - ٢٦٢) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظى مرسلاً ، لكن قوله : « إن أبيهم ماكنتموا على ذلك » وقوله : اللهم إليك أتكو .. الخ الدعاء ذكرهما بدون سند ، وكذلك رواه ابن جرير (٨٠/١ - ٨١) من طريق ابن إسحاق وروى هذه القصة الطبرانى فى الكبير من = حديث عبد الله بن جعفر مختصراً وفيه الدعاء المذكور بنحوه ، قال الهيثمى (٣٥/٦) : « وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة . وبقية رجاله ثقات » فالحديث ضعيف .

وقال زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم ، وقد أخرجوك ؟

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : يا زيد ، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ..

ولا بد أن أخبر ثقيف قد سبقته إلى قريش . ومن ثم رأى رسول الله ﷺ ألا يدخل مكة حتى يستوثق لنفسه ودعوته . فبعث إلى « المطعم بن عدي » يعرض عليه أن يجيره حتى يُبلغ رسالة ربه ، فقبل « المطعم » واستنفض أبناءه فحملوا أسلحتهم ووقفوا عند أركان البيت الحرام . وتسّم « المطعم » ناقته ثم نادى : يا معشر قريش ، قد أجرت محمداً - عليه الصلاة والسلام - فلا يَهْجُوه أحد منكم ! فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الكعبة صلى ركعتين ثم انصرف إلى بيته . و « مطعم » وأهله يحرسونه بأسلحتهم^(٤٨) .

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعماً : أمجبر أم متابع - مسلم ؟ قال : بل مُجبر ؟ قال : قد أجرنا من أجرت !..

وحفظ رسول الله ﷺ للمطعم هذا الصنيع . فقال يوم أسرى بدر : لو كان المطعم حياً لترك له هؤلاء النتنى ..

كان المطعم - كأي طالب - على دين أجداده وكان كذلك مثله في المروءة والنجدة ، وقد أراد أبو جهل أن يتهكم بنبي يحتاج إلى جوار ! وكأنه يتساءل :

لِمَ لَمْ تنزل كوكبة من الملائكة لحفظه ؟

ولذلك قال - لما رآه - : هذا نبيكم يا بني عبد مناف ؟

فرد عليه عتبة بن ربيعة : وما ينكر أن يكون منا نبيٌ وملك ؟

فلما أخبر رسول الله ﷺ بأي جهل ورد عتبة قال

أما أنت يا عتبة فما حميت لله ، وإنما حميت لنفسك - وذلك أنه قالها عصبية

لا إيماناً -

(٤٨) لم أحد له سنداً وقد ذكره بنحوه ابن جرير (٨٢/٣ - ٨٣) بدون سند بقوله « وذكر بعضهم .. » ولعل هذا البعض هو الأمور في مغاريه فقد عزاه إليه الحافظ ابن كثير (١٣٧/٣) بدون سند أيضاً .

وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك غير بعيد حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً .

وأما أنتم يا معشر قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما تنكرون (٤٩) .

وفي هذا التعليق ما يدل على ثقة الرسول عليه الصلاة والسلام من المستقبل مهما اكتنفه - في الحاضر - من الآلام .

عاد الرسول ﷺ إلى مكة ، ليستأنف خطته الأولى ، في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله .

وبينا هو ماضٍ في جهاده ، إذ وقعت له قصة الإسراء والمعراج ..



(٤٩) ابن جرير (٨٢/٢ - ٨٣) بدون سند كما تقدم في تخریج الحديث السابق :

الإسراء والمعراج

يقصد بالإسراء الرحلة العجيبة التي بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس . ويقصد بالمعراج ، ما عقب هذه الرحلة من ارتفاع في طباق السموات حتى الوصول إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ولا يعرف كنهه أحد . ثم الأوبة - بعد ذلك - إلى المسجد الحرام بمكة . وقد أشار القرآن الكريم إلى كلتا الرحلتين في سورتين مختلفتين . وذكر قصة الإسراء وحكمته بقوله :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٥٠) .

وذكر قصة المعراج وثمرته بقوله :

﴿وَلَقَدْ رَآهُ - (يعنى جبريل) - نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (٥١) .

فتعليل الإسراء - كما نصت الآية - أن الله يريد أن يُري عبده بعض آياته . ثم أوضحت آيات المعراج ، أن الرسول عليه الصلاة والسلام شهد - بالفعل - بعض هذه الآيات الكبرى .

وقد اختلف العلماء - من قديم : أكان هذا السرى الخارق بالروح وحده ، أم بالروح والجسد جميعاً ؟ والجمهور على القول الأخير .

(٥٠) الإسراء : ١ .

(٥١) النجم : ١٣ - ١٨ .

وللدكتور هيكل رأى غريب ، فقد اعتبره استجماعاً ذهياً ونفسياً لوحدة الوجود من الأزل إلى الأبد ، في فترة من فترات التألق النفساني الفذ ، الذي اختص به بشر نقى جليل مثل محمد ﷺ . وفي إبان هذا التألق الذي استعلى به على كل شيء - استعرض حقائق الدين والدنيا ، وشاهد صور الثواب والعقاب .. الخ .

فالإسراء حق .. وهو - عنده - روحى لا مادى ، ولكنه في اليقظة لا في المنام ، فليس رؤيا صادقة كما يرى البعض ، بل هو حقيقة واقعة على النحو الذي صورّه ، ثم قال فيه بعدئذ : « وليس يستطيع هذا السموّ إلا قوة فوق ما تعرف الطبائع الإنسانية » .

والحق ، أن الحدود بين القوى الروحية والقوى المادية ، أخذت تضحّل وتزول ، وأن ما يراه الناس ميسوراً في عالم الروح ليس بمستوعر في عالم المادة .

وأحسب أنه بعد ما مَرَّق العلم من أستار عن أسرار الوجود ، فإن أمر المادة أضحي كأمر الروح ، لا يُعرف مداه إلا قيوم السموات والأرض .

وإن الإنسان ليقف مشدوهاً ، عندما يعلم أن الذرة تمثل في داخلها نظام المجموعة الشمسية الدوّارة في الفلك ، وأنها - وهي هباءة تافهة - تكمن فيها حرارة هائلة ، عندما أطلقت ، أحرقت الأخضر واليابس .

إن الرسول ﷺ أُسري به وعرج : كيف ؟ هل ركب آلة تسير بأقصى من سرعة الصوت كما اخترع الناس أخيراً ؟

لقد امتطى البراق - وهو كائن يضع خطوه عند أقصى طرفه ، كأنه يمشى بسرعة الضوء ، وكلمة (براق) يشير اشتقاقها إلى البرق ، أي أن قوة الكهرباء سخرت في هذه الرحلة .

لكن الجسم - في حالته المعتادة - يتعذر عليه التنقل في الآفاق بسرعة البرق الخاطف ، لا بد من إعداد خاص ، يحصن أجهزته ومسامه لهذا السفر البعيد .

وأحسب أن ما روي عن شق الصدر ، وغسل القلب وحشوه ، إنما هو رمز هذا الإعداد المحتوم .. وقصة الإسراء والمعراج مشحونة بهذه الرموز ، ذات الدلالة التي تدق على السذج .

إن الإسراء والمعراج ، وقعا للرسول عليه الصلاة والسلام بشخصه ، في طور بلغ الروح فيه قمة الإشراق وخفت فيه كثافة الجسد حتى تفصّى من أغلب القوانين التي تحكمه .

واستكناه حقيقة هذه الرحلة ، وتتبع مراحلها بالوصف الدقيق ، مرتبط بإدراك العقل الإنساني لحقيقة المادة والروح ، وما أودع الله فيهما من قوى وخصائص !

ولذلك سنتجاوز هذا البحث إلى ما هو أيسر وأجدى ، أى إلى تسجيل المعالم المتصلة بالإسلام باعتباره رسالة عامة وتشاريع محدّدة .

وقصة الإسراء والمعراج ، تهمنا من هذه الناحية .

ألم تر أن « علم النفس » لم يستبحر وينطلق إلا يوم تحرر من البحث في الروح والخطب في مدلولها ؟؟

* * *

لماذا كانت الرحلة إلى بيت المقدس ، ولم تبدأ من المسجد الحرام إلى سدره المنتهى مباشرة ؟

إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم . فقد ظلت النبوات دهوراً طوالاً وهي وقف على بنى إسرائيل . ظل بيت المقدس مهبط الوحي ، ومشرق أنواره على الأرض ، وقصبة الوطن المحبب إلى شعب الله المختار .

فلما أهدر اليهود كرامة الوحي وأسقطوا أحكام السماء ، حلت بهم لعنة الله ، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد ! ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقلاً بالقيادة الروحية في العالم ، من أمة إلى أمة . ومن بلد إلى بلد ، ومن ذرية لإسرائيل ، إلى ذرية إسماعيل .

وقد كان غضب اليهود مشتملاً لهذا التحول ، مما دعاهم إلى المسارعة بإنكاره ﴿يَسْمَا اسْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ (٥٢) .

لكن إرادة الله مضت . وحملت الأمة الجديدة رسالتها . وورث النبي العربي تعاليم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وقام يكافح لنشرها وجمع الناس عليها . فكان من وصل الحاضر بالماضي ، وإدماج الكل في حقيقة واحدة . أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين في الإسلام ، وأن ينتقل إليه الرسول في إسرائه . فيكون هذا الانتقال احتراماً للإيمان درج - قديماً - في رحابه ..

ثم يجمع الله المرسلين السابقين من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة . إن النبوات يصدق بعضها بعضاً ، ويمهد السابق منها اللاحق . وقد أخذ الله الميثاق على أنبياء بني إسرائيل بذلك .

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٣) .

وفي السنة الصحيحة أن الرسول صلى بإخوانه الأنبياء ركعتين في المسجد الأقصى . فكانت هذه الإمامة إقراراً مبيناً بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى خلقه ، أخذت تمامها على يد محمد بعد أن وطأ لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين .

والكشف عن منزلة محمد ﷺ ودينه ، ليس مدحاً يُساق في حفل تكريم . بل هو بيان حقيقة مقررة في عالم الهداية ، مند تولت السماء إرشاد الأرض ، ولكنه جاء في إبانته المناسب .

فإن جهاد الدعوة الذي حملة محمد ﷺ على كواوله ، عرّضه لعواصف عاتية

(٥٢) البقرة : ٩٠ .

(٥٣) آل عمران : ٨١ .

من البغضاء والافتراء . ومزق شمل أتباعه ، فما ذاقوا - مذ آمنوا به - راحة الركون إلا الأهل والمال . وكان آخر العهد بمشاق الدعوة ، طرد « ثقيف » له ، ثم دخوله البلد الحرام في جوار مشرك . إن هوانه على الناس - منذ دعاهم إلى الله - جعله يجأر إلى رب الناس ، شاكياً راجياً .

فمن تطمين الله له ، ومن نعمائه عليه أن يهيب له هذه الرحلة السماوية لتمسّ فؤاده المعنى ببرد الراحة . وليشعر أنه بعين الله ، مذ قام يوحده ويعبده ، ويعلم البشر توحيده وعبادته .

كان يقول : « إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي »^(٥٤) فالليلة علم أن حظه من رضوان الله جزيل ، وأن مكانته بين المصطفين الأخيار ، موطدة مقدّمة .

إن الإسراء والمعراج يقعان قريباً من منتصف فترة الرسالة التي مكثت ثلاثة وعشرين عاماً ، وبذلك كانا علاجاً مسح متاعب الماضي ، ووضع بذور النجاح للمستقبل .

إن رؤية طرّف من آيات الله الكبرى في ملكوت السموات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين ، وتصغير جموعهم ، ومعرفة عقابهم .

وقد عرف محمد في هذه الرحلة أن رسالته ستنساح في الأرض . وتتوطن الأودية الخصبة في النيل والفرات ، وتنتزع هذه البقاع من محسوبة الفرس وتثليث الروم .

بل إن أهل هذه الأودية سيكونون حملة الإسلام جيلاً في أعقاب جيل . فلا يرده وهذا معنى رؤية النيل والفرات في الجنة ، وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة كما يظن السذج والبله .

لقد روى الترمذى مثلاً أن رسول الله قال : « إذا أعطي أحدكم الريحان فلا

(٥٤) تقدم في خبر الطائف أنه حديث ضعيف .

يَدَّه . فإنه خرج من الجنة» (٥٥) . فهل ذلك يدل على أن الريحان من الجنة ، ونحن نقطف أزهاره من الحقول والحدائق ؟

* * *

حكمة الإسراء

ذلك .. والله عز وجلّ يتيح لرسله فرص الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستناداً إليه ، إذ يواجهون قوى الكفار المتألبة ، ويهاجمون سلطانهم القائم .

فقبل أن يرسل الله موسى شاء أن يريه عجائب قدرته ، فأمره أن يُلقى عصاه قال :

﴿ أَلْقِهَا يَا مُوسَى . فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى . قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ، سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى . وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى . لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ (٥٦) .

فلما ملأ قلبه إعجاباً بمشاهدة هذه الآيات الكبرى قال له بعد : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى .. ﴾ (٥٧) .

وقد علمت أن ثمرة الإسراء والمعراج إطلاع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى وربما تقول : إن ذلك حدث بعد الإرسال إليه بقريب من اثني عشر عاماً على عكس ما وقع لموسى . وهذا حق . وسره ما أسلفنا بيانه من أن الخوارق في سير المرسلين

(٥٥) حديث ضعيف أخرجه الترمذى (١٨/٤) من طريق جنان عن أبى عثمان الهذلي مرسلًا وهذا مع لإرساله فيه جهالة حنان هذا ولم يوثقه غير ابن حبان ، ولو صح الحديث لكان اللائق حملة على ظاهره وهو أن الريحان أصله من الجنة ولا يلزم منه أن ما نقطفه منه من الحقول هو من الجنة أيضاً كما ظن المؤلف . ألا ترى أنه إذا قال إنسان ماء في كأس : هذا من السماء لكان صادقاً وكان قصده معروفاً ؟ فليتأمل . ونحو هذا يقال فيما صح عنه ﷺ : أن أربعة أنهار من الجنة . أى أصلها من الجنة ، لا أنها تنبع الآن منها .

(٥٦) طه : ١٩ - ٢٣ .

(٥٧) طه : ٢٤ .

الأولين قصد بها قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة فهي تدعيم لجانبهم أمام اتهام الخصوم لهم بالادعاء . وسيرة محمد ﷺ فوق هذا المستوى .

فقد تكفل القرآن الكريم بإقناع أولى النبي من أول يوم ، وجاءت الخوارق في طريق الرسول ضرباً من التكريم لشخصه ، والإيناس له ، غير معكزة ، ولا معطلة للمنهج العقلي العادي الذي اشترعه القرآن (٥٨) .

وقد اقترح المشركون على النبي أن يرقى في السماء ، فجاء الجواب من عند الله ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (٥٩) .

فلما رقى في السماء بعد ، لم يذكر قط أن ذلك ردٌ على التحدى أو إجابة على الاقتراح السابق . بل كان الأمر - كما قلنا - محض تكريم ومزيد إعلام من الله لعبده .



(٥٩) انظر كتابنا : عقيدة المسلم .

(٥٩) الإسراء : ٩٣ .

إكمال البناء

وفي قصة الإسراء والمعراج تلمح أواصر القرى بين الأنبياء كافة ، وهذا المعنى من أصول الإسلام .

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (٦٠) .

والتحيات المبادلة بين النبي وإخوته السابقين توثق هذه الأصرة .

ففي كل سماء أحل الله فيها أحد رسله ، كان النبي يستقبل فيها بهذه الكلمة :
مرحباً بالأخ الصالح !

والخلاف بين الأنبياء وهم صنعتهم الأمم الجائرة عن السبيل السوى ، أو بالأحرى صنعه الكهان والمتاجرون بالأديان .

أما محمد فقد أظهر أنه مرسل لتكملة البناء الذي تعهده من سبقوه ، ومنع الزلازل من تصديعه قال رسول الله « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ! ويقولون هلاً وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين » (٦١) .

والأديان المعتمدة على الوحي السماوي معروفة ، وليس منها - بداهة - ما اصطنعه الناس لأنفسهم من أوثان وطقوس كالبرهمية ، والبوذية ، وغيرهما .

(٦٠) البقرة : ٢٨٥ .

(٦١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٤٣٦/٦) ومسلم (٦٤/٧ - ٦٥) من حديث أنى هريرة .

وليس منها كذلك ما ابتدع - أخيراً - من نخل احتضنها الاستعمار الغربى وكثّر الأنصار حولها ، ليشدد الخناق على مقاتل الشرق ، ويعوق المسلمين الأحرار عن حطم قيوده ، وإنقاذ عبيده وذلك كالبهائية والقاديانية ..

ومن الممكن - لو خلصت النيات ونشد الحق - أن توضع أسس عادلة لوحدة دينية ، تقوم على احترام المبادئ المشتركة ، وإبعاد الهوى عن استغلال الفروق الأخرى ، إلى أن تزول على الزمن ، أو تنكسر حدتها .

والإسلام الذى يعد تعاليمه امتداداً للنبوات الأولى ، ولبنة مصافة إلى بنائها العتيق أول من يرحب بهذا الاتجاه ويزكيه .



سلامة الفطرة

وفي ليلة الإسراء والمعراج* تأكدت الصفة الأولى لهذا الدين وهي أنه دين الفطرة .

ففي الحديث « .. ثم أُتيت بإناء من حمر وإناء من لبن . فأخذت اللبن . قال : هي الفطرة التي أنت عليها وأُمّتك » (٦٢) .

إن سلامة الفطرة لبُ الإسلام ويستحيل أن تفتح أبواب السماء لرجل فاسد السرية ، عليل القلب . إن الفطرة الرديئة كالعين الحمئة لا تسيل إلا قلراً وسواداً . وربما أخفى هذا السواد الكريه وراء ألوان زاهية ، ومظاهر مزوقة .

بيد أن ما ينطلى على الناس ، لا يخدع به رب الناس !!...

ويوم تكون العبادات - نفسها - ستاراً لفطرة فاسدة فإن هذه العبادات الخبيثة ، تعتبر أنزل رتبة من المعاصي الفاجرة ..

والناس كلما تقدمت بهم الحضارات ، أمعنوا في التكلف والمصانعة ، وقيدوا أنفسهم بعبادات وتقاليد قاسية .

وأكثر هذه التكاليف حجب تظمس وهج الفطرة (٦٣) وتعكر نقاوتها وطلاقتها .

وليس أبغض إلى الله من أن تفتري هذه القيود باسم الدين ، وأن تترك النفوس في سجونها ، مغلولة كئيبة

(٦٢) حديث صحيح ، وهو قطعة من حديث صعصعة بن مالك الطويل في الاسراء وقد مضى تحريجه (ص ٦٤) ورواه ابن حبان في صحيحه أيضاً (١٩٢ - ١٩٨) ، وأخرجوه ثلاثتهم من حديث أبي هريرة أيضاً .

(٦٣) انظر « خلق المسلم » ، « والإسلام والمناهج الاشتراكية » للمؤلف .

فرض الصلاة

وفي المعراج شرعت الصلوات الخمس ، شرعت في السماء لتكون معراجاً يرقى بالناس كلما تدلت بهم شهوات النفوس وأعراض الدنيا .

والصلوات التي شرع الله غير الصلوات التي يؤديها - الآن - كثير من الناس .

وعلمة صدق الصلاة أن تعصم صاحبها من الدنيا ، وأن تحجله من البقاء عليها إن ألم بشئ منها .

فإذا كانت الصلاة - مع تكرارها - لا ترفع صاحبها إلى هذه الدرجة فهي صلاة كاذبة .

الصلاة طهور^(٦٤) ، كما جاء في السنه ، إلا أنها طهور للإنسان الحي ، لا للجنة العفنة .

إن التطهير يزيل ما يعلق بالقلب الحي من غبار عارض ، والأعراض التي تلحق المرء في الحياة فتصدئ قلبه كثيرة ، ومطهراتها أكثر !

وفي الحديث : « فتنة الرجل في أهله وماله وولده ونفسه وجاره ، يُكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »^(٦٥) .

(٦٤) لا أعرفه بهذا اللفظ وكان المؤلف ذكره بالمعنى ومما جاء فيه قوله ﷺ : « رأيتم لو أن نهراً باب أحدكم يفتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا . لا يبقى من درنه شيء فقال : فذلك مثل الصلوات الخمس يحو الله بهن الخطايا » أخرجه البخاري (٩/٢) ومسلم (١٣١/٢ - ١٣٢) من حديث أبي هريرة ومسلم والبخاري في « أفعال العباد » (ص ٩٤) من حديث جابر .

(٦٥) حديث صحيح من رواية حذيفة بن اليمان أخرجه البخاري (٦/٢) ومسلم (١٨٣/٧) .

أما أصحاب القلوب الميتة فالصلاة لا تجديهم شيئاً .. ولن يزالوا كذلك حتى تحيا قلوبهم أو يوارىها الثرى .

* * *

وقد رويت السنن ، أن رسول الله رأى في هذه الرحلة صوراً شتى ، لأجزيه الصالحين والطارحين . وتناقلت كتب السيرة رواية هذه الصور الجليلة على أنها وقعت ليلة الإسراء والمعراج .

والحق أن ذلك كان رؤيا منام في ليلة أخرى من الليالي المعتادة ، كما ثبت ذلك في الصحاح (٦٦) .



(٦٦) يشير إلى حديث سمرة بن جندب عند البخاري في أماكن من صحيحه منها « الجنائز » و « الرؤيا » وأحمد أيضاً في المسند (١٤٠٨/٥) ولكن هذا لا ينفي أن يكون ﷺ رأى ليلة الإسراء بعض الأجزية ، بل هذا هو الواقع كما في حديث أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعاً : « لما عرج بي ربي عز وجل مرت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعرضهم » أخرجه أحمد (٢٢٤/٣) وأبو داود (٢٩٨/٢) وسنده صحيح ، وقد روى مرسلأ ، ولكن المسند أصح كما قاله العراقي في تحريج الإحياء (١٢٥/٣) ولأنس حديث آخر في رؤيته ﷺ ليلة الإسراء الخطباء الذين يقولون مالا يفعلون . أخرجه ابن حبان في صحيحه (رقم ٥٣) وغيره وفي الباب أحاديث أخرى عن جماعة من الصحابة ذكر بعضها ابن كثير في تفسير سورة الإسراء فليراجعها من شاء .

قريش والإسراء

فلما كانت صبيحة هذه الليلة المشهودة حدث رسول الله الناس بما تم له وما شهد من آيات ربه الكبرى .

والذين كذبوا أن يقع وحى على الأرض . أتراهم يصدقون به في السماء ؟ .
لقد طاروا يجمع بعضهم بعضاً ، ليسمع هذه الأعجوبة فيزداد إنكاراً لرسالة محمد ﷺ وريية من أمره . وتحدهاء بعضهم ، أن يصف بيت المقدس ، إن كان رآه هذه الليلة حقاً ؟

عن جابر رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « لما كذبتنى قريش ، قمت في الحجر ، فجلى الله لى بيت المقدس . فطفقت أخبرهم عن آياته ، وأنا أنظر إليه » !! (٦٧) .

ويقول الدكتور هيكل ' « أحسبك لو سألت الذين يقولون بالإسراء بالروح في هذا لما رأوا فيه عجباً ، بعد الذى عرف العلم فى وقتنا الحاضر من إمكان التنويم المغناطيسى للتحدث عن أشياء واقعة فى جهات نائية .

فما بالك بروح يجمع وحدة الحياة الروحية فى الكون كله ؟ ويستطيع - بما وهب الله له من قوة - أن يتصل بسر الحياة من أزل الكون إلى أبده !

ونحن لا نعلق كبير اهتمام لمعرفة الطريقة التى تم بها الإسراء والمعراج .. كلا الأمرين حق ، ترك ثماره فى نفس الرسول ﷺ . فاستراح إلى حمد الخالق ، وقل

(٦٧) حديث صحيح أخرجه البخارى (١٥٧/٧) ومسلم (١٠٨/١) وابن حبان (رقم ٥٤) وغيرهم ، وله شاهد مفصل من حديث ابن عباس أخرجه أحمد (رقم ٢٨٢٠) بسند صحيح .

اكثرائه لزم الحمل من الجاحدين والجاهلين . ثم نشط إلى متابعة الدعوة ، موقناً أن كل يوم يمر بها هو خطوة إلى النصر القريب .

ويزعم بعض الكتاب أن فريقاً من المسلمين ارتد عقب الإسراء والمعراج إنكاراً لهما ، بل يزيد الدكتور « هيكل » : أن المسلمين تضعضوا على أثر انتشار القصة على الأفواه ، واستبعاد المشركين لوقوعها . وهذا كله خطأ ، فلا الآثار التاريخية تدل^(٦٨) عليه ، ولا الاستنتاج الحصيف ينتهي به ، ولا ندرى كيف يقال هذا ؟

* * *

مضى رسول الله ﷺ على نهجه القديم . ينذر بالوحي كل من يلقي ، ويخوض - بدعوته - الجماع ، ويغشى المواسم ، ويتبع الحجيج في منازلهم ، ويغبر قدميه إلى أسواق « عكاظ » و « مجنة » و « ذى المجاز » داعياً الناس إلى نبذ الأوثان ، والاستماع إلى هدى القرآن ، وكان يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة ، ويعرض عليهم نفسه ليؤمنوا به ويتابعوه ويمنعوه .

وكان عمه « أبو لهب » يمشى وراءه ويقول : لا تطيعوه فإنه صائى وكذاب ؟ فيكون جواب القبائل : أسرتك وعشيرتك أعلم بك ! ثم يردونه أقبح الرد . ومن القبائل التى أتاه الرسول عليه الصلاة والسلام ودعاها إلى الله ، فأبت الاستجابة له « فزارة » و « غسان » و « مرة » و « حنيفة » و « سليم » و « عبس » و « بنو النضر » و « كندة » و « كلب » و « عذرة » و « الحضارمة » و « بنو عامر ابن صعصعة » و « محارب بن حفصة » .. إلخ .

(٦٨) يرد هذا ما فى المسند (رقم ٤٥٤٦) من حديث ابن عباس قال : أسرى بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس ، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره إلى بيت المقدس ، وبغيرهم ، فقال ناس : نحن لا نصدق محمداً بما يقول !! فارتدوا كفاراً فضرب الله أعناقهم مع أبى جهل . الحديث : واساده حسن . وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (١٥/٣) : « ورواه النسائى . واسنده صحيح » قلت : وهذا من الأدلة الكثيرة التى تبين أن الاسراء كان بالروح والجسد . الأمر الذى لا يعلق عليه حضرة المؤلف كبير اهتمام !

ما وجد في هؤلاء قلباً مفتوحاً ، ولا صدرأ مشروحاً ، بل كان الراحلون
والمقيمون يتواصلون بالبعد عنه ، ويشيرونني إليه بالأصابع .

وكان الرجل يجيء من الآفاق البعيدة فيزوده قومه بهذه الوصاة : احذر غلام
قريش .. لا يفتنك !!

مع ذلك فإن الرسول عليه الصلاة والسلام - في هذا الجو القابض - لم يخامر
اليأس قلبه ، واستمر - مثابراً - في جهاد الدعوة ، حتى تأذن الحق - أخيراً -
بالفرج .



الفصل الرَّابِعُ

الهِجْرَةُ الْعَامَّةُ ** مُقَدِّمَاتُهَا وَتَأْجِهَا

حرم مشركو مكة الخير كله . منذ جحدوا الرسالة ، وقعلوا بكل صراط
يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به ، ويغونها عوجاً .

ولئن نجحت دعائهم الكاذبة في منع قبائل كثيرة من دخول الإسلام ، فإن
الحق لا بد أن يعلو ، وأن يثوب إليه المضللون والمخدوعون على شرط أن يظل أهله
أوفياء له ، حراساً عليه ، صابرين محتسبين .

وقد قيض الله للإسلام من استنقذه من البيئة التي صادرتة ، فأنس بعد وحشة
واستوطن بعد غربة . وشتى طريقه في الحياة ، بعد أن زالت الجلامد الصلدة الملقاة في
مجره .

وبدأ هذا التحول على أيدي الوفود القادمة من « يثرب » إلى مكة في موسم
الحج .

* * *

كان أهل يثرب^(١) يمتازون عن سائر العرب بجوارهم لليهود ، وإلفهم عقيدة
التوحيد . وربما حاورهم اليهود في شئون الأديان ، ونعوا عليهم عبادة الأوثان .

(١) أرى المصنف يستعمل كلمة « يثرب » مكان « المدينة » أو « طيبة » ومع أن هذا الاستعمال جاهل
ففيه مخالفة لتسمية الله تعالى إياها « طيبة » كما في حديث جابر ابن سمرة قال : كانوا يسمون المدينة يثرب فسموها
رسول الله ﷺ طيبة . أخرجه مسلم (١٢١/٤) والطحاوي (٢٠٤/٢) واللفظ له . ولفظ مسلم « أن الله
سمى المدينة طابة » ورواه أحمد (٨٩/٧ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٨) باللفظين وفي
الباب عن أبي حميد عند البخاري (٧١/٤) وعن زيد بن ثابت عند مسلم ، وفاطمة بنت قيس عند أحمد
(٤١٢/٦) وسنده صحيح .

وهذه الأحاديث أقل ما تفيد أنه هذا الاستعمال مكروه ، وأن تسميتها « طابة » أو طيبة مستحب ، بل
روى أحمد (٣٨٥/٤) عن البراء بن عازب مرفوعاً : « من سمي المدينة « يثرب » فليستغفر الله عز وجل . هي
طابة هي طابة » وعراه الهيثمي في « الجمع » (٣٠٠/٣) لأبي يعلى أيضاً وقال : « ورجاله ثقات » قلت : لكن
فيه عند أحمد يزيد بن أبي زيادة وهو القرشي الهاشمي الكوفي ، قال الحافظ في « التقریب » : « ضعيف كبير فتعير
وصار يتلقن » ولئن لم يصح هذا الحديث ففي الأحاديث السابقة غنية ، وهذا الأدب قد أدخل به أكثر الناس
لهذا أحببت أن ألفت النظر إليه .

فإذا اشتد الجدل وطالت اللجاجة قال لهم اليهود : يوشك أن يبعث الله نبياً
فنتبعه ، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم !!..

والغريب أن اليهود كانوا أول من كفر بهذا النبي يوم ظهر فيهم واقترب ،
ولذلك ندد القرآن بمسلكهم المتناقض ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا
مَعَهُمْ - وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا - فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا
كَفَرُوا بِهِ .. ﴾ (٢) .

أما العرب الأميون الذين هُددوا بمبعثه ؛ فقد فتحوا مسامعهم له !

فعندما وافى الموسم وقدمت قبائل « يثرب » ورأوا الرسول يدعو الناس
إلى الله ، قال بعضهم : تعلمون والله يا قوم أن هذا الذي توعدكم به يهود ، فلا
يسبقنكم إليه .

وأخذ ذكر الإسلام يشيع في المدينة رويداً رويداً ، فإن لم يستقبل بترحيب لم
يستقبل بالسباب والحراب .

إن عناصر النفور والمقاومة ، التي عهدتها في « مكة » تحوّلت - هنا - إلى
عناصر احترام وإقبال . ولم تمض ثلاثة أعوام على تسامع الأنصار الجدد بالإسلام حتى
أصبحوا كهفه الحصين ، وموئله القريب .



(٢) القرة : ٨٩ .

فروق بين البلدين

عاشت مكة في مجبوحة من الحياة أمداً طويلاً ، آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، وترجع هذه السعة إلى عاملين :

١ - مهارة أهلها التجارية .
٢ - مكانة الحرم الدينية .

كلا الأمرين أدر عليها أخلاف الخير ، فأثرت حتى بطرت ، وشبعت حتى أنضجت . ثم عراها ما يعرف كل جماعة تواتيها الحظوظ ويصبغها الترف ، من : تكبر ، وقسوة ، وجحود ، فلما ظهر فيها الإسلام ، ودعا محمد ﷺ إلى الحق ، ردت يده في فمه ، وأحدقت به وبمن معه . وملكها العناد من أول يوم ، وأعلنت أن مركزها - عاصمة للوثنية ، ومجمعاً للأصنام . ومثابة للحجيج - سيزول - إن هي استمعت إلى هذا الدين ، وأمكنته من البقاء .

وحاول الرسول عليه الصلاة والسلام - جاهداً أن يقنع أهل مكة بأن قبولهم للحق لن يجرمهم ذرة من الخير الذين متعوا به ، فأبى الظالمون إلا كفوراً .

﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا ، أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

ومن هنا اشتبك سادة مكة في حرب مع الإسلام ، اعتبروها دفاعاً عن كيانهم المادى ووضعهم الاقتصادى ، إلى جانب ما هنالك من عوامل أخرى . وهذه الحروب معروفة النتائج ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَبِتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُمْسِكْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٤) .

(٣) القصص : ٥٧ .

(٤) القصص : ٥٨ .

أما الأمر في « يثرب » فكان على النقيض ، إن الشحنة المتأصلة بين أهلها استنزفت دماءهم ، وقطعت شملهم ، وشغلت بعضهم البعض ، حتى أوصلتهم الحروب الدائمة إلى درك أسف له العقلاء ، وتمنوا الإنقاذ منه . كان « الأوس » و « الخزرج » - وهم في الأصل قرابة واحدة - يعانون في « يثرب » آصار هذا الخصام العنيف . ويورثونه أبناءهم . حتى يشبوا - وهم في مهادهم - أعداء ! والذي وضع جرثومة هذا الشقاق هم اليهود .



صنع اليهود

واليهود الذين استقروا في المدينة وأرباضها ، هبطوا صحراء الجزيرة ، فارين
بدينهم من الاضطهاد الصليبي الذي عمل - من قديم - على تنصيرهم أو إفنائهم ،
ذلك لأن رأى اليهود في عيسى وأمه شنيع .

والنصارى يعتقدون أن اليهود هم قتلة عيسى ، والموعزون بصلبه .

ولا شك أن اليهود شعب نشيط . وأنهم - حيث حلوا - يبدلوا جهوداً
مذكورة للسيطرة على زمام التوجيه المالى ، ولا يُبالون بأساليب الختل والمكر لبلوغ
أهدافهم ، وقد ألفوا أنفسهم قلة بين أصحاب البلاد وخشوا أن يفنوا إذا اشتبكوا
معهم في صراع سافر . فاحتالوا حتى زرعو الضغائن بين الأقرباء . وما زالوا بها
حتى آتت ثمرها المر فأخذ العرب يأكل بعضهم بعضاً . في سلسلة متصلة من المعارك
التي لا مبرر لها ، على حين قوى اليهود وتكاثروا . ونمت ثرواتهم ، واستحكمت
حصونهم ، وخيف سطوهم .

وقبل الهجرة ببضع سنين وقعت بين الأوس والخزرج معركة « بعث » كان
النصر فيها للخزرج ثم عاد للأوس ! وبلغ من حدة الخصام بين الفريقين أن كليهما
فكّر في استئصال الآخر وإبادة حضرائه ، لولا أن تدخل أولوا النهي بالنصح أن يبقوا
على أنفسهم وإخوانهم ، فجوارهم أفضل من جوار الثعالب - يعنى اليهود .

وهذه الفتن المتلاحقة جعلت أهل المدينة - عندما ترامت إليهم أنباء الإسلام
يؤمنون من ورائه الخير . من يدري ؟ لعله يجدّد حياتهم فيعيد السلام إلى صفوفهم
ويهب لهم حياة روحية ترجع بكفّتهم على اليهود ..

قال ابن اسحاق : فلما أراد الله إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ، وإنجاز مواعده له خرج رسول الله في الموسم ، الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم : فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقى رسول الله ﷺ ، قال : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : من موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسوني أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه . فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ..

قال : فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدّقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم ، بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك !! ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم ، قد آمنوا وصدّقوا^(٥) .

* * *

كان أولئك النفر ، طليعة للدعاية الموفقة للإسلام في يثرب . وقد أثمرت جهودهم على عجل ، فلم تبق دار إلا دخلها الإسلام .

حتى إذا استدار العام ، وأقبل موسم الحج ، خرج من المدينة اثنا عشر رجلاً من الذين أسلموا - فيهم الستة الذين كلمهم النبي ﷺ في الموسم السابق - وعزموا على الاجتماع برسول الله ﷺ ليوثقوا معه إسلامهم .

(٥) إسناده حسن .

بيعة العقبة الأولى

وقد لقيهم النبي - ﷺ - بالعقبة ، وعقد معهم بيعة على الإيمان بالله وحده ، والاستمسك بفضائل الأعمال والبعد عن منكرها .

عن عبادة بن الصامت : بأيعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى : « أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأق بيهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف .

قال : « فإن وفيتم فلکم الجنة ، وإن غشيتم^(٦) من ذلك شيئاً ، فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له . وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة ، فأمركم إلى الله . إن شاء عذب ، وإن شاء غفر^(٧) .

هذا ما كان محمد ﷺ يدعو إليه ، وكانت الجاهلية تنكره عليه .
أيكره هذه العهود إلا مجرم يحب للناس الريبة ويود للأرض الفساد ؟

أتم وفد الأنصار هذه البيعة ثم قفل عائداً إلى « يثرب » فرأى النبي أن يبعث معهم أحد الثقات من رجاله ، ليتعهد نماء الإسلام في المدينة ، ويقرأ على أهلها القرآن ، ويفقههم في الدين ، ووقع اختياره على « مصعب بن عمير » ليكون هذا المعلم الأمين .

ونجح « مصعب » أيما نجاح في نشر الإسلام وجمع الناس عليه ، واستطاع أن يتخطى الصعاب التي توجد - دائماً - في طريق كل نازح غريب ، يحاول أن ينقل

(٦) ارتكبت .

(٧) حديث صحيح . أخرجه البخاري (٥٤/١ - ٥٨) ومسلم (١٣٧/٥) .

الناس من موروثة ألفوها ، إلى نظام جديد ، يشمل الحاضر والمستقبل ، ويعم الإيمان والعمل . والخلق والسلوك .

ولا تحسبن « مصعباً » كأولئك المرتزقة من المبشرين الذين دسهم الاستعمار الغربى بين يدى زحفه على الشرق . فترى الواحد منهم يقبع تحت سرير مريض ليقول له : هذه القارورة تقدمها لك العذراء ! وهذا الرغيف يهديه إليك المسيح !!

وربما فتح مدرسة ، ظاهرها الثقافة المجردة ، أو ملجأ ظاهره البر الخالص ثم لوى زمام الناشئة من حيث لا يدرون ، ومال بهم حيث يريد !!..

هذا ضرب من التلصص الروحي يتوارى تحت اسم الدعوة إلى الدين . والذين يمثلون هذه المساخر ، يجدون الجرأة على عملهم من الدول التي تبعث بهم ، فإذا رأيت إصرارهم ومغامراتهم فلا تنس القوى التي تساند ظهورهم في البر والبحر والجو .

أما « مصعب » فكان من ورائه نبى مضطهد ورسالة معتبرة ضد القانون السائد ، وما كان يملك من وسائل الإغراء ما يطمع طلاب الدنيا ونهاذى الفرص ، كل ما لديه من الكياسة والفطنة ، قبسها من محمد ﷺ . وإخلاص لله ، جعله يضحي بمال أسرته وجاهاها . فى سبيل عقيدته .. ثم هذا القرآن الذى يتأنق فى تلاوته ، ويتخير من روائعه ، ما يغزو به الأبواب ، فإذا الأفئدة ترق له ، وتتفتح للدين الجديد .

وعاد « مصعب » إلى رسول الله بمكة ، قبيل الموسم الحافل ، يخبره بما لقى الإسلام من قبول حسن فى « يثرب » ويشره بأن جموعاً غفيرة دخلت فيه عن اقتناع من شغافهم ، وبصر أنار أفكارهم ، وسوف يرى من وفودهم بهذا الموسم ما تقر به العين .

* * *

بيعة العقبة الكبرى

إن الرجال الذين اعتنقوا الإسلام عرفوا - دون شك - تاريخه القريب ، والصعاب الهائلة التي لقيها . وحز في نفوسهم أن يستضعف إخوانهم في مكة وأن يخرج نبيهم وهو يدعو إلى الله فلا يجيبه إلا آثم أو كفور !!

ولذلك تساءلوا - وهم خارجون من المدينة قاصدين البيت العتيق - حتى متى نترك رسول الله يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟

لقد بلغ الإيمان أوجه في هذه القلوب الفتية . وآن لها أن تنفس عن حماسها ، وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية .

قال جابر بن عبد الله : فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا في الموسم ، فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين ، حتى توافينا ، فقلنا : يا رسول الله .. علام نبأيك ؟ قال ﷺ : « تبأيعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقوموا في الله لا تخافون لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني - إذا قدمت عليكم - مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ، ولكم الجنة » .

فقمنا إليه ، وأخذ بيده « أسعد بن زرارة » - وهو أصغر السبعين بعدى فقال : رويداً أهل يثرب ، فإننا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجنا اليوم مناواة للعرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف .

فإما أنتم قوم تبصرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله !

فقالوا : يا « أسعد » أمط عنا بيدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها ، فقمنا إليه رجلاً رجلاً فبايعناه^(٨) .

وعن كعب بن مالك : نمنا تلك الليلة - ليلة العقبة - مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ ، نتسلل تسليلاً القفا مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نساءنا : نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو بن عدى .

فلما اجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ ، جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم قال : يا معشر الخزرج^(٩) إن محمداً منا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزمة من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أوى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك !! وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده .

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك وربك ما أحببت ، فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

قال كعب : فأخذ البراء بن معرور بيده وقال : نعم ، فوالذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن - والله - أبناء الحروب ، ورثناها

(٨) أخرجه أحمد (٣/٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٩٤) والحاكم (٢/٦٢٤ - ٦٢٥) والبيهقي في سننه الكبرى (٩/٩) من طريق ابن حنبل عن أبي الزبير عن جابر ، قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ ابن كثير (٣/١٦٠) من البداية : « وهذا إسناد جيد على شرط مسلم » وقال الحافظ في « الفتح » (٧/١٧٧) : « رواه أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم وابن حبان » قلت : وفيه علة . وهي عنعنات أبي الزبير وكان مدلساً ، وليس هو من رواية الليث بن سعد عنه ، فلعل تصحيحه أو تحسينه لشواهد والله أعلم .

(٩) يقصد أهل يثرب جميعاً من « أوس » و « خزرج » .

كأبراً عن كابر ، فاعترض هذا القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم ابن التيهان فقال : يا رسول الله .. إن بيننا وبين الرجال - يعنى اليهود - حبلاً ، وإنا قاطعوها . فهل عسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ! ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسلم من سلمتم » ..

وأمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا منهم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم النقباء ، تسعة من « الخزرج » وثلاثة من « الأوس » (١٠) ، فقال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفلة الحوارين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي » .

تلكم بيعة العقبة ، وما أبرم فيها من موثيق ، وما دار فيها من محاورات ..

إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشت في كل كلمة قيلت . وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملئ العهود كلا ، فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم ، والمغامر المتوقعة نظر إليها قبل المغامر الموهومة .

مغامر ؟ أين موضع المغامر في هذه البيعة ؟ لقد قام الأمر كله على التجرد المحض والبذل الخالص .

هؤلاء السبعون مثل لانتشار الإسلام ، عن طريق الفكر الحر والاختراع الخاص .

(١٠) حديث صحيح رواه ابن إسحاق في المغارى (٢٧٣/١ - ٢٧٦) عن ابن هشام وأحمد (٤٦٠/٣ - ٤٦٢) وابن جرير في تاريخه (٩٠/٢ - ٩٣) من طريق ابن إسحاق قال : حدثني معمر بن كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين : أن أخاه عبد الله بن كعب - وكان من أعلم الأنصار - حدثه أن أباه كعباً حدثه ، وهذا سند صحيح وصححه ابن حبان كما في « الفتح » (٤٧٥/٧) قلت : وأما قوله في آخر القصة : « فقال لهم الرسول أنتم سر » فأخرجه ابن إسحاق (٢٧٧/١) عن عبد الله بن أبي بكر مرسلأ فهو ضعيف ورواه ابن جرير (٩٢/٢) من طريق ابن إسحاق .

فقد جاءوا من « يثرب » مؤمنين أشد الإيمان . ومليين داعي التضحية ، مع أن معرفتهم بالنبي ، كانت لحظة عابرة . غبرت عليها الأيام . وكان الظن بها أن تزول . لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة ، والثقة ، إنه القرآن !! لمن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبرى لم يصحبوا الرسول إلا لمأماً ، إن الوحي المشع من السماء . أضاء لهم الطريق . وأوضح الغاية ..

لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن . سال على ألسنة الحفاظ وتداولته صحائف السفرة الكرام البررة . والقرآن النازل بمكة . صوّر جزاء الآخرة رأى العين .

فتوشك أن تمد يدك تقطف من أثمار الجنة . ويستطيع الأعرابي المتعشق للحق أن ينتقل في لحظة فداء من رمضاء الجزيرة إلى أنهار النعيم والرحيق المختوم !.

وحكى القرآن أخبار الأولين . كيف أخلص المؤمنون لله فنجوا مع رسلهم وكيف طغي الكفار . وأسكروهم الإمهال فتعننوا وتجبروا ثم حل العدل الإلهي . فذهب الظالمون بدداً . وتركوا وراءهم دنيا مدبرة . ودوراً خربة .

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم !!..

ثم إن الرسول جعل من هذا الإيمان بالحق رباطاً يعقد من تلقاء نفسه صلة الحب والتناصر بين أشتات المؤمنين في المشرق والمغرب .

فالمسلم في المدينة - وإن لم ير أخاه المستضعف في مكة - يحنو عليه . ويتعصب له . ويغضب من ظالمه . ويقاقل دونه - وذلك ما استقدم الأنصار من يثرب . تجيش في حناياهم مشاعر الولاء . لمن أحبوهم بالغيب في ذات الله .

عن أنى مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « أيها الناس اسمعوا واعقلوا . واعلموا أن لله عبداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله » . فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى النبي ﷺ . فقال : يا رسول الله .. ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله !. انعتهم لنا . حلهم لنا - يعني

صفهم لنا - فسر وجه النبي بسؤال الأعرابي وقال : « هم ناس من أفناء الناس ، ونوازع القبائل . لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في الله وتصافوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسون عليها ، فيجعل وجوههم نوراً ، وثيابهم نوراً ، يفرح الناس يوم القيامة ولا يفرعون ، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١١) .

الإيمان بالله ، والحب فيه . والأخوة على دينه ، والتناصر باسمه ، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها ، يتدافع ليعلم أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم ، وسوف يمنعونهم بأرواحهم فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء .

إن مشركي مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يعدوه ، وأرهقوا المسلمين حتى شغلواهم بأنفسهم فناموا نومة المجرم الذي اقترف الإثم وأمن القصاص .

حسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تحف سوء ما يأتي به - القدر
وسألتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

أجل ، ففي الليلة تحالف جند الحق أن يقصموا ظهر الوثنية ، وأن ينتهوا بالجاهلية ورجالها إلى الفناء .

* * *

واستمع شيطان من المشركين كان يجول في مضارب الخيام ومنازل الحجيج إلى الضجة المنبثقة قريباً من العقبة ، واستطاع أن يقف على جليلة الخبر . فصرخ ينذر أهل مكة : « إن محمداً والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم .. » !!

(١١) حديث حسن أخرجه الإمام أحمد (٣٤٣/٥) من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن ابن غنم عن أبي مالك الأشعري ، « وشهر » فيه ضعف ، وقال المنذري (٤٨/٤) : « رواه أحمد وأبو يعلى ، إسناد حسن ، والحاكم قال : صحيح الإسناد » قلت : ولم أجده في مستدرک الحاكم من حديث أبي مالك ، وإنما أخرجه (١٧٠/٤) من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنه بنحوه وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي وهو كما قال فهذا شاهد قوى لحديث أبي مالك .

وكان صوته جهوراً يوقظ النيام .

وشعر المبايعون كأن ائثارهم بالمشركون قد انكشف ، فلم يكثرثوا للنتائج .
وقال « سعد بن عباد » يا رسول الله .. والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل « منى » غداً بأسيفنا ، فقال رسول الله ﷺ : « لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم » .

قال كعب : فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا : يا معشر الخزرج .. إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا . وتبايعونه على حربنا ، وإنه - والله - ما من حي من العرب أبغض أن تشب الحرب بيننا وبينهم منكم ، قال : فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون ، ما كان من هذا شئ وما علمناه ، وصدقوا لم يعلموا . قال كعب : وبعضنا ينظر إلى بعض (١٢) .

بيد أن القرائن تجمعت على أن ما قيل حق ، فخرجت قريش تطلب الأنصار ففاتوهم ، ولم يدركوا غير سعد بن عباد .

فعادوا به مغلوله يده إلى عنقه ، وأخذوا يجذبونه من شعره ويلكزونه ، فأنقذه منهم جبير بن مطعم ، والحارث بن حرب ، إذ كان « سعد » يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة .

* * *

(١٢) هو من حديث كعب بن مالك الذى سبق وتقدم تخريجه ، وهناك ملاحظة وهى أن المصنف روى أول الحديث هنا بالمعنى وهو غير متفق مع لفظ الحديث إذا تؤمل فيه بدون تأثر بأمر خارجي ، ولفظه : « فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط . فقال رسول الله ﷺ : هذا أرب العقبة هذا ابن أرب . استمع أى عدو الله « أما والله لأفرغن لك » . فهذا السياق لا يمكن أن يفهم منه أن « الشيطان » المعروف باللام هو رجل من المشركين وأيضاً يعبد جداً أن يخاطب عليه الصلاة والسلام هذا الرجل بقوله : « أى عدو الله لأفرغن لك » . ويؤيد ما ذكرنا رواية الطبراني لهذه القصة عن عروة مرسلاً وفيها : « فقال رسول الله ﷺ : لا يرعنكم هذا الصوت فإنه عدو الله إبليس ، ليس سمعه أحد ممن تخافون » وقام رسول الله ﷺ فصرح بالشيطان ' « يا ابن أرب هذا عملك فسأفرغ لك » قال الهيثمى ٤٧/١ : « وفيه ان لهيعة ، وحديثه حس وفيه ضعف » .

طلّاع الهجرة

إن نجاح الإسلام في تأسيس وطن له ، وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له ، وقد تنادى المسلمون من كل مكان : هلموا إلى « يثرب » !! فلم تكن الهجرة تخلصاً فقط من الفتنة والاستهزاء ، بل كانت تعاوناً عاماً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن .

وأصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد ، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه ، وأصبح ترك المدينة - بعد الهجرة إليها - نكوصاً عن تكاليف الحق ، وعن نصرة الله ورسوله ، فالحياة بها دين ، لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها .

وفي عصرنا هذا ، أعجب اليهود بأنفسهم ، وعانق بعضهم بعضاً مهتئاً ، لأنهم استطاعوا تأسيس وطن قومي لهم ، بعد أن عاشوا - مشردين - قروناً طوالاً .

ونحن لا ننكر جهد اليهود في إقامة هذا الوطن ، ولا حماس المهاجرين من كل فج للعيش به ، ومحاولة إحيائه وإعلائه .

ولكن ما أبعد اليون بين ما صنع اليهود اليوم - أو يعتبر أدق ، ما صنع لليهود اليوم - وبين ما صنع الإسلام وبنوه لأنفسهم ، يوم هاجروا إلى « يثرب » نجاة بدعوتهم ، وإقامة لدولتهم .

إن اليهود جاءوا على حين فرقة من العرب وغفلة وضعف ، وحاكوا مؤامراتهم في ميدان السياسة الغربية الناقمة على الإسلام وأهله ، فإذا بالعالم كله يهجم على فلسطين بالمال والسلام والنساء والدهاء ، فلم يستطع مليون عربي حصرتهم الخيانات في مآزق ضيقة أن يصنعوا شيئاً ، فهاموا على وجوههم في الأرض ، نتيجة اتفاق « أمريكا وروسيا وانجلترا وفرنسا » و .. ملوك العرب على خذلان أولئك العرب

التعساء . وبذلك قام الوطن القومى لليهود ، وبت الدعاية لتشجيع الهجرة إليه ، وإسداء العون له ، من دهاقين السياسة والمال ، فى أنحاء الدنيا !!

أين هذا الخفيض من رجال أخلصوا لله طواياهم ، وترفعت عن المآرب همهم ، وذهلوا عن المتاع المبدول والأمان المتاح واستهوتهم المثل العليا وحدها - فى عالم يعج بالصم البكم ، وربطوا مستقبلهم بمستقبل الرسالة المبرأة التى اعتنقوها ، وتبعوا صاحبها المتجرد المكافح ، وهو لا ينى يقول : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٣) .

إن المدينة الفاضلة التى تعشقها الفلاسفة ، وتحيلوا فيها الكمال جاءت فى سطور الكتب ، دون ما صنع المهاجرون الأولون ، وأثبتوا به أن الإيمان الناضج يحيل البشر إلى خلائق تباهي الملائكة سناء ونضارة .

إن المسلمين - بإذن رسول الله - هرعوا من « مكة » وغيرها إلى « يثرب » يحدوهم اليقين ، وترفع رؤوسهم الثقة .

ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء ، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة .
إنها إكراه رجل آمن فى سره ، ممتد الجذور فى مكانه ، على إهدار مصالحه وتضحية أمواله والنجاة بشخصه فحسب ، وإشعاره - وهو يصفى مركزه - بأنه مستباح منهوب ، قد يهلك فى أوائل الطريق أو نهايتها . وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم ، لا يدري ما يتمخض عنه من قلق وأحزان ، ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقليل : مغامر طياش ، فكيف وهو ينطلق فى طول البلاد وعرضها ، يحمل أهله وولده ؟ وكيف وهو بذلك رضى الضمير ، وضاء الوجه ؟!

إنه الإيمان الذى يزن الجبال ولا يطيش ! وإيمان بمن ؟ بالله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ، وهو الحكيم الخبير .

هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن ، أما الهَيَّاب الخوار القلق ، فما يستطيع شيئاً من ذلك إنه من أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ۖ ﴾ (١٤) .

أما الرجال الذين اتقوا بمحمد ﷺ في مكة ، وقبسوا منه أنوار الهدى ، وتواصوا بالحق والصبر . فإنهم نفروا - خفافاً - ساعة قيل لهم : هاجروا إلى حيث تعزون الإسلام وتؤمنون مستقبله .

ونظر المشركون ، فإذا ديار بـ « مكة » كانت عامرة بأهلها قد أقفرت ، ومحال مؤنسة قد أمحلت .

مر عتبة ، والعباس ، وأبو جهل ، على دار عامر بن ربيعة بعد ما غلقت ، فقد هاجر رب الدار ، وزوجته ، وأخوه أحمد - وكان رجلاً ضيرير البصر - ونظر عتبة إلى الدار تحقّق أبوابها يباباً ، ليس بها ساكن ! فلما رآها تصفر الريح في جنباتها قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ، ستدركها النكباء والحبوب

ثم قال : أصبحت الدار خلاء من أهلها ، فقال أبو جهل للعباس : هذا من عمل ابن أخيك ، فرّق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطّع بيننا .

وأبو جهل بهذا الكلام تبرز فيه طبائع الطغاة كاملة .

فهم يجرمون ويرمون الوزر على اكتاف غيرهم ، ويقهرون المستضعفين ، فإذا أبوا الاستكانة ، فإبأؤهم علة المشكلات ومصدر القلاقل !!..

وكان من أول المهاجرين « أبو سلمة » ، وزوجه ، وابنه « فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نترك تسير بها في البلاد ! وأخذوا منه زوجته ، فغضب آل أبي سلمة لرجلهم ، وقالوا : لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا ، وتجاذبوا الغلام بينهم ، فخلعوا

يده وذهبوا به ، وانطلق أبو سلمة وحدد إلى المدينة ، فكتب لمة - بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها - تخرج كل غداة بالأبطح ، تبكى حتى تسمى ، نحو سنة ، فرّق لها أحد ذويها . وقال : ألا تخرجون من هذه المسكينة ؟ فرقم بينهم وبين زوجها وولدها ، فقالوا لها : الحقى بزوجه ، إن شئت ، فاسترجعت ابنها من عصيته ، وهاجرت إلى المدينة .

ولما أراد « صهيب » الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً . فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب : رأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم ! قال : فإنى قد جعلت لكم مالى . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « ربح صهيب » (١٥) !

وهكذا أخذ المهاجرون يتركون « مكة » زرافات ووحداناً . حتى كادت مكة تخلو من المسلمين . وشعرت قريش بأن الإسلام أضحت له دار يأررز إليها وحصن يحتمى به وتوجست خيفة من عواقب هذه المرحلة الخطيرة فى دعوة محمد . وهاجت فى دمائها غرائز السبع المفترس حين يخاف على حياته .

إن محمداً ﷺ لا يزال فى مكة ، وهو - لا بد - مدرك أصحابه اليوم أو غداً ، فلتعجل به قبل أن يستدير إليها .



(١٥) حديث صحيح ، ذكره ابن هشام فى « السيرة » (٢٨٩/١) معلقاً مرسلأ ، وقد وصله الحاكم (٣٩٨/٣) من حديث ثابت عن أس ومن حديث أيوب عن عكرمة مرسلأ ، نحوه وقال الحاكم : (صحيح على شرط مسلم) وهو كما قال ، وله شاهد من حديث صهيب نفسه ، رواه الطبرانى كما فى المجمع (٦٠/٦) ، والبيهقى كما فى (البداية) (١٧٣/٣ - ١٧٤) .

فى دار الندوة

واجتمع طواغيت « مكة » فى دار الندوة ، ليتخذوا قراراً حاسماً فى هذا الأمر .

فرأى بعضهم أن توضع القيود فى يد محمد ﷺ ويشد وثاقه . ويرمى به فى السجن لا يصله منه إلا الطعام ، ويترك على ذلك حتى يموت .

ورأى آخر أن ينفى من مكة فلا يدخلها . وتنفض قريش يديها من أمره

وقد استبعد هذان الاقتراحان لعدم جدواهما واستقر رأى على الاقتراح الذى أبداه « أبو جهل » قال أبو جهل : أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسيباً وسطاً فتياً . ثم نعطي كل فتى سيفاً صارماً ، ثم يضربونه - جميعاً - ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها ، ولا أظن بنى هاشم يقوون على حرب قريش كافة ، فإذا لم يبق أمامهم إلا الدية أديناها .

ورضى المؤتمر بهذا الحل للمشكلة التى حيرتهم : وانصرفوا ليقوموا على إنفاذه وقد أشار القرآن إلى تدبير هذه الجريمة بقوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١٦) .

إن هذا الحكم لم يتخذ فى مجلس سر ، بل فى اجتماع عام .
ومن الطبيعى أن يعلم به رسول الله ، وأن يعرف حقيقة وضعه فى مكة ، إنهم لا ينتظرون به إلا موعد التنفيذ ، ثم يقدمه الطعام قرباناً للأصنام !!

(١٦) الأنفال : ٣٠ .

على أن رسول الله لم يكن ليوعز إلى أصحابه بالهجرة ويتخلف عنهم .
لقد رسم الخطة التي يذهب بها إلى « يثرب » حين ندب المسلمين للهجرة إليها .

روى الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله - وهو يومئذ بمكة - للمسلمين : « قد أريت دار هجرتكم ، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين »^(١٦) فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ، ورجع^(١٧) إلى المدينة من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين .



(١٦) حديث صحيح أخرجه البخاري (١٨٦/٨) والحاكم (٤ - ٣/٣) والبيهقي (٩/٩) من حديث عائشة ، البخاري (٤/١٢ - ٣٥٥) ومسلم (٥٧/٧) وابن ماجه (٤٥٠/٢) من حديث أبي موسى نحوه .
(١٧) بدأ رجوعهم ، وظل حتى السنة السادسة للهجرة العامة .

هجرة الرسول

حين عزم رسول الله ﷺ على ترك مكة إلى المدينة ، ألقى الوحي الكريم في قلبه وعلى لسانه هذا الدعاء الجميل ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ (١٨) .

ولا نعرف بشراً أحق بنصر الله وأجدر بتأييده مثل الرسول ﷺ الذي لاقى في جنب الله ما لاقى . ومع ذلك فإن استحقاق التأييد الأعلى لا يعنى التفريط قيد أمثلة في استجماع أسبابه وتوفير وسائله .

ومن ثم فإن رسول الله ﷺ أحكم خطة هجرته ، وأعد لكل فرص عدته ، ولم يدع في حسبانته مكاناً للحظوظ العمياء .

وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة ، أن يقوم بها كأنها كل شئ في النجاح . ثم يتوكل - بعد ذلك - على الله ، لأن كل شئ لا قيام له إلا بالله .

فإذا استفرغ المرء جهوده في أداء واجبه فأخفق بعد ذلك ، فإن الله لا يلومه على هزيمة بُلي بها . وقلمما يحدث ذلك إلا عن قدر قاهر يعذر المرء فيه !

(١٨) هو من حديث ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ بمكة ، ثم أمر بالهجرة وأنزل عليه . قلت فذكر الآية أخرجه الترمذى (١٣٧/٤) والحاكم (٣/٣) والبيهقى (٩/٩) وأحمد (رقم ١٩٤٨) من طريق قابوس بن أوى ظبيان عن أبيه (وليس في المسند والبيهقى . عن أبيه) عن ابن عباس وقال الترمذى : « حست = حسن صحيح » . وقال الحاكم ، « صحيح الإسناد وواقعه الذهبى وفيه نظر فإن قابوس بن أوى ظبيان أورد الذهبى في « الميزان » ونقل عن ابن حبان أنه قال فيه : « ردى الحفظ ينفرد عن أبيه بما لا أصل له ، فرتبنا رفع المرسى ، وأسند الموقوف ولذلك قال الحافظ في « التقریب » : فيه لين - والآية من سورة الإسراء : ٨٠ .

وكثيراً ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيباً حسناً . ثم يجيء عون أعلى يجعل هذا النص مضاعف الثمار .

كالسفينة التي يشق عباب الماء بها ربان ماهر ، فإذا التيار يساعدها والريخ تهب إلى وجهتها . فلا تمكث غير بعيد حتى تنتهي إلى غايتها في أقصر من وقتها المقرر .

وهجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة جرت على هذا الغرار . فقد استبقى رسول الله ﷺ معه علياً وأبا بكر ، وأذن لسائر المؤمنين بتقدمه إلى المدينة .

فأما أبو بكر فإن الرسول ﷺ قال له حين استأذنه لهاجر : لا تعجل ، لعل الله أن يجعل لك صاحباً^(١٩) وأحسن أبو بكر كأن الرسول ﷺ يعنى نفسه بهذا الرد !

فابتاع راحلتين فحبسهما في داره ، يعلفهما إعداداً لذلك .

وأما علي فإن الرسول ﷺ هياه لدور خاص ، يؤديه في هذه المغامرة المحفوفة بالأخطار !

قال ابن إسحاق : فحدثني من لا أنهم عن عروة بن الزبير ، عن عائشة ، أنها قالت : كان لا يخطي رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرة ، وإما عشياً ، حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه رسوله في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهراني قومه . أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها . قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله ﷺ في هذه الساعة إلا لأمر حدث . فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند رسول الله ﷺ أحد إلا أنا وأختي أسماء ، فقال رسول الله ﷺ : « أخرج عني من

(١٩) رواه ابن إسحاق (٢/٢) بدون إسناد : لكن معناه فيما أخرجه البخاري (١٨٣/٧ - ١٩٧) من حديث عائشة الطويل في الهجرة بلفظ : « وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال رسول الله ﷺ : « على رسلك فأني أرجو أن يؤذن لي » فقال أبو بكر : هل ترجو ذلك بأني أنت ؟ قال : نعم . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانت عنده ورق السم - وهو الخبط - أربعة أشهر » رواه أحمد أيضاً له (١٩٨/٦) ثم وجدت له شاهداً من حديث ابن عمر بلفظ الكتاب رواه الطبراني بسند . قال الهيثمي (٦٥٦) : « فيه عبد الرحمن بن بشر الدمشقي ، ضعفه أبو حاتم » .

عندك » ! قال : يا رسول الله .. إنما هما ابتئى .. وما ذاك ؟ - فذاك أبى وأمى .
قال : « إن الله أذن لى فى الخروج والهجرة » فقال أبو بكر : الصحبة
يا رسول الله ؟ قال : « الصحبة » .

قالت عائشة : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح
حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى !!

ثم قال : يا نبى الله .. إن هاتين الراحلتين كنت أعددتكما لهذا ، فاستأجرا
عبد الله بن أريقط - وهو مشرك - (!) يدهما على الطريق . ودفعا إليه راحلتيهما
فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما (٢٠) .

قال ابن اسحاق : ولم يعلم - فيما بلغنى - بخروج رسول الله ﷺ أحد حين
خرج - يقصد نوى الخروج - إلا على وأبو بكر وآله . أما على فإن رسول الله
ﷺ أمره أن يتخلف حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس . وكان رسول
الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شئ يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه
وأمانته .



(٢٠) أخرجه ابن إسحاق (٢/٢ - ٣ من ابن هشام) ونبه شيخه الذى لم يسم ، لكن قد سماه ابن
جرير (١٠٣/٢) فى رواية عن ابن إسحاق فقال : « قال حدثنى محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين
القمي قال : حدثنى عروة بن الزبير به ومحمد بن عبد الرحمن هذا فى عداد المجهولين : أورده ابن أبى حاتم فى
الجرىح والتعديل » (٣١٧٢/٣) وذكر أنه روى عن جماعة وعنه ابن إسحاق ، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً .
لكنه لم ينفرد بالحديث فقد أخرجه ابن جرير (١٠١/٢ - ١٠٣) من طريق هشام بن عروة س نحوه وإسناده
صحيح . وأخرجه البخارى وأحمد من طريق الزهرى قال عروة به ، مع شئ من الاحتصار :

درس فى سياسة الأمور

ويلاحظ أن النبى عليه الصلاة والسلام كتم أسرار مسيره . فلم يطلع عليها إلا من لهم صلة ماسة . ولم يتوسع فى اطلاعهم إلا بقدر العمل المنوط بهم .

وقد استأجر دليلاً خبيراً بطريق الصحراء ليستعين بخبرته على مغالبة المطاردين ونظر فى هذا الاختيار إلى الكفاية وحدها . فإذا اكتملت فى أحد ، ولو مشركاً استخدمه وانتفع بموهبته .

ومع هذه المرونة فى وضع الخطة فإن النبى عليه الصلاة والسلام أصر أن يدفع ثمن راحلته . وأنى أن يتطوع أبو بكر به ، لأن البذل فى هذه الهجرة ضرب من العبادة ينبغي الحرص عليه وتستبعد النياية فيه .

واتفق الرسول عليه الصلاة والسلام مع أنى بكر على تفاصيل الخروج ، وتخبروا الغار الذى يأوون إليه ، تخبروه جنوباً فى اتجاه اليمن لتضليل المطاردين . وحددوا الأشخاص الذين يتصلون بهم فى أثناء اللجأ .. إليه ، ومهمة كل شخص .

ثم عاد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بيته ، فوجد قريشاً بدأت تضرب الحصار حوله ، وبعثت بالفتيان الذين وُكِّل إليهم اغتيال محمد عليه الصلاة والسلام وتفريق دمه بين القبائل !!

وأوعز الرسول عليه الصلاة والسلام إلى على بن أنى طالب فى هذه الليلة الرهيبة أن يرتدى برده الذى ينام فيه وأن ينسجى به على سريره . وفى هجعة من الليل وغفلة من الحرس ، انسل الرسول عليه الصلاة والسلام من بيته إلى دار أنى بكر ثم خرج الرجلان من خوخة فى ظهرها . إلى غار ثور . إلى الغار الذى استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة ، ومستقبل حضارة كاملة ، وتركته فى حراسة الصمت والوحشة والانقطاع .

فى الغار

وسارت الأمور على ما قدرا ، وكان أبو بكر قد أمر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من أخبار . وأمر عامر بن فهيرة موله أن يرعى غنمه نهاره ثم يريها عليهما إذا أمسى في الغار . فكان عبد الله بن أبى بكر في قريش يسمع ما يأترون وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبى بكر . ثم يأتيهما إذا أمسى فيقص عليهما ما علم ، وكان عامر في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا ، فإذا غدا عبد الله من عندهم إلى مكة ، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم ، يعفى عليه .

وتلك هى الحيلة البالغة . كما تفرضها الضرورات المعتادة على أى إنسان .

وانطلق مشركو مكة فى آثار المهاجرين يرصدون الطرق ، ويفتشون كل مهرب وراحوا ينقبون جبال مكة وكهوفها ، حتى وصلوا - فى دأبهم - قرياً من غار ثور ، وأنصت الرسول ﷺ وصاحبه إلى أقدام المطاردين ، تحفّق إلى جوارهم فأخذ الروع أباً بكر ، وهمس يحدث رسول الله ﷺ : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا . فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « يا أبأ بكر .. ما ظنك باثنين الله ثالثهما » (٢١) .

ويظهر أن المطاردين داخلهم القنوط من العنور عليهما فى هذا الفج ، فتراكضوا عائدين ، وروى أحمد (٢٢) : « أن المشركين اقتفوا الأثر حتى إذا بلغوا

(٢١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٢٠٧/٧) ومسلم (١٠٩/٧) وغيرهما من حديث أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه .

(٢٢) فى المسند (رقم ٣٥١) من طريق عثمان الجزرى أن مقصداً مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس =

الجليل - جبل ثور - اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت. فقالوا : لو دخل ها هنا أحد ، لم يكن نسج العنكبوت على بابه « فمكث فيه ثلاث ليال » .

ورواية أحمد حسنة ، وإن لم ترد بها السنن الصحاح ، ولم يرد كذلك ذكر لحمام باضت على فم الغار أو غير ذلك .

قال الله تعالى في ذكر الهجرة : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٣) .

والجنود التي يخذل بها الباطل وينصر بها الحق ليست مقصورة على نوع معين من السلاح ولا صورة خاصة من الخوارق . إنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية ، وإذا كانت مادية فإن خطرها لا يتمثل في ضخامتها ، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين . بجيش ذى لجب ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (٢٤)

ومن صنع الله لنبيه أن تعمي عنه عيون عداته وهو منهم على مد الطرف ، ولم يكن ذلك محاباة من القدر لقوم فرطوا في استكمال أسباب النجاة ، بل هو مكافأة القدر لقوم لم يدعوا وسيلة من وسائل الحذر إلا اتخذوها ، وكم من خطة يضعها أصحابها فيبلغون بها نهاية الإتقان تمر بها فترات عصبية لأموهم فوق الإرادة أو وراء الحسبان ثم تستقر أخيراً وفق مقتضيات الحكمة العليا وفي حدود قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٥)

* * *

= به ، وحسن المؤلف إسناده ، وكأنه تبع فيه ابن كثير في « البداية » (١٨٧/٣ - ١٨٨) وتبعه أيضاً الحافظ في « الفتح » (١٨٨/٧) وفي تحصيله نظر فإن عثمان الجزري وهو ابن عمرو بن ساج قال ابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (٦٢/٣) عن أبيه : لا يحتج به « وقال العقيلي « لا يتابع في حديثه » ولهذا قال الحافظ ابن حجر في « التقریب » : فيه ضعف . ولا يقويه الشاهد الذي ذكره ابن كثير ، وابن حجر من رواية الحسن البصري فإنه - مع كونه مرسل - فيه بشار الخفاف وهو ابن موسى وليس بثقة كما قال ابن معين ، والسنائي ، وضعفه غيرهما . (٢٣) التوبة : ٤٠ . (٢٤) المدثر : ٣١ . (٢٥) يوسف : ٢١ .

فى الطريق إلى المدينة

مرت ثلاث ليال على مييت الرسول عليه الصلاة والسلام فى الغار ، ومحمد حماس المشركين فى الطلب . وتأهب المهاجران لاستئناف رحلتهما الصعبة .

وجاء « عبد الله بن أريقط » فى موعده ومعه رواحله قد أعلفها لاستقبال سفر بعيد . وتزود الركب ثم سار على اسم الله .

غير أن قريشاً ساءها أن تحفق فى استرجاع محمد عليه الصلاة والسلام وصاحبه فجعلت دية كل واحد منهما جائزة لمن يجيء بهما أحياء أو أمواتاً .

ومائتان أو مائة من الإبل فى الصحراء ثروة تغرى بركوب المخاطر وتحمل المشاق .

وقد قدر رسول الله ﷺ أن المشركين لن يألوا جهداً فى الإساءة إليه . فالتزم فى سيره جانب المحاذرة ، وأعانتهم مهارة الدليل على سلوك دروب لم تعتدها القوافل ، ثم أطلق الزمان للرواحل فمضت تصل النهار بالليل .

رمى بصدور العيس منخرق الصبا فلم يدر خلق بعدها أين يما ؟

فلما مروا بحى مدلج مصعدين ، بصر بهم رجل من الحى فقال : لقد رأيت آنفاً أسودة بالساحل ، ما أظنها إلا محمداً عليه الصلاة والسلام وأصحابه ففطن إلى الأمر سراقة بن مالك ورغب أن تكون الجائزة له خاصة فقال : بل هم فلان وفلان قد خرجوا لحاجة لهم .. ومكث قليلاً ثم قام فدخل خبائه وقال لخدمته . اخرج بالفرس من وراء الخباء وموعداك خلف الأكمة .

قال سراقة : فأخذت رحمي وخرجت من ظهر البيت وأنا أخط بزجه الأرض ، حتى أتيت فرسى فركبتها ، فدفعتها ففرت بى حتى دنوت منهم فعثرت بى فرسى فخررت عنها ! فقامت .

وامتطى سراقه فرسه مرة أخرى وزجرها فانطلقت حتى قرب من الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه ، وكان أبو بكر يكثر الالتفات يتبين هذا العدو الجسور ، فلما دنا عرفه فقال لرسول الله ﷺ - وكان ماضياً إلى غايته -: هذا سراقه بن مالك قد رهقنا ! وما أتم كلامه حتى هوت الفرس مرة أخرى ملقية سراقه من على ظهرها ، فقام معفراً ينادى بالأمان !!

وقع في نفس سراقه أن الرسول عليه الصلاة والسلام حق فاعتذر إليه وسأله أن يدعو الله له وعرض عليهما الزاد والمتاع . فقالا : لا حاجة لنا ، ولكن عمّ عنا الطلب^(٢٦) ، فقال : قد كُفيتم ، ثم رجع فوجد الناس جادين في البحث عن محمد عليه الصلاة والسلام وصاحبه ! فجعل لا يلقي أحداً من الطلب إلا رده وهو يقول : كُفيتم هذا الوجه !

أصبح أول النهار جاهداً عليهما ، وأمسى آخره حارساً لهما !!..



(٢٦) إلى هنا أخرجه البخاري (١٩٠/٧ - ١٩٢) والحاكم (٦/٣ - ٧) من حديث سراقه بن جعتم . وبقيّة القصة إلا السطر الأخير أخرجه مسلم (٢٣٦/٨ ، ٢٣٧) من حديث البراء بن عازب والسطر المذكور عند البخاري (٢٠٠/٧) من حديث أنس ورواه أحمد أيضاً (٢١٢/٣) .

دعاء

إن أسفار الصحراء توهمي العمالة الآمنين . فكيف بركب مهدر الدم مستباح
الحق ؟

ما يحس هذه المتاعب إلا من صلى ناراها . لقد برزنا لوهج الظهيرة يوماً
فكادت الأشعة البيضاء المنعكسة على الرمال تحطف أبصارنا فعدنا مغمضين نستبقى
من عيوننا ما خفنا ضياعه .

وعندما تصبح وتمسى وسط وهاد ونجاد لا تنتهي حتى تبدأ ، تخال العالم كله
مهامة مغبرة الأرجاء داكنة الأرض والسماء .

وجرت عادة المسافرين أن يأووا في القيلولة إلى أى ظل ، فى بطاح ينتعل كل
شيء فيها ظله . حتى إذا جنحت الشمس للمغرب ، تحركت المطايا اللاعبة تغالب
الجفاف والكرى .

وللعرب طاقة على احتمال هذا الشظف ، مع قلة الزاد والرى .

وقد مر بك أن الرسول - وهو طفل - قطع هذه الطريق ، ذهب مع أمه
لزيارة قبر أبيه ثم عاد وحده !

وإنه - الآن ليقطعها وقد بلغ الثالثة والخمسين ، لا لزيارة أبويه اللذين ماتا
بالمدينة ، بل لرعاية رسالته التى تشبثت بأرض يثرب جنورها . بعدما تبرمت مكة
بها وبصاحبها وبمن حوله .

إنه أرسخ أهل الأرض يقيناً بأن الله ناصره ومظهر دينه ، بيد أنه أسيف
للفظاظلة التى قوبل بها ، وللجحود الذى لاحقه من بدء رسالته حتى اضطره إلى
الهجرة على هذا النحو العنيف ، ها هو ذا يخرج من مكة وقد أعلن سادتها عن الجوائز
المغرية لمن يغتاله .

روي أبو نعيم^(٢٧) أن رسول الله ﷺ لما خرج من مكة مهاجراً إلى الله قال :

« الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئاً . اللهم اعنى على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالى والأيام . اللهم اصحبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى ، وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فذللى ، وعلى صالح خلقى فقومنى ، وإليك رب فحبيبى ، وإلى الناس فلا تكلنى . أنت رب المستضعفين وأنت رى . أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر الأولين والآخرين أن تحل على غضبك ، وتنزل لى سخطك . وأعوذ بك من زوال نعمتك وفجأة نعمتك ، وتحول عافيتك وجميع سخطك . لك العتبى عندى خیر ما استطعت . ولا حول ولا قوة إلا بك » .

* * *

ومما يلفت النظر أن انطلاق الرسول ﷺ من مكة بشاع فى جوانب الصحراء ، وكأن أسلاك البرق طيرته إلى أقصى البقاع . فعلم به البدو والحضر على طول الطريق حتى يثرب ، بل إن المحال التى عرج بها وصل نبؤها إلى أهل مكة بعد أن انصرف عنها .

والناس يعجبون بقصص البطولة . وتستثيرهم ألوان التحدي ، وهم يتناقلون الأخبار السیالة على الألسن ، فيضفون عليها ثياب الأساطير وقد سرت قلوب كثيرة يغلب محمد عليه الصلاة والسلام على من تبعوه ، وترجمت عواطفها هذه شعراً يتغنى به ولا يعرف قائله !!

من ذلك ما روى عن أسماء^(٢٨) بنت أبى بكر قالت : مكثنا ثلاث ليال ما

. (٢٧) عزاه إليه ابن كثير (١٨٧/٣) من طريق محمد بن إسحاق قال : بلغنى أن رسول الله ﷺ لما خرج من مكة مهاجراً إلى الله يريد المدينة قال : (فذكر الدعاء) قلت : وهذا إسناد ضعيف معضل .
(٢٨) إسناده معضل : قال ابن إسحاق كما فى السيرة (٤/٢ - ٥) : فحدثت أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : « فمكثنا ثلاث ليال وما ندرى أين وجه رسول الله ﷺ حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب ، وأن الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول : فذكر الأبيات وبعضها عن غير ابن إسحاق كما قال ابن هشام .

ندرى أين وجه رسول الله ﷺ حتى أقبل رجل من أسفل مكة يتغنى بأبيات من الشعر :

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروحا ..! فأفلح من أمسى رفيق محمد
لهم بنى كعب مكان فئاتهم ومقعدا للمؤمنين بمرصدا !

قالت أسماء : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ ، وأن وجهه إلى المدينة !

من القائل ؟ تذكر الرواية أنه من الجن ! وتلك عادة العرب في نسبة شعرها لكل شاعر عندهم شيطان !.. (٢٩)

والراجع أن الأبيات المذكورة من إنشاء مؤمن يكتف بإيمانه بمكة ويتسمع أخبار المهاجرين فيبدى فرحته بما يلقون من توفيق ، ويجد متنفساً لمشاعره المتوارية في هذا الغناء المرسل .

والأبيات تشير إلى واقعة عرضت للرسول عليه الصلاة والسلام في أثناء رحلته فقد مر على منازل خزاعة . ودخل خيمة أم معبد ، فاستراح بها قليلاً ، وشرب من لبن شاتها .

* * *

(٢٩) أقول : إذا جاز هذا على العرب في جاهليتهم أفيجوز ذلك عليهم في إسلامهم وقد نور الله به قلوبهم أن تتدلس بشئ من الأوهام ؟ أيجوز أن يقال في حق أسماء أنها أطلقت اسم « الجن » بل « الشيطان » على « المؤمن » ؟ وما هي الضرورة التي تلجئ حضرة المؤلف إلى هذه التأويلات البعيدة بل الباطلة ؟ ألا نرى في الرواية - كما ذكرنا - أن الجنى كان الناس يتبعونه يسمعون صوته وما يروونه ؟ أفهلها من صفات الأنسى ؟ خير للمؤلف أن يعرض عن ذكر هذه الرواية مطلقاً - لاسيما وهي ضعيفة - من أن يتأولها هذا التأويل المستنكر ثم وحدت الحديث موصولاً أخرجه الحاكم (٩/٣ - ١٠) عن حديث هشام ابن حييش وقال : « صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وفيما قاله نظر » وقال الهيثمي (٥٨/٦) : « رواه الطبراني وفي إسناده جماعة لم أعرفهم » لكن للحديث طريقين آخرين أوردهما الحافظ ابن كثير في « البداية » (١٩٢/٣ - ١٩٤) فالحدث بهذه الطرق لا ينزل عن رتبة الحسن ، والله أعلم .

الوصول إلى المدينة

وكذلك ترامت أخبار المهاجر العظيم وصاحبه إلى المدينة . فكان أهلها يخرجون كل صباح يمدون أبصارهم إلى الأفق البعيد ، ويتشوفون إلى مقدمه بلهفة . فإذا اشتد الحر عادوا إلى بيوتهم يتواعدون الغد ، وملء جوانحهم الترقب ، والقلق والرجاء .

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول لثلاث عشرة سنة من البعثة برز الأنصار على عادتهم منذ سمعوا بمخرج الرسول عليه الصلاة والسلام إليهم ، ووقفوا بظاهر المدينة ينتظرون طلعه ويودون رؤيته . فلما حميت الظهيرة وكادوا ييأسون من مجيئه وينقلبون إلى بيوتهم . صعد رجل من اليهود على أطم من آطامهم ، لبعض شأنه ، فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه يتقاذفهم السراب . وتدنوا بهم الرواحل رويداً رويداً إلى المدينة .. إلى وطن الإسلام الجديد ، فصرخ اليهودى بأعلى صوته : يا بنى قيلة ، هذا صاحبكم قد جاء ، هذا جدكم الذي تنتظرون .

فأسرع الأنصار إلى السلاح يستقبلون به رسولهم ، وسمع التكبير يرج أنحاء المدينة ، ولبست « يثرب » حلة العيد ومباهجه .

قال البراء : أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم فجعلوا يقرئان الناس القرآن ثم جاء عمار ، وبلال ، وسعد . ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين راكباً . ثم جاء رسول الله ﷺ فما رأيت الناس فرحوا بشئ كفرجهم به ، حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون : هذا رسول الله قد جاء (٣٠) .

(١٠) حديث صحيح أخرجه البخارى (٢٠٨/٧ - ٢٠٩ ، ٥٦/٨) والطائسي (٩٤/٣) وأحمد (رقم ٣) .

يا عجباً لنقائض الحياة واختلاف الناس ! إن الذى شهرت مكة سلاحها
لنقتله ولم ترجع عنه إلا مقهورة استقبلته المدينة وهي جزلانة طروب ، وتنافس رجالها
يعرفوه عليه المنعة والعدة والعدد .

ومن الطريف أن كثيراً من أهل المدينة لم يكن رأى رسول الله ﷺ فلما قدم
الركب لم يعرفوه من أى بكر لأول وهلة حتى أن العواتق كن يترأينه فوق البيوت
يقلن : أيهم هو !

ونزل النبي ﷺ في بنى عمرو بن عوف ، فأم فمهم أربع عشرة ليلة أسس
خلالها مسجد قباء . وهو أول مسجد أسس في الإسلام . وفيه نزل قوله تعالى :
﴿ الْمَسْجِدَ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ
يَتَّطَهَرُوا ﴾ (٣١) .



استقرار المدينة

رجل العقيدة يسير طوعاً لها ، ويجد طمأنينته حيث تفر عقيدته وتلقى الرحب والسعة .

والناس ينشدون سعادتهم فيما تعلقت به همهم وجاشت به إمانهم وهم ينظرون إلى الدنيا وحظوظهم منها على ضوء ما رسب في نفوسهم من عواطف وأفكار .

فطالب الزعامة يرضى أو ينقم ، وينشط أو يكسل بمقدار قربه أو بعده من أمله الحبيب .

انظر المتنبي كم مدح وهجا ؟ وكيف انتقل من الشام إلى مصر ، ومن مصر إلى غيرها ، وانظر إلى ذكره أحاديث الناس عنه وعن بغيته .

يقولون لى : ما أنت ؟ فى كل بلدة وما تبتغى ؟ ما أبتغى جل أن يُسمى والذى جل أن يُسمى صرّح به فى مكان آخر فطلب أن تُناط به ضيعة أو ولاية !! أى بعض ما وضعته الحظوظ فى أيدي الملوك والملاك ، وإنه ليتعجل هذا الأمل من كافور فيقول :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله ؟ فإنى أغنى منذ حين وتشرب ؟

والمتنبي فى نظر أهل - بكفايته - للمناصب الرفيعة . ولكن التطلع إلى الدنيا بهذا النزق والإلحاح ، محكوم بالمشيئة التى ذكرتها الآية ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ .. ﴾ (٣٢) .

ومن الناس من يعشق الجمال ويجرى وراء النساء ويجد في المتعة بهن تهمته التي يسكن بعدها ويستكين ويقول :

لا أرى الدنيا على نور الضحى بل أرى الدنيا على نور العيون

ومنهم من يبحث عن المال ويقضى سحابة نهاره وشطر ليله يتتبع الأرقام في دفاتره ، يحصى ما وقع في يده ويتربص بما لم يقع ، وربما ذهل عن طعامه ولباسه في غريزة الاقتناء التي سدّت عليه المنافذ .

* * *

إلى جانب هذه الأصناف تجد فريقاً آخر من البشر لا يطيق الكف عن إسداء الجميل ، وبذل النصيحة ، ورعاية الصالح العام . وإفناء ذاته في سبيل الفضائل التي ملكت لبه وعمرت قلبه .

إنه يبيت مهذاً لو فرط في واجب .. راحته الكبرى في نشدان الكمال وسعادته القصوى يوم يدرك منه سهماً .

وأصحاب الرسائل رهناء ما تحمّلوا من أمانات ضخمة فمغانهم ومغارهم وحلهم وترحالهم وصدقاتهم وخصومتهم ترجع كلها إلى المعاني التي ارتبطوا بها وحيوا لأجلها .

وصاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله - ﷺ - ضرب من نفسه المثل الفذ للمكافحين ، فمنذ أخذ على عاتقه تمزيق الأسداف التي ألقت في العالم ليلاً كثيفاً من الشرك والخرافة لم يفلح أحد في ثنيه عن عزمه أو تعويق مسيره أو ترصيته برغبة أو ردعه برهبة ، وفنيت أمام عينيه فوارق الزمان والمكان ، فالغريب عنه إذا عرف الحق قريب ، ووطنه إذا تنكر للهدى فهو منه برئ ، والمؤمنون به آخر الدهر هم إخوته وإن لم يشاهدوه .

ولقد عاش في مكة ثلاثة وخمسين عاماً حتى ألفها وألفته ، لكنه اليوم يخرج منها إلى وطن جديد يرى فيه امتداد قلبه وثمار غرسه .

والرجال الذين تنبع سعادتهم من قلوبهم ويرتبطون أمام ضمائرهم بمبادئهم لا يكرمون بيئة بعينها إلا أن تكون صدق لما يرون .

فلا غرو إذا دخل محمد ﷺ المدينة دخول الوامق المعتز .. واستبشر بما آتاه
 الله فيها من فتح ، وتوسم من وراء هذه الهجرة بشائر الخير والنصر .
 ثوى في قريش بضعة عشرة حجة يذكر لو يلقى حبيباً مواتياً
 ويعرض في أهل المواسم نفسه فلم ير من يؤوى ولم ير واعياً
 فلما أأتانا واستقرت به النوى وأصبح مسروراً بطيبة راضياً
 وأصبح لا يخشى ظلامة ظالم بعيد ولا يخشى من الناس باغياً
 بذلنا له الأموال من جل مالنا وأنفسنا عند الوغي والتآسيا
 نعادى الذى عادى من الناس كلهم جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
 ونعلم أن الله لا رب غيره وأن كتاب الله أصبح هاديا

* * *

إن تنظيم الهجرة واستقبال اللاجئين الفارين بدينهم من شتى البقاع ليس
 بالعمل الهين ، وفي عصرنا الحاضر تعتبر هذه الحال مشكلة تحتاج إلى الحل السريع ؟
 ومتى خلت حياة الرجل العظيم من المشكلات ؟
 وصادف إبان الهجرة أن كانت المدينة موبوءة (بحمي الملاريا) ، فلم تمض
 أيام حتى مرض بها أبو بكر ، وبلال .
 واستوخم الصحابة جو المهجر الذى آواهم . ثم أخذت تستيقظ غرائز الحنين
 إلى الوطن المفقود .

فكان النبي ﷺ يصبر الصحابة على احتمال الشدائد . ويطالبهم بالمزيد من
 الجهد والتضحية لنصرة الإسلام وقال : « لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من
 أمتي إلا كنت له شقيقاً وشهيداً يوم القيامة ، ولا يدعها رغبة عنها إلا أبدل الله فيها
 من هو خير منه » (٣٣) .

(٣٣) حديث صحيح أخرجه مسلم (١٣/٤) وأحمد (رقم ١٥٨٣) من حديث سعد بن أبي وقاص
 بتقديم الجملة الأخرى على الأولى . ورواه البزار من حديث عمر بنحو ما فى الكتاب ، قال الهيثمى
 (٣٠٦/٣) : ورحاله رجال الصحيح .

وهذا ضرب من جمع القلوب على المهجر الجديد حتى تطيب به وتنفر من مغادرته .

وعن عائشة قالت : لما قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة وعك أبو بكر وبلال . فدخلت عليهما فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبّح في أهله والموت أدنى من شرك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواجر ، وحول إذخر وجليل وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدؤن لى شامة وطفيل ؟ (٣٤)

قالت : فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال : اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم وصححها وبارك لنا في مداها وصاعها ، وانقل حماها واجعلها بالجحفة » (٣٥) .

وعن أنس : قال رسول الله ﷺ : « اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلت بمكة من البركة » (٣٦) .

وعن أبي هريرة قال : « كان رسول الله ﷺ إذا أتى بأول الثمر قال : « اللهم بارك لنا في مدينتنا وفي ثمارنا وفي مدنا وفي صاعنا ، بركة مع بركة ، اللهم إن إبراهيم عبدك ونبيك وخليلك ، وإني عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة ، وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه ، ثم يعطيه أصغر من يحضر من الولدان .. » (٣٧) .

بهذا التشويق والإقبال ارتفع الروح المعنوى بين المسلمين ، واتجهت القوى

(٣٤) جبال مكة .

(٣٥) حديث صحيح أخرجه البخارى (٢٠٩/٧ - ٢١٠) وأحمد (٦٥/٦ ، ٢٢١ - ٢٢٢ ، ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٦٠) ورواه مسلم (١١٩/٤) مختصراً بدون الأبيات وهو رواية لأحمد (٥٦/٦) .

(٣٦) حديث صحيح أخرجه البخارى (٧٨/٤) ومسلم (١١٥/٤) وأحمد (١٤٢/٢) .

(٣٧) حديث صحيح أخرجه مسلم (١١٧/٤) .

الفتية إلى البناء ، متناسية الماضي وما يضم من ذكريات . إن الهجرة الخالصة لا تعود
في هبة ولا ترجع عن تضحية ولا تبكي على ما فائت ، بل هي كما قال الشاعر :
إذا انصرفت نفسى عن الشئ لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل !...



الفصل الخامس

أسس البناء للجمعية الجديدة

ليست الأمة الإسلامية جماعة من الناس ، همها أن تعيش بأى أسلوب ، أو تخط طريقها فى الحياة إلى أى وجهة ، وما دامت تجد القوت واللذة ، فقد أراحت واستراحت .

كلا كلا ، فالمسلمون أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله ، وتوضح نظرهم إلى الحياة ، وتنظم شئونهم فى الداخل على أنحاء خاصة ، وتسوق صلاتهم بالخارج إلى غايات معينة .

وفرق بين امرئ يقول لك همى فى الدنيا أن أحيا فحسب ! وآخر يقول لك : إذا لم أحرس الشرف ، وأصن الحقوق ، وأرض الله ، وأغضب من أجله ، فلا سعت لى قدم ، ولا طرفت لى عين ..

والمهاجرون إلى المدينة ، لم يتحولوا عن بلدهم ابتغاء ثراء أو استعلاء .
والأنصار الذين استقبلوهم وناصروا قومهم العدا . وأهدفوا أعناقهم للقاصى والدانى ، لم يفعلوا ذلك ليعيشوا كيفما اتفق ..

لإنهم - جميعاً - يريدون أن يستضيئوا بالوحي ، وأن يحصلوا على رضوان الله وأن يحققوا الحكمة العليا التى من أجلها خلق الناس ، وقامت الحياة ..

وهل الإنسان إذا جحد ربه ، وتبع هواه ، إلا حيوان ذميم ، أو شيطان رجيم ؟؟

من هنا شغل رسول الله ﷺ - أول مستقره - بالمدينة بوضع الدعائم التى لا بد منها لقيام رسالته . وتبين معالمها فى الشئون الآتية :

- ١ - صلة الأمة بالله .
- ٢ - صلة الأمة بعضها ببعض الآخر .
- ٣ - صلة الأمة بالأجانب عنها ، ممن لا يدينون دينها .

* * *

المسجد

ففى الأمر الأول بادر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بناء المسجد ، لتظهر فيه شعائر الإسلام التى طالما حُوربت ، ولتقام فيه الصلوات التى تربط المرء برب العالمين ، وتنقى القلب من أدران الأرض ، ودسائس الحياة الدنيا .

والمروى أن الرسول ﷺ بنى مسجده الجامع حيث بركت ناقته ، فى مربد لغلأمين يكفلهما « أسعد بن زرارة » وكان الغلامان يريدان النزول عنه لله ، فأبى الرسول عليه الصلاة والسلام إلا ابتياعه بثمنه ، وكان المربد قبل أن يتخذ مصلى كهذه المصليات التى تنتشر فى ريفنا . كانت تنبت فيه نخيل وشجر غرقد ، وتختفى فى تراه بعض قبور للمشركين

فأمر الرسول بالنخل فقطع ، وبالقبور^(١) فنبشت ؟! وبالخرب فسويت ، وصفوا النخيل قبله للمسجد^(٢) - والقبلة يومئذ بيت المقدس - وجعل طوله مما يلي القبلة إلى المؤخرة مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك تقريباً ، وجعلت عضاداته من الحجارة ، وحفر الأساس ثلاثة أذرع ، ثم بنى باللبن ، واشترك الرسول ﷺ وأصحابه فى حمل اللبنة والأحجار على كواهلهم .

وكانوا يروّحون عن أنفسهم عناء الحمل والثقل والبناء .. بهذا الغناء :
اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة !!
وقد ضاعف حماس الصحابة فى العمل رؤيتهم النبى ﷺ يجهد كأحدهم ، ويكره أن يتميز عليهم ، فارتجز بعضهم هذا البيت :

(١) هى أحداث آتى عليها البلى « حتى هجرت » فلا يدفع بها أحد .

(٢) ثبت هذا فى « الصحيحين » وغيرهما من حديث أنس .

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضل !!

وتم المسجد في حدود البساطة ، فراشه الرمال والحصباء ، وسقفه الجريد ، وأعمدته الجنوع ، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه ، وقد تفلت الكلاب إليه فتغلو وتروح .

هذا البناء المتواضع الساذج ، هو الذى رى ملائكة البشر ، ومؤدى الجبارة وملوك الدار الآخرة ، فى هذا المسجد أذن الرحمن لنبى يؤم بالقرآن خيرة من آمن به ، يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل .

إن مكانة المسجد فى المجتمع الإسلامى ، تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادى فهو ساحة للعبادة ، ومدرسة للعلم ، وندوة للأدب ، وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد هى لباب الإسلام ، لكن الناس - لما أعياهم بناء النفوس على الأخلاق الجليلة - استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة ، تضم مصليين أقزماً !!

أما الأسلاف الكبار فقد انصرفوا عن زخرفة المساجد وتشبيدها إلى تزكية أنفسهم وتقويمها ، فكانوا أمثلة صحيحة للإسلام .

والمسجد الذى وجه الرسول ﷺ همته إلى بنائه قبل أى عمل آخر بالمدينة ليس أرضاً تحتكر العبادة فوقها ، فالأرض كلها مسجد ، والمسلم لا يتقيد فى عبادته بمكان .

إنما هو رمز لما يكثرث له الإسلام أعظم اكتراث ، ويتشبه به أشد تشبه ، وهو وصل العباد بربهم وصلأ يتجدد مع الزمن ، ويتكرر مع آناء الليل والنهار فلا قيمة للحضارة تذهل عن الإله الواحد ، وتجهل اليوم الآخر ، وتخلط المعروف بالمنكر !

والحضارة التى جاء بها الإسلام . تذكر أبدأ بالله وبلقائه ، وتمسك بالمعروف ، وتبغض فى المنكر ، وتقف على حدود الله .

ولقد شاهد يهود المدينة ومشركوها هذا الرسول الجديد يحتشد مع صحبه فى إقامة المسجد ، يمهده للصلاة ، فهل رأوا سيرة تريب أو مسلماً يغمز ؟

روى البیهقی عن عبد الرحمن بن عوف^(٣) قال : كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « أما بعد أيها الناس .. فقدموا لأنفسكم ، «تَعْلَمُنَّ وَاللَّهِ لِيَصْعَقَنَّ أَحَدُكُمْ ، ثم ليدعَنَّ غَنَمَهُ ليس لها راع ، ثم ليقولَنَّ له ربه - ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه - : ألم يأتك رسولي فبلغك ؟ وآتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فينظر يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم ينظر قدماه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي نفسه من النار ولو بشق تمره فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم وعلى رسول الله .. » !!



(٣) هذا ، خطأ ، وإنما رواه البیهقی عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : فذكره . هكذا أورده الحافظ ابن كثير في « البداية » (٢١٤/٣) ثم أعله بالإرسال وقد روى ابن جرير (١١٥/٢ - ١١٥٥) بسند صحيح عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أنه أبلغه عن خطبة رسول الله ﷺ في أول جمعة صلاها بالمدينة فذكرها وهي مغايرة كل المغايرة لخطبة أبي سلمة ، وهي ضعيفة أيضاً لأنها معصلة . الجمحي هذا يروى عن أتباع التابعين مثل هشام بن عروة ، وغيره .

الأخوة

أما عن الأمر الثاني - وهو صلة الأمة بعضها ببعض الآخر - فقد أقامه الرسول ﷺ على الإخاء الكامل . الإخاء الذي تمحي فيه كلمة « أنا » ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصلحته وآمالها ، فلا يرى لنفسه كياناً دونها ، ولا امتداداً إلا فيها ..

ومعنى هذا الإخاء أن تلوب عصبية الجاهلية ، فلا حمية إلا للإسلام . وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن . فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه .

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقداً نافذاً . لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تدرجها الألسنة ، لا بقعة لها أثر .. !!

وكانت عواطف الإيثار والمجتمع الجديد بأروع الأمثال ..

حرص الأنصار على الحفاوة ؛
أنصارى إلا بقرعة !! وقدر المهاجرون مدد ، يسر
إلا بقدر ما يتوجهون إلى العمل الحر الشريف .

روى البخارى : أنهم لما قدموا المدينة ألقى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن ابن عوف وسعد بن الربيع : فقال سعد لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك ! فسمها لى أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، قال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟؟

فدلوه على سوق بنى قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ! ثم تابع الغلو .. ثم جاء يوماً ، وبه أثر صفوة^(٤) ، فقال النبي ﷺ : « مهيم »^(٥) ؟ قال : تزوجت .

قال : « كم سقت إليها » ؟ قال : نواة من ذهب ! .

ولمعجاب المرء بسماحة « سعد » لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبد الرحمن ، هذا الذى زاحم اليهود فى سوقهم ، وبزهم فى ميدانهم ، واستطاع - بعد أيام - أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه ، إن علو الهمة من جلائق الإيمان ، وقبح الله وجوه أقوام انتسبوا للإسلام فأكلوه ، وأكلوا به حتى أضاعوا كرامة الحق فى هذا العالم .

وكان رسول الله ﷺ الأخ الأكبر لهذه الجماعة المؤمنة لم يتميز عنهم بلقب إعظام خاص ، وفى الحديث : « لو كنت متخذاً من أمتى خليلاً لاتخذته - يعنى أبا بكر - خليلاً - ولكن إخوة الإسلام أفضل »^(٦) .

والإخاذ الحق لا ينبت فى البيئات الخسيسة ، فحيث يشيع الجهل والنقص والجن والبخل والجشع ، لا يمكن أن يصح إخاء ، أو تترعرع محبة ، ولولا أن أصحاب رسول الله ﷺ جُبلوا على شمائل نقية ، واجتمعوا على مبادئ رضية ، ما سجلت لهم الدنيا هذا التأخي الوثيق فى ذات الله .

فسمو الغاية التى التقوا عليها ، وجلال الأسوة التى قادتهم إليها ، نميا فيهم خلال الفضل والشرف ، ولم يدعا مكاناً لنجوم تحلة رديئة .

ذلك ، ثم إن محمداً عليه الصلاة والسلام كان إنساناً ، تجمع فيه ما تفرق فى عالم الإنسان كله من أمجاد ومواهب وخيرات ، فكان صورة لأعلى قمة من الكمال

(٤) زينة .

(٥) سؤال عن حاله .

(٦) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (١٤/٧) من حديث ابن عباس بهذا اللفظ .

يمكن أن يبلغها بشر ، فلا غرو إذا كان الذين قبسوا منه ، وداروا في فلكه ، رجالاً يحيون بالنجدة والوفاء والسخاء .

إن الحب كالنبع الدافق يسيل وحده ، ولا يتكلف استخراج الآلات والأثقال ، والأخوة لا تفرض بقوانين ومراسيم ، وإنما هي أثر تخلص الناس من نوازع الأثرة والشح والضعفة .

وقد تبودلت الأخوة بين المسلمين الأولين ، لأنهم ارتقوا - بالإسلام - في نواحي حياتهم كلها ، فكانوا عباد الله إخواناً . ولو كانوا عبيد أنفسهم با أبقى بعضهم على بعض !!

على أن تنوينا بقيمة التسامى النفساني في تأسيس الإخاء ، لا يمنع الحاكم من فرضه على الناس نظاماً يؤخذون بحقوقه أخذاً ، فإذا لم يؤدوها طوعاً أدوها كرهاً ، وذلك كما يجبرون على العلم ، والجندية ، وأداء الضرائب ، وغير ذلك .

* * *

وقد ظلت عقود الإخاء مقدمة على حقوق القرابة في توارث التركات إلى موقعة « بدر » حتى نزل قوله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧) فألغى التوارث بعقد الأخوة ، ورجع إلى ذوى الرحم .

وروى البخارى عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَالَّذِينَ عَقَدْتُ أَيْمَانَكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ .. ﴾ (٨) .

قال : كان المهاجرون - لما قدموا المدينة - يرث المهاجرون الأنصارى دون ذوى رحمه ، للأخوة التى آخى النبى عليه الصلاة والسلام بينهم . فلما نزلت : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ .. ﴾ نسخت ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدْتُ أَيْمَانَكُمْ فَأَتَوْهُمْ

(٧) الأنفال : ٧٥ .

(٨) النساء : ٣٣ .

نصيبهم من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ، ويوصى له .
 وروى في تفصيل هذا الإخاء أن النبي ﷺ تأخى مع عليّ ، وتأخى حمزة مع
 زيد ، وأبو بكر مع خارجه ، وعمر مع عتبان بن مالك .. الخ .
 ومن العلماء من يشك في أخوة الرسول عليه الصلاة والسلام مع عليّ .
 ولكن ما صبح أن رسول الله ﷺ جعل علياً منه بمنزلة هارون من موسى يؤيد
 هذه الرواية^(٩) ، وليس يخدش هذا من منزلة أى بكر ولا استحقاقه الصدارة .



(٩) قلت : كلا ، لا تأييد ، فإن الأخوة المذكورة أخص من تلك المنزلة ، ولا يثبت الأخص بالأعم .
 فلا بد من إثبات الأخوة بنص خاص . وقد تتبعت الأحاديث الواردة فيها فوجدتها لا تخلو من كذاب . ومن
 أشهرها ما أخرجه الترمذى (٣٢٨/٤) والحاكم (١٤/٣) من طريق حكيم بن جبير عن جميع بن عمير عن ابن
 عمر قال : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه فجاء على تدمع عيناه فقال : يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم
 تؤاخ بينى وبين أحد ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنت أخى فى الدنيا والآخرة . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن
 غريب » وتعبه الشارح المباركفورى بقوله : « حكيم بن جبير ضعيف مرمى بالشيعة » قلت : ذهل هو
 والترمذى عن علته الحقيقية وهى « جميع ابن عمير » هذا . قال الذهبى فى الميزان « قال ابن حبان : رافضى يضع
 الحديث » وقال : « إن عميراً كان من أكذب الناس » ثم ساق له الذهبى هذا الحديث . وقد رواه أيضاً سالم بن
 أبى حنيفة الكاهلى أخرجه الحاكم متابعاً لحكيم بن جبير ، فتعبه الذهبى فى « التخليص » بقوله : « قلت : جميع
 منهم ، والكاهلى هالك . قلت : كذبه ابن أبى شيبه وموسى بن هارون . وقال الدارقطنى : « هو فى عداد من
 يضع الحديث » ومن شاء الاطلاع على بقية الأحاديث وعللها فليراجع « المجموع » (١١/٩) والآلئ المصنوعة
 . (١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠١) .

غير المسلمين

أما الأمر الثالث ، وهو صلة الأمة بالأجانب عنها ، الذين لا يدينون بدينها ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد سن في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم ملئ بالتعصب والتغالي ، والذي يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار دين آخر . وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلط هو رجل مخطئ بل متحامل جري !

عندما جاء النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، وجد بها يهوداً توطنوا ومشركين مستقرين .

فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام ، بل قبل - عن طيب خاطر - وجود اليهودية والوثنية ، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة الند للند ، على أن لهم دينهم وله دينه .

ونحن نقتطف فقرات من نصوص المعاهدة التي أبرمها مع اليهود . دليلاً على اتجاه الإسلام في هذا الشأن .

جاء في هذه المعاهدة ، أن المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة .

وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة^(١٠) ظلم ، أو إثم ، أو علوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم !! وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .

(١٠) محض .

وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر . أن ينصر محدثاً^(١١) ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .
وأن يهود بنى عوف أمة من المؤمنين .
لل يهود دينهم وللمسلمين دينهم .

وأن اليهود بنى النجار والحارث وساعدة وبنى جشم وبنى الأوس .. الخ .
مثل ما ليهود بنى عوف .

وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

وأن بينهم النصح والنصيحة والبر ، دون الإثم .

وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه . وأن النصر للمظلوم ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ..

وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

وأن من خرج آمن ، ومن قعد بالمدينة آمن ، إلا من ظلم . وآثم ..

وأن الله جاز لمن بر واتقى «^(١٢)» ..

وهذه الوثيقة تنطق برغبة المسلمين في التعاون الخالص مع يهود المدينة ، لنشر السكينة في ربوعها ، والضرب على أيدي العابدين ومدبري الفتن ، أياً كان دينهم .

وقد نصّت - بوضوح - على أن حرية الدين مكفولة .

فليس هناك أدنى تفكير في محاربة طائفة أو إكراه مستضعف . بل تكاتف

(١١) جرماً .

(١٢) روى هذه الوثيقة ابن إسحاق (١٦/٢ - ١٨) بدون إسناد .

العبارات في هذه المعاهدة على نصرة المظلوم ، وحماية الجار ، ورعاية الحقوق الخاصة والعامّة ، واستنزل تأييد الله على أبر ما فيها وأتقاه ، كما استنزل غضبه على من يخون ويغش .

واتفق المسلمون واليهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدو . وأقرت حرية الخروج من المدينة لمن يبتغي تركها ، والقعود فيها لمن يحفظ حرمتها .

ويلاحظ أن الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه المعاهدة أشار إلى العدواة القائمة بين المسلمين ومشركي مكة . وأعلن رفضه الحاسم لموالائهم ، وحرم إساءة أى عون لهم . وهل ينتظر إلا هذا الموقف من قوم لا تزال جروحهم تقطر دماً ، لبغي قريش وأحلافها عليهم ؟

* * *

أكان اليهود صادقين في موافقتهم على هذا العهد ؟

أغلب الظن أنهم لم يكونوا جادين حين ارتضوه وقبلوا إنفاذه .

وآفة العهود أن يرتبط الوفاء بها بمدى المنفعة المرجوة منها ، فإذا بدا أن المعاهدة المبرمة لا تحقق المطامع المبتغاة ، قلّ التمسك بها والتمست الفرص للتحلل منها .

وقد كان اليهود يبنون عظمتهم المادية والسياسية على تفرق العرب قبائل متناحرة ، فلما دخل العرب في الإسلام وأخذت الحزازات القديمة تتلاشى ، وتتابعت الأيام تؤكد أن الإسلام سوف يصنع من العرب أمة واحدة .. استشعر اليهود القلق وساورتهم الهوم ، وشرعوا يفكرون في الكيد لهذا الدين والتربص بأتباعه .

ثم إن اليهود في المدينة يكوّنون البيئة التي تتوافر فيها سوءات الدين المصنوع والاحتراف السمج بمبادئ السماء ، وأبرز خلال هذه البيئات الحقد والنفاق والتمسك بالقشور والولع بالجدل ، ومن وراء ذلك قلوب خربة ، ونفوس معوجة .

وربما اقتبسوا من جوارهم للعرب بعض فضائل الصحراء ، كالكرم والشجاعة ، بيد أن انطواءهم العنصرى غلب على سيرتهم ، فالتصقت هذه الفضائل بنفوسهم كما تلتصق أوراق الزينة بالجدران المشوهة .

وكان المتوقع أن يرحب اليهود بالإسلام ، فإذا لم يرحبوا به فليكونوا أبطاً من الوثنيين في مخاصمته ، فإن محمداً ﷺ يدعو إلى توحيد الله ، وإصلاح العمل ، والاستعداد لحياة أرقى في الدار الآخرة ، والدين الذي جاء به وقرّ موسى وأعلى شأنه ، ونوّه بكتابه ، وطلب من اليهود أن ينفذوا أحكامه ، ويلزموا حدوده . لكن اليهود صمتوا - أولاً - صمت المستريب ، ثم بدا لهم فقرروا المعالنة بالبحود .

وهذا الترحيب المتوقع تلمح دلائله في كثير من الآيات ، فإن عبدة الأصنام إذا أنكروا النبوة ، فأهل الكتاب يجب أن يشهدوا بها ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ، قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (١٣) .

وعبدة الأصنام إذا رفضوا التذكير بالله ، فأهل الكتاب أحق بأن يخشعوا إذا وجلوا من يذكّرهم به .

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٤) .

غير أنك تدهش ، إذ تجد الجرأة على الله والنفور من أحكامه ، ووصفه بما لا يليق شائعة بين اليهود ، شيوعها بين المشركين !

فإذا غضب الإسلام على من ينسب إلى الله ولداً ، بشراً أو حجراً فماذا ترى فيمن يصف رب السموات والأرض بالفقر والبخل ؟

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا .. ﴾ (١٥) .

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (١٦) .

* * *

(١٣) الرعد : ٤٣ .

(١٤) القصص : ٥١ ، ٥٢ .

(١٥) المائدة : ٦٤ .

(١٦) آل عمران : ١٨١ .

على إن الإسلام يدع أولئك الجحدة في ضلالهم فلا يستأصل كفرهم بالسيف ، ويكتفى بأن يعلن دعوته ، ويكشف حقيقته ، ويملاً الجو بآياته ومعالمه .

فمن استراح إليها فدخل فيها ، فيها ونعمت وإلا فهو وشأنه ، ولا يطالبه الإسلام بشئ إلا الأدب والمسالمة ، وترك الحق يسير من غير عائق أو نكير .

ولقد جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة فمد يده إلى اليهود مصافحاً ، وتحمل الأذى مسامحاً ، حتى إذا رآهم مجمعين على التنكيل به ومحو دينه ، استدار إليهم وجرت بينهم من الوقائع ، ما سنقص أخباره في موضعه .

* * *

بتقوى الله والإخلاص له دعمت الناحية الروحية في هذا المجتمع الجديد .
وبالإخاء الحق ، تماسك بنيانه وتوثقت أركانه .
وبالعدل والمساواة ، والتعاون ، رسمت سياسة الأجانب ، وعوامل أتباع الأديان الأخرى .

ومن ثم استقرت الأوضاع ووجد المسلمون متسعاً لتجديد قواهم وترتيب شؤونهم .



المصطفون الأخيار

إن المؤمنين الذين صحبوا الأنبياء واقتربوا من حياتهم أُتيح لهم ما لم يتح لغيرهم من منابع الصفاء ووسائل الارتقاء .

إن مشاعرك ترق عندما تسمع النغم العذب ، وعواطفك تسمو عندما تقرأ البطولة الرائعة ، بل إن الذين يحضرون تمثيل بعض الروايات المثيرة يصيغهم جو القصة المفتعلة فيضحكون ، ويكفون ، ويهدأون ويضجون . فملاظنك يقوم يتبعون رجلاً تكلمه السماء ، ويتفجر من جوانبه الكمال ، ويسكب على من حوله آيات الطهر ؟ فإذا ثقلت نفوسهم عن خير ، دفع بها إلى الأمام ، وإذا عقلت بمسالكهم شهوة ، نقاهم فرد عليها سناءها ، إن للعظماء إشعاعاً يغمر البيئة التي يظهرون فيها ، وكما يقترب المصباح الخامد من المصباح المشتعل فيضيئ منه ، تقترب النفوس المعتادة من الفرد الممتاز فتتطوى في مجاله ، وتمشي في آثاره !!

وقد التف بمحمد ﷺ فريق من الربانيين الأنقياء ، كانوا له تلاميذ مخلصين ، فزكت - بصحبته - نفوسهم ، وشفط طباعهم ، حتى أشرق عليها من أنوار الإلهام ما جعلها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب .

ولا تحسبن العقل الجبار - مهما أوتي من نفاذ - يستطيع إدراك الكمال بقوته الخاصة ، فإذا لم تسدده عناية عليا ، فإنه سيجوب كل أفق دون أن يبصر غاية أو يهتدى طريقاً ، كالطيار الذي يضل في الجو عندما يتكاثر أمام عينيه الضباب إنه يحكم القيادة ، ويضبط الآلات ، ويرسل أنوار مصابيح في أحشاء الغيوم المتراكمة ، فإذا لم يتلق إرشاداً يحدد له مكانه ويعرفه كيف يهبط ، فإنه سيظل يحلق عبثاً ، ثم تهوى به الريح في مكان سحيق .

وكم من فلاسفة عاجلوا شئون الكون والحياة ، فمنهم من ضل عن الحق على طول بحثه عنه ، فلم يصل إليه قط ! ومنهم من استغرق في الوصول إليه أعواماً

طوالاً ، ولو مشى وراء الرسل لانتهى إليه في أيام قصار ، وهو في مأمن من الشرود والعثار !

ثم إن الإنسان ليس عقلاً فحسب ، إنه - قبل ذلك - قلب ينبغي أن يسلم من الأهواء والآثام ، وأن ينجو من الشقاوة والظلام ، وأن يكون في حنايا صاحبه قوة تسوق إلى الخير والحب ، وحادياً يهفو إلى الجمال والرحمة .

والمرسلون الكرام يتعهدون ضمائر البشر بالتعليم والتربية .

وأشبه الناس بهم من اقتفى آثارهم وأخذ في طريقهم ، وأول أولئك قاطبة من صحبوهم في حياتهم ، وقاسموهم أعباء دعوتهم ومغارم جهادهم .

قال عبد الله بن مسعود : « من كان مستنأ فليستن بمن مات فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام . كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً . اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه . فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » .

ولا شك أصحاب محمد يرجحون أصحاب موسى وعيسى .

فإن تاريخهم في الإيمان والجهاد وإبلاغ الدعوة إلى الأخلاف كاملة مضبوطة غير منقوصة ، ولا محرفة ، لا يشبه أى تاريخ آخر ..

ونحن نسوق هذه المقدمة بين يدي الكلام عن الأذان ، وكيف شرع ؟ فإن ميلاد هذه الشعيرة العظيمة ، يحمل معه آيات بينة عن عظمة النفوس إذا صفت فنضحت بالحق ، وسكن إليها الإلهام ..

قال ابن إسحاق : وقد كان رسول الله ﷺ حين قدم المدينة ، إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ، فهم رسول الله ﷺ أن يحمل بوقاً كبوق يهود الذى يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس ، فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة . فبينما هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة أخو بنى الحارث النداء ، فأقى رسول الله فقال : يا رسول الله .. إنه طاف بى هذه الليلة

طائف ، مرى رجل عليه ثوبان .. أخضران يحمل ناقوساً في يده ، فقلت : يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟ قال قلت : ندعو به إلى الصلاة . قال : ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر .. أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . أشهد أن محمداً رسول الله . حي على الصلاة . حي على الصلاة . حي على الفلاح . حي على الفلاح . الله أكبر الله أكبر . لا إله إلا الله .. فلما أخبر بها الرسول ﷺ قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ! فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتاً منك . فلما أذن بها بلال سمعه عمر وهو في بيته فخرج إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يجر رداء يقول : يا نبي الله ، والذي بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى ! فقال رسول الله ﷺ : فله الحمد^(١٧) . وفي رواية : فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذن به^(١٨) . قال الزهرى : وزاد بلال في نداء صلاة الغداة : الصلاة خير من النوم مرتين . فأقرها رسول الله ﷺ^(١٩) .

(١٧) حديث أخرجه ابن إسحاق في « المغازى » (١٩/٢ - ٢٠) : حدثني محمد ابن إبراهيم بن الحارث عن محمد بن عبد الملك بن زيد بن ثعلبة بن عبيد ربه عن أبيه وهذا سند حسن ، وقد أخرجه أبو داود والدارمى وابن ماجه والدارقطنى والبيهقى وأحمد كلهم من طريق ابن إسحاق بن. وأخرجه الترمذى مختصراً . وقال : « حديث حسن صحيح » . وصححه جماعة من الأئمة ذكرتهم في كتابي « صحيح سنن أبى داود » (رقم ٥١٢) وله شاهد مختصر من رواية أبى عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار أخرجه أبو داود (رقم ٥١١ من صحيح أبى داود - ولم يطبع) وأخرجه البيهقى (٣٩٩/١ - ٤٠٠) .

(١٨) لا حاجة لهذه الرواية فإن معناها في التى قبلها .

(١٩) أخرجه ابن ماجه (٥٤١/١) عن الأزهرى بسند ضعيف . ورواه بنحوه أحمد (٤٣/٤) من قول سعيد بن المسيب وفي سنده انقطاع ، لكن معنى الحديث صحيح فإن له شواهد كثيرة أوردت بعضها في « الثمر المستطاب » ، في فقه السنة والكتاب « منها عن أنس قال : كان التثويب في صلاة الغداة إذا قال المؤذن : حي على الفلاح قال : الصلاة خير من النوم » مرتين أخرجه الدارقطنى والطحاوى والبيهقى (٤٢٣/١) وقال : « إسناده صحيح » (تنبيه) لا يخفى على الفقيه أن بلالاً كان يؤذن الأذان الأول للفجر ، فإذا ضمنا هذا إلى ما تقدم ينتج منه أن السنة أن يقال : « الصلاة خير من النوم » في الأذان الأول لا الثانى ، وهذا ما جاء به النص فقال ابن عمر : كان في الأذان الأول بعد الفلاح : « الصلاة خير من النوم الصلاة خير من النوم » أخرجه الطحاوى (٨٢/١) وغيره بسند حسن كما قال الحافظ في « التلخيص » (١٦٩/٣) . وفي الباب عن أبى مخنف .

وفي رواية أخرى : رأى عمر في المنام : لا تجعلوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة ، فذهب عمر إلى النبي ﷺ ليخبره بما رأى وقد جاء النبي عليه الصلاة والسلام الوحي بذلك .

فما راع عمر إلا بلال يؤذن فقال رسول الله حين أخبره بذلك : قد سبقك بذلك الوحي (٢٠) .

وهذا يدل على أن الوحي قد جاء بتقرير ما رآه عبد الله بن زيد .

هذه الكلمات الطيبة التي ترتفع بين الحين والحين ، تفرع الأذان ، وتوقظ القلوب ، وتصبح بالناس هلموا إلى الله .. وعاءها في رؤيا صالحة ذهن نير ، فأسرع بها إلى رسول الله ، يروها كما ألقى في روعه ، لتكون نداء المسلمين إلى الصلاة ما أقيمت على ظهر الأرض صلاة .

وتجاوب النفوس مع الوحي هو غاية التألق وقمة الحق ، وهو أمارة على أن الهدى أصبح غريزة فيها ، فهي تستقيم عليه في اليقظة والنوم ، وتتجه إليه على البديهة وبعد التروي ، وكان رسول الله ﷺ يربط أصحابه بالوحي النازل عليه من السماء ربطاً موثقاً ، يقرؤه عليهم ويقرأونه عليه ، لتكون هذه المدارس إشعاراً بما على أصحاب من حقوق الدعوة وتبعات الرسالة ، فضلاً عن ضرورة الفهم والتدبر !!

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : اقرأ علي القرآن !! فقلت : يا رسول الله . اقرأ عليك وعليك أنزل ! قال : إني أحب أن أسمع من غيري ! قال : فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ قال : حسبك الآن ، فالتفت إليه ، فإذا عيناه تذرفان (٢١) .

(٢٠) ذكر ابن هشام (٢٠/٢) فقال : وذكر ابن -ريج قال لي عطاء : سمعت عبيد ابن عمر الليثي ، فذكره وهذا - مع انقطاعه - مرسل .

(٢١) أخرجه البخاري (٧٧/٢٠٢/٨ ، ٨٠) ومسلم (١٩٦/٣) والرواية له ونصها : عن ابن مسعود قال النبي ﷺ : شهيداً عليهم مادمت فيهم ، أو ما كنت فيهم (شك من الراوى) والآية من سورة النساء : ٤١ .

زاد في رواية : « شهيداً ما كنت فيهم .. »

وإذا كان الاهتداء إلى ألفاظ الأذان قد ترشحت له سريرة مصفاة ، مشغوفة بالعبادة ، مشغولة بالحق ، فإن من أصحاب محمد ﷺ كذلك ، من اندمجوا في معاني الإيمان ، وخلصوا لمعين الرسالة حتى إن الله أمر رسوله أن يقرأ عليهم بعض سور القرآن ، تنويهاً بمكانهم عند الله ورسوخهم في آياته .

عن أنس بن مالك : قال رسول الله لأبي بن كعب : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ ﴾ قال أبي : وسماي ؟ قال : نعم - وفي رواية « آله سماي لك ؟ قال : نعم » قال : وقد ذكرت عند رب العالمين ؟ قال : نعم . قال : فذرفت عيناه . (٢٢) .



(٢٢) أخرجه البخاري (١٠٠/٨ ، ٥٨٩/٩ - ٥٩٠) والرواية الأخرى له ولمسلم (١٩٥/٢) وأحمد (١٣٠/٣ ، ١٨٥ ، ٢١٨ ، ٢٣٣ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤) وعنده الرواية الأخرى ورواه الترمذي (٣٦٨/٤) والحاكم (٣٠٤/٣) وصححه وأحمد (١٢٢/٥ - ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٣٢) من حديث « أبي » نفسه ، وأحمد أيضاً (٤٨٩/٣) من حديث أبي حبة البدرى . والآية من سورة البينة : ١ .

معنى العبادة

وسر الارتقاء الروحي والجماعي الذى أدركه صحابة محمد أنهم كانوا موصولين بالله على أساس صحيح ، فلم يشعروا فى الفعل له بما يشعر به الكثيرون من عنث وتكلف ، ولا بما يعانون من شروء وحيرة !..

هنا طبيعتان فى الإنسان غير منكورتين : الإعجاب بالعظمة ، والعرفان للجميل فعندما ترى آلة دقيقة أو جهازاً عجبياً أو صورة رائعة أو مقالاً بليغاً فإنك لا تنتهي من تبين حسنه حتى تنطوى جوانحك على الإعجاب بصاحبه ، فإن الذكاء العميق والاعتدال البارز يجعلانك تنحنى من تلقاء نفسك احتراماً للرجل الذكى القدير !..

وكذلك عندما يُسدى إليك معروف أو تمتد إليك يدٌ بنعمة إنك تذكر هذا الصنيع لمن تطوُّع به ، وعلى قدر ضخامة ما نلت من خير ، يلهج لسانك بالثناء ويمتلئ فؤادك بالحمد ، كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يذى ، ولسانى ، والضمير المحجَّب!

ورسول الإسلام جاء يثير هاتين الطبيعتين نحو أحق شئ بهما ، أأنت تعجب بالعظمة وتحتفى بصاحبها ! أأنت تقدر النعمة وتشكر مسديها !

إنك ترمق ، بإجلال ، مخترع الطائرة ، وكلما رأيته تشق الفضاء زدت إشادة بعبقريته ! فما رأيك فيمن يدفع الألوف المؤلفة من الكواكب تطير فى جو السماء من غير توقف ولا عوج ! وما رأيك فيمن خلق عقل هذا المخترع ، وأودع فى تلافيف مخه الذكاء الذى وصل به إلى ما راعك واستثار إعجابك ؟

أليس ربُّك وربُّ كل شئ أحقُّ بأن تعرف عظمته وتفتح عيونك على آثار

قدرته ؟..

فإذا عرفت عظمته من عظمة الوجود الذى يحيط بك خجلت من التهجم عليه ونسبة مالا يليق إليه !! وقلت مع العارفين : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢٣) .

إنك لو استضافك شخص كريم ورأيت البشاشة في وجهه والسماحة في قِراه حفظت له - ما حييت - هذه المنة ، وسعيت جهدك كى تكافئه عليها ، وحدثت من تعرف بسجايا هذا المضيف الكريم ، فما رأيك فيمن تولى أمرك بنعمائه من المهد إلى اللحد ؟ فأنت لا تطعم إلا من رزقه ، ولا تكسى إلا من ستره ، ولا تأوى إلا إلى كنفه ، ولا تنجو من شدة إلا بإنقاذه !!

إن محمداً ﷺ وصل الناس برهم على ومضات لطاف من تقدير بالعظمة ورعاية النعمة ، فهم إذا انبعثوا لطاعته كانوا مدفوعين لأداء هذه الطاعات الشواق من نفوسهم ورغبات كاملة تجيش بتوقير العظيم وحمد المنعم .

والعبادة ليست طاعة القهر والسخط ولكنها طاعة الرضا والحب .

والعبادة ليست طاعة الجهل والغفلة ، ولكنها طاعة المعرفة والحصافة .

قد تصدر الحكومة أمراً بتسعير البضائع فيقبل التجار كارهين ، أو أمراً بخفض الرواتب فيقبل الموظفين ساخطين .

وقد تشير إلى البيمة العجماء فتتقاد إليك لا تدري إلى مرتعها تسير أم إلى مصرعها .

تلك أنواع من الطاعات بعيدة عن معنى العبادة التى شرع الله للناس فالعبادة التى أجراها الله على الألسنة فى الآية الكريمة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٢٤) والتى جعلها حكمة الوجود وغاية الأحياء فى قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٢٥) تعنى الخضوع المقرون بالمعرفة والمحبة ، أى الناشئ عن الإعجاب بالعظمة والعرفان للجميل ..

(٢٣) آل عمران : ١٩١ .

(٢٤) الفاتحة : ٥ .

(٢٥) الذاريات : ٥٦ .

وقد اطردت آيات القرآن تبنى سلوك المؤمنين على هذه العمدة الراسية .
فهى — إذ تعرف الناس بالله — تريحهم صحائف مشرقة من خلقه البديع ،
وفضله الجزيل ، تمزق ما نسجته الغفلة على الأعين من جهالة وجحود .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٢٦) .

إن الرجل لا يقوم بالعمل العظيم وهو منساق إليه بالسياط الكاوية . إنما تولد
الإجادة ويبلغ الشئ درجة الإحسان بما يقارنه من رغبة ورضا .

فإذا أقبل المرء بفكره وقلبه على معتقد ، وهب له نفسه وحسه ، وعاش يحلم
به فى منامه وينشط له فى يقظته ، وذلك يرقى به صعوداً فى فهم مبدئه وإجادة
خدمته .

ومن ثم فإن الإسلام لا يحفل بالإيمان النظرى البحت ولا يقبله إلا ليكون سلماً
إلى ما بعده ، وهو الإيمان العقل والعاطفة معاً .

لا بد من تلوين الوجدان فى قضايا الإيمان ، ليس بمسلم من يعرف الله
ويكرهه ، ولا قيمة لمسلم يعرف الله ووجدانه خال باهت ، فلا إعجاب فيه ولا
شكران . كما أنه لا غمط فيه ولا جحود .

والمسلم كل المسلم هو الذى يعرف الله معرفة اليقين ، ويضم إلى هذه المعرفة
إحساساً يعترف بمجادة المجيد ونعماء المنعم ، تباركت أسماؤه !
والإيمان بهذه المثابة هو الإيمان المنتج ، وهو صانع العجائب ، وبانى الدول ،

(٢٦) إبراهيم : ٣٢ - ٣٤ .

ومقيم الحضارات السنية هو الذى يجعل الفرد يستجلى التكاليف المتوقعة بعنقه ، فيقبل على أدائها ، وكأنها رغبات نفس ، لا واجبات دين .

أتظن أن رسول الله ﷺ عندما قام يصلى حتى تورمت أقدامه كان يغالب الألم الناتج في بدنه كما يغالبه التلميذ المذنب ، عندما يوقف الساعات الطوال معذباً مهاناً ؟

كلا .. كلا .. إن استعباده للمناجاة واستغراقه في الخشوع أذهله عما به ، وغلبا على بؤادر الألم الناشئ من طول الوقوف

والرجل الموفور الحماس ، الفائر العاطفة ، قد يظل يعمل ويدأب حتى يصل في عمله ودأبه إلى درجة يصعب منالها على القاعدين الباردین .

ووزن الأمور عند أصحاب الإيمان والهمم غير وزنها عند أصحاب الريبة والعجز ، أترى حذيفة بن اليمان عندما انطلق يتعرف أحوال المشركين في غزوة الخندق ، في ليلة باردة ، قارصة الجو ، لافحة السبرات :

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة حتى يلف علي خيشومه الذنبا !

لقد انطلق وهو يقول عن نفسه : كأنما أسير في حمام ..

هذه حرارة الإيمان غمرت - بدفئها - الرجل ، وجعلته ينفذ في كبه الليل البارد وكأنه سهم مسدد .

هذا الإيمان المرتكز على العواطف المتقدة ، هو الذى أشعل المعارك الطاحنة ، وقاد إلى النصر المظفر ، وهو الذى هدم ما تركز قروناً طويلة ، من سلطان الظلم والبغي ، بعدما ظن أنه لن يطيح أبداً .

وأساسه ما علمت من تغلغل الإيمان في العقل والعاطفة معاً ، يغدو شجرته الباسقة مزيد من معرفة الله ، والشعور بعظمته ونعمته .

ذلكم أسلوب القرآن في تعريف الناس بالله . إنه أسلوب يقيمهم على عبودية الحب والتفاني ، لا على عبودية التحقير والهوان ، عبودية الإعجاب بالعظمة والإقرار بالإحسان ، لا العبودية المهمة التي تصدر الإرادة وتزرى بالإنسان .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ، ءَاللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ، أَلِللهِ مَعَ اللّهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ .

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ، أَلِللهِ مَعَ اللّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ، أَلِللهِ مَعَ اللّهِ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، أَلِللهِ مَعَ اللّهِ ، تَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمِنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أَلِللهِ مَعَ اللّهِ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٧) .

إن هذا التساؤل المتواصل السريع ، يفتح على النفس آفاقاً بعيدة من الإيمان الذكي ، ويجعلها تهرع إلى الله متجردة ، تنفر من شوائب الشرك نفور الرجال الكبار من عبث الصبية .

وآيات النظر والتفكير يدور - أغلبها - على هذا المحور الثابت .

وربما احتاجت النفس - في ساعات غرورها - إلى لون من أدب القمع والتوعد يكبح جماحها ، وهذا لا يتنافى - ألبتة - مع الأصل الذي قرناه آنفاً ، فإن قسوة الأب مع ولده - حيناً - لا تغير من طبيعة الحنان فيه .

والقرآن إذ يحرك المواهب السامية في الإنسان - بعرض آثار القدرة العليا عليه - قد يردف ذلك بوخزات توقظ الإحساس المخدر ، ليلتفت ويعقل ، لا لينكمش ويخبئ .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ (٢٨) .

ويقول بعد ذلك ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٢٩) .

وقد سلك رسول الله ﷺ المنهج نفسه في غرس الإيمان ورعاية ثماره وكانت سيرته في الإقبال على الله درساً حياً ، يفعم الأفئدة بإجلال الله وإعظامه والمسارة إلى طاعته . والنفور من عصيانه .

وكانت القلوب تتفتح على هدى الله ورسوله ، فما تسع بعده شيئاً .
عن جبير بن مطعم : سمعت النبی علیه الصلاة والسلام يقرأ فی المغرب بالطور فلما بلغ الآية :

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، بَلْ لَا يُوقِنُونَ . أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمَسْيطِرُونَ ﴾ كاد قلبي أن يطير ١٠٠ (٣٠)

ومد الإيمان من فكرة في الرأس إلى عاطفة في القلب ، تجعل الرجل ينبض باليقين والإخلاص ، هو من صميم السنة . وهو مهاد الخلال الفاضلة التي سادت المسلمين وأعلت شأنهم ، وهو معنى الحديث المشهور « ثلاث من كن فيه وجد بهن

(٢٨) الزمر : ٢١ .

(٢٩) الزمر : ٢٢ .

(٣٠) حديث صحيح أخرجه البخارى (٨٤٩/٩) من حديث جبير بن مطعم ، والآية من سورة الطور : ٣٥ - ٣٧ .

طعم الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا الله ، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار» (٣١) .

ومن ذلك أيضاً أن يتغلغل الإيمان بالرسالة والمغلاة بصاحبها إلى حد ينسى الإنسان معه نفسه فهو - عن حب واندفاع ، لا عن تكليف ورهبة - يفدى الرسالة وصاحبها بالنفس والنفس .

عن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبي عليه الصلاة والسلام وهو آخذ بيد عمر فقال عمر : يا رسول الله .. لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي ! فقال الرسول ﷺ : « لا والذي نفسي بيده .. حتى أكون أحب إليك من نفسك » فقال عمر : فإنه الآن لأنت أحب إلي من نفسي : فقال رسول الله ﷺ : الآن يا عمر .. » (٣٢) ، أي الآن فقط تم إيمانك .

وهذا الحديث يحتاج إلى إيضاح . إن الفضائل لا يجوز أن تطيش بها كفة . وقد احترم الناس خلق الوفاء في السموات ، لما ترك ابنه يذبح ، مؤثراً أن تسلم ذمته ، ويرد إلى من ائتمنه وديعته .

والمرء إذا ضحى بنفسه فداء شرفه ، فقد أدى واجبه .

ومحمد ﷺ لم يطلب من الناس أن يقدسوا فيه صورة اللحم والدم ، ولا أن يرغبوا بنفسه عن أنفسهم ليموتوا كي يحيا أو ليهونوا كي يعظم ، أو ليفتدوا أمجاده الخاصة بأرواحهم وأموالهم ، أو ليتأله فوقهم كما تأله فرعون وأمثاله من الجبارين . كلا .. كلا ، فمحمد يريد من المؤمنين أن يقدسوا فيه معنى الرسالة ، وأن يقتلوا فيه مثلها العالية ، وأن يصونوا - في شخصه - معالم الحق المنزل ومآثر الرحمة العامة .

(٣١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٥١/١ - ٥٢) ومسلم (٤٨/١) وغيرهما من حديث أنس .

(٣٢) حديث صحيح أخرجه البخارى (٤٤٥/١١) وأحمد (٢٢٣/٤) من حديث عبد الله ابن

هشام .

إن الأنبياء لم يحيا لأنفسهم ، والمضيبة فيهم لا تنزل بهم أو بأهلهم خاصة ،
لأنهم يحبون للعالم كله . أليسوا مناط هدايته التامة وسعاده العامة ؟
فلا غرو إذا كانت تفديتهم من أصول الإيمان ومعاهد الكمال .
وقد كان محمد ﷺ أهلاً لأن يُحب ، وما تعرف الدنيا رجلاً فاضت القلوب
بإجلاله ، وتفاى الرجال في حياطته وإكباره مثل ما يعرف ذلك لصاحب الرسالة
العظمى محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .



قيادة تهوى إليها الأفئدة

عن عبد الله بن سلام قال : أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة المنجفل الناس إليه ، فكنت فيما جاءه ، مما تأملت وجهه واستبته علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب قال : وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال :

« أيها الناس : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » (٣٣) .

إن أضواء الباطن تنضح على الوجه فتقرأ في أساريه آيات الطهر ، وقد ذهب عبد الله يستطلع أخبار هذا الزعيم المهاجر . فنظر إليه يحاول استكشاف حقيقته ، فكان أول ما اطمأن إليه بعد الثبوت من أحواله ، أن هذا ليس بكاذب ، والملاح العقلية والخلقية لشخص ما ، لا تعرف بنظرة خاطفة ولكن الطابع المادى الذى يضى على الروح الكبير ، كثيراً ما يكون عنواناً صادقاً على ما وراءه .

على ان الذين عاشروا محمداً ﷺ أحبوه إلى حد الهيام ، وما يبالون ان تندق أعناقهم ولا يחדش له ظفر .

وما أحبوه كذلك إلا لأن أنصبتهم من الكمال الذى يعشق عادة ! يرزق بمثلها بشر .

كان ثوبان مولى رسول الله ﷺ شديد الحب له ، قليل الصبر عنه فأتاه ذات يوم ، وقد تغير لونه ، يعرف الحزن فى وجهه ، فقال له رسول الله ﷺ : ما غير

(٣٣) حديث صحيح أخرجه الترمذى (٣١٣/١٣) وابن ماجه (٤٠٠/١ - ٤٠١) والحاكم (١٣/٣) وأحمد (٤٥١/٥) وقال الترمذى : « حديث صحيح » وقال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبى . وهو كما قال .

لونك ؟ قال : يا رسول الله ، ما بى مرض ولا وجع غير انى إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، ثم إنى إذا ذكرت الآخرة أخاف ألا أراك لأنك ترفع إلى عليين مع النبيين ، وإنى إن دخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك ، وإن لم أدخلها لم أرك أبداً فنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٣٤) .

وفى الحديث « المرء مع من أحب » (٣٥) والمقصود حب الأسوة . لا حب الهوس ، فإن الرجل إذا أحب من هو مثله أو أعلى منه ، فأساس هذا الحب تفتح قلبه لخلال النبل التى خصوا بها . وعظمة المواهب التى ميزهم بها القدر . وآثار الشجاعة والكرم لا يرحب بها الجبان الشحيح . إنما يحبها فى أصحابها أوفى حظاً منها . وهو بسبيله إلى استكمال ما فاته من تمامها .

فمن نعمة الله أن يلحق بالعظماء من يعشق فيهم جمال العظمة . ولذلك قال بعد الآية السابقة : ﴿ .. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً ﴾ (٣٦) .

الحق أن التابع المحب شخص فاضل .

ففى الدنيا كثير من الأخساء الذين إن علوا ، حقروا من دونهم ، وإن دنوا ، كرهوا من فوقهم ! فما تدرى متى تخلو نفوسهم من أحاسيس البغضاء والضعة ! أما عشاق المبادي المجردة ، فما إن يجدوا رجلها المنشود حتى يحيطوا

(٣٤) رواه الواحدى فى « أسباب النزول » (ص ١٢٢) تعليقاً عن الكلبي ، قال : فذكره وهذا مع أعضاله فإن الكلبي كذاب : لكن أخرجه الطبراني فى « المعجم الصغير » (ص ١٢) وعن طريقه أبو نعيم فى « الحلية » (٣٢٥/٧) وعنه الواحدى (ص ١٢٣) ، وابن مردويه والمقدسي « فى صفة الجنة » من حديث عائشة مختصراً ليس فيه قوله : ما غير لونك وقال المقدسي : « لا أرى بإسناده بأساً » وله شاهد من حديث ابن عباس وآخر من مرسل سعيد بن جبير وغيره أوردها الحافظ ابن كثير فى البداية (٥٥٢/١ - ٥٥٣) - والآية من سورة النساء : ٦٩ .

(٣٥) حديث صحيح أخرجه البخارى (٤٥٩/١٠ - ٤٦٢) ومسلم (٤٣/٨) من حديث أنس وابن مسعود وأبى موسى . وهو حديث متواتر كما قال ابن كثير وغيره . (٣٦) النساء : ٧٠ .

به ، وتلمع عيونهم حباً له ، أى حباً للمبادئ التي حييت فيه وانتصرت به .

وما كان ربك ليضيع هذا اليقين ولا أصحابه الأبرار .

عن أنس قال : لما كان اليوم الذي دخل النبي ﷺ فيه المدينة أضاء منها كل شيء . فلما كان اليوم الذي مات فيه ، أظلم منها كل شيء . وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا (٣٧) .

فانظر إلى بشاشة العاطفة الغامرة : كيف صبغت الآفاق بألوانها الزاهية ، وانظر إلى حسرة الفقد : كيف تخلف سوادها الكاوي على كل شيء !!
هكذا كانت دار الهجرة ، لقد أحببت الله وأحببت رسوله .
فكان هذا الحب المسكين سر انتصارها الرائع للإسلام ، ومبعث التضحية عن طيب نفس بكل مرتخص وغال .
وقوم يربطهم بقائدهم هذا الإعزاز الهائل ، تندك أمام عزائمهم الأطواد الراسية ..

* * *

سأل الحسن بن علي ، هند بن أبي هالة عن أوصاف رسول الله ﷺ فوصف له بدنه فكان مما قال « يمشي هوناً ، ذريع المشية - واسع الخطو - إذا مشى كأنما ينحط من صلب - يهبط بقوة - وإذا التفت ، التفت جميعاً . خافض الطرف . نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة - أى لا يحدق - يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام .

قلت : صف لي منطقه . قال : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحران ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه - لا بأطراف فمه - ويتكلم بجوامع الكلم ، فصلاً - لا

(٣٧) حديث صحيح أخرجه الترمذی (٤٩٥/٤) والحاكم (٥٧/٣) وأحمد (٢٢١/٣ ، ٢٦٨) وقال الترمذی : « حديث صحيح » وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي وهو كما قالوا ورواه الدارمي (٤١/١) بنحوه وسنده صحيح أيضاً على شرط مسلم وهو رواية للحاكم وأحمد (١٢٢/٣) .

فضول فيه ولا تقصير - دمثاً - ليس بالجاف ولا المهين - يعظم النعمة وإن دقت .
لا يذم شيئاً ، ولم يكن يذم ذواقاً - ما يطعم - ولا يمدحه . ولا يقام لغضبه ، إذا
تعرض للحق بشئ ، حتى ينتصر له . لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها - سماحة - إذا
أشار ، أشار بكفه كلها . وإذا تعجب قلبها ، وإذا غضب ، أعرض وأشاح . وإذا
فرح ، غضى طرفه . جل ضحكته التبسم . ويفتر عن مثل حب الغمام .

وقال ابن أبي هالة يصف مخرجه - على الناس :- كان رسول الله ﷺ يخزن
لسانه إلا عما يعنيه ، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ويوليهم
عليهم . ويحذر الناس ، ويحترس منهم ، من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره .
يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس ، ويحسن الحسن ويصوبه .
ويقبّح القبيح ويؤهنه . معتدل الأمر غير مختلف . لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو
يملوا .

لكل حال - عنده - عتاد ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره . الذين
يلونه من الناس خيارهم ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة
أحسنهم مواساة ومؤازرة .

ثم قال - يصف مجلسه :- كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على
ذكر ، ولا يوطن الأماكن - لا يميز لنفسه مكاناً إذا انتهى إلى القوم ، جلس حيث
ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ، ويعطي كل جلسائه نصيبه ، حتى لا يحسب جلسيه أن
أحداً أكرم عليه ، من جالسه أو قاومه حاجة صابرة حتى يكون هو المنصرف عنه ،
ومن سألته حاجة لم يرده إلا بها ، أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه
وخلقه ، فصاكر لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق متقارين ، يتفاضلون عنده بالتقوى ،
مجلسه مجلس حلم وحياء ، وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات . ولا تؤبن فيه
الحرم - لا تخشى فلتاته - يتعاطفون بالتقوى . يوقرون الكبير ويرحمون الصغير
ويرفلون ذا الحاجة ، ويؤنسون الغريب .

وقال يصف سيرته : كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ
ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا عتاب ، ولا مداح ، يتغافل عما لا

يشتهي ولا يقنط منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، ومالا يعنيه . وترك الناس من ثلاث : لا يذم أحداً ، ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه . إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير . وإذا سكنت تكلموا . لا يتنازعون عنده الحديث . من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ حديثهم حديث أولهم . يضحك مما يضحكون منه . ويعجب مما يعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ويقول : إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه . ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ^(٣٨) .

* * *

هذه خطوط قصار . لما يراه الناس من مظاهر الكمال في سيرة النبي « محمد ﷺ » .

أما حقيقة ما بنى عليه هذا الرسول الكريم من أجماد وشمائل ، فأمر لا يدرك كله . ومعرفة العظماء لا يطبقها كل أحد ، فكيف بعظيم ، خلائقه القرآن ؟ إن الأمة التي أخرجت للناس في المدينة بلغت الأوج .

كانت تعمل وتجاهد لله وحده . وتسعى إلى غايتها المرموقة في جذل وثقة . التفت حول نبيها التفاف التلاميذ بالمعلم ، والجند بالقائد ، والأبناء بالوالد الحنون .

وتساندت فيما بينها ، بالأخوة المتبادلة المتناصرة ، فهم نفس واحدة في أجسام متعددة ولبنات مشلودة في بناء منسق صلب .

(٣٨) حديث ضعيف أخرجه بطولة الترمذى في « الشمائل » (٣٨/١) من طريق جميع ابن عمر بن عبد الرحمن العجلي قال : حدثني رجل من بني تميم من ولد أبي هالة زوج خديجة يكنى أبا عبد الله عن ابن أبي هالة عن الحسن بن علي وهذا سند ضعيف ، جميع بن عمر هذا ضعيف ، وقال أبو داود : « أخشي أن يكون كذابا » . وأبو عبد الله القمي مجهول كما في « التقريب » وابن أبي هالة اسمه هند بن أبي هالة وهو مستور في ترجمة ابن أبي حاتم (١١٧/٢/٤) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً ونقل الحافظ في ترجمة أبيه من « التهذيب » عن أبي داود قال في هذا الحديث . « أخشي أن يكون موضوعاً » وأشار البخاري إلى أنه لا يصح (راجع ترجمة هند بن أد . هالة » الجرح والتعديل » مع التعليق عليه) .

وأدارت علاقتها بالآخرين على العدل والبر . فليس يظلم في جوارهم برئ ، أو يحرم من الطافهم عان .

وبرغم ما وقع عليها من بغى قديم . فقد جعلت الإسلام يُجِبُّ ما قبله .

فمن تطهر من جاهليته وتاب إلى ربه فلا نظر إلى ماضيه . بل ينضم إلى الأمة المسلمة عضواً كريماً فيها ، تغفر سيئاته ليستقبل - بصالح عمله - كتابه الجديد . أما الذين بقوا يكفرون ويصلون ، فلا بد من الإعداد لهم حتى تخلص الأرض من كفرهم وصددهم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٣٩) .

كانت هذه الأمة تكدح لله وتصل مساءها بصباحها في عبادته ، وقد حزمت أمرها على واحد من اثنين ، إما أن تحيا لله ، وإما أن تموت فيه !

ولو ذهبت توازن بين المسلمين يومئذ وبين سائر العالم لرأيت عناصر الغلب والامتياز . تتجمع - لديهم - صاعدة على حين تفور - في كيان الملل الأخرى - زلازل حاطمة ، فلا غرو إذا صاروا بعد سنين معلودات دولة فتية ، تقضى لربها ولنفسها ما تشاء .

* * *

ثم إن الشرائع المفصلة أخذت تنزل في المدينة منظمة أحوال المسلمين الخاصة والعامة ومبينة قواعد الحلال والحرام على تدرج ، إلى أن وصلت إلى وضعها الأخير كما سجلها تاريخ التشريع .

فقامت الحلود ، وفرضت الزكاة ، والصيام ، وزيدت ركعات الصلاة لأول العهد يثرب .

(٣٩) النساء : ١٦٨ ، ١٦٩ .

عن عائشة : فُرضت الصلاة أول ما فُرضت ركعتين فأقرب صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر (٤٠) .

ومما يذكر أن النبي بنى بالسيدة عائشة في غضون السنة الأولى للهجرة وكان قد عقد عليها قبل الهجرة (٤١) .

وستحدث عن تعدد الزواج ، وزوجات الرسول في موضع آخر .



(٤٠) حديث صحيح أخرجه البخارى (٣٦٨/١ - ٣٦٩) ومسلم (١٤٢/٢ - ١٤٣) عنها وفي رواية للبخارى (٢٤/٧) قالت : (فرضت الصلاة ركعتين ، ثم هاجر النبي ﷺ ففرضت أربعة وتركت صلاة السفر على الأولى) .

(٤١) هذا معنى ما صح عن عائشة قالت : تزوجنى رسول الله ﷺ متوفى خديجة قبل مخرجه إلى المدينة بستين أو ثلاث وأنا بنت سبع سنين ، فلما قدم المدينة جاءنى نسوة .. ثم أتىنى رسول الله ﷺ فبنى لى وأنا بنت تسع سنين : رواه البخارى (١٧٨/٧) وأحمد (٣٨١/٦) واللفظ له . ومسلم أيضاً (١٤٠/٤) وفي رواية له عنها : (تزوجنى ﷺ في شوال وبنى لى في شوال ..) .

الفصل السادس الكفاح الدامي

دخل الإسلام المدينة وأحزاب الكفر تطارده من كل ناحية فأوى المسلمون إلى مهجرهم كما يأوى الجندي إلى قلعة الشائخة ، وأخذوا يستعدون حتى لا تقتحم عليهم من أقطارها وهم تعلموا من السنين الغير التي مرت عليهم في مكة أن الضعف مدرجة إلى الهوان ، مزلفة إلى الفتنة ، والمرء لا يقدر العافية حق قدرها إلا بعد الإبلال من المرض ، ولا يعرف قيمة الغنى إلا عند التخلص من ذل الحاجة .

ومن أولى من المهاجرين والأنصار بالإفادة من عبر الماضي ؟ .

ذلك نبهم تعقبه القتلة ألف ميل ليغتالوه ، وذلك سواد المهاجرين تُهب ما لهم وسُلبت دورهم وشُردوا من البلد الحرام . إن « حالة الحرب » قائمة - يقيناً - بين طغاة مكة وبين المسلمين في وطنهم الجديد ، ومن السفه تحميل المسلمين أوزار هذا الخصام .

على أن العداوة للنبي ﷺ وصحبه تجاوزت قريشاً إلى غيرهم من مشركي الجزيرة الضالة ولن تذهب الفروض بنا بعيداً ، فإن عبدة الأصنام من أهل المدينة نفسها شرعوا يجاهرون بخصومتهم للإسلام . وانضم إلى هؤلاء ، اليهود الذين أوجسوا خيفة من انتشار هذا الدين . واندحار الوثنية العربية أمامه ..

فما بدّ - إذاً - من التأهب لكل طارئ ، والتربص بكل هاجم ، وتجهيز القوة التي تؤدب المجرمين يوم يتناولون ! .

والقتال الذي شرعه الإسلام وخاض معاركه الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته هو أشرف أنواع الجهاد ، وقد بينا في كتبنا^(١) الأخرى بالاستدلال العلمي والاستقراء التاريخي أن الحروب التي اشتبك فيها الإسلام - على عهد الرسول ﷺ وخلفائه - كانت فريضة لحماية الحق ، ورد المظالم ، وقمع العدوان ، وكسر الجبابرة .

أما تخرص المستشرقين والحققد على الإسلام من أهل الأديان الأخرى والإدعاء بأن المسلمين جنحوا إلى القوة حيث لا مبرر لها ، فذلك كله لغو طائش ، وهو جزء

(١) « الإسلام والاستبداد السياسي » و « التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام » .

من الحملة المدبرة لحو الإسلام من الارض ، واستبقاء اهله عبيداً للصليبية والصهيونية وما إليهما .

وما من أيام القتال فيهن أوجب على المسلمين من أيام يهدد فيها الإسلام وآله بالفناء ، وتتألب عليه شتى القوى ، بل يصطليح ضده الخصوم والألداء ، محاولين سحقه إلى الأبد .

وقد وقع ذلك في صدر الإسلام ، قبل الهجرة وبعدها ، ووقع في هذه الأيام فسقطت أوطان الإسلام في أيدي لصوص الأرض . ثم رسمت أحيث السياسات للذهاب به رويداً رويداً .

وكيف تستغرب الدعوة إلى التسليح ، والإهابة بأهل النجدة أن يوطنوا أنفسهم على التضحية في سبيل الله ؟ .

وكيف تستنكر صناعة الموت في أمة يتوالب حولها الجزارون من كل فج ؟ .
 كلا .. كلا ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ . وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ ﴾ (٢) .

* * *

وتمشياً مع توجيه الوحي وسياسة الواقع ، وحفاظاً على حق الله وحق الحياة درب النبي ﷺ رجال على فنون الحرب ، واشترك معهم في التمارين والمناورات والمعارك ، وعد السعي في هذه الميادين خطوات إلى أجل القرب وأقدس العبادات ، لعل بذلك يفل شوكة الكفر ، ويكسر عن المسلمين أذاه .

(٢) الانفال : ٥٩ - ٦٢ .

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾^(٣) .

عن عتبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي^(٤) .

والحديث ينوه بما لإصابة الأهداف من أثر حاسم في كسب المعارك .
والرمي أعم من أن يكون بالسهم أو بالرصاص أو بالقنابل .

وعن نعيم اللخمي ، قال : قلت لعقبة بن عامر : تختلف بين هذين العرصين - تتردد بينهما - وأنت شيخ كبير يشق عليك ؟ قال عقبة : لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ لم أعانه . قال : وما ذاك ؟ قال : سمعته يقول : « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا ! »^(٥) .

فانظر كيف يبقى الشيوخ المسنون على دربتهم في إصابة الهدف ، ومهارة اليد ونشاط الحركة . إن الإسلام يفترض المقدرة على القتال فيوجبها على الشباب والشيوخ جميعاً .

وعن أبي نجيع السلمي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من بلغ بسهم فهو له درجة في الجنة » فبلغت يومئذ عشرة أسهم ، وسمعت يقول : « من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل رقبة محررة »^(٦) .

(٣) النساء : ٨٤ .

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم (٥٢/٦) وأبو داود (٣٩٤/١) والترمذي (١٢٢/٣) وابن ماجه (١٨٨/٢) وأحمد (١٥٧/٤) من حديث عقبة بن عامر وصححه الحاكم (٢٣٨/٢) على شرط الشيخين . ووافقه الذهبي - والآية من سورة الأنفال : ٦٠ .

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم (٥٢/٦) . وروى الجملة الأخيرة منه أصحاب السنن من طريق أخرى يأتي الكلام عليها .

(٦) حديث صحيح أخرجه أبو داود (١٦٥/٢) والنسائي (٥٩/٢) وأحمد (٣٨٤/٤) والحاكم (٩٥/٢) وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي ! وإنما هو على شرط مسلم وحده فإن تابعية

وعن عقبة بن عامر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل
ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة :

١ - صانعه يحتسب في عمله الخير . ٢ - والرامي به .

٣ - ومنبله - الممد به - فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلى من أن
تركبوا ، كل هو باطل ، ليس من اللهو محموداً إلا ثلاثة :

١ - تأديب الرجل فرسه . ٢ - وملاعبته أهله .

٣ - ورميه بقوسه ، فإنهم من الحق ، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة
عنه ، فإنها نعمة تركها - أو كفرها » (٧) .

وعن ابن عمر : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر
والغنيمة » (٨) .

وهذا ترغيب من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، في تعليم الفروسية ،
ولإبراز لون معين من ألوان القتال لا يحط من قيمة الألوان الأخرى ، أو يؤخر
منزلتها .

معدان بن أبي طلحة لم يخرج له البخاري وروى عنه الترمذي (٧/٣) الجملة الأخيرة وقال : « حديث حسن
صحيح ، وكذلك رواه ابن ماجه (١٨٨/٢) نحوه لكن من طريق أخرى . وهو رواية للحاكم (٩٦/٢) وكذا
النسائي (٦٠/٢) .

(٧) في سنده اضطراب كما قال الحافظ العراقي في « تخريج الأحياء » (٢٥٢/٦) وبيانه أنه رواه
عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي سلام عن خالد بن زيد عن عقبة به ، أخرجه أبو داود (٣٩٣/١ - ٣٩٤
/ والنسائي (١٢٠/٢) والحاكم (٩٥/٢) وأحمد (١٤٦/٤ ، ١٤٨) وخالفه يحيى بن أبي كثير فقال : حدثنا
أبو سلام عبد الله الأزرق عن عقبة بن عامر ، أخرجه الترمذي (٦/٣) وابن ماجه (١٨٨/٢) وأحمد
(١٤٤/٤ ، ١٤٨) وقال الترمذي : « حديث حسن » وقال الحاكم : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي ،
وكأنهم لم يلقوا على هذا الاضطراب الذي نبه عليه الحافظ العراقي رحمه الله ، وأيضاً فإن له علة أخرى وهي
جهالة خالد بن زيد وعبد الله بن الأزرق وهو ابن زيد بن الأزرق . فسواء كانت الرواية عن هذا أو ذاك فهي
معلولة للجهالة ، نعم ذكر الحاكم للحديث شاهداً من حديث أبي هريرة وقال : إنه : صحيح على شرط مسلم ،
فتعقبه الذهبي بأن فيه سويد بن عبد العزيز وهو متروك .

(٨) حديث صحيح مرفوع أخرجه البخاري (٤١/٦ ، ٤٣) ومسلم (٣١/٦ ، ٣٢) من حديث
ابن عمر وعروة البارقي وليس في حديث ابن عمر : « الأجر والغنيمة » فلو عزى الحديث لعروة كان أولى .

ألا ترى كيف حض النبي على تعليم القتال في البحر فقال : « غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر ، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها ، والمائد فيه - الذي يصيبه الدوار والقيء - كالمتشحط في دمه » (٩) .

والدول التي تحتاج إلى الكتائب في البر والأساطيل في البحر والجو وكل سلاح عون لأخيه في إدراك النصر ، وأسبق الجند إلى رضوان الله أعظمهم نيلاً من العدو ، وأرعاهم لدمام أمته وشرف عقيدته ، سواء مشى ، أم رمى ، أم أبحر ، أم طار .



(٩) حديث صحيح أخرجه الحاكم (١٤٣/٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، وقال : « صحيح على شرط البخاري » ووافقه الذهبي . وهو كما قال وإعلال المناوي له تبعاً لابن الجوزي بأن فيه خالداً بن يزيد ، يروى الموضوعات عن الإثبات خطأ فاحش ، لأن خالداً هذا ، لا ذكر له في سند الحديث عند الحاكم ، فالظاهر أنه عند غيره ممن خرج الحديث وبعد وروده من طريق آخر صحيح ، لا يضره رواية أحد المتهمين له .

سرايا ...

فلما استقر أمر المسلمين ، أخذوا يرسلون سراياهم المسلحة ، تجوس خلال الصحراء المجاورة ، وتخترق طرق القوافل المارة بين مكة والشام ، وتستطلع أحوال القبائل الضاربة هنا وهناك .

١ - ففي رمضان من السنة الأولى التقى « حمزة بن عبد المطلب » في ثلاثين من المسلمين ، بأبي جهل يقود قافلة لقريش ، ومعه ثلاثمائة راكب . وقد حجز بينهما مجدي بن عمر الجهني فلم يقع قتال .

٢ - وفي شوال من السنة نفسها : سار عبيدة بن الحارث في ستين راكباً إلى وادي رابغ ، فالتقى بمائتي مشرك على رأسهم أبو سفيان . وقد ترامى الفريقان بالنبل ولم يقع قتال .

٣ - وفي ذي القعدة خرج « سعد بن أبي وقاص » في نحو عشرين رجلاً يعترض عيراً لقريش ففاته .

٤ - وفي صفر من السنة الثانية خرج الرسول بنفسه بعد أن استخلف سعد ابن عباد على المدينة ، وسار حتى بلغ « ودان » يريد قريشاً وبني ضمرة ، فلم يلق قريشاً ، وعقد حلفاً مع بني ضمرة .

٥ - وفي ربيع الأول من السنة نفسها ، خرج الرسول على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى « بواط » معترضاً عيراً لقريش يقودها أمية بن خلف ومعه مائة من المشركين ففاته .

٦ - وفي جمادى خرج إلى « العشيرة » من بطن « ينبع » وأقام شهراً ، صالح فيه بني مدلج .

٧ - ثم أغار كرز بن جابر الفهري على المدينة ، واستاق سرحها فخرج النبي في طلبه حتى بلغ وادي سفوان قريباً من « بدر » فلم يدركه . ويسمى المؤرخون هذه « غزوة بدر الأولى » .

والحكمة في توجيه هذه السرايا على ذلك النحو تتلخص في أمرين :

أولهما : إشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضارين حولها ، بأن المسلمين أقوىاء . وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم . ذلك الضعف الذي مكن قريشاً من في مكة من مصادرة عقائدهم وحرياتهم ، واغتصاب دورهم وأموالهم ، ومن حق المسلمين أن يعنوا بهذه المظاهرات العسكرية على ضالة شأنها ، فإن المتربصين بالإسلام في المدينة كثر ، ولن يصدهم عن النيل منه إلا الخوف وحده . وهذا تفسير قوله تعالى : ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (١٠) .

والصنف الأخير هم المنافقون الذين يبطنون البعضاء للإسلام وأهله . ولا يمنعهم من إعلان السخط عليه إلا الجبن وسوء المغبة . أما الأولون فهم المشركون ولصوص الصحراء وأشباههم ممن لا يبالون - ولولا هذه السرايا - الهجوم على المدينة واستباحة حماتها .

وقد كان من الجائز أن تتكرر حادثة « كرز بن جابر » السابقة . ويتجرأ البدو على تهديد المدينة حيناً بعد حين ، غير أن هذه السرايا الزاحفة قتلت نيات الطمع وحفظت هيبة المسلمين .

والأمر الآخر - في حكمة بعث السرايا - إنذار قريش عقب طيشها .

فقد حاربت الإسلام ، ولا تزال تحاربه ، ونكلت بالمسلمين في مكة ، ثم ظلت ماضية في غيها ، لا تسمح لأحد من أهل مكة أن يدخل في دين الله . ولا تسمح لهذا الذين أن يجد قراراً في بقعة أخرى من الأرض . فأحب الرسول ﷺ أن يشعر حكام مكة . بأن هذه الخطة الجائرة ستلحق بهم الأضرار الفادحة . وأنه

(١٠) الأنفال : ٦٠ .

قد مضى - إلى غير عودة - ذلك العصر الذى كانوا يعتدون فيه على المؤمنين ، وهم بمأمن من القصاص ...

والمستشرقون الأوربيون ينظرون إلى هذه السرايا كأنها ضرب من قطع الطريق . وهذه النظرة صورة للحقد الذى يعمي عن الحقائق . ويتيح للهوى أن يتكلم ويحكم كيف يشاء .

وقد ذكرنى هذا الاستشراق المغرض بما حكوه عند قمع الإنكليز لثورة الأهلين فى إفريقيا الوسطى - مستعمرة كينيا - وهم يطلبون الحرية لوطنهم ويحاولون إجلاء الأجانب عنه .

قال جندى إنكليزى لآخر - يصف هؤلاء الإفريقيين - : إنهم وحوش ، تصور أن أحدهم عضنى وأنا أقتله !! .

إن هذه الأضحوكة صورة من تفكير المستشرقين فى إنصاف أهل مكة والنعي على الإسلام وأهله .



سرية عبد الله بن جحش

وفي رجب من السنة الثانية بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رهط من المهاجرين ، وكتب له كتاباً ، وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره .

فإذا نظر فيه ووعى ما كلفه الرسول به ، مضى في تنفيذه غير مستكره أحداً من أصحابه ، فسار عبد الله ، ثم قرأ الكتاب بعد يومين ، فإذا فيه : امض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً ، فتعلم لنا من أخبارهم .

فقال عبد الله : سمعاً وطاعة ، وأطلع أصحابه على كتاب الرسول قائلاً : إنه نهاني أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينتلق معي ، ومن كره ذلك فليرجع .. فلم يتخلف منهم أحد ، غير أن البعير الذي كان يتعقبه « سعد بن أبي وقاص » و « عتبة بن غزوان » ند منهما فشغلا بطلبه ، ومضى عبد الله برفاقه حتى نزل أرض نخلة ، فمرت عبر قريش فهاجمها عبد الله ومن معه ، فقتل في هذه المعركة « عمرو بن الحضرمي » وأسر اثنان من المشركين ، وعاد عبد الله ابن جحش بالقافلة والأسيرين إلى المدينة .

ويظهر أن هذا القتال وقع في آخر رجب ، أي في الشهر الحرام .

فلما قدمت السرية على رسول الله قال : ما أمرتكم في الشهر الحرام ، ووقف التصرف في العير والأسيرين .

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لأتھام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله وكثر في ذلك القيل والقال ، حتى نزل الوحي من حاسماً هذه الأقاويل ومؤيداً مسلك عبد الله تجاه المشركين .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ

اللَّهِ وَكُفِّرَ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴿١١﴾ .

إن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين لا مساغ لها ، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام واضطهاد أهله ! فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة ، فأصبح انتهاكها معرةً وشناعة ؟ .

ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر قتل نبهم وسلب أموالهم ؟ .
لكن بعض الناس يرفع القوانين إلى السماء عندما تكون في مصلحته .

فإذا رأى هذه المصلحة مهددة بما ينتقضها هدم القوانين والدساتير جميعاً .
فالقانون المرعي - عنده في الحقيقة - هو مقتضيات هذه المصلحة الخاصة فحسب .

وقد أوضح الله عز وجل أن المشركين لن يحجزهم شهر حرام أو بلد حرام عن المضى في خطتهم الأصيلية ، وهي سحق المسلمين ، حتى لا تقوم لديهم قائمة فقال : ﴿ وَلَا يَأُولُونَ لِيُقَاتِلُوا كُمْ حَتَّى يُؤْذَوْكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتِطَاعُوا ﴾ (١٢) .

ثم حذر المسلمين من الهزيمة أمام هذه القوى الباغية والتفريط في الإيمان الذي شرفهم الله به ، وناط سعادتهم في الدنيا والآخرة بالبقاء عليه فقال :

(١١) أورده ابن هشام (٥٩/٢ - ٦٠) عن ابن إسحاق ، قال ابن إسحاق في آخره : « والحديث في هذا عن الزهري ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير وقد رواه البيهقي في « سننه الكبرى » (١٢/٩) بسند صحيح عن الزهري عن عروة مرسلأ به ولكنه لم يسق الحديث بتمامه طرفاً من أوله ثم أحال على باقيه ، وقد وصله هو وابن أبي حاتم من طريق سليمان التميمي عن الحضرمي عن أبي السوار عن جندب أبي عبد الله بن مختصرأ وليس فيه قوله ﷺ : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » وسنده صحيح إن كان الحضرمي هذا هو ابن لاحق فقد قيل أنه غيره وأنه مجهول ورجحه الحافظ في التهذيب والله أعلم ، ثم رأيت البيهقي قد ساق في موضع آخر من السنن (٥٨/٩ - ٥٩) حديث عروة بتمامه وفيه « ما أمرتكم » - والآية من سورة البقرة : ٢١٧ .

(١٢) البقرة : ٢١٧ .

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١٣) .

وزكى القرآن عمل « عبد الله » وصحبه . فقد نفذوا أوامر الرسول بأمانة وشجاعة وتوغلوا في أرض العدو مسافات شاسعة ، متعرضين للقتل في سبيل الله متطوعين لذلك من غير مكره أو مخرج .

فكيف يجزون على هذا بالتقريع والتخويف ؟ قال الله فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤) .

والقرآن الذى نزل في فعال هذه السرية ، لم يدع مجالاً للهوادة مع المشركين المعتدين مما كان له أثره البعيد لدى المسلمين وخصوصهم .

فبعد أن كان أغلب المكتتبين في السرايا السابقة من المهاجرين أخذت البعوث الخارجة تتألف من المهاجرين والأنصار معاً .

وزاد الشعور بأن الكفاح المرتقب قد يطول مداه وتكثر تبعاته ولكنه كفاح مستحب ، مقرون بالخير العاجل والآجل .

وأدركت مكة أنها مؤاخذه بما جد أو يجد من سيئاتها ، وأن تجارتها مع الشام أمست تحت رحمة المسلمين .

وهكذا اتسعت الهوة ، وزادت بين الفريقين الجفوة .

وكأن هذه الأحداث الشداد هي المقدمة لما أعده القدر بعد شهر واحد من وقوعها عندما جمع رجال مكة ، وخيرة أهل المدينة على موعد غير منظور في « بدر » .

* * *

٢٥٣ (١٣) البقرة ٢١٧ .

(١٤) البقرة : ٢١٨ .

معركة بدر

ترامت الأنبياء إلى « يثرب » أن قافلة ضخمة لقريش تهبط من مشارف الشام عائدة إلى مكة ، تحمل لأهلها الثروة الطائلة . ألف بعير موقرة بالأموال يقودها « أبو سفيان بن حرب » مع رجال لا يزيدون عن ثلاثين أو الأربعين ! .

إن الضربة التي تنزل بأهل مكة - لو فقدوا هذه الثروة - موجعة حقاً ، وفيها عوض كامل لما لحق المسلمين من خسائر في أثناء هجرتهم الأخيرة ، لذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « هذه عير قريش ، فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ، لعل الله ينفلكموها » (١٥) .

لم يعزم الرسول على أحد بالخروج ولم يستحث متخلفاً ، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة ثم سار - بعد - بمن أمكنه الخروج .

وكان الذين صحبوا الرسول ﷺ هذه المرة يحسبون أن مضمهم في هذا الوجه لن يعدو ما ألقوا في السرايا الماضية ، ولم يدر بخلد واحد منهم أنه مقبل على يوم من أخطر أيام الإسلام ! ولو علموا لاتخذوا أهبتهم كاملة ، ولما سمح لمسلم أن يبقى في المدينة لحظة ! لذلك فترت الهمم عندما وردت أخبار أخرى بأن القافلة المطلوبة غيرت طريقها .

واستطاع قائدها « أبو سفيان » أن ينجو من الخطر المحدث به ، بعد أن أرسل إلى أهل مكة يستنفرهم لحماية أموالهم ، ويستثير حميتهم للخروج في تعبئة ترد كل هجوم .

(١٥) حديث صحيح رواه ابن هشام (٦١/٢) عن أنس بن مالك بسنده الصحيح عن ابن عباس .

وغالب النبي ﷺ هذا الفتور العارض ، وحذر صحابته من عتبي العود السريع إلى المدينة إن فاتهم مال مكة وخرج إليهم رجالها .

وأصر على ضرورة تعقب المشركين كيف كانوا .

وذلك قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُِونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (١٦) .

والذين كرهوا لقاء قريش ، ما كانوا لهاوا الموت ، ولكنهم لم يعرفوا الحكمة في خوض معركة مباغطة دون اتفاق ما ينبغي لها من عدة وعدد ، بيد أن رسول الله ﷺ ، وزن الظروف الملائمة للأمر كله ، فوجد الإقدام خيراً من الإحجام ، ومن ثم قرر أن يمضي ، فإن الحكمة من توجيه هذه البعوث المسلحة تضيق سدى لو عاد على هذا النحو .

وقد اختفت - على عجل - مشاعر التردد ، وانطلق الجميع خفافاً إلى غايتهم . والمسير بإزاء طريق القوافل إلى « بدر » ليس سفراً قاصداً أو نزهة لطيفة . فالمسافة بين « المدينة » و « بدر » تربو على ١٦٠ كيلو متراً ، ولم يكن مع الرسول وصحبه غير سبعين بعيراً يتعقبونها .

روى أحمد (١٧) عن عبد الله بن مسعود ، قال : كنا يوم بدر ، كل ثلاثة على بعير - أى يتعاقبون - وكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ ، قال : فكانت عقبة رسول الله ﷺ فقالا له : نحن نمشي عنك - ليظل راكباً - فقال : « ما أنتما بأقوى مني على المشي ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما » !! .

وبث المسلمون عيونهم يتعرفون أخبار قريش : أين القافلة وأين الرجال الذين قدموا لحمايتها ؟ .

(١٦) الأنفال : ٦٠ ، ٥ .

(١٧) في المسند (رقم ٣٩٠١ ، ٣٩٦٥) وسنده حسن وأخرجه الحاكم (٢٠/٣) وقال : « حديث

صحيح على شرط مسلم » .

حين أحس أبو سفيان الخطر على قافلته ، بعث « ضمضم بن عمرو الغفارى » إلى مكة يستصرخ أهلها حتى يسارعوا إلى استنقاذ أموالهم .

واستطاع « ضمضم » هذا إزعاج البلدة قاطبة : فقد وقف على بعيره بعد أن جدع أنفه . وحول رحله ، وشق قميصه ، يصيح : يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان ، عرض لها محمد - ﷺ - وأصحابه لا أرى أن تدركوها .. الغوث الغوث ! .

فتجهز الناس جميعاً ، فهم إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً ، وانطلق سواد مكة وهو يغلى ، يمتطى الصعب والذللول ، فكانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً ، معهم مائتا فرس يقودونها ، ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين .

وولوا وجوههم إلى الشمال ، ليدركوا القافلة المارة تجاه يثرب هابطة إليهم .

لكن أباً سفيان لم يستنم في انتظار النجدة المقبلة ، بل بذل أقصى ما لديه من حذر ودهاء ، لمخاتلة المسلمين والإفلات من قبضتهم ، وقد كان يسقط بالعر جمعاء في أيديهم وهم يشتلون في مسيرهم ، نحو بدر غير أن الحظ أسعفه ! .

روى أنه لقي مجدى بن عمرو ، فسأله : هل أحسست أحداً ؟ فقال : ما رأيت أحداً أنكره ، إلا أنى رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا في شن لهما ثم انطلقا فأبى أبو سفيان مناخهما ، وتناول بعرات من فضلات الراحلتين ثم فتها فإذا فيها النوى . فقال : هذه والله علائف يثرب ، وأدرك أن الرجلين من أصحاب محمد . وأن جيشه قريب ! .

فرجع إلى العير يضرب وجهها عن الطريق ، شارداً نحو الساحل ، تاركاً بدرأ إلى يساره فنجا .

ورأى أبو سفيان أنه أحرز القافلة فأرسل إلى قريش يقول : إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، وقد نجاها الله ، فارجعوا . فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ ، فنقيم ثلاثاً ، ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً .

وهذا الذى عالن به أبو جهل ، هو ما كان يحاذره الرسول عليه الصلاة والسلام فإن تدعيم مكانة قريش ، وامتداد سطوتها فى هذه البقاع - بعد أن فعلت بالمسلمين ما فعلت - يعتبر كارثة للإسلام ، ووقفاً لنفوذه ، وهل كانت السرايا تخرج من المدينة إلا لإعلاء كلمة الله وتوهين كلمة الشرك ، وإظهار عبدة الأصنام بمظهر الذى لا يملك نفعا ولا ضرا ؟ .

لذلك لم يلتفت الرسول لفرار القافلة ، التفاته لضرورة التجوال المسلح فى هذه الأنحاء إبرازاً لهذه المعانى القوية ، وتمكيناً لصداها فى القلوب .

* * *

ومضت قريش فى مسيرها ، مستجيبة لرأى أبى جهل حتى نزلت بالعدوة القصوى من وادى بدر ، وكان المسلمون قد انتهوا من رحيلهم المضنى إلى العدوة الدنيا .

وهكذا اقترب كلا الفريقين من الآخر ، وهو لا يدرى ما وراء هذا اللقاء الرهيب .

وهبط الليل فأرسل النبى ﷺ علياً والزبير وسعداً ، يتحسسون الأحوال ويلتمسون الأخبار ، فأصابوا غلامين لقريش كانا يمدانهم بالماء ، فأتوا بهما ، وسألوهما - ورسول الله قائم يصلى - فقالا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء .

فكره القوم هذا الخبر . رجوا أن يكونا لأنى سفيان - لانزال فى نفوسهم بقايا أمل فى الاستيلاء على القافلة ! - فضربوهما ضرباً موجعاً حتى اضطر الغلامان أن يقولوا : نحن لأنى سفيان ! فتركوهما . وركع رسول الله ﷺ وسجد سجديته وسلم وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما !! .

صدقا والله إنهما لقريش . ثم قال للغلامين : أخبرانى عن قريش ! قالوا : هم وراء هذا الكتيب الذى ترى بالعدوة القصوى . فقال لهما : كم القوم ؟ قالوا : كثير ! قال : ما عدتهم ؟ قالوا : لا ندرى ! قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالوا : يوماً تسعاً ، ويوماً عشراً ، فقال رسول الله : القوم ما بين التسعمائة إلى الألف ، ثم قال لهما :

فمن فيهم من أشرف قريش؟ قالوا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البختری ابن هشام. وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطعيمة ابن عدی، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وعمر بن هشام، وأمیه ابن خلف... إلخ.

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: « هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها » (١٨).

وانكشف وجه الجد في الأمر. إن اللقاء المرتقب سوف يكون مر المذاق. لقد أقبلت قريش تخب في خيلائها، تريد أن تعمل العمل الذي يرويه القصيد، وتلزع المطايا به البطاح، وتحسم به صراع خمسة عشر عاماً مع الإسلام، لتنفرد - بعدها - الوثنية بالحكم النافذ..

ونظر الرسول حوله، فوجد أولئك المؤمنين بين مهاجر باع في سبيل الله نفسه وماله. وأنصارى ربط مصيره وحاضره بهذا الدين الذي افتداه وآوى أصحابه.

فأحب أن يشعر القوم بحقيقة الموقف، حتى يبصروا - على ضوءه - ما يفعلون.

إن المرء قد تفجؤه أحداث عابرة - وهو ماض في طريقه - يحتاج في مواجهتها لأن يستجمع مواهبه، وأن يستحضر تجاربه، وأن يقف أمامها حاد الانتباه مرهف الأعصاب، وهذه الامتحانات المباغتة أدق في الحكم على الناس وأدل على قيمهم، من الامتحانات التي يعرفون ميعادها. ويتقدمون إليها، واثقين مستعدين. والمسلمون الذين خرجوا لأمر يسير، ما لبثوا أن ألفوا أنفسهم أمام امتحان شاق، تيقظت له مشاعرهم، فشرعوا، يقبلون - على عجل - تكاليفه ونتائجه، وثار منطق اليقين القديم فأهاج القوم إلى الخطئة الفذة التي لا محيص عنها لمؤمن.

(١٨) أخرجه ابن هشام (٦٥/٢) عن ابن إسحاق حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير بهذه القصة. وهذا إسناد صحيح لكنه مرسل. وقد رواه أحمد (رقم ٩٤٨) من حديث علي بن أبي طالب دون قوله: « ثم قال لهما » وسنده صحيح، ورواه مسلم (١٧٠/٥) مختصراً من حديث أنس.

١٠ استشار رسول الله ﷺ الناس . فقام أبو بكر الصديق ، فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب ، فقال وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو . فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى ، اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من ودنه حتى تبغى .

فقال له الرسول ﷺ خيراً ، ودعا له .

ثم قال : « أشيروا على أيها الناس - وإنما يريد الأنصار - وذلك لأنهم كانوا عدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله .. إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا ، فأنت في ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا .

فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة .

فلما قال ذلك قال له سعد بن معاذ : والله لكأنا تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . فقال : قد آمنا بك وصدقتك . وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته ، لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله .

وفي رواية : لعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذى أحدث الله إليك فامض ، فصل حبال من شئت واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت .

فسر رسول الله ﷺ بقول « سعد » ونشطه ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين . والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم .. » (١٩) .

* * *

تأهب المسلمون لخوض المعركة ، وعسكروا في أدنى ماء من بدر . فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ! قال : يا رسول الله . فإن هذا ليس بمنزل ، امض بالناس حتى نأقي أدنى ماء من القوم فنعكسر فيه ، ثم نغور ما وراءه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضاً فنملاًه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي . ثم أمر بإنفاذه ! فلم يجيء نصف الليل حتى تحولوا كما رأى الحباب وامتلكوا مواقع الماء (٢٠) .

وقضى المسلمون ليلاً هادئاً الأنفاس منير الآفاق ، غمرت الثقة قلوبهم

(١٩) رواه ابن هشام (٦٣/٢ - ٦٤) عن ابن إسحاق بدون إسناد . والرواية الأخرى أخرجهما ابن مردويه من طريق محمد بن عمر وابن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال أبو بكر .. الحديث نحوه ذكره ابن كثير (٢٦٤/٣) وهذا مرسل ، وكذا رواه ابن أبي شيبه كما في « الفتح » (٢٣٠/٧) وعن عبد الله بن مسعود قال : شهد من المقداد بن الأسود - هو ابن عمرو - مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به ، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى ، اذهب أنت وربك فقاتلا ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره قوله . رواه البخاري (٢٣٠/٧) والحاكم (٣٤٩/٣) وصححه ووافقه الذهبي وأحمد (رقم ٣٦٩٨ ، ٤٠٧٠ ، ٤٣٧٦) ، ورواه الطبراني من حديث أبي أيوب الأنصاري . قال الهيثمي (٧٤/٦) : « وإسناده حسن » . وفي حديث أنس المشار إليه آنفاً عند مسلم ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : هذا مصرع فلان .. قال : ويضع يده على الأرض ههنا وههنا . قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

(٢٠) رواه ابن هشام (٦٦/٢) عن ابن إسحاق قال : « فحدثت عن رجال من بنى سلمة أنهم ذكروا أن الحباب .. » وهذا سند ضعيف لجهالة الوسطة بين ابن إسحاق والرجال من بنى سلمة . وقد وصله الحاكم (١٢٦/٣ ، ١٢٧) من حديث الحباب وفي سنده من لم أعرفه ، وقال الذهبي في « تلخيصه » : « قلت حديث منكروا وسنده » كذا الأصل ولعله سقط منه « واه » أو نحوه ورواه الأموي من حديث ابن عباس كما في البداية (٢٦٧/٣) وفيه الكلبى وهو كذاب .

وَأَخَذُوا مِنَ الرَّاحَةِ قَسْطَهُمْ ، وَتَسَاقَطَ عَلَيْهِمْ مَطَرٌ خَفِيفٌ رَطَبَ حَوْلَ لَهِمِ الْجَوِ
وَجَعَلَ نَسَائِمُ الصَّبَاحِ تَهَبُ عَلَيْهِمْ فَتَنْعَشُ صُدُورُهُمْ وَتَجْدُّ أَمْلَهُمْ ، وَكَانَ الرَّمْلُ تَحْتَ
أَقْدَامِهِمْ دَهْسًا فَتَلْبُدُ وَتَمَاسِكُ ، وَجَعَلَ حَرَكَتُهُمْ عَلَيْهِ مَيْسِرَةٌ ﴿ إِذْ يُغْشِيكُمُ النَّعَاسُ
أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ
وَلِيُرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (٢١) .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَفَقَّدُ الرِّجَالَ ، وَيَنْظُمُ الصَّفُوفَ ، وَيَسْدِي النَّصَائِحَ ،
وَيَذْكُرُ بِاللَّهِ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ . ثُمَّ يَعُودُ إِلَى عَرِيْشِ هَيْءَ لَهُ فَيَسْتَغْرِقُ فِي الدَّعَاءِ الْخَاشِعِ ،
وَيَسْتَغِيثُ بِأَمْدَادِ الرَّحْمَنِ ...

وَوَقَّفَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى جَوَارِ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ يَكْثُرُ الْإِبْتِهَالُ
وَالْتَضَرُّعُ . وَيَقُولُ فِيمَا يَدْعُو بِهِ : « اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ لَا تَعْبُدْ بَعْدَهَا فِي
الْأَرْضِ » وَجَعَلَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَقُولُ : « اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ
نَصْرِكَ » وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى سَقَطَ رَدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ .

وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَلْتَزِمُهُ مِنْ وَرَاءِهِ وَيَسُورِي عَلَيْهِ رَدَاءَهُ وَيَقُولُ - مُشْفِقًا عَلَيْهِ مِنْ
كَثْرَةِ الْإِبْتِهَالِ - : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بَعْضُ مَنَاشِدَتِكَ رَبِّكَ ، فَإِنَّهُ سَيَنْجِزُ لَكَ
مَا وَعَدَكَ (٢٢) .

* * *

وَتَزَاحَفَ الْجَمْعَانِ وَبَدَأَ الْهَجُومُ مِنْ قِبَلِ الْمُشْرِكِينَ ، إِذْ هَجَمَ الْأَسْوَدُ بْنُ
عَبْدِ الْأَسْوَدِ عَلَى الْحَوْضِ الَّذِي بَنَاهُ الْمُسْلِمُونَ قَائِلًا : أَعَاهَدُ اللَّهَ لِأَشْرَبِينَ مِنْ حَوْضِهِمْ
أَوْ لِأَهْدَمَنِهِ ، أَوْ لِأَمُوتَنَ دُونَهُ ، فَتَصَدَّى لَهُ حِمْرَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً
أَطَارَتْ نِصْفَ سَاقِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ حَبَا إِلَى الْحَوْضِ يَبْغِي اقْتِحَامَهُ ، وَتَبِعَهُ حِمْرَةُ يَقَاتِلُهُ
حَتَّى قَتَلَهُ فِيهِ ! فَبَرَزَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَتَبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ ، وَالْوَلِيدُ بْنُ عَتَبَةَ . فَخَرَجَ

(٢١) الأنفال : ١١ .

(٢٢) حديث صحيح ، أخرجه مسلم (١٥٦/٥ - ١٥٧) ، وأحمد (رقم ٢٠٨ ، ٢٢١) من حديث
عمر بن الخطاب ، وبعضه في البخاري (٢٣١/٨) من حديث ابن عباس .

للقائهم فتية من الأنصار ، فنادوا : يا محمد .. أخرج إلينا أكفأنا من قومنا ، وقيل إن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه هو الذى استرجع أولئك الأنصار رغبة منه أن تكون عشيرته أول من يواجه العدو فى مثل هذا الموقف . فقال : قم يا عبيدة ابن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا على . فبارز عبيدة عتبة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز على الوليد . فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وكذلك فعل على مع خصمه ، وأما عبيدة وعتبة . فقد جرح كلاهما الآخر ، فكر حمزة وعلى بأسيا فمهما على عتبة فأجهزا عليه ، واحتملا صاحبهما^(٢٣) . فجاءوا به إلى رسول الله ﷺ فأفرشه الرسول قدمه فوضع خده على قدمه الشريف وقال : يا رسول الله .. لو رآنى أبو طالب لعلم أنى أحق بقوله :

ونسلمه حتى نصرع دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل
ثم أسلم الروح^(٢٤) .

واستشاط الكفار غضباً للبداية السيئة التى صادفتهم فأمطروا المسلمين وابلاً من سهامهم ، ثم حمى الوطيس وتهاوت السيوف ، وتصايح المسلمون : أحد أحد . وأمرهم الرسول ﷺ أن يكسروا هجمات المشركين ، وهم مرابطون فى مواقعهم وقال : إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل ، ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا^(٢٥) .

فلما اتسع نطاق المعركة واقتربت من قمتها كان المسلمون قد استنفدوا جهد أعدائهم وألحقوا بهم خسائر جسيمة . والنبي فى عريشه يدعو الله ويراقب بطولة

(٢٣) روى القصة إلى هنا ابن هشام (٦٧/٢) عن ابن إسحاق بكون إسناد ، ورواها : أبو داود (٤١٦/١) من حديث على بكون قصة الأسود وإسناده صحيح وكذلك رواه أحمد (رقم ٩٤٨) .

(٢٤) وهذا القدر أورده ابن كثير (٣٧٤/٣) وقال : « رواه الشافعى » ولم يذكر عن . ورواه بنحوه الحاكم (١٧٨/٣) من حديث ابن شهاب مرسلاً وليس فيه « ثم أسلم الروح » ويدل على ضعف هذه الزيادة أن الحاكم روى من حديث ابن عباس أن عبيدة بن الحارث مات بالصفراء من بذر فدفعه رسول الله ﷺ هناك ، وسنده حسن ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى .

(٢٥) رواه ابن إسحاق (٦٨/٢) بكون سند ، وفى البخارى (٢٤٥/٧) عن أبى أسيد : « قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر : إذا أكتبوكم فارمهم واستبقوا نبلكم » .

رجاله وجلدهم . قال ابن إسحاق^(٢٦) : خفق النبي عليه الصلاة والسلام خفقة في العريش ثم انتبه فقال : « أبشر يا أبا بكر .. أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنایا البقع !! » .

لقد انعقد الغبار فوق رؤوس المقاتلين ، وهم بين كبر وفير ، جند الحق يستبسلون لنصرة الرحمن ، وجند الباطل قد ملكهم الغرور فأغراهم أن يغالبوا القدر .

فلا عجب إذا نزلت ملائكة الخير تنفث في قلوب المسلمين روح اليقين . وتحضهم على الثبات والإقدام .

وخرج رسول الله ﷺ من مكانه إلى الناس فحرضهم قائلاً : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً . مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » .

إن التأمل في الآخرة هو بضاعة الأنبياء ، وهل لأصحاب العقائد وفداة الحق من راحة إلا هناك ؟ .

وعمل هذا التحريض عمله في القلوب المؤمنة .

روى أحمد^(٢٧) أن المشركين لما دنوا ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟! قال : نعم . قال : بخ بخ . قال

(٢٦) في « المغازي » وعند ابن هشام (٦٨/٢ - ٦٩) بدون سند ، لكن وصله الأُموي من طريق ابن إسحاق : حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن سعيّر ؟ وهذا سند حسن وسكت عنه ابن كثير (٢٨٤/٣) .

(٢٧) في المسند (١٣٦/٣ - ١٣٧) بدون الأبيات : وكذلك - أخرجه مسلم (٤٤/٦ - ٤٥) والحاكم (٤٢٦/٣) مستدركاً على مسلم فوهم . أخرجه كلهم من حديث أنس ، مسلم أيضاً من حديث البراء مختصراً . أما الأبيات فعرها الحافظ ابن كثير (٢٧٧/٣) لأن جري .

رسول الله : وما يملكك على قول بخ بخ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ! .

قال : فإنك من أهلها ...

فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن . ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة ، فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة للفساد
غير التقى والبر والرشاد

فمازال يقاتل حتى قتل ! .

ووهت صفوف المشركين تحت مطارق هذا الإيمان الزاهد في متاع الحياة الدنيا . وراعههم محمد عليه الصلاة والسلام . وقد نزل بنفسه إلى الميدان يقاتل أشد القتال . ومعه أصحابه يشتدون نحو عدوهم لا يبالون شيئاً . فانكسرت قريش وأخذها الفرع .

وصاح النبي عليه الصلاة والسلام - وهو يرى كبرياء الكفر تمرغ في التراب : « شأنت الوجوه ... » (٢٨) .

فانهزمت قريش ..

وذلك قول الله في كتابه : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . ذَلِكَمْ فَتَوْفُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢٩) .

* * *

(٢٨) حديث حسن وهو من رواية عبد الله بن ثعلبة المتقدمة . وله شاهد من حديث حكيم بن حزام قال الهيثمي (٨٤/٦) : « رواه الطبراني وإسناده حسن » .
(٢٩) الأنفال : ١٢ - ١٤ .

وحاول « أبو جهل » أن يقف سيل الهزيمة النازل بقومه ، فأقبل يصرخ بهم ،
وغشاوة الغرور لاتزال ضاربة على عينيه : « والللات والعزى لا نرجع حتى نفرقهم
في الجبال .. خذوهم أحياناً » .

وماذا تفعل صيحات الطيش بإزاء الحقائق المكتسحة ؟ لكن أبا جهل - والحق
يقال - كان تمثالاً للعناد إلى آخر رفق ، والطمس المنسوج على بصيرته جزء من
كيانه لا ينفك أبداً ، لذلك أقبل يقاتل في شراسة وغضب وهو يقول :

ما تنقم الحرب الشمس منى ؟ بازل عامين حديث سنى
لمثل هذا ولدتنى أمى

وأحاطت به فلول المشركين يقولون : أبا الحكم لا يُخلص إليه ، فكان بينهم
وسط غابة ملتفة . بيد أن هذه الغابة لم تلبث أن تهاوت جذعاً جذعاً ، أمام حماس
المؤمنين الذين اشتد بأسهم ، وأغرثهم بشائر الفوز ، وساد هتافهم الموقعة وهم
يقولون : أحد أحد !

قال عبد الرحمن بن عوف : إني لفي الصف يوم بدر ، إذا التفت فإذا عني
يمني وعن يساري فتيان حديثا السن ، فكأنني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما
سراً من صاحبه : يا عم ، أرني أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخي ما تصنع به ؟ قال :
عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ! وقال لي الآخر سراً من صاحبه مثله .

قال : فما سرني أننى بين رجلين مكانهما .

فأشرت لهما إليه . فشدا عليه مثل الصقرين ، فضرباه حتى قتلاه ، وهما
ابنا عفراء^(٣٠) ويظهر أنهما تركاه بين الحياة والموت ، وقد استشهد البطلان في هذه

(٣٠) حديث صحيح أخرجه البخارى (٢٤٦/٧) ومسلم (١٤٨/٥ - ١٤٩) وأحمد (رقم
١٦٧٣) واستدركه الحاكم (٤٢٥/٣) فوهم ، وقوله : « وهما ابنا عفراء » هكذا في رواية البخارى وعند
الآخرين : « والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء » وهى رواية للبخارى (١٨٩/٦ - ١٩٠) .
فلعل الرواية الأولى على طريقة التغليب وانظر « الفتح » (٢٣٦/٧) .

الواقعة ، ووقف رسول الله ﷺ على مصرعهما يدعو لهما ويذكر صنيعهما^(٣١) .
أما أبو جهل فقد سقط مكانه يلفظ أنفاسه ، وتفرق المشركون بعده بدداً ،
وتركوا سيقانهم للريح ، تبعثرهم في فجاج الصحراء ، كما تبعثر كثيباً من الرمل
المنهار .

ومر عبد الله بن مسعود بالقتلى فوجد أبا جهل فيهم ، لا يزال به رمق ، فجثم
على صدره يبغى الإجهاز عليه ، وتحرك « أبو جهل » يسأل لمن الدائرة ؟ قال
عبد الله :

لله ورسوله ، ثم استتلى عبد الله : هل أخزأك الله يا عدو الله ؟ قال له : وبماذا
أخزأتني ؟ هل أعمد من رجل قتله قومه ؟ وتفرس في عبد الله ثم قال له : أأست
رويعينا بمكة ؟ .

فجعل يهوى عليه بسيفه حتى خمد^(٣٢) .

ولقى مثل هذا المصير الفاجع سبعون صنيديداً من رؤوس الكفر بمكة دارت
عليهم كؤوس الردي فتجرعوها صاغرين وسقط في الأسر سبعون كذلك .
وفر بقية التسعمائة والخمسون يروون لمن خلفهم أن الظلم مرتعه وخيم ، وأن
البطر يجر في أعقابه الخزي والعار .

* * *

وفتح المسلمون عيونهم على بشاشة الفوز تضحك لهم خلال الأرض
والسما . إن هذا الظفر المتاح رد عليهم الحياة والأمل والكرامة ، وخلصهم من
أغلال ثقال .

(٣١) الجزم بهذا خطأ بين لأنه من روايه الواقدي بدون سند ، كما في ابن كثير (٢٨٩/٣) وحتى
لو ساق سنده وكان رجاله ثقات لم يصح لأن الواقدي متهم بالكذب ، ويدل على ضعف هذه الرواية أن معاذ
ابن عمرو مات في زمن عثمان كما جزم به البخاري وغيره (راجع ابن هشام ٧٢/٢) .
(٣٢) رواه نحوه ابن هشام (٧٢/٢) عن ابن إسحاق بدون إسناد وبعضه في المسند (رقم ٤٣٤٦)
والبيهقي (٦٢/٩) عن ابن مسعود بسند منقطع ، وقصة قتل ابن مسعود لأبي جهل صحيحة رواها البخاري
(٢٣٥/٧) ومسلم (١٨٣/٤ - ١٨٤) وأحمد (١١٥/٣ ، ١٢٩ ، ٢٣٦) من حديث أنس .

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣٣) .

وكانت عدة من استشهد منهم أربعة عشر رجلاً . استأثرت بهم رحمة الله فذهبوا إلى عليين . ثبت عن أنس بن مالك ، أن حارثة بن سراقة ، قتل يوم بدر ، وكان في النظارة ، أصابه سهم طائش فقتله . فجاءت أمه فقالت : يا رسول الله .. أخبرني عن حارثة ؟ فإن كان في الجنة صبرت . وإلا فليرين الله ما أصنع - تعني من النياحة - وكانت لم تحرم بعد !! فقال لها الرسول : « ويحك أهبلت ؟ إنها جنان ثمان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » (٣٤) .

فإن كان هذا جزاء النظارة الذين اختطفتهم سهام طائشة . فكيف بمن خاض إلى المنايا الغمرات الصعاب ؟ .

* * *

في هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء . والإخوة بالإخوة . خالفت بينهم المبادئ ففصلت بينهم السيوف ، وفي عصرنا هذا قاتل الشيوعيون مواطنهم ومزقوا أغلى الأواصر الإنسانية في سبيل ما يعتقلون . فلا عجب إذا رأيت الابن المؤمن يغاضب أباه الملحد . ويخاصمه في ذات الله . والقتال الذي دار بـ « بدر » سجل صوراً من هذا النوع الحاد : كان أبو بكر مع رسول الله ، وكان ابنه عبد الرحمن يقاتله مع أبي جهل ، وكان عتبة بن ربيعة أول من بارز المسلمين ، وكان ولده أبو حذيفة من خيار أصحاب النبي ، فلما سحبت جثة عتبة لترمى في القليب ، نظر الرسول إلى أبي حذيفة فإذا هو كئيب قد تغير لونه ! فقال له : يا حذيفة .. لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنني ذلك ! .

(٣٣) آل عمران : ١٢٣ .

(٣٤) حديث صحيح أخرجه البخاري (٦٠/٦ - ٢١ - ٢٤٣/٧) .

فدعا له رسول الله ﷺ بخير ، وقال له خيراً (٣٥) .

وأمر رسول الله بقتل المشركين فطرحوا في القليب . وروى أنه قال عند مرآهم : « بئس عشيرة النبی كنتم لنبيكم ، كذبتُموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتُموني ونصرني الناس » (٣٦) فلما ووريت جثثهم وأهيل التراب على رفاتهم ، انصرف الناس وهم يشعرون أن أئمة الكفر قد استراح الدين والدنيا من شرورهم إلا أن النبي استعاد ماضيه الطويل في جهاد أولئك القوم . كم عالج مغاليقهم وحاول هدايتهم ؟ .. وكم ناشدهم الله وخوفهم عصيانه وتلا عليهم قرآنه ؟ .

وهم - على طول التذكير - يتبجحون ، وبالله وآياته ورسوله يستهزئون فخرج (٣٧) النبي في جوف الليل حتى بلغ القليب المطوى على أهله وسمعه الصحابة يقول : « يا أهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ،

(٣٥) حديث ضعيف رواه ابن هشام (٧٥/٢) عن ابن إسحاق بلاغاً .

(٣٦) حديث ضعيف رواه ابن هشام (٧٤/٢) عن ابن إسحاق قال : حدثني بعض أهل العلم . وهذا إسناد متصل . وقد رواه أحمد (١٧٠/٦) من طريق إبراهيم عن عائشة مرفوعاً بلفظ : « جزاكم الله شراً من قوم نبي ، ما كان أسوأ الطرد ، وأشد التكليل » ورجاله ثقات لكنه منقطع بين إبراهيم - وهو النخعي - وبين عائشة .

(٣٧) حديث صحيح ، أخرجه ابن إسحاق (٧٤/٢) حدثني حميد الطويل عن أنس به وهذا سند صحيح وحيد وإن كان مدلساً فإن ما يرويه معنعناً عن أنس بينهما ثابت البناني كما ذكرنا في ترجمته وهو ثقة من رجال الشيخين وقد أخرجه أحمد (١٠٤/٣ ، ١٨٢٠) من طرق عن حميد به . وقال الحافظ ابن كثير (٢٩٢/٣) « إنه على شرط الشيخين » قلت : وقد وصله مسلم (٢٦٣/٨) وأحمد (٢١٩/٢ ، ٢٨٧) من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس ورواه أحمد (١٤٥/٣) من طريق قتادة عن أنس لكن رواه البخاري (٢٤٠/٧ - ٢٤١) من طريقه قال : ذكر لنا أنس عن أبي طلحة ، فجعله من سند أبي طلحة وهو الأصح كما قال الحافظ ابن كثير وابن حجر ثم أخرجه مسلم والطيالسي (٩٧/٢ - ٩٨) ترتيب الشيخ أحمد البنا وأحمد (رقم ١٨٢) من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس عن عمر . فالظاهر أن أنس لم يسمعه منه ﷺ وإنما رواه عنه بواسطة الصحابة . فكان تارة يرسله وتارة يوصله . والحديث رواه غير من ذكر من الصحابة عبد الله بن عمر . أخرجه البخاري (٢٤٣/٧) وغيره . وفي الباب عن مسعود وابن عباد وغيرهما وأما إنكار عائشة الذي ذكره المؤلف في التعليق فقد أنكره العلماء وبينوا أن الصواب يجانب الذين رَوَوْا هذا الحديث . راجع « البداية » لابن كثير . و « الفتح » لابن حجر وعندى أنه لا تعارض بين روايتهم وروايتها ، بل الجمع بينها هو الصواب كما بينه في « أحكام الجنائز وبدعها » ولعله يطبع قريباً .

يا أبا جهل ابن هشام ، هل وجدت ما وعدكم ربيكم حقا ؟ فإنى وجدت أما وعدنى رنى حقا ! .

فقال المسلمون : يا رسول الله .. أتنادى على قوماً جيفوا ؟ قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ! ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني « (٣٨) » .

كانت واقعة بدر فى السابع عشر من رمضان لسنتين من الهجرة . وقد أقام رسول الله ﷺ ببدر ثلاثاً .. ثم قفل عائداً إلى المدينة يسوق أمامه الأسرى والغنائم ! ورأى قبل دخولها أن يعجل البشرى إلى المسلمين المقيمين فيها لا يدرون مما حدث شيئاً .

فأرسل « عبد الله بن رواحة » و « زيد بن حارثة » مبشرين يؤذنان الناس بالنصر العظيم .

قال « أسامة بن زيد » : فأتانا الخبر حين سويانا التراب على رقية بنت رسول الله ! وكان زوجها عثمان بن عفان قد احتبس عندها يمرضها بأمره . وضرب رسول الله له بسهمه وأجره فى بدر (٣٩) .

* * *

(٣٨) تنكر عائشة هذا الحديث محتجة بقول الله : ﴿ وما أنت بمسمع من فى القور . إن أنت إلا نذير ﴾ (فاطر : ٢٢ ، ٢٣) وتقول : إن اللفظ الذى قاله الرسول : « ما أنتم بأعلم لما أقول منهم » .
 (٣٩) حديث صحيح ، أخرجه البيهقى (١٧٤/٩) بسند صحيح من حديث أسامة رواه بحوه الحاكم (٤٨/٣) عن الزهرى مرسلاً . وفى الباب أحاديث أخرى تراعى فى « المجموع » (٨٣/٩ - ٨٤) .

محاسبة وعتاب

برغم ما سجله التاريخ من تجمل ومواساة بين الأنصار والمهاجرين فإن متاعب العيلة . ومشكلات الفقر تمشت خلال المجتمع الجديد ، إن سرتها التعفف حيناً . أبرزتها الحاجة حيناً آخر ، والأزمات التي تصاحب تكوين دولة من العدم وسط أُمم تكيد لها وتربص بها اللوثر ، يجب أن تتوقع ، وأن توطن النفوس على احتمالها ، وألا تكون حدة الشعور بها سبباً في ضعف السيرة وعجز الهمة .

وقد أخذ الله المسلمين - قبل معركة بدر وبعدها - بأمور بدرت منهم ، يحب لهم أن يتنزهوا عنها . مهما بلغ من شدة الدوافع والمبررات لارتكابها .

فهم يوم يخرجوا من يثرب لملاقاة مشركى مكة ، تعلقت أمانتهم بإحراز العير وما تحمل من ذخائر ونفائس ..

حقاً إنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وضحوا في سبيل الله بأنفسهم وأولادهم ... فليمضوا في طريق الفداء إلى المرحلة الأخيرة ، ومهما عضهم الفقر بنابه ، فليكن التنكيل بالكافرين أرجح في ميزانهم من الاستيلاء على الغنيمة .

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٠) .

ومن هذا القليل تسابقهم بعد النصر إلى حيازة الغنائم ومحاولة كل فريق الاستئثار بها ، عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي فشهدت معه بدرأ فالتقى الناس ، فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون

(٤٠) الأنفال : ٧ .

وأكبت طائفة على المغنم يخوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، وليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم أحق بها منا .. نحن نحينا منها العدو وهزمناه ، وقال الذين أحدقوا برسول الله : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فأنزل الله :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فقسمها رسول الله بين المسلمين (٤١) .

هذا التنازع المؤسف إثر البأساء الشاملة التي لحقت بالمهاجرين والأنصار على السواء . وقد نظر رسول الله إلى مظاهر هذا البؤس على أصحابه وهم خارجون إلى بدر ، فرثي لحالهم ، وتألم لما بهم ، وسأل الله أن يكشف كرباتهم ؛ فعن عبد الله ابن عمرو (٤٢) قال : « خرج رسول الله يوم « بدر » في ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه ، فلما انتهى إليها قال : اللهم إني جياع فأشبعهم ، اللهم إني خفاة فأحملهم ، اللهم إني عراة فأكسهم ، ففتح الله له يوم بدر . فانقلبوا حين انقلبوا ، وما منهم رجل إلا وقد رجع بحمل أو حملين واكتسوا وشبعوا » .

إن الجوع والعري عندما يطول أمدهما يتركان في النفوس ندوباً سيئة ويدفعان الأفكار في مجرى ضيق كالح ، على أن هذه الأزمت إن أخرجت العامة وأهاجتهم إلى طلب الغذاء والكساء لأنفسهم وذرائعهم بخرص ومجاهرة فإن المؤمنين الكبار ينبغي أن يتماسكوا ، وأن يكتموا أحاسيس الفاقة الملحة فلا يتنازعوا على شيء ! .

(٤١) حديث صحيح أخرجه أحمد (٣٢٣/٥ - ٣٢٤) والحاكم (٣٢٦/٢) من طريق مكحول عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت . وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي ، وأبو أمامة لم يره مكحول كما قال أبو حاتم فهو مقطوع ، ومن هذا الوجه أخرجه ابن هشام (٧٦/٢) عن ابن إسحاق . ومن طريقه أحمد (٣٢٢/٥) لكن له شاهد من حديث ابن عباس أخرجه أبو داود (١٣٠/١١) والحاكم وقال : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي وهو كما قال . وبه صح الحديث - والآية من سورة الأنفال : ١ .

(٤٢) حديث حسن أخرجه أبو داود (١٣١/١ - ١٣٢) والحاكم : (١٤٥/٢) والبيهقي (٥٧/٩) وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ، وإنما هو حسن فقط ، وحسنه الحافظ في « الفتح » (٢٣٣/٧) .

وذلك الأدب هو ما أخذ الله به المسلمين ، وافتتح به السورة التي تحدثت عن القتال في بدر .

ذلك أن الخاصة من الرجال هم قدوة غيرهم . فإذا ساءت أخلاقهم للضوابط العارضة واضطرب مسلكهم فسيكون سواد الشعب إلى مزلق الفوضى أسرع ..
وقد رأينا « الألمان » في الحرب العالمية الأولى و « الإنجليز » في الحرب العالمية الثانية شدد عليهم الحصار حتى هزلت الأجسام . واصفرت الوجوه . وما صابرت الجماهير هذه المجاعات إلا وراء قادتها المصابرين المتحملين .

* * *

ومما حاسب الله عليه المسلمين حساباً شديداً موقفهم بإزاء الأسرى . فإن الرغبة في استبقائهم للانتفاع من ثرواتهم غلبت الآراء الأخرى بضرورة الاقتصاص من مآثمهم السابقة ، حتى يكونوا نكالاً لما بين أيديهم وما خلفهم وموعظة للمتقين ..

استشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً . فقال أبو بكر : يا رسول الله .. هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ! وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية . فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار . وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً .

فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر . ولكن أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه . وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب ، فيضرب عنقه . وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين . وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر . ولم يهو ما قلت . وأخذ منهم الفداء . فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأبى بكر وهما يبكيان ! فقلت : يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن

وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ! فقال رسول الله ﷺ :
للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، قد عرض على عذابكم أدنى من
هذه الشجرة - لشجرة قريبة - .

وأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي
الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ
مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٤٣) .

إن الوقوع في الأسر لا يعنى صدور عفو عام عن الجرائم التى اقترفتها الأسرى
أيام حريتهم ، وهؤلاء الطغمة من كبراء مكة ، لهم ماض شنيع فى إيذاء الله ورسوله ،
وقد أبطرتهم منازلهم ، فساقوا عامة أهل مكة إلى حرب ، ما كان لها من داع ،
فكيف يتركون بعد أن استمكنت الأيدي من خناقهم ؟ .

أذلك لأن لهم ثروة يُفقدون بها ؟ ما كان يليق أن ينظر المؤمنون إلى هذه
الأعراض التافهة متناسين ما فرط من أولئك الكفار فى جنب الله .

إنهم مجرمو حرب - بالاصطلاح الحديث - لا أسرى حرب ، وقد ندد
القرآن بخيانتهم لقومهم بعد كفرهم بنعمة الله عليهم فقال :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ
يَصْلَوْنَهَا ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ (٤٤) .

وهناك نصوص توصى برعاية الأسرى وإطعامهم ، وتشرع القوانين الرحيمة
فى معاملتهم ، وهذا ينطبق على جماهير الأسرى من الأتباع والعامه .

أما الذين تاجروا بالحروب ، لإشباع مطامعهم الخاصة فيجب استئصال
شأفتهم ، وذلك هو الإثخان فى الأرض .

(٤٣) حديث صحيح ، أخرجه مسلم (١٥٦/٥ - ١٥٧) وأحمد (رقم ٢٠٨ ، ٢٢١) والبيهقى
(٦٧/٩ - ٦٨) من حديث عمر . والآيتان من سورة الأنفال : ٦٧ ، ٦٨ .
(٤٤) إبراهيم : ٢٨ ، ٢٩ .

إن الحياة كما تتقدم بالرجال الأخيار ، فإنها تتأخر بالعناصر الخبيثة ، وإذا كان من حق الشجرة لكي تنمو أن تُقَلَّم . فمن حق الحياة - لكي تصلح - أن تنقى من السفهاء والعناة والآثمين . ولن يقوم عرض أبدأ عن هذا الحق ، ولو كان القناطير المقنطرة من الذهب ، وقد أسمع الله نبيه وصحابته هذا الدرس ، حتى إذا وعوه وتدبروه عفا عنهم ثم أباح لهم - من رحمته بهم - الانتفاع بما أخذوا من فداء فقال : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ ﴾ (٤٥) .



فى أعقاب بدر

شَهِدَ العرب قاطبة للنصر الحاسم الذى ناله المسلمون فى بدر ، بل إن أهل مكة استنكروا الخبر أول ما جاءهم . وحسبوه هذيان مجنون ، فلما استبان صدقه صعق نفر منهم فهلك لتوه . وماج بعضهم فى بعض من هول المصاب لا يدري ما يفعل .

وكما استبعد أهل مكة الهزيمة على أنفسهم حتى جوبها بعارها . استبعد مشركو المدينة ويهودها ما قرع آذانهم من بشرىات الفوز . وذهب بعضهم إلى حد إتهام المسلمين بأن ما يذاع عن نصرهم محض اختلاق . وظلوا يكابرون حتى رأوا الأسرى مقرنين فى الأصفاد ، فسقط فى أيديهم .

وقد اختلفت مسالك الأحزاب الكافرة بإزاء المسلمين بعد هذا الغلب الذى مكن للإسلام وأهله . وجعل سلطانهم مهيباً فى المدينة وما حولها . ومد نفوذهم على طريق القوافل فى شمال الجزيرة . فأصبح لا يمر بها أحد إلا بإذنهم .

فأما أهل مكة فقد انطوا على أنفسهم يداون جراحهم ويستعملون قواهم ويستعدون لنيل ثأرهم . ويعلنون أن يوم الانتقام قريب . ولم تزدهم الهزيمة إلا كرها للإسلام . ونقمة على محمد وصحبه . واضطهاداً لمن يدخل فى دينه . فكان من ينشرح صدره للإسلام يختفى به أو يعيش ذليلاً مستضعفاً .

ذلك فى مكة ، حيث كانت الدولة للكفر .

أما فى المدينة حيث المسلمون كثرة مكينة ظاهرة . فقد اتخذت العداوة للإسلام طريق الدس والنفاق والمخاتلة . فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهراً وقلوبهم تغلى حقداً وكفراً . وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبى .

روى أسامة بن زيد قال : كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب - كما أمرهم الله تعالى - ويصبرون على الأذى :

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ .

فكان النبي ﷺ يتأول في العفو الذي أمره الله به - حتى أذن فهم (٤٦) - .

فلما غزا بدرًا . وقتل الله فيها من قتل من صناديد قريش . وقفل رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه منصورين غانمين معهم أسرارهم ، قال « عبد الله ابن أبي » ومن معه من المشركين عبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه (أى استقر فلا مطمع في إزالته) فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام فأسلموا ..

على أن هذا الخداع لاذ به فريق من الكفار في الوقت الذي عالن فيه فريق آخر من اليهود بسخطهم على محمد ، وألهم للهزيمة التي أصابت قريشاً في « بدر » بلا إن كعب بن الأشرف - من رجالات اليهود - أرسل القصائد في رثاء قتلاهم والمطالبة بالثأر ! .

ولقد اتسعت شقة العداوة بين المسلمين واليهود إثر هذا الموقف النائي .

ثم حاول اليهود أن يحرقوا من شأن النصر الذي حظى به الإسلام ، مما مهد للأحداث العنيفة التي وقعت بعد ، ودفع اليهود ثمنها من دمهم ، أفراداً وجماعات .

أما البدو الضاريون حول المدينة وعلى طريق القوافل ، فهم قوم همل ، لا يهتمهم شيء من قضايا الكفر والإيمان ، إنما يهتمهم اكتساب القوت من أى وجه ، والحصول عليه ولو عن طريق السلب والنهب . وتاريخهم الحديث مع قوافل الحجاج شاهد صدق على أنهم لا يراعون حرمة ولا يحشون إلا القوة . ولولا بطش السعوديين بهم ما أمن طريق الحق قط ! وقد سبق لهم استيلاء نعم المدينة ، وما ورثوه من جاهلية طامسة ، جعل قلوبهم مع مشركى الجزيرة ، وقد ذعروا لانتصار المسلمين في بدر ، وأخذت جموعهم تحتشد ، تبغى انتهاز فرصة للإغارة على المدينة ، ولكن الرسول ﷺ نهض إلى جموعهم فشتتها ولم يلق في إرهابهم متاعب ذات بال .

(٤٦) حديث صحيح رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ، وإسناده صحيح كما قال الحفاظ ابن كثير في « التفسير » (١٥٣/١) - والآية من سورة البقرة : ١٠٩ .

بدء الصراع بين اليهود والمسلمين

لم تُحدث المسلمين أنفسهم بنقض عهود اليهود ، ولا فكروا في طردهم من أرض الجزيرة ، بل على العكس ، توقع المسلمون منهم أن يكونوا عوناً لهم في حرب الوثنية المخرفة وتدعيم عقيدة التوحيد ، ورجا المسلمون أن يصدق اليهود محمداً ﷺ فيما يشبهه الله من تنزيه ومجد ، وأن تكون صلتهم بالكتب القديمة وألفتهم لأحاديث المرسلين سبباً في إقناع العرب الأميين بأن الرسالات السماوية حق والإيمان بها واجب .

وهذه المشاعر الحسنة تتمشى مع القرآن النازل يومئذ ، يؤسسها ويؤكدّها .
﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا ، قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤٧) .

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَأْبٍ﴾ (٤٨) .

بيد أن اليهود كانوا عند أسوأ الظن . فلم تمض أيام على اختلاطهم بالمسلمين في المدينة حتى شرعوا يخرجون صدورهم ويعينون عليهم . ولو أنهم كذبوا بمحمد ﷺ كما كذبوا بعيسى من قبل ، واعتقلوا أن ما وراء توراتهم باطل ، واكتفوا بأداء عبادتهم في بيعهم ، وجبسوا في أفواههم المطاعن على أنبياء الله .. لتركهم المسلمون وشأنهم يكفرون إلى قيام الساعة دون حرب أو ضرب .

أما أن يجتهد المسلمون في بناء دولتهم فيجتهد هؤلاء في نقضها . أما أن

(٤٨) الرعد : ٣٦ .

(٤٧) الرعد : ٤٣ .

يصطدم الإسلام بالشرك فينضم بنو إسرائيل بعواطفهم وألسنتهم ودعايتهم ضد محمد وصحبه فهذا ما لا يستساغ .

وفي فرحة المسلمين بانتصارهم في بدر ، لم يستح أولئك اليهود أن يقولوا لرسول الله عليه الصلاة والسلام : « لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . أما والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس » ! .

وقد نزل الوحي ينذر هؤلاء بسوء المنقلب ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سُتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ، وَبُئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الثَّقَاتِ ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٤٩) .

والآية الأخيرة تذكير بما وقع في بدر .

وأول من كشف عن ضغنه وهزأ بالإسلام وأهله ، يهود بنى قينقاع ، والمقيمون داخل المدينة نفسها ، وكظم المسلمون غيظهم ، وانتظروا ما تتمخض عنه الليالي من مكر اليهود .

وسعي هؤلاء إلى حتفهم بظلفهم . فقد حدث أن امرأة عربية قدمت بحليها في سوق بنى قينقاع ، فجلس إلى صائغ هناك ، فاجتمع حولها نفر من اليهود يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها وهي غافلة فعقده إلى ظهرها .

فلما قامت انكشفت سواتها وضحك اليهود منها ! وصاحت المرأة فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، فشددت اليهود على المسلم فقتلوه ، وهكذا طارت الشرارة ووقعت الحرب بين المسلمين وبنى قينقاع .

كل ذلك في منتصف شوال في السنة الثانية من الهجرة .

لحاً اليهود إلى حصونهم يقاتلون فيها ، وفرض الرسول ﷺ عليهم الحصار ،

(٤٩) آل عمران : ١٢ ، ١٣ .

وأحكمه خمس عشرة ليلة ، حتى اضطروا إلى التسليم ، ورضوا بما يصنعه رسول الله في رقابهم ونسائهم وذريتهم فلما أمكن الله منهم جاء عبد الله بن أبي فقال : يا محمد أحسن في موالي - وكانوا حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله ، فكرر ابن أبي مقالته : أحسن في موالي . فأعرض عنه الرسول . فأدخل يده في جيب درعه ، فتغير لون النبي وقال له : أرسلني ، وغضب حتى رأوا لوجهه ظُللاً ، ثم أعاد أمره وهو مغضب : أرسلني ويحك ! قال ابن أبي : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة ؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول الله : « هم لك »^(٥٠) على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاورونا بها .

فرحلوا إلى « أدراعات » بالشام ولم يبقوا هناك طويلاً حتى هلك أكثرهم . أما كان خيراً لهم أن يؤدوا حقوق الجوار ، ويعرفوا قيمَ العهود ، ويبقوا في المدينة آمنين موفورين ؟ لقد تعجلوا الشر فبدأوا به .. وفي حوار عبد الله بن أبي مع الرسول عليه الصلاة والسلام نزل قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَادِمِينَ ﴾^(٥١) .

ويحسن أن نتأمل في سيرة هؤلاء اليهود ، وسر نعمتهم الشديدة على الإسلام ونبيه وتحيزهم المعيب إلى الوثنية في نضال الإسلام معها .
أصحح أن نزاع اليهودية والإسلام كان سياسياً لا دينياً ؟ وأن الإنفراد بالسلطان في الجزيرة العربية هو مبعث هذا الخصام الحاد ؟

(٥٠) إلى هنا رواه ابن هشام (١٢١/٢) عن ابن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة مرسلأما باقية فلم أقف عليه الآن .

(٥١) رواه ابن إسحاق (١٢١/٢) عن عبادة بن الوليد بن الصامت وابن جرير عن عطية العوفي وعن الزهري . وكلها مرسلات . وقد أشار ابن كثير في تفسيره (٦٨/٢) إلى تضعيف نزول الآية في ابن أبي . والله أعلم - والآية من هورة المائدة : ٥٢ .

إن التغلغل في فهم العواطف والمشاعر الإنسانية ، يفسر كثيراً من العواطف الغامضة . لقد رأينا المسلمين في مكة يتحمسون للنصرانية في صراعها مع المجوسية ، ويحزنون لإنكسار الروم أمام الفرس ، مع أن الإسلام لم يكن قد اتصل بعد بالنصارى اتصالاً يبرر هذا الحماس . لكنه الشعور الطبيعي الوحيد الذي ينتظر من الرجل المخلص لدينه ، فالمسلمون أصحاب كتاب يدعو إلى التوحيد ، والنصارى - وإن اضطرب فهمهم لمعنى التوحيد شابوا الحق بالخرافة - فهم على كل حال - أهل كتاب ، ويعتبرون أعلى مرتبة من عبدة النار ، فالرغبة في انتصارهم على الوثنية الصريحة الشرك ، ضرب من الوفاء للإسلام نفسه ! ومن الاحترام للحقيقة التي معك أن تقترب مما يقرب منها ، وأن تباعد عن كل ما يبعد عنها .

وقد كان المشركون من أهل مكة منطقيين مع أنفسهم حين رحبوا بانتصار الفرس ، وعدوه رمزاً لغلبة الوثنية في كل صورها على أديان السماء جملة ..

فما معنى أن يغضب اليهود الموحدون - كما يزعمون - من انتصار الإسلام على الشرك ، وبم يفسر حنؤهم على القتل من عبدة الأصنام ، وسعيهم الحثيث لتغليب كفة الوثنية العربية على هذا الدين الجديد ؟؟ .

إن التفسير الوحيد لهذا الموقف أن اليهود انقطعت صلاتهم بمعنى الدين ، وأن سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوى ، وأنهم لا يكثرثون بما يقترب من عقيدة التوحيد أو أحكام التوراة ، لأن هذه وتلك مؤخرة أمام شهواتهم الغالبة وأثرتهم اللازمة . ومن ثم شكك القرآن في قيمة الإيمان الذى يدعيه القوم .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَكَفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ .. ﴿٥٢﴾ .

والظاهر أن طوائف اليهود التي عاشت بين العرب كانت عصابات من المرتزقة

انخذت الدين عنواناً لمطامع اقتصادية بعيدة . فلما تُوهِمُ أن هذه المطامع مهددة بالزوال ، ظهر الكفر الخبوء فإذا هو كفر بالله وسائر المرسلين .

ولم يعرف أولئك شرفاً في حرب الإسلام . ولم يفقههم حدُّ أو عهد في الكيد له فم يكن بُدُّ من إجلالهم ، وتنظيف الأرض منهم .

وقد تعقب المسلمون كل غادر بعهد ، مجاهر بحرب الله ورسوله ، مؤيد لقريش ورأيها ، مظهر للعطف والأسف على ما أصابها .. تعقب المسلمون هؤلاء الطغام من زعماء يهود وسراهم بالقتل والإرهاب .

ومن أولئك الذين نفذ فيهم العقاب العادل « كعب بن الأشرف » فإن كعباً هذا سافر إلى مكة - من المدينة - يواسي مشركيها المهزومين في بدر . ويخرضهم على إدراك ثأرهم من محمد ﷺ وصحاته . وهو الذي سأله أبو سفيان : أناشدك الله .. أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ وأينا أهدى إلى ربك وأقرب إلى الحق ؟ إنا نطعم الجزور الكوماء ، ونسقى اللبن على الماء . ونطعم ما هبت الشمال .

قال له كعب : أنتم أهدى منهم سبيلاً فأنزل الله على رسوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغُفْوَةِ وَالطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ (٥٣) .

وعاد كعبٌ إلى المدينة سافر العداوة ، بعيد الجراءة ، حتى أنه صاغ قصائد الغزل في بعض النساء المسلمات . وليس بعد ذلك صبر ، فأهدر المسلمون دمه .

وبعث إليه النبي من استنزله من حصنه ليلقي جزاءه الحق .

ذهب إليه « محمد بن مسلمة » و « أبو نائلة » بعدما استأذنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقولوا فيه ما يطمئن اليهودي إلى تبرمهما بالإسلام ، أتاه « محمد ابن مسلمة » فقال له : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عنانا ، وإني قد أتيتك أستسلفك !! قال كعب : والله تملنه ! قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه

حتى ننظر إلى أى شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا . قال : نعم ، أرهنوني ، قلت : أى شيء تريد ؟ قال : أرهنوني نساءكم ! قال : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ .

قال : فترهنون أبناءكم . قال : يُسبُّ ابن أحدنا فيقال : رُهنَ في وسق أو وسقين من تمر ، ولكن نرهنك السلاح .

وصنع أبو نائلة ما صنع محمد ابن مسلمة ، قال لليهودى : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ! عادتنا العرب ، ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت علينا السبيل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا ! ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة ، ورضى كعب - أخيراً - أن يسلفهم نظير ارتهان أسلحتهم .

وإلى هذا قصدوا ، فإن كعباً لن ينكر السلاح معهم وهو الذى طلب منهم . وفى ليلة مقمرة انطلقوا إلى حصنه ليتموا ما تواعدوا عليه . فقالت امرأته وقد سمعت النداء : أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم ، قال كعب : لو دعي الفتى لطعنة لأجاب ، فنزل متوشحاً تنفخ منه رائحة الطيب . واستدرجه القوم فى الحديث والسير ، ثم زعم أبو نائلة أنه يريد أن يشم الطيب من شعره ، فسرّح فيه يده ، وهو يقول : ما رأيت كالليلة طيباً أعطر وزهى كعب بما سمع ! وعاد أبو نائلة فوضع يديه فى شعر اليهودى حتى إذا استمكن من فوديه قال لصحبه : دونكم عدو الله ، فاختلقت عليه أسياهم^(٥٤) . دخلت فى بدنه الأسلحة التى طلبها رهننا بدل النساء والأبناء .

(٥٤) حديث صحيح ، رواه ابن هشام (١٢٣/ - ١٢٤) عن ابن إسحاق حدثني عبد الله بن المعيث ابن أبى بردة به نحوه ، وهذا سند ضعيف مرسل أو معضل ، وعبد الله هذا ترجمه ابن أبى حاتم (١٧٤/٢) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً ، ورواه البخارى (١٠٦/٥ - ١٠٧ ، ١١٩/٦ - ١٢٠ ، ٢٦٩/٧ - ٢٧٢) ومسلم (١٨٤/٥ ، ١٨٥) وأبو داود (٤٣٦/١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه نحوه ، والظاهر أن سياق الكتابة مركب من الروايتين . والحديث رواه البيهقي (٨١/٩) من حديث جابر . ثم رواه من حديث موسى بن عقبة معضلاً .

وصاح كعب صيحة لم يبق معها حصن إلا اوقدت عليه النار استجلاء
للخبر ، فلما طلع الصباح علمت يهود بمصرع جبارها ، فدب الرعب في القلوب
العنيدة ، وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تختبئ فيها .

لقد أجدت العصا حين أعييت النصيحة وبطل المقال . ولزم اليهود حدودهم
فلم يتجرأوا على المسلمين بسب ، وظهر كأنهم لن يمالئوا على الله ورسوله مشركاً
بعد اليوم .

وهكذا تفرغ الرسول عليه الصلاة والسلام - إلى حين - لمواجهة الأعراب
المشركين .



مناوشات مع قريش

لم يغتر المسلمون بالنصر الذى نالوه فى « بدر » ولم يفتروا عن مراقبة خصومهم والإعداد لهم . وقد علموا علم اليقين أن مكة لن تثنى عن الإنتقام لنفسها ولن تستكين للكارثة التى حلت بها .

ورأى أبو سفيان - حفظاً لمكانة قومه وإبرازاً لما لديهم من قوة - أن يتعجل عملاً قليل المغارم ظاهر الأثر ، فقرر أن يفاجئ المدينة بغرة خاطفة يعود عقيبتها وقد رد لقريش بعض سمعتها ، وألحق بالمسلمين ما يستطيع من خسائر .

ثم إن أبا سفيان كان نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ﷺ ، وينبغي أن يبر في قسمه .

فخرج فى مائتى راكب حتى وصل إلى مساكن بنى النضير فى جنح الليل - بأطراف المدينة - ، ونزل على « سلام بن مشكم » من سادة اليهود . فتعرّف منه أخبار المسلمين ، وتدارسا أجدى الطرق لإيذائهم والإفلات من قراهم .

واهتدى أبو سفيان إلى العمل الذى وفى به يمينه ، وحنق به غايته ؟ فهجم برجاله على ناحية يقال لها « العريض » وحرقوا أسواراً من نخيل بها ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له فى حرث لهما فقتلوهما . ثم لأذوا بالفرار عائدين إلى مكة .

وشعر المسلمون بما حدث ، فانطلقوا وراء أبى سفيان ورجاله يطاردونهم ، ويبتغون الإيقاع بهم . وأحس المشركون بالطلب فجئوا فى الهرب . والمسلمون يقطعون الصحراء خلفهم راغبين فى اللحاق بهم ، فلما أحس أبو سفيان بالخطر ، أخذ يتخفف من الأزواد التى يحملها حتى تمكن من النجاة . وعثر المسلمون فى طريق المطاردة هذه المؤن وأكثرها من السويق فسموا هذه المناوشة الطريفة ، غزوة السويق¹ .

* * *

ولم تنل قريش من هذه الغارة الفاشلة شيئاً يرفع رأسها . ففكرت أن تتجنب الصدام بالمسلمين حتى تحين الفرصة المواتية ولكن أنى لها ذلك ، وتجارتهن تمر في الغلو والرواح بالمدينة ؟ .

قال صفوان بن أمية لقريش : « إن محمداً - ﷺ - وصحبه عوروا علينا متجرنا . فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ؟ وأهل الساحل قد وادعوه ، ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسلك ؟ . وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء » فقال له الأسود بن عبد المطلب : تنكب الطريق على الساحل . وخذ طريق العراق . ودله على فرات بن حيان من بني بكر ابن وائل ليكون رائدهم في هذه الرحلة .

وخرجت عير هريش يقودها صفوان بن أمية ، آخذة الطريق الجديدة ، إلا أن نعيم بن مسعود ، قدم المدينة يحمل أنباء هذه القافلة ، وخطة سيرها . واجتمع في مجلس شرب - قبل تحريم الخمر - بسليط بن النعمان فباح له بسرها . فأسرع سليط إلى النبي ﷺ يروي له القصة ، فبعث النبي لوقته « زيد بن حارثة » في مائة راكب يعترضون القافلة .. فلقيها « زيد » عند ماء يقال له « القردة » ، فاستولى عليها كلها ، وكانت تحمل مقادير كبيرة من الفضة ، وفر المشركون مذعورين . فلم يقع في الأسر غير فرات بن حيان .

لما جيء به إلى المدينة دخل في الإسلام .

ولهذا حزن مكة لهذه النكبة الجديدة ، وزادها ذلك إصراراً على المطالبة بثأرها ، والتهيؤ للقاء المسلمين في تعبئة كاملة . فكان ذلك وما سبقه من أحداث ، التمهيد القوي لمعركة « أحد » في السنة الثالثة للهجرة .

* * *

ولا يفوتنا إذ نتابع النشاط العسكري للإسلام في سنتيه الأولين بالمدينة ، أن نذكر بعض الشؤون الهامة الأخرى . فقد توفي خنيس بن حذافة السهمي زوج حفصة ابنة عمر بن الخطاب . وهو رجل صالح ممن شهدوا بدرًا . فلما تأيمت منه ،

أراد أبوها أن يتخير لها زوجاً . قال عمر : فلقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة ، فقلت : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر !! فقال : سأنظر في أمري ! فلبث ليالي ثم لقيته فعرضت عليه . فقال : قد بدا لي ألا أتزوج ..

قال عمر : فلقيت أبا بكر فقلت له : إن شئت أنكحتك حفصة ابنة عمر ، فصمت ولم يرجع إليّ شيئاً ! فكنت عليه أوجد منى على عثمان .

فلبث ليالي فخطبها منى رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه . فلقيني أبو بكر فقال : لعلك وجدت عليّ حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئاً ؟ فقلت : نعم ، فقال : فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها . فلم أكن لأفشي سرّ رسول الله لو تركها لقبليها (٥٥) .

واتجاه الرسول ﷺ إلى مصاهرة عمر بعد مصاهرة أبي بكر . ثم تزويجه ابنته فاطمة لعلّي بن أبي طالب وتزويجه ابنته أم كلثوم لعثمان - بعد وفاة رقية - يشير إلى أن النبي ﷺ يبغي من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربعة . الذين عرف بلاؤهم وفداؤهم للإسلام ، في الأزمات التي مرّت به وشاء الله أن يجتازها بسلام .

ومن السنة الثانية للهجرة فرض صيام رمضان ، وزكاة الفطر ، وبيّنت أنصبة الزكاة الأخرى . ومن أجل ما وقع في هذه السنة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة .. قد كان هذا الانتقال مثار تغيط اليهود واستنكارهم الشديد .

كانوا - قبله - يؤملون في متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام لهم (!) ولعل أساس موادعتهم له ظنهم الإفادة منه واستغلال أنصاره ! فلما تميز الإسلام بقبلته الجديدة ، امتلأت نفوسهم باليأس . ودفعتهم خيبة الرجاء إلى تشديد الحملة على الإسلام وتبئيس السوء له .

وقد أحبط القرآن حرب الجدل التي شنها اليهود إثر تغيير القبلة .

(٥٥) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (١٤٤/٩ - ١٤٥ ، ١٥٢) والنسائي (٧٥/٢ ، ٧٦) وأحمد (رقم ٧٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٥٦) .
 ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ (٥٧) ..
 ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولَّوْا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (٥٨)

إن الله رب الأزمنة والأمكنة جميعاً . وتوجيه أمة إلى قبلة معينة ، لا يعنى انحصاراً في إحاطته ، أو قصوراً في ربوبيته . لقد كانت عودة المسلمين إلى الكعبة رجوعاً إلى الأصل الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم . وفي العودة إلى الأصل ، تنزه عن الانحرافات التي حدثت بعد من الذراري الضالين ، وخصوصاً بنى إسرائيل .



(٥٧) البقرة : ١١٥ .

(٥٦) البقرة : ١٤٢ .

(٥٨) البقرة : ١٧٧ .

(٥٩) رواه ابن هشام (١٢٦/٢ - ١٢٨) عن ابن إسحاق الزهري وعمره مرسلأ وقد وصلة أحمد (٣٥١/٣) من طريق أبي الزبير عن جابر نحوه وسنده على شرط مسلم ، غير أن أبا الزبير مدلس وقد عنعه . لكن له شاهد من حديث ابن عباس الذي أخرجه الصبهي كما في « البداية » (١١/٤) بسند حسن فالحديث صحيح وقد رواه أحمد أيضاً (رقم ٢٦٠٩) والحاكم (١٢٨/٢ - ١٢٩ ، ٢٩٦ - ٢٦٧) وصححه ووافقه الذهبي وهو حديث طويل في غزوة أحد سيأتي بعض فقراته في الكتاب .

معركة أحد

لم يهدأ بال قريش منذ غشيتها في « بدر » ما غشيتها وكان ما جَدَّ من الحوادث بعد لا يزيد أحقادها إلا ضراماً ، فلما استدارت السنة ، كانت مكة قد استكملت عدتها واجتمع إليها أحلافها من المشركين ، وانضم إليهم كل ناظم على الإسلام وأهله .

فخرج الجيش الثائر في عدد يربو على ثلاثة آلاف .

ورأى أبو سفيان قائده أن يستصحب النساء معه ، حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تُصاب حرماهم وأعراضهم ؟ وكانت الترات القديمة والغيبظ الكامن يشعل البغضاء في القلوب ، ويشف عما سوف يقع من قتال مرير .

وفي أوائل شوال من السنة الثالثة ، وصل الجيش الزاحف إلى المدينة ، فنزل قريباً من جبل « أحد » وأرسل خيله ترعي زروعها الممتدة هناك ! .

واجتمع المسلمون حول رسول الله ﷺ يتدبرون أمرهم : أ يخرجون لمقاتلة العدو في العراء ، أم يستدرجونهم إلى أزقة المدينة ، حتى إذا دخلها قاتله الرجال في الطرق ، وقاتلته النساء من فوق أسطح البيوت ؟؟ .

وقد كان رسول الله ﷺ يميل إلى الرأي الأخير ، وأيده فيه رجال من أولى النظر والرؤية . وقال عبد الله بن أبي : هذا هو الرأي ! لكن الرجال الذين لم يشهدوا بدرأ ، تحمسوا للخروج ، وقالوا : كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله ، فقد ساقه إلينا وقرب المسير ! وظاهرهم الشباب الطامح في الاستشهاد . وبدأ أن كثرة المسلمين تميل إلى البروز لملاقاة العدو . فدخل الرسول ﷺ بيته وخرج منه لابساً عدته ، متهيئاً للقتال .

وشعر القوم أنهم استكروها الرسول على رأيهم ، وأظهروا الرغبة في النزول على رأيهم ! بيد أن النبي ﷺ وجد غضاظة من الاضطراب بين شتى الآراء . فقال : « ما ينبغي لنبي لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » (٥٩) .

وقال : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأيتهم إلا الخروج . فعليكم بتقوى الله ، والصبر عند البأس . وانظروا ما أمركم به فافعلوه » (٦٠) .

ثم خرج في ألف رجل حتى نزل بـ « أحد » إلا أن عبد الله بن أبي انسحب في الطريق بثلاث الناس . قائلاً : ما ندرى علام نقتل أنفسنا ؟ ومحتجاً بأن الرسول ﷺ ترك رأيهم وأطاع غيره .. !!

فتبعهم عبد الله بن حرام - والد جابر بن عبد الله - ينصحهم بالثبات ، ويؤنهم على العودة ، ويذكرهم بواجب الدفاع عن المدينة ضد المغيرين ، إذا لم يكن لهم إيمان بالله واليوم الآخر ، وثقة بالإسلام ورسوله .

فأى « ابن أبى » الاستماع له . وفيه ومن انسحب معهم نزلت الآية : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ (٦١) .

* * *

عسكر المسلمون بالشعب من « أحد » في عدوة الوادى : جاعلين ظهرهم إلى الجبل . ورسم النبي ﷺ الخطة لكسب المعركة : فجاءت محكمة رائعة . ورع الرماة على أماكنهم وأمر عليهم عبد الله بن جبير - وكانوا خمسين رجلاً - وقال : « انضحوا الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ! إن كانت الدائرة لنا أو علينا فالزموا أماكنكم ، لا تؤتينا من قبلكم » (٦٢) !! وفي رواية قال لهم : « احموا

(٦٠) ذكره ابن كثير (١٢/٤ - ١٣) من رواية موسى بن عقبة معضلاً

(٦١) آل عمران : ١٦٧ .

(٦٢) حديث صحيح ، أخرجه ابن هشام (١٢٩/٢) عن ابن إسحاق بدون إسناد ، وله شواهد كثيرة ، ومنها البراء بن عازب أخرجه البخارى (٢٨٠/٧) وأبو داود (٤١٥/١) وأحمد (٢٩٤/٤ ، ٢٩٤) ومنها عن ابن عباس . وهو الرواية الثانية التى فى الكتاب . أخرجه أحمد والحاكم وصححه كما تقدم قريباً .

ظهورنا إن رأيتُمونا تُقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتُمونا نَغْمُ فلا تشركونا » ، واطمأن رسول الله ﷺ إلى أن فرقة الرماة قد أمنت بهذه الأوامر المشددة مؤخرة جيشه فأقبل يتعهد مقدمته . وأمر ألا ينشب قتال إلا بإذنه .

وظاهر هو نفسه بين درعين^(٦٣) ، وأخذ يتخير الرجال أولى النجدة والبأس ليكونوا طليعة المؤمنين حين يلتحم الجمعان .

إن عدد المسلمون على الربع من المشركين ، ولن يعوض هذا التفاوت إلا الأشخاص الذين يوزنون بالألوف وهم آحاد .

روى ثابت^(٦٤) عن النبي ﷺ أنه أمسك يوم « أحد » بسيف ثم قال : « من يأخذ هذا السيف بحقه » ؟ فأحجم القوم . فقال أبو دجاجة : أنا أخذه بحقه ، فأخذه ففلق به هام المشركين ، قال ابن إسحاق : كان أبو دجاجة رجلاً شجاعاً يخال عند الحرب ، وكانت له عصاة حمراء إذا اعتصب بها ، علم أنه سيقاتل حتى الموت ، فلما أخذ السيف من رسول الله ﷺ تعصب وخرج يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكيول أضرب بسيف الله والرسول

ويعنى بعدم قيامه فى الكيول . ألا يقاتل فى مؤخرة الصفوف ، بل يظل أبداً فى المقدمة .

ثم تدانت الفتتان وأذن النبي ﷺ لرجاله أن يجالدوا العدو ، وبدأت مراحل القتال الأولى تثير الغرابة . كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم ، لا بضع مئات قلائل ! وظهر المسلمون فى أعلى صور الشجاعة واليقين .

(٦٣) حديث صحيح ، أخرجه الحاكم (٢٥/٣) وعنه البيهقى (٤٦/٩) من حديث الزبير بن العوام . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وهو حسن الإسناد عندي وأخرجه الترمذى (٢٨/٣) واستغربه . وله شواهد كثيرة ، منها : عن السائب بن يزيد عن رجل قد سماه . أخرجه أبو داود (٤٠٤/١) والبيهقى . وبقية الشواهد تراجع فى « المجموع » (١٠٨/٦ - ١٠٩) .

(٦٤) كذا وقع فى تاريخ ابن كثير (١٥/٤) معزواً لأحمد ، فنقله المؤلف كذلك وإنما هو عن ثابت عن أنس ، كذلك أخرجه أحمد (١٢٣/٣) ومسلم أيضاً (١٥١/٧) .

خرج حنظلة بن أبى عامر من بيته حين سمع هواتف الحرب ، وكان حديث عهد بعرس ، فانخلع من أحضان زوجته ، وهرع إلى ساحة الوغى حتى لا يفوته الجهاد .

إن حادى التضحية كان أملك لنفسه وأملاً لحسه من داعي اللذة . فاستشهد البطل وهو جنب !! .

وسادت روح الإيمان الخوض صفوف المجاهدين ، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان ، تقطعت أمامه السدود .

وقف طلحة بن أبى طلحة البدرى حامل لواء قریش يتحدى ، داعياً إلى البراز ، فوثب إليه الزبير بن العوام حتى صار معه على جملة ، ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه وذبحه بسيفه !! .

وأقبل أبو دجانة معلماً بعصابته الحمراء لا يلقي مشركاً إلا قتله ، وكان أحد المشركين قد شغل نفسه بالإجهاز على جرحى المسلمين في المعركة ، قال كعب ابن مالك : وإذا رجل من المسلمين ينتظره وعليه لامته فمضيت حتى كنت من ورائه ثم قمت أقدر المسلم والكافر ببصرى ، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة ، فلم أزل حتى التقياً فضرب المسلم الكافر على حبل عاتقه ضربة بالسيف ، فبلغت وركه ، وتفرق فرقتين !! ثم كشف المسلم عن وجهه وقال : كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دجانة .

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليث المهتاجة . وصد حملة اللواء من بنى عبد الدار ، فاقتنص أرواحهم فرداً فرداً .

قال « وحشى » غلام جبير بن مطعم : قال لى جبير : إن قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق ، قال : فخرجت مع الناس ، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبيشة قلماً أخطيء بها شيئاً . فلما التقى الناس ، خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته كأنه الجمل الأورق ، يهد الناس بسيفه هدأً ، ما يقوم له شيء !! فوالله إني لأتھيا له أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه سباع

ابن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال : هلم إلئى يا ابن مقطعة البظور .. قال : فضربه كأنما اختطف رأسه . فهزرت حربتى ، حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه ، فوقعت فى ثنته - أحشائه - حتى خرجت من بين رجله ، وذهب لينوء نحوى فغلب ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتى ورجعت إلى المعسكر فقعدت فيه . إذ لم تكن لى بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق .

ومع الخسارة الفادحة التى نالت المسلمين بقتل حمزة . فإن جيشهم الثقيل ظل مسيطراً على الموقف كله . وحمل لواء المسلمين فى هذا القتال « مصعب بن عمير » الداعية العظيم فلما استشهد حمل اللواء « على بن أبى طالب » واستبق المهاجرون والأنصار فى ميدان الشرف ، وأخذ اللواء الإسلامى يتقدم خطوة خطوة . وشعار المسلمين فى هذا الالتحام « أمت أمت » . وكانت نسوة قريش دائبات على استنهاض رجالهن ، يضربن بالدفوف ، ويحرضن على القتال ، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان .

فكانت تقول - حاتة بنى عبد الدار على أبقاء لواء مكة مرفوعاً :

ويهاً بنى عبد الدار ويهاً حماة الأدبار
ضرباً بكل بتار !!!

وتؤز قومها على القتال منشدة :

إن تقبلوا نعانق ونفـرش الثمارق !!
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق !!

وقد بذلت قريش أقصى جهدها لتحطيم عنفوان المسلمين . لكنها أحست العجز وانكسرت همتها أمام ثبات المسلمين وإقدامهم .

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله نصره وصدق وعده ، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها .

روى عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم - سوق - هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ، ما دون أخذهن قليل ولا كثير ..

قد يجد المرء نفسه في حفل يموج بالأنوار ، وتنتشر في أجوائه الأشعة المبصرة
ثم يقع خلل مفاجيء يقطع التيار ، فإذا المصابيح تعتم ، ثم يسود المكان ظلام موحش
سقيم ! .

إن هذا مثل التحول المستنكر الذى قلب سير الحوادث في (أحد) .

لحظة يسيرة من لحظات الضعف الإنساني عرضت لفريق من الجند ، فأوقعت
الارتباك في صفوف الجيش كله ، فضاعت في ساعة نزع كل المكاسب التي أحرزتها
الشجاعة النادرة ، والتضحية البالغة ! .

لقد علمت كيف شدّد الرسول عليه الصلاة والسلام على الرماة أن يلزموا
أماكنهم صيانة لمؤخرة المسلمين ، وأوصاهم ألا يبرحوها أبداً ، ولو رأوا الجيش
تتخطفه الطير ؟ غير أن أثارة من حب الدنيا عصفت بهذه الوصاية في ساعة غفلة ؟
فما أن رأى الرماة الهزيمة حلت بقريش والنساء يهمن في الجبل ، والرجال يُؤلّون
الأدبار ، والغنائم التي خلفها ثلاثة آلاف مشرك تزحم الوادى .. حتى غادروا
مواقعهم هابطين إلى الميدان ، يغنون إمتهاب أنصبتهم من الأسلاب والأموال ! .

وكان فرسان المشركين بقيادة (خالد بن الوليد) محصورين ، لا يجدون ثغرة
ينفذون منها إلى قلب المسلمين إلى أن حلت الهزيمة ، فلما رأى خالد أن مؤخرة
المسلمين انكشفت . فلم يبق عليها حارس ، اهتبل الفرصة على عجل ، فاستدار
بالخيل وأحرق بخصومه منحدرًا عليهم من حيث لا يحتسبون . ورأى الفارون من
قريش بوادر هذا التغير الطارىء ، فتراجعوا حتى أن امرأة تدعى عمرة بنت علقمة
الحارثية ، هي التي رفعت لواء قريش من التراب بعد أن سقط وصُرع حملته ! وثاب
المشركون إلى رأيهم وخيالتهم . فأحيط بالصحابة من الأمام والخلف ووقعوا بين
شقى الرحى ..

على أن الرجال الأحرار لا يُصادون بسهولة ، إنهم شدهوا لما حدث .

ولكنهم أخذوا يقاتلون بحرارة ، وإن كان هدفهم هذه المرة أن ينجوا
فحسب ! أن يصروا طريقاً يخلصهم من هذا المأزق العضوض ! .

واستشهد كثير وهم يحاولون شق طريقهم . واستطاع المشركون أن يخلصوا قريباً من النبي . فرماه بحجر كسر أنفه ورباعيته وشجه في جبهه فأثقله وتفجّر منه الدم^(٦٥) . وشاع أن محمداً قتل ، فتفرق المسلمون ، ودخل بعضهم المدينة ، وانطلقت طائفة فوق الجبل واختلطت على الصحابة أحوالهم فما يدرون كيف يفعلون ..

إلا أن النبي ﷺ جعل يصيح بالمؤمنين : إلى عباد الله . إلى عباد الله ! فاجتمع إليه نحو من ثلاثين رجلاً ، غير أن المشركين بصروا بهم فهاجمهم ! ووقف طلحة بين عبيد الله ، وسهل بن حنيف ، إلى جوار الرسول عليه الصلاة والسلام . فأصيب طلحة بسهم في يده فشلها .

وأقبل أئى بن خلف الجمحى على النبي عليه الصلاة والسلام وكان قد حلف . أن يقتله وأيقن أن الفرصة سانحة فجاء يقول : يا كذاب أين تفر ؟ وحمل على الرسول بسيفه .

فقال النبي : بل أنا قاتله إن شاء الله . وطعنه في جيب درعه طعنة وقع منها يخور خوار الثور ، فلم يلبث إلا يوماً أو بعض يوم حتى مات^(٦٦) .

ومضى النبي ﷺ يدعو المسلمين إليه ، واستطاع - بالرجال القلائل الذين معه - أن يصعد فوق الجبل ، فانحازت إليه الطائفة التي اعتصمت بالصخرة وقت الفرار .

وفرح النبي عليه الصلاة والسلام أن وجد بقية من رجاله يمتنع بهم ، وعاد هؤلاء صوابهم إذ وجلوا الرسول حياً ، وهم يحسبونه مات .

(٦٥) رواه ابن جرير في تاريخه عن السدى مرسلاً كما في « البداية » (٢٣/٤) . وكسر رباعيته ﷺ وشج رأسه ثابت في مسلم (١٧٩/٥) من حديث أنس ، ورواه البخارى (٢٩٢/٧) معلقاً .
(٦٦) هو من حديث السدى المتقدم . وقال ابن كثير : إنه غريب جداً وفيه نكارة لكن هذا القدر وهو قصة قتله ﷺ لأئى بن خلف له شاهد من رواية أئى الأسود عن عروة بن الزبير ومن رواية الزهرى عن سعيد ابن المسيب كما في « البداية » (٣٢/٤) وكلاهما مرسل .

ويبدو أن إشاعة قتل النبي سرت على أفواه كثيرة ، فقد مر أنس بن النضر بقوم من المسلمين ألقوا أيديهم وانكسرت نفوسهم فقال : ما تنتظرون ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ ! فقال : وما تصنعون بالحياة بعده ؟ . قوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل المشركين فمازال يقاتلهم حتى قُتل

ولم تتوان قريش من جانبها في مهاجمة الرسول ومن انحاز إليه من أصحابه بغية الإجهاز عليه وعليهم . ومرت ساعة عصيبة من أخرج الساعات في تاريخ الدنيا ، وفرسان المشركين ورماتهم يحملون - بعناد وإلحاح - لتحقيق أمنيته . فقتل بين يدي النبي خلق كثير وهم ينافحون دونه ، جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه ، ثم سقط بين حى وميت ، وترس عليه أبو دجانة بظهره فكان النبل يقع فيه وهو لا يتحرك .

روى مسلم أن رسول الله ﷺ أفرد يوم « أحد » في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما أرهقه المشركون قال : من يردهم عنى وله الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قُتل ! ثم أرهقه : فقال : من يردهم عنى وله الجنة ؟ فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعة . فقال رسول الله : « ما أنصفنا أصحابنا » - يعنى من فروا وتركوه ! .

وتركت هذه الاستماتة أثرها ، ففترت حدة قريش في محاولة قتل الرسول وثاب إليه أصحابه من كل ناحية وأخذوا يلومون شملهم ويزيلون شعثهم ! . وأمر النبي صحبه أن ينزلوا قريشاً من القمة التي احتلوها في الجبل قائلاً : ليس لهم أن يعلنوا . فحصبوهم بالحجارة حتى أجلوهم عنها^(٦٧) .

* * *

إن الإفلات من عواقب هذا الإنكسار الشنيع عمل لا يقل - في خطره - عن الانتصار الأول وقد اتجه عزم الرسول إلى بذل كل جهد ممكن في سبيل مقاومة قريش

(٦٧) هو من حديث السدى المتقدم .

حتى لا تظفر بشيء ما غنيمة باردة ، بل حتى تثقل بها مغارمها فلا تطمع في مزيد من إيذاء المسلمين فكان ينثل السهام من كنانته ويعطيها سعد بن أبي وقاص ويقول . « ارم فذاك أبى وأمى » (٦٨) . وكان أبو طلحة الأنصارى رامياً ماهراً في إصابة الهدف قاتل دون رسول الله فكان إذا رمى رفع رسول الله ﷺ شخصه ينظر أين يقع سهمه ويرفع أبو طلحة صدره قائلاً : هكذا بأبى أنت وأمى ، لا يصيبك سهم ، نحري دون نحرك (٦٩) ويقول : إني جلد يا رسول الله فوجهني في حوائجك ومرى بما شئت !! وقد نجح الرماة حول رسول الله ﷺ في رد المشركين الذين حاولوا صعود الجبل وبذلك أمكن المسلمين الشاردين أن يلحقوا بالنبي ومن معه .

إلا أنهم جاءوا وكأنا خرجوا من عماية ، حتى أن بعضهم - من فرط الغيظ والذهول - قاتل أمامه لا يدرى من يقاتل ، فقاتل الإيمان والد الصحابي المعروف حذيفة وصرخ حذيفة : أبى أبى ! دون جدوى .

ولما تجمعت فلول المسلمين بعد هذا الكر والفر كان الإعياء قد نال منهم أى منال لولا أن الله قذف في قلوبهم السكينة . وأعاد إليها - بعد هذا الزلزال - الأمل والثقة فسكنوا حول رسول الله ﷺ يرقبون ما يجد . وداعب الكرى أجفان البعض من طول التعب والسهر ، فإذا أغفى وسقط من يده السيف عاودته اليقظة فتأهب للعراك من جديد ! وهذا من نعمة الله على القوم .

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاساً يَغْشِي طَآئِفَةً مِّنْكُمْ ﴾ (٧٠) .

ولم تكن قريش أقل من المسلمين معاناة لأهوال ذلك اليوم العصيب .

فقد تعبت جد التعب في الجولة الأولى فلما أذيل لها أن تجعل المعركة حاسمة قاصمة وجدت المسلمين أصلب عوداً . دون إفنائهم صعب لا تستطيع احتمالها فاكثفت مما ظفرت بالإياب .

(٦٨) رواه البخارى (٢٨٧/٧) من حديث سعد .

(٦٩) رواه البخارى (٢٨٩/٧ - ٢٩٠) من حديث أنس . وكذلك أخرجه أحمد (١٠٥٣ ، ٢٦٥ ،

٢٨٦) وعنده في رواية قول أبى طلحة : « إلى جلد .. » .

(٧٠) آل عمران : ١٥٤ .

وظن المسلمون - لأول وهلة - أن قريشاً تنسحب لتهاجم المدينة نفسها .
فقال النبي عليه الصلاة والسلام لعليّ بن أبي طالب : « اخرج في آثار القوم ،
فانظر ماذا يصنعون ؟ فإن هم جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن
ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة . فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها
لأسيرن إليهم ثم لأنجزنهم فيها » .

قال علي : فخرجت في آثارهم فرأيتهم جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل واتجهوا إلى
مكة (٧١) .

قال ابن إسحاق : ثم إن أبا سفيان حين أراد الإنصراف أشرف على الجبل ثم
صرخ بأعلى صوته : أنعمت ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، أعل هبل .
فقال رسول الله لعمر : قم يا عمر فأجبه فقل : الله أعلى وأجل . لا سواء :
قتلانا في الجنة وقتلناكم في النار .

فقال له أبو سفيان : هلم إليّ يا عمر .

فقال رسول الله لعمر : ائته فانظر ما شأنه .. فجاءه .

فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر .. أقتلنا محمداً ؟ .

فقال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن قال : أنت عندى أصدق
من ابن قميئة - وهو الذي زعم أنه قتل النبي .

ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان في قتلاكم مثله ، والله ما رضيت
ولا سخطت وما نهيت ولا أمرت (٧٢) .

(٧١) رواه ابن هشام (١٤٠/٢) عن ابن إسحاق ببلون إسناد .

(٧٢) حديث صحيح أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وإسناده حسن كما تقدم في
أول معركة أحد : وله شاهد من حديث البراء عند البخاري وغيره وقد سبق تخريجه قريباً . وشاهد آخر من
حديث ابن مسعود أخرجه أحمد (رقم ٤٤١٤) وفيه حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب وقد ينع منه في حالة
الاختلاط كما سمع عنه قبلها ، ولهذا قال الحافظ ابن كثير (٤ / ٤١) : (هذا إسناد فيه ضعف) وهذا هو =

ولما انصرف أبو سفيان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل ، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : « قل : نعم هو بيننا وبينك موعد » (٧٣) .



= الصواب خلافاً لقول الشيخ أحمد محمد شاكير: أنه صحيح ، ذهل عنا ذكر من سماعه منه في الاختلاط . وقد صحح فضيلة الشيخ كثيراً من الأحاديث في تعليقه على المسند وغيره . كلها من هذا الطريق . فليتبه لهذا . (٧٣) لم أجده الآن عن غير ابن إسحاق .

عبر المحنة

موقعة «أحد» فياضة بالعظات الغوالي والدروس القيمة . وقد نزلت في أدوارها وحوادثها ونتائجها آيات طوال وكان لها في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام أثر عميق ظل يذكره إلى قبيل وفاته . كانت امتحاناً ثقیلاً الوطأة محض السرائر ومزق النقاب عن مخبئها . فامتاز النفاق عن الإيمان بل تميزت مراتب الإيمان نفسه فعرف الذين ركلوا الدنيا بنعالم فلم يعرجوا على مطمع من مطامعها والذين مالوا إليها بعض الميل فنشأ عن أطماعهم التافهة ما ينشأ عن الشرر المستصغر من حرائق مروعة .

بدأت المعركة بانسحاب ابن أبي ، وهو عمل ينطوى على استهانة بمستقبل الإسلام وغدر به في أخرج الظروف . وتلك أبرز خسائس النفاق .

والدعوات - إبان امتدادها وانتصارها - تُغرى الكثير بالانضواء تحت لوائها ، فيختلط المخلص بالمغرض ، والأصيل بالدخيل . وهذا الاختلاط مضر أكبر الضرر بسير الرسائل الكبيرة وإنتاجها .

ومن مصلحتها الأولى أن تصاب برجات عنيفة تعزل الخبث عنها وقد اقتضت حكمة الله أن يقع هذا التمحيص في أحد .

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ (٧٤) .

(٧٤) آل عمران : ١٧٩ .

فالجبن والنكوص هما اللذان كشفا عن طوبة المنافقين ، فافتضحوا ، أمام أنفسهم وأمام الناس قبل أن تعلن عن نفاقهم السماء .

فإذا تجاوزت السفوح التي يدب عليها أولئك المنافقون ، وثبت إلى ذرا شاحنة للإيمان البعيد الغور . النقى العنصر . يتمثل في مرحلة الهجوم المظفر الذي ابتداء به القتال . ثم مرحلة الدفاع النبيل الهائل الذي حمل المسلمون عبئه . عندما ارتدت الكرة للمشركين ، ورجحت كفتهم .

إن الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم ويوجهون زمامه بعزماهم ، هم الذين صلوا هذه الحرب ، وحفظوا بها مصير الإسلام في الأرض .

روى أن « أبا خيثمة » قُتل ابنه في معركة « بدر » فجاء إلى رسول الله ﷺ يقول : لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت - والله - عليها حريصاً ، حتى ساهمت ابني في الخروج ، فخرج - في القرعة - سهمه . فرزق الشهادة . وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة ، يسرح في ثمار الجنة ، وأنهارها . يقول : إلحق بنا ترافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً .

ثم قال : وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقاً إلى مرافقته ، وقد كبرت سني ورق عظمي ، وأحببت لقاء ربي : فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة ابني خيثمة في الجنة .. فدعا الرسول عليه الصلاة والسلام له . فقتل بـ « أحد » شهيداً^(٧٥) .

وكان « عمرو بن الجموح » أعرج شديد العرج . وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ فلما توجه إلى « أحد » أراد أن يخرج معه . فقال له بنوه : إن الله جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ! وقد وضع الله عنك الجهاد .

فأتى عمرو رسول الله ﷺ . فقال : إن بني هؤلاء يمنعونني أن أجاهد معك ، والله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ :

(٧٥) لم أقف عليه الآن .

« أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد » ، وقال لبيته : « وما عليكم أن تدعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة » ؟ فخرج مع رسول الله ﷺ ، فقتل يوم أحد شهيداً^(٧٦) .

وقال نعيم^(٧٧) بن مالك : يا نبي الله لا تحرمنا الجنة - وذلك قبل نشوب القتال - فوالذي نفسى بيده لأدخلنها ، فقال له رسول الله ﷺ : « بم » ؟ قال : بأني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف . فقال له رسول الله ﷺ : « صدقت » . واستشهد يومئذ ..

وقال عبد الله بن جحش في ذلك اليوم : اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غداً فيقتلوني ثم يبقروا بطني ، ويجدعوا أنفى وأذنى ثم تسألنى : فيم ذلك ؟ فأقول : فيك^(٧٨) ؟ .

هذه صورة للرجولة الفارعة التي اصطدم بها الكفر أول المعركة وآخرها فماد أمامها ، واضطربت من تحت أقدامه الأرض ، فما ربح شيئاً في بداية القتال ، ولا انتفع بما ربح آخره .

وهذا اللون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامي القائم إلى اليوم . وما يقوم للإسلام صرح ، ولا ينكشف عنه طغيان ، إلا بهذه القوى المذخورة المضغوطة في أفئدة الصديقين والشهداء ..

من سر هذا الإلهام ؟ من مشرق هذا الضياء ؟ من مبعث هذا الاقتدار ؟ .

(٧٦) رواه ابن هشام (١٣٩/٢) عن ابن إسحاق قال : وحدثني أبي إسحاق بن يسار عن أشياخ من بنى سلعة به ، وهذا سند حسن إن كان الأشياخ من الصحابة ، وإلا فهو مرسل . وبعضه في المسند (٢٩٩/٥) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه وزاد : « فقتلوا يوم أحد ، هو وابن أخيه ومولى لهم ، فمر عليه رسول الله ﷺ فقال : « كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة » وسنده صحيح .

(٧٧) الصواب « النعمان بن مالك » وفي ترجمته أورد هذا الحديث الحافظ في « الإصابة » من طريق السدى . فهو مرسل .

(٧٨) أخرج هذا الأثر الحاكم (١٩٩/٣ - ٢٠٠) من طريق سعيد بن المسيب : قال : « قال عبد الله ابن جحش ... » وقال : « صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه » ووافقه الذهبي قلت : لكن له شاهد موصول وأخرجه البغوي كما في « الإصابة » من طريق إسحاق بن سعد بن أبي وقاص : حدثني أبي أن عبد الله ابن جحش قال : ... فذكره بنحوه وزاد في آخره : قال سعد : « فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه معلقتان في خيط » .

إنه محمد ، إنه هو الذى رى ذلكم الجليل الفذ ، ومن قلبه الكبير أترعت هذه القلوب ، تفانياً فى الله ، وإيثاراً لما عنده .

وقد أصيب هذا النبى الجليل فى « أحد » أصيب فى بدنه إذ دخل حلقات المغفر فى وجهه . فأكب عليه أبو عبادة يعالج انتزاعها بفمه ، فما خلصت من لحمه حتى سقطت معها ثنيتاه^(٧٩) . ونزف الدم - بغزارة - من جراحته ، كلما سكب عليه الماء إزداد دفقاً ، فما استمسك حتى أحرقت قطعة من حصىر فالصقت به^(٨٠) .

وكسرت كذلك رباعيته ، وكسرت البيضة على رأسه . ومع ذلك فقد ظل متقد الذهن ، يوجه أصحابه إلى الخير حتى انتهت المعركة .

ثم أصيب فى أهله ، فقتل « حمزة » بحربة انغrust فى أحشائه ، وجاءت « هند » امرأة أبى سفيان ، فاستخرجت كبده من بطنه ، ولاكتها بفمها ثم لفظتها لانفجار المرارة .

وقد كان رسول الله ﷺ يعز « حمزة » ويحبه أشد الحب ، فلما رأى شناعة المثلة فى جسمه ، تألم أشد الألم ، وقال : « لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت قط موقفاً أغيظ إلى من هذا »^(٨١) ، بيد أن التسليم لله لم يلبث أن مسح الأحزان العارضة ، وعاد رسول الله ﷺ يتفقد أصحابه ويخفف ما نزل بهم ، ويسكب من إيمانه على نفوسهم ما يملؤها عزاء ورضاً عن الله واستكانة لقضائه^(٨٢) .

(٧٩) ذكره ابن هشام (١٣٥/٢ - ١٣٦) من طريق إسحاق بن يحيى بن طلحة عن عيسى بن طلحة عن عائشة عن أبى بكر وقد وصله الطيالسي (٩٩/٢) فقال : حدثنا ابن المبارك عن إسحاق به وكذلك وصله الحاكم (٢٦/٣ - ٢٧) - ووقع فى سنده تحريف - وقال : « صحيح الإسناد » فتعقبه الذهبى بقول : « قلت : إسحاق متروك » وكذا قال الهيثمى (١١٢/٦٠) بعد أن عزاه البزار .

(٨٠) حديث صحيح أخرجه البخارى (٢٩٨/٧) ومسلم (١٧٨/٥) وغيرهما من حديث سهل ابن سعد .

(٨١) هو من حديث سهل بن سعد المتقدم آنفاً .

(٨٢) حديث لا يصح ، ذكره ابن هشام (١٤١/٢) بدون إسناد ، ولم أجده عند غيره وقد نقله عنه الحافظ ابن كثير (٤٠/٤) وابن حجر فى « الفتح » (٢٩٧/٧) ولم يوصله .

روى الإمام أحمد^(٨٣) : لما كان يوم أحد ، وانكفاً المشركون قال رسول الله ﷺ : « استووا حتى أثنى على ربي عز وجل » .

فصاروا خلفه صفوفاً فقال : « اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ولا مبعد لما قربت . اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك .

اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول . اللهم إني أسألك العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف . اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين . اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب . إله الحق » ...

* * *

ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في « أحد » على عكس ما نزل في « بدر » من آيات ، ولا غرو فحساب المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر . في المرة الأولى قال :

﴿ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَا كِتَابَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(٨٤) .

(٨٣) في المسند (٢٤/٣) والحاكم أيضاً (٥٠٧/١ ، ٢٣/٣ - ٢٤) وقال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين » قلت : إنما هو صحيح فقط فإن فيه عيب بن رفاعه ولم يخرج له الشيخان ومن أخطاء الدهس أنه في حد الموضوعين وافق الحاكم على تصحيحه وفي الموضوع الآخر قال : « والحديث مع نظافة إسناده مكر » كذا قال : ولم أعرف لقوله وجهاً والله أعلم .
(٨٤) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨ .

أما في « أحد » فقال :

﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٥) .

حسب المخطئون ما لحقهم من أضرار الهزيمة ، وفي القصص العاجل درس يذكر المخطيء بسوء ما وقع فيه .

وقد اتجهت الآيات إلى مزج العتاب الرقيق بالدرس النافع وتطهير المؤمنين ، حتى لا يتحول انكسارهم في الميدان إلى قنوط يفل قواهم ، وحسرة تشل إنتاجهم ..

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ . هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٦) .

ثم مضى الوحي يعلم المسلمين ما جهلوا من سنن الدين والحياة . أو يذكرهم بما نسوا من ذلك . فبين أن المؤمن - مهما عظمت بالله صلته - فلا ينبغي أن يغتر به أو يحسب الدنيا دانت له أو يظن قوانينها الثابتة طوع يديه .

كلا كلا . فالحذر البالغ والعمل الدائم هما عدتا المسلم لبلوغ أهدافه المرسومة ، ويوم يحسب المسلم أن الأيام كلها كتبت له ، وأن شيئاً منها لن يكون عليه ، وأن أعجاد الدارين تنال دون بذل التكاليف الباهظة ، فقد سار في طريق الفشل الذريع .

﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (٨٧) .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٨٨) .

(٨٦) آل عمران : ١٣٧ - ١٣٩ .

(٨٨) آل عمران : ١٤٢ .

(٨٥) آل عمران : ١٥٢ .

(٨٧) آل عمران : ١٤٠ .

وأولوا الألباب يستحيون أن يطلبوا السلعة الغالية بالثمن التافه وهم يبدون استعدادهم للتضحية بأنفسهم لقاء ما ينشغلون . بيد أن الاستعداد أيام الأمن يجب ألا يزول أيام الروع .

إن الإنسان - في عافيته - قد يتصور الأمور سهلة مبسطة ، وقد يتأدى به ذلك إلى المجازفة والخذاع .

فليحذر المؤمن هذا الموقف . وليستمع إلى تأنيب الله لمن تمنوا الموت ، ثم حادوا عنه لما جاء .

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ (٨٩) .

ثم عاتب الله عز وجل من سقط في أيديهم ، وانكسرت همتهم ، لما أشيع أن الرسول عليه الصلاة والسلام مات ، ما كذلك يسلك أصحاب العقائد ! إنهم أتباع مبادئ لا أتباع أشخاص .

ولو افترض أن الرسول ﷺ قُتل وهو ينافح عن دين الله ، فحق على أصحابه أن يثبتوا في مستنقع الموت ، وأن يردوا المصير نفسه ، الذى ورده قائلهم ، لا أن ينهاروا ويتخاذلوا .

إن عمل محمد عليه الصلاة والسلام ينحصر في إضاعة الجوانب المعتمدة من فكر الإنسان ومصيره . فإذا أدى رسالته ومضى ، فهل يسوغ للمستشير أن يعود إلى ظلماته فلا يخرج منها ! .

لقد جمع محمد الناس حوله على أنه عبد الله ورسوله ، والذين ارتبطوا به ، عرفوه إماماً لهم في الحق ، وصلة لهم بالله .

فإذا مات عبد الله ، ظلت الصلة الكبرى بالحى الذى لا يموت ، باقية نامية .

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (٩٠) .

وقد استطرد النظم الكريم يُبصر المؤمنين بمواطن العبرة فيما نالهم ، ويعلمهم كيف يتقون في المستقبل هذه المآزق ، ويتنزه هذه الكبوة العارضة ليعزل عن جماعة المسلمين من خالطوهم على دخل ، وعاشروهم على نفاق .

ولئن أفادت وقعة « بدر » في خذل الكافرين ، إن وقعة « أحد » أفادت مثلها في فضح المنافقين ، ورُب ضارة نافعة ، وربما صحت الأجسام بالعلل .

ولعل ما ترتب على عصيان الأوامر في هذه الموقعة ، درس عميق يتعلم منه المسلمون قيمة الطاعة . فالجماعة التي يحكمها أمر واحد ، أو التي تغلب على أفرادها وطوائفها النزعات الفردية النافرة لا تنجح في صدام ، بل لا تشرف نفسها في حرب أو سلام .

والأهم كلها . مؤمنها وكافرها ، تعرف هذه الحقيقة ، ولذلك قامت الجندية على الطاعة التامة ، وعندما تشتبك أمة في حرب ، تجعل أحزابها جبهة واحدة وأهواءها رغبة واحدة ، وتخدم كل تمرد أو شذوذ ينجم في صفوفها .

وإحسان الجندية كإحسان القيادة ..

فكما أن إصدار الأوامر يحتاج إلى حكمة ، فإن إنفاذها يحتاج إلى كبح وكبت ولكنى عقبى الطاعة في هذه الشؤون ، تعود على الجماعة بالخير الجزيل .

وأسرع الناس إلى الشغب والتمرد ، من أقصوا من الرئاسة وهم إليها طامحون . وكان عبد الله بن أبي مثلاً لهذه الفئة التي تضحي بمستقبل الأمة في سبيل أطماعها الخاصة .

(٩٠) آل عمران : ١٤٤ .

أما الرماة الذين عصوا الأوامر بلزوم أماكنهم مهما كانت أطوار القتال فقد مرت بهم فترة ضعف وذهول ، تيقظت - خلالها - بقية في أنفسهم من حب الدنيا ، والإقبال على عرضها الزائل فكان أثر ذلك ما كان .

وذلك لما دُهِش المسلمون للكارثة التي قلبت عليهم الأمور ، بين الله لهم أنهم هم مصدرها ، فما أخلفهم موعداً ، وظلمهم حقاً :

﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أَلَيْسَ هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٩١) .

إن الإسلام يشترط لكمال العمل وقبوله الإيمان والاحتساب ، والتجرد .



(٩١) آل عمران : ١٦٥ .

شهداء أحد

أخذت قريش طريقها إلى مكة وقد استخفها النصر الذي أحرزته .
 إنها طارت به على عجل ، كأنها غير واثقة مما نالت بعد الهزيمة التي حاقت بها
 أول القتال !! .
 وأقبل المسلمون يتحسسون مصابهم في الرجال . ويجهّزون القتلى لمضاجعهم
 التي يبرزون منها للقاء الله يوم يُنفخ في الصور .

روى ابن إسحاق^(٩٢) أن رسول الله ﷺ قال : « من رجل ينظر لى ما فعل
 سعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء أم فى الأموات » ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا .
 فنظر ، فوجده جريحاً فى القتلى وبه رمق . فقال له : إن رسول الله ﷺ أمرنى أن
 أنظر ، أفى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟ . فقال : أنا فى الأموات ، فأبلغ رسول الله

(٩٢) أخرجه أحمد من طريق محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة المازنى مصرحاً بسماعه منه
 مرفوعاً به ، كما فى سيرة ابن هشام (١٤٠/٢ - ١٤١) وهذا إسناد معضل وقد رواه الحاكم (٢٠١/٣) من
 طريق محمد بن إسحاق : أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة حدثه عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : ...
 فذكره . وأنا أخشى أن يكون سقط من السند « محمد » ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن إسحاق ، وعبد الله
 ابن عبد الرحمن فإنهم لم يذكروا ابن إسحاق فى الرواة عن عبد الله بن عبد الرحمن وعليه يكون الحديث مرسلأ وبه
 أعله الذهبى لأن عبد الله هذا تابعى وأما أبوه عبد الرحمن بن أبى صعصعة فصحاحى فلو أن سند الحاكم سلم من
 السقط لكان الحديث متصلاً ولما أعله الذهبى بالإرسال والله أعلم . والحديث رواه مالك فى الموطأ (٢١/٢)
 عن يحيى بن سعيد به معضلاً ، ونقل السيوطى فى « تنوير الحوالك » عن ابن عبد البر قال : « هذا الحديث
 لا أحفظه ولا أعرفه إلا عند أهل السير فهو عندهم مشهور معروف » قلت : قد رواه الحاكم أيضاً من حديث زيد
 ابن ثابت قال : بعثنى رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع ... وقال الحاكم : « صحيح الإسناد »
 ووافقه الذهبى ، وفى سنده أبو صالح عبد الرحمن بن عبد الله الطويل ، ولم أجد الآن ترجمته .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلامي ! وقل له : إن « سعد بن الربيع » يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ! وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم : إن « سعد بن الربيع » يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف . قال : ثم لم أبرح حتى مات ، وجئت النبی علیه الصلاة والسلام فأخبرته خبره .

وأمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدفن الشهداء حيث قُتلوا . ورفض أن يُنقلوا إلى مقابر أسرهم .

قال جابر بن عبد الله : لما كان يوم أحد جاءت عمتي بأبي لتدفنه في مقابرنا ، فنادی منادی رسول الله : ردوا القتلى إلى مضاجعهم^(٩٣) .

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجمع بين الرجلين من قتلى « أحد » في ثوب واحد . ثم يقول : « أيهم أكثر أخذاً للقرآن » ؟ فإن أشير على أحدهما قدمه في اللحد ، وقال : « أنا شهيد على هؤلاء » وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصل عليهم ، ولم يغسلهم^(٩٤) .

ولم انصرف عنهم قال : « أنا شهيد على هؤلاء ، ما من جريح يجرح في سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه ، اللون لون الدم ، والريح ريح مسك »^(٩٥) .

* * *

(٩٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٦٣/٢) والنسائي (٢٨٤/١) وابن ماجه (٢٦٤/١) وأحمد (٢٩٧/٣ ، ٣٠٧ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨) بسند صحيح عن جابر .
 (٩٤) حديث صحيح أخرجه البخاري (١٦٣/٣ - ١٦٥ ، ١٦٩ ، ٣٠٠/٧) والنسائي (٢٧٧/١) والترمذي (١٤٨/٢) وصححه ، وابن ماجه (٤٦١/١) وأحمد (٤٣١/٥) من حديث جابر أيضاً .
 (٩٥) حديث صحيح أخرجه أحمد (٤٣١/٤ ، ٤٣٢) وابن هشام (١٤٢/٢) كلاهما من طريق ابن إسحاق : حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعب العذري مرفوعاً . وهذا سند صحيح وابن صعب صحابي صغير فهو مرسل صحابي وهو حجة . وكذلك أخرجه البيهقي (١١/٤) من طريق ابن عيينة عن الزهري به وأخرجه أيضاً من طريق أخرى عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه به . وإسناده صحيح أيضاً .

إن معركة «أحد» تركت آثاراً غائرة في نفس النبي عليه الصلاة والسلام ظلت تلازمه إلى آخر عهده بالدنيا . في هذا الجبل الداكن الجاثم حول يثرب «أودع» محمد ﷺ أعز الناس عليه وأقربهم إلى قلبه . فالصفوة النقية التي حملت أعباء الدعوة ، وعادت في سبيل الله الأقرين والأبعدين ، واغتربت بعقائدها قبل الهجرة وبعدها ، وأنفقت وقاتلت ، وصبر وصابرت ، هذه الصفوة اختط لها القدر مثواها الأخير في هذا الجبل الأشم فتوسدت ثراه راضية مرضية . وكان رسول الله يتذكر سير أولئك الأبطال ومصائرهم فيقول : « (أحد) جبل يحبنا ونحبه » (٩٦) .

فلما حانت وفاته آخر عهده بذكريات البطولة ، أن يزور قتلى «أحد» وأن يدعو الله لهم . وأن يعظ الناس بهم !! .

عن عقبة بن عامر قال : صلى رسول الله ﷺ على قتلى «أحد» بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات ثم طلع المنبر فقال : «إني بين أيديكم فرط . وأنا عليكم شهيد . وإن موعدكم الحوض . وإني لأنظر إليه من مقامي هذا . وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » !! .

قال عقبة : فكان آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله - ﷺ - (٩٧) .

* * *

على أن المسلمين دفنوا موجدتهم في أفقدتهم ، ولم يستسلموا لأحزان المصاب الذي حل بهم ! وكان تكاثر خصومهم حولهم سبباً في أن يقاوموا عوامل الخور وأن يبدوا للناس بقية من قوة ترد عنهم كيد المتربصين . على نحو ما قال الشاعر :

وتجلى للشماتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

وقد كان الهزيمة في «أحد» فرصة انتهزها المنافقون واليهود ، وكل ذى غمر

(٩٦) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (٣٠٢/٧) ومسلم (١٢٤/٤) وغيرهما من حديث أنس وغيره .

(٩٧) حديث صحيح أخرجه البخارى (١٦٤/٣ ، ٢٧٩/٧ - ٢٨٠ ، ٣٠٢) ومسلم (٦٧/٧) وأحمد (١٤٩/٤ ، ١٥٤) والبيهقى (١٤/٤) .

على محمد عليه الصلاة والسلام ودينه وأصحابه ففارت المدينة الرجل المتقد وكشف عن عداوته من كان قبلاً يوارىها . وتحدث الكافرون بالإسلام عن خذلان السماء للنبي المرسل من عند الله .

ورأى الرسول ﷺ أن يعيد تنظيم رجاله على عجل ، وأن يتحامل الجريح مع السليم على تكوين جيش جديد ، يخرج في أعقاب قريش ليطاردها ويمنع ما قد يجد من تكرار عدوانها ! .

كانت معركة « أحد » في يوم السبت ، لخمسة عشر من شوال ، وكان خروج هذا الجيش في الأحد لستة عشر منه .

وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتى بلغوا « حمراء الأسد » (٩٨) ، واقتربوا من جيش أبي سفيان ، وكان رجال قريش - بعد أن ضمهم الفضاء الربح - قد عادوا إلى التفكير فيما حدث . وأخذوا يتلاومون ، يقول بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شوكة القوم ، ثم تركتموهم ولم تبتروهم ، وقد بقيت منهم رؤوس يجتمعون لكم ! .

إلا أن هذا التفكير تزلزل إثر ما عرفت قريش أن المسلمين عبأوا قواهم وخرجوا يستأنفون القتال .

وحار المشركون في أمرهم ، أيعودون لحرب لا يأمنون مغبتها ، وربما أفقدتهم ثمار النصر الذي أحرزوه ؟ أم يمشون - لتوهم - إلى مكة ؟ وفي هذه الحال يتحسن مركز المسلمين ، وتخف مرارة الهزيمة التي لحقتهم .

وقد رأى « أبو سفيان » أن يغنم الأوبة الراجعة ، وأن يبعث إلى المسلمين من يقذف بالرعب في قلوبهم ، ويخبرهم أن قريشاً عادت لاستئصال شأفتهم بعد أن تبين لها خطؤها في تركهم ! ..

(٩٨) رواه ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير مرسلًا كما في البداية وذكره ابن هشام عن

ابن إسحاق بدون سند .

وعسكر المسلمون بـ « حمراء الأسد » ثم جاءهم دسيس أنى سفيان يغريهم بالعودة إلى يثرب نجاة بأنفسهم من كَرَّةِ المشركين عليهم ، وهم لا يقدرُونَ على ملاقاتهم .

بيد أن المسلمين قبلوا التحدى ، وظلوا في معسكرهم يُوقدون النار طيلة ثلاث ليالٍ في انتظار قريش التى ترجح لديها أن النجاة بنفسها أولى فعادت إلى مكة . وعاد المسلمون إلى المدينة ليدخلوها مرة أخرى ، أرفع رؤوساً ، وأعز جانباً .

وفى هذه المظاهرة الناجحة ، وفيمن اشتركوا فيها على ألم الجراح وإرهاق التعب وفى ثباتهم على التشييط واطمئنانهم إلى جانب الله ، نزلت الآيات الكريمة :

﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (٩٩) .



آثار أحد

انقض على الإسلام كثير ممن هادنه أو داهنه .

وبرغم مظهر اليأس الذى أبداه المسلمون فى مطاردة المشركين حتى « حمراء الأسد » فإن هزيمة « أحد » كانت أبعد غوراً مما يظنون .

لقد جرأت عليهم أعراب البادية ، وفتحت لهم أبواب الأمل فى الإغارة على المدينة وانتهاب خيرها .

كما أن اليهود عالتوا بسخريتهم ، وتركوا وساوس الغش تلح عليهم ، وتكدر سيرتهم مع المسلمين .

ومن أصعب الأمور قياد الأمم عقب الهزائم الكبيرة وقياد الدعوات بعد الانكسارات الخطيرة . وإن كان الرجال يستسهلون الصعب ، ويصابرون الأيام حتى يجتازوا الأزمات .

وقد جاءت السنة الرابعة للهجرة ، والمسلمون لما يداؤوا جراحاتهم فى « أحد » إلا أن الأحداث لا تنتظر ، فقد أخذ البدو يتحركون نحو المدينة ، يحسبون أن ما فيها أصبح غنيمة باردة ، وأول من تهبأ لغزو المدينة بنو أسد ، فسارع رسول الله إلى بعث أى سلمة على رأس مائة وخمسين رجلاً ، لبيغت القوم فى ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم^(١٠٠) .

(١٠٠) ذكر هذه السرية ابن كثير فى « البداية » (٦١/٤ - ٦٢) من طريق الواقدى بإسناد له معضل !
والواقدى متروك .

ولم يلق أبو سلمة عناء في تشتيت أعدائه واستياع نعمهم أمامه ، حتى عاد إلى المدينة مظفراً ، وأبو سلمة يُعد من خيرة القادة الذين صحبوا رسول الله وسبقوا إلى الإيمان والجهاد معه وقد عاد من هذه الغزوة مجهوداً ، إذ نغر جرحه الذي أصابه في « أحد » فلم يلبث حتى مات .

وحاول « خالد بن سفيان الهذلي » أن يحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه النبي « عبد الله بن أنيس »^(١٠١) وهو يجتهد في تأليب القبائل للهجوم على المدينة .

وثارت « هذيل » لرجلها بأن أعانت على تسليم أسرى المسلمين إلى أهل مكة في غزوة « الرجيع » .

وأصل قصة « الرجيع » هذه ، أن وفداً من قبائل « عضل والقارة » ، قدم على رسول الله يذكر أن أنباء الإسلام وصلت إليهم ، وأنهم يحتاجون إلى رجال يعلمونهم الدين ويقرئونهم القرآن . فأرسل النبي معهم رهطاً من الدعاة يرأسهم « عاصم بن ثابت » فانطلق الجميع حتى إذا كانوا بين « عسفان » و « مكة » قريباً من مياه « هذيل » شعر الدعاة بأن أصحابهم غدروا بهم واستصرخوا هذيلاً عليهم . وفزع الدعاة إلى أسلحتهم يقاتلون الغادرين ومن أعانهم من قبيلة هذيل ، وماذا يجدى قتال نفر يُعدون على الأصابع لنحو مائة من الرماة ، وراءهم قومهم يشدون أزرهم ؟ لذلك لم يلبث عاصم وصحبه أن قتلوا .

واستسلم للأسر منهم ثلاثة نفر : « خبيب » و « زيد بن الدثنة » و « عبد الله ابن طارق » فاسترقهم الهذليون وخرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها . ومعنى بيعهم

(١٠١) رواه أبو داود (١٩٦/٢) والبيهقي (٢٥٦/٣) وأحمد (٤٩٦/٣) من طريق ابن عبد الله ابن أنيس سماه عن أبيه وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢٩٥/١) « إسناده جيد » وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٣٥٠/٢) « إسناده حسن » قلت : وابن عبد الله بن أنيس سماه البيهقي في روايته « عبد الله » وكان تحريف من الناسخ أو الطابع ، فقد أورده ابن أبي حاتم فيمن اسمه « عبد الله » مكبراً . وقال : « وروى عن أبيه ، وروى عن محمد بن إبراهيم التيمي » ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . وقد روى عنه محمد بن جعفر بن الزبير أيضاً وهو الذي روى عنه هذا الحديث . والله أعلم .

بمكة تسليمهم للقتلة المتربصين . فإن أولئك النفر ، من الرجال الذين قاتلوا مع رسول الله ﷺ في « بدر » و « أحد » ولأهل مكة لديهم ترات يودون الاشتفاء منها . وقد حاول عبد الله الإفلات من هذا المصير فقتل . وأما « خبيب » و « زيد » فأخذهما رجال قريش ليقتلوهما ، أخذاً بثأرهم القديم .

فأما « زيد » فابتاعه صفوان بن أمية ، ليقنتله بأبيه ، ولما خرجوا به من الحرم ، اجتمع رهط من قريش - فبههم أبو سفيان بن حرب - فقال له أبو سفيان - حين قُدم ليقتل - : أنشدك بالله يا زيد .. أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك ، نضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ فقال : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس في أهلى .

فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً . ثم قُتل زيد .

وأما « خبيب » فقد اشتراه عقبة بن الحارث ليقنتله بأبيه ، فلما خرجوا به « خبيب » من الحرم ليصلبوه قال لهم : إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا ، قالوا : دونك فاركع . فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم فقال :

أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طَوَّلْتُ جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة .. فكان « خبيب » أول من سن هاتين الركعتين عند القتل ثم رفعوه على خشبة .

فلما أوثقوه قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يُصنع بنا ، ثم قال : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بديداً ، ولا تغادر منهم أحداً^(٧٢) ، واستقبل الموت وهو ينشد :

(١٠٢) رواه ابن هشام (١٦٧/٢ - ١٦٩) عن ابن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة مرسلًا . وهذا سند صحيح لولا الإرسال ، لكن رواه البخارى في صحيحه (٣٠٣/٧ - ٣٠٨) وأحمد (١٩٤/٢ ، ٣١٤) موصولاً من حديث أبى هريرة نحوه : وفيه الآيات الآتية ...

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوي ممزق

* * *

حزن المسلمون لفقدانهم عاصماً وصحبه ، ولمصرع أسيرهم على هذا النحو
الفاجع ، فقد خسروا فريقاً من الدعاة الأكفاء الشجعان ، يحتاج إليهم الإسلام فى
هذه الفترة من تاريخه . ثم إن اضطهاد الرجال بهذه الطريقة زاد المسلمين توجساً
وقلقاً .. إذ أن ذلك المسلك دل على مبلغ طماعية العرب فى أهل الإيمان واستهتارهم
بأرواحهم وجراتهم على النيل منهم ، دون تخوف أو محاذرة قصاص .

ومع أن هذه الواقعة توجب على المسلمين أن يتصرفوا قبل بعث أى وفد لنشر
الإسلام بين القبائل البعيدة والمجاهل المريبة ، إلا أن ضرورة بث الدعوة - مهما
فدحت الخسائر - جعلت النبى ينظر إلى هذه التضحيات على أنها أمر لا بد منه .
كالتاجر الذى يتحمل المغارم الثقيلة حيناً من الدهر ، لأن الانسحاب من السوق بغية
تجنبها - قضاء عليه . فهو يبقى متحملاً حتى تهب الريح من جديد رخاء تعوض
ما فقد . وذاك سر استجابة الرسول لأبى براء عامر بن مالك الملقب بـ « ملاعب
الأسنة » حين عرض عليه أن يرسل وفداً من الدعاة ينشرون الإسلام بين قبائل نجد .
وقد أبدى النبى خشيته من أن يُصاب رجاله بسوء ، وسط قبائل ضارية
لا يؤمن ذمامها . فقال أبو براء : أنا لهم جار (١٠٣) .

وخرج الدعاة من المدينة حتى بلغوا « بئر معونة » . وكانوا سبعين من خيار
المسلمين يُعرفون بالقراء ، يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل ، ويحيون على هذا النسق
الرتيب بين جهاد للحياة ورغبة فى الآخرة .

(١٠٣) رواه ابن هشام (١٧٤/٢) عن ابن إسحاق بسند صحيح مرسل . وكذا رواه الطبرانى عن
ابن إسحاق كما فى « المجموع » (١٢٨/٦ - ١٢٩) ورواه الطبرانى أيضاً من حديث كعب بن مالك رضى الله عنه
نحوه . قال الهيثمى : « ورجال رجال الصحيح » .

فلما أمرهم الرسول بالمسير لإبلاغ رسالات الله ، خرجوا ، وما كانوا يعرفون أنهم - جميعاً - يثبون الخطأ إلى مصارعهم في أرض انتشر الغادرون في فحاجها .

وحين انتهى القراء إلى « بئر معونة » بعثوا أحدهم - حرام بن ملحان - إلى عامر بن الطفيل رأس الكفر في هذه البقاع ، فأعطاه كتاب النبي الذي يدعوه فيه إلى الإسلام فلم ينظر « عامر » في الكتاب وأمر رجلاً من أتباعه أن يغتال حامل الرسالة ، فما شعر « حرام » إلا وطعنة نجلاء تخترق ظهره وتنفذ من صدره ، وكأن هذه الشهادة المفاجئة لاقت رجلاً يتمناها من قديم فقد صاح « حرام » على أثر ذلك : فزت ورب الكعبة ! .

ومضى « عامر » في غشمه ، فاستصرخ أعوانه ليواصلوا العدوان على سائر القوم ، فانضمت إليه قبائل « رعل » و « ذكوان » و « القارة » فهجم بهم عامر على القراء الوادعين .

ورأى هؤلاء الموت مقبلاً عليهم من كل صوب ، فهرعوا إلى سيوفهم يدفعون عن أنفسهم دون جدوى ، إذ استطاع الأعراب الهمج أن يغشوهم في رحالهم وأن يستأصلوهم عن آخرهم .

وكان في سرح القراء اثنان لم يشهدا هذه المأساة منهم « عمرو بن أمية الضمري » ولم يعرفا النبا المحزن ، إلا من أفواج الطير المتوحشة ، تنطلق نحو المعسكر محومة حول الجثث الملقاة على الرمل الأعفر ، طاعمة مما تستطيع اختطافه بأظفارها ومناقرها . قالوا : والله إن لهذه الطير لشأناً . فأقبلا لينظرا فإذا القوم مضرجون في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة ! قال زميل عمرو له : ماذا ترى ؟ قال عمرو : أرى أن نلحق برسول الله نقص عليه الخبر . لكن زميله كره هذا الرأي وكان له بين من استشهدوا صديق حميم يدعي « المنذر » لذلك أجاب عمرو بن أمية قائلاً : ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قُتل فيه المنذر ! وما كنت لأبقى حتى أقصى خبره على الرجال ! وهجم على الأعراب يقاتلهم حتى قُتل وأخذ عمرو أسيراً . فأعتقه « عامر بن الطفيل » كبير الغادرين عن رقبة زعم أنها على أمه ! .

* * *

ورجع « عمرو » إلى النبي حاملاً معه أنباء المصاب الفادح ، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين ، تُذَكِّرُ نكبتهم الكبيرة بنكبة « أحد » إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح ، وأولئك ذهبوا في غدره شائنة .

إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظاً ، وهم لم يضيّقوا بخسائرهم فحسب ، بل الذي أخرج مشاعرهم في هذه الحادثة ، أنها كشفت عما تحبّه الوثنية في ضميرها من غل كامن على الإسلام وأهله ، غل عصف بكل مبادئ الشرف والوفاء ، وأباح لكل قادر أن يلحق الأذى بالمؤمنين متى شاء وكيف شاء .

وفي طريق « عمرو » إلى المدينة لقي رجلين ظنهما من « بنى عامر » فقتلهما ثائراً لأصحابه ، ثم نبين أنهما من « بنى كلاب » وأنهما معاهدين للمسلمين .

ولما قدم « عمرو » على الرسول عليه الصلاة والسلام وأخبره الخبر ، قال النبي للناس (١٠٤) : إن أصحابكم أصيبوا ، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا : ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضىنا عنك ورضيت عنا (١٠٥) .

ثم قال النبي لعمره : « لقد قتلت قتيلين .. لأدينهما » وانشغل بجمع دياتهما من المسلمين وحلفائهم اليهود ! .

* * *

إن نجاح الإسلام في ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوباً كثيرة ، ولا ريب أن تأميل المسلمين في المستقبل .. وارتقائهم المزيد من القتح ، زاد ضغن الضاغنين ، وقد كان الناقمون والمتربصون يصفون المسلمين بالغرور .

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٠٦) .

(١٠٤) أخرجه البخارى في صحيحه (٣١٢/٧) من طريق هشام بن عروة عن أبيه مرسلًا . لكن رواه نحوه موصولاً من حديث أنس (٣٠٩/٧ ، ٣١٠ ، ٣١١) ، والطبرانى من حديث ابن مسعود كما في « المجموع » (١٣٠/٦) .

(١٠٥) رواه الطبرانى وابن هشام من طريق ابن إسحاق بسنده مرسلًا . وقد تقدم قريباً .

(١٠٦) الأنفال : ٤٩ .

غير أن هذه الكراهية اختفت أمدأ بعد انتصار « بدر » بل لعل هذا النصر أغرى جمهوراً من الضعاف المترددين بالأنضواء تحت علم الدين الجديد فلما تقلبت الليالي بالمسلمين ، ولحققتهم الهزائم انفجر الحقد المكبوت ، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه في كل مكان .

وقد قلنا : إن النبي ﷺ أدرك هذه الحال بعد « أحد » فبذل جهده ليستعيد هبة المسلمين ويوطد ما اضطرب من مكانتهم ، ولذلك اشتد الصراع بين الجانبين : المشركون يظنون الفرصة سانحة لإتباع « أحد » بمثلها أو أشد ، والمسلمون يرون محوها إلى الأبد .

على أن الخسائر تلاحقت بالمسلمين في « الرجيع » و « بئر معونة » كما مر بك ودخل الإيمان في محنة بعد أخرى ، ومع هذه البأساء لم يفقد الرجال الوثائقون صلتهم بربهم ، واطمئنأنهم إلى غدهم ، وشرعوا يردون الضربة بمثلها ، فلما تحرك اليهود في هذه الآونة العصيبة ليغتالوا رسول الله ﷺ لم يتوان في إنزال العقوبة الرادعة بهم .



إجلاء بنى النضير

وتفصيل ذلك الغدر أن النبي عليه الصلاة والسلام ذهب إلى منازل بنى النضير ليستعين بهم في دية القتيلين اللذين قتلتهما « عمرو بن أمية » لدى مرجعه من بئر معونة ، فلما فاوضهم الرسول ﷺ في الأمر أظهروا الرضا بمعونته ، فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ، ينتظر وفاءهم بما وعدوا . لكن يهود خلا بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا :

إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - خلو بال واطمئنان نفس - فمن رجل يعلو ظهر هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، ويريحنا منه ؟ .

وحين أوشك اليهود على إنفاذ مكيدتهم ألهم رسول الله ﷺ الخطر المدبر له فنهض - عجباً - من جوار البيت الذي اضطجع إلى جداره ، وقفل راجعاً إلى المدينة .

وشعر أصحاب النبي ﷺ بمغيبه ، فقاموا في طلبه فإذا رجل مقبل من المدينة يخبرهم أنه رآه يدخلها ، فأسرعوا يلحقون به ، فلما انتهوا إليه ، أخبرهم بما كادت له يهود ، وقد عُرف - بعد - أن « عمرو بن جحاش » هو الذي أراد قتل النبي بإلقاء الرمح عليه ، ولم ينج الشقي من عواقب جرمه ، ولا نجا قومه ، فإن رسول الله ما لبث أن استدعى « محمد بن مسلمة » وقال له : « اذهب إلى بنى النضير فمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يسكنوني بها ، وقد أجلتهم عشراً فمن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه » (١٠٧) .

(١٠٧) رواه نحوه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » في غزوة بنى النضير بدون إسناد لكن روى البيهقي - كما في تفسير ابن كثير (٣٣٣/٤) بسنده عن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بنى النضير وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثة أيام ، ورجاله ثقات غير محمود بن مسلمة ترجمة ابن أبي حاتم (٢٩٠١/٤) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً ، فهو في عداد المجهولين .

ولم يجد يهود مناصاً من الخروج ، فأخذوا يتجهزون للرحيل ، بيد أن منافقى المدينة ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ، أرسلوا إليهم : أن اثبتوا ونحن ننصركم على محمد وصحبه ! فعادت لليهود ثقتهم ، واستقر رأيهم على المناوأة ، وأرسلوا للنبي ﷺ يقولون له : لن نخرج ، فافعل ما بدا لك ، ثم احتموا بحصونهم واستعدوا للقتال ، وزادهم إصراراً على المقاومة ما ترامى إليهم من أن ابن أبي أعد ألفى مقاتل لنصرتهم ، ونهض النبي ﷺ لمناجزة القوم وتحدى من ينضم إليهم من قبائل اليهود الأخرى أو من مشركى العرب وفرض الحصار على مساكن بنى النضير ، وأمر بتقطيع نخيلهم^(١٠٨) . ثم جد الجد ورأى اليهود الموت ، ووقع الرعب في قلوب أعوانهم ، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيراً أو يدفع عنهم شراً مع أن اشتباك المسلمين بخصومهم في هذه الفترة المخرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العواقب . وقد رأيت كلب العرب عليهم وفتكهم الشنيع ببعوثهم ثم إن يهود بنى النضير كانوا على درجة من القوة ، تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال وتجعل فرض القتال معهم محفوفاً بالمكاره إلا أن الحال التي جددت بعد مأساة « بئر معونة » وما قبلها ، زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفراداً ، وضاعفت نفقتهم على مقترفيها ، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا « بنى النضير » بعد همهم باغتيال رسول الله ﷺ - مهما تكن النتائج .

وقد جاءت النتيجة في مصلحتهم بأسرع مما يتصورون ، فاندحر اليهود ، ونزلوا على حكم المنتصر الذى أذن لهم بالجلاء عن ديارهم ، ولهم ما حملت إبلهم من أموال ما عدا السلاح^(١٠٩) ! .

وفي هذه المعركة نزلت سورة الحشر بأكملها ، فوصفت اليهود فى صدرها بقول الله عز وجل :

(١٠٨) هذا الأمر صحيح أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عمر .

(١٠٩) رواه الحاكم (٤٨٣/٢) من حديث عائشة ، وفيه : نزول الآية الآتية ... وقال : « صحيح على

شرط الشيخين » ووافقه الذهبي ! وإنما هو صحيح فقط ، لأن زيد بن المبارك الصنعاني وشيخه محمد بن ثور ليسا من رجالها .

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ۝ (١١٠) .

ثم فضح القرآن مسلك منافقى المدينة الذين حاولوا إعانة يهود فى غدرها وحربها ، وحرصوها على مقاتلة المسلمين بما وعدوها من إمداد وعتاد فقال :

﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأُذُنَا ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ۝ (١١١) .

وهذا النصر الذى أحرزه المسلمون دون تضحيات ، تؤطد سلطانهم فى المدينة ، وتحاذل المنافقون عن الجهر بكيدهم ، وأمكن رسول الله ﷺ ، أن يتفرغ بقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد « أحد » وتواثبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها فى نذالة وكفران .

وتأدياً لأولئك الغادرين خرج النبى ﷺ بجوس فيافى نجد ، ويطلب ثأر أصحابه الذين قُتلوا فى « الرجيع » و « بئر معونة » ويلقى بذور الخوف فى أفئدة أولئك البدو القساة حتى لا يعاودوا منكرهم التى ارتكبوها مع المسلمين .

وقام النبى ﷺ - بتحقيقاً لهذا الغرض - بغزوات شتى أرهبت القبائل المغيرة وخلطت بمشاعرهم الرعب .. فأضحى الأعراب الذين مُردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا فى رؤوس الجبال بعدما قطعوا الطريق على الدعوة ردهاً من الزمن وفى مقدمة هؤلاء : بنو لحيان ، وبنو محارب ، وبنو ثعلبة من غطفان .

فلما خضد المسلمون شوكتهم ، وكفكفوا شرهم ، وأخذوا يتجهزون لملاقاة
عدوهم الأكبر ، فقد استدار العام ، وحضر الموعد المضروب مع قريش .
وحق لمحمد وصحبه أن يخرجوا ليواجهوا أبا سفيان وقومه ، وأن يديروا رحي
الحرب كَرَّةً أُخرى ، حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء .



بدر الآخرة

لم ينشط أبو سفيان للوفاء بالميعاد الذى ضرب به عند منصرفه من «أحد» بل خرج من مكة متثاقلاً يفكر فى عقبى القتال مع المسلمين ، وهو - بعد - لما يتخذ لهذا القتال أهبته التى يودها . إن قومه هُزموا فى «بدر» على كثرة مددهم ووفرة عدتهم ، واستخلصوا النصر فى «أحد» بعد جهد فاشل .

ولولا الخطأ الذى وقع فيه جيش التوحيد ، ما ظفرت قريش بهذه الغرة ، لذلك ما كاد أبو سفيان يقترب من «الظهران» حتى بدا له الرجوع فصاح بقومه : يا معشر قريش .. إنه لا يُصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جذب ، وإنى راجع فارجعوا .. وهكذا انسحبت قريش من المعركة المنتظرة .

أما المسلمون فإنهم نفروا للملاقاة المشركين على استعداد وحماسة ، حتى وصلوا إلى ماء «بدر» فعسكروا حوله ، يعلنون وفاءهم بكلمتهم ، وتأهبهم إلى الحرب الموعودة .

وظلوا ثمانية أيام يرتقبون مقدم أهل مكة ، ويمسحون عن سمعتهم آخر ما تركت هزيمة «أحد» من غبار .. وكان ذلك فى شعبان من السنة الرابعة للهجرة .

* * *

دومة الجندل

وانتقل زمام المفاجأة إلى أيدي المسلمين بعد أن نكصت قريش عن مواجهتهم . فالتفتوا إلى الشمال ، بعد أن توطدت مهابتهم في الجنوب .
وشمال الجزيرة يجارو سلطان الروم القديم ، والعرب الضاربون هناك لا يخشون بأس أحد بعد القيصر .

وقيصر نفسه لا يتوقع أن تنبت في الجزيرة قوة تناوئه أو تتجاهله .

وجاءت الأخبار إلى المدينة أن القبائل حول « دومة الجندل » - قريباً من الشام - تقطع الطريق هناك ، وتنهب ما يمر بها ، وقد بلغ بها الطيش حداً ، فكرت معه أن تهاجم المدينة ، وأن جمعاً كبيراً احتشد بها للاندفاع في هذه الغارة ! .

فخرج رسول الله ﷺ في ألف من المسلمين ، يكمن بهم نهراً ، ويسير ليلاً حتى يفاجيء أعداءه وهم غارون . والمسافة بين يثرب و « دومة الجندل » خمس عشرة ليلة قطعها المسلمون بمعونة دليل ماهر . فلما بلغوا مضارب خصومهم ، اجتاحوها مباغتتين ، ففرت الجموع المتأهبة للسطو ، وأصاب المسلمون سوائهم ورعاءهم وكانت لبنى تميم .

أما أهل الدومة ففروا في كل وجه ، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً ، وأقام الرسول عليه الصلاة والسلام عدة أيام يبعث السرايا ، ويبحث رجاله هنا وهناك فلم يثبت للقائهم هارب .

وعاد المسلمون إلى المدينة ، وكان توجههم لعرب الشمال في ربيع الأول من السنة الخامسة .

* * *

عندما كان الإسلام دعوة تغالب النظام السائد كانت مخاصمته تتخذ طريق الهجرة والتهجم دون مبالاة ، فلما استقر له الأمر وتوفرت لأبنائه أسباب القوة ، سلكت عداوته المسارب التي تسلكها الغرائز المكبوتة ، فأمسى الكيد له يقوم على المكر واللدس إلى جانب الوسائل الأخرى التي يعالنها الأقوياء . واثتار الضعفاء في جنح الظلام لا يقل خطورة عن نكاية الأقوياء في ميادين الصدام . بل إن المرء قد يألم لإشاعة ملفقة أكثر مما يألم لطفنة مواجهة .

وفي الحروب الفاجرة تستخدم جميع الوسائل التي تصيب العدو ، وإن كان بعضها يستحي من استخدامه الرجل الشريف ! .

وقد لجأ المنافقون في المدينة إلى مناوأة النبي ﷺ ودعوته بأسلوب تظهر فيه خسة النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد ، ويغلب عليها الضعف ، أسلوب اللمز والتعريض حيناً ، والإفك والافتراء حيناً آخر .

وكلما توطدت سلطة المسلمين ورسخت مكانتهم ازداد خصومهم المنافقون ضعفاً عليهم وتربصاً بهم . وقد حاولوا تأييد اليهود عندما تأذنتهم الرسول ﷺ بالجلء ، فلما لم يُقف مد الإسلام شئ ، ولم تهده هزيمة . وأخذت القبائل العادية تختفي واحدة تلو أخرى ، التحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين ولم تنكشف نياتهم السوء إلا على فلتات الألسنة ومزالق الطباع فكانت سيرتهم تلك ، مثار فتن شداد تأذى منها رسول الله والمؤمنون شيئاً غير قليل .

وظهر ذلك جلياً في غزوة « بنى المصطلق » . فإن الأنباء أتت الرسول عليه الصلاة والسلام بأن هذه القبيلة تجمع له وتستعد لقتاله وأن سيدها الحارث ابن أوى ضرار قد استكمل عدته لهذا المسير فسارع رسول الله ﷺ بالمسلمين ليطفئ الفتنة قبل اندلاعها .

وخرج مع الرسول عليه الصلاة والسلام هذه المرة جمع من المنافقين لم يعتادوا الخروج قبلاً . ولعل ثقتهم بانتصار محمد عليه الصلاة والسلام أغرتهنم بالذهاب معه ، ابتغاءاً لدنيا لا انتصاراً لدين .

وانتهى المسلمون إلى ماء يسمى « المريسيع » اجتمع لديه بنو المصطلق ، فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب أن يعرض الإسلام على القوم .

فنادى عمر فيهم : قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم ! فأبوا وترامى الفريقان بالنبل .

ثم أمر النبي ﷺ صحابته فحملوا عليهم حملة رجل واحد . فلم يفلت من المشركين أحد . إذ وقعوا جميعاً أسرى بعد ما قتل منهم عشرة أشخاص ولم يستشهد من المسلمين إلا رجل واحد قتل خطأ . وسقطت القبيلة - بما تملك - في أيدي المسلمين (١١٢) .

ورأى رسول الله ﷺ أن يعامل المهزومين بالإحسان .. فلما جاء الحارث قائد القبيلة المنكسرة يطلب ابنته التي وقعت في الأسر ردها عليه . ثم خطبها منه (١١٣) .

وتزوجها فاستحى الناس أن يسترقوا أصحاب رسول الله ﷺ فأطلقوا من بأيديهم من الأسرى ! فكان جويرية بنت الحارث من أئمن الناس على أهلها . فقد أعتق في زواجها مائة أهل بيت من بنى المصطلق .

(١١٢) رواه بنحوه ابن جرير في تاريخه (٢٦٠/٢ - ٢٦٢) من طريق ابن إسحاق بسنده مرسلأ ، وكذلك رواه ابن هشام في « السيرة » (٢١٦/٢ - ٢١٨) وهذا الإسناد مع ضعفه ليس فيه أمر عمر يعرض الإسلام . وقد أشار الزرقاني على المواهب (٩٧/٢) لضعف هذه الزيادة . وحق له ذلك فقد صح عنه ﷺ ما يقتضى ضعفها فقال ابن القيم في « الزاد » (١٥١/٢) بعد ذكر نحو ما هنا من القتال : « هكنا قال عبد الرحمن بن خلف في سيرته وغيره وهو وهم فإنه لم يكن بينهم قتال وإنما أغار عليهم على الماء ففسى ذرارهم وأموالهم كما في الصحيح : أغار رسول الله ﷺ على بنى المصطلق وهم غارون وذكر الحديث » راجع « فتح الباري » (٣٤٦/٧) .

(١١٣) هذا غير صحيح ، وقد أشار لذلك ابن هشام في سيرته (٣٦٧/١) فإنه ذكر هذه الرواية بدون إسناد وصدرها بقوله : « ويقال والصحيح أنه ﷺ قضى عنها كتابتها وتزوجها دون أن يخطبها من أبيها فإنها كانت أسيرة كما رواه ابن إسحاق بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها . ومن طريقه أحمد (٢٧٧/٦) وابن هشام (٢١٨/٢ - ٢١٩ ، ٣٦٧) وفي حديثها قصة إطلاق الأسرى .

على أن هذا النصر شابه من أعمال المنافقين ما عكّر صفوه وأنسى المسلمين حلاوته ، فإن خادماً لعمر كان يستقى له من ماء المريسيع ، ازدحم مع مؤلّد لبنى عوف بن الخزرج وكادا يقتتلان على الورود - شأن الخدم الطائشين - فصاح الأول : يا للمهاجرين ، وصاح الآخر : يا للأنصار ! واستمع إلى صياح الأتباع عبد الله بن أبي ، وكان في رهط من قومه ، فرأى الفرصة سانحة لإثارة حفائطهم وإحياء ما أماته الإسلام من نعرات الجاهلية فقال : أو قد فعلوها ؟ نافرونا وكأثرونا في بلادنا ، أما والله لكن رجعنا إلى المدينة ، ليُخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على قومه - ولم تزل له فيهم بقية وجاهة - يلومهم ويحرضهم على التكر للرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه فذهب « زيد بن أرقم » إلى النبي ﷺ يقص عليه الخبر وأسرع ابن أبي إلى رسول الله ﷺ يبرئ نفسه وينفى ما قاله ! .

ورأى الحاضرون أن يقبلوا كلام ابن أبي رعاية لمنزله وقالوا : الغلام - يعنون : زيد بن أرقم - أوهم ، ولم يحفظ ما قيل .

على أن الحقيقة لم تفت النبي ﷺ فأحزنه ما وقع ووجد خير علاج له شغل الناس عنه حتى يعفى على آثاره ، فأصدر أمره بالارتحال في ساعة ما كان يروح في مثلها ، ومشى بالناس سائر اليوم حتى أمسوا ، وطيلة الليل حتى أصبحوا ، وصدر يومهم الجديد حتى أذتهم الشمس ، ثم نزل بهم .

فما إن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً ، وتابع الرسول عليه الصلاة والسلام رواحه حتى عاد إلى المدينة .

ونزلت سورة المنافقون ، وفيها تصديق ما روى زيد بن أرقم .

﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١١٤) .

لم يدر بخاطر أحد أن هذه الأوبة المتعجلة سوف تتمخض عن أكذوبة دنيئة

(١١٤) هذا تمام مرسل ابن إسحاق الذي ذكرته آنفاً - والآية من سورة المنافقون : ٨ .

يحيك أطرافها « عبد الله بن أبي » ثم يرمى بها بين الناس ، فتسير مسير الوباء الفاتك .

إن هذا الرجل حلف كاذباً بعد أن أنكر مقالته الثابتة ولو أن الجبان ذهب يطلب النجاة من عقباها ، لكان ذلك أجدى عليه ، لكنه لم يزد - على السماح الذى قُوبل به - إلا خسة وخصاماً والبون بعيد بن أصناف الرجال الذين عادوا الإسلام ورسوله . لقد كان « أبو جهل » خصماً للوداء لكل من دخل فى هذا الدين ، وكان طاغية عنيداً لا تنتهى لجأته ، إلا أنه كان كالضبع المفترس لا يحسن الالتواء والوقية ، حمل السيف فى وضح النهار ، ومازال يُقاتل به حتى صُرع .

أما عبد الله بن أبي ، فقد اختفى كالعقرب الخائنة ، ثم شرع يلسع الغافلين : قبع هذا المنافق فى جنح الظلام . وبدا ينفث الإشاعات المريبة .

وتدلى - فى غوايته - إلى حضيض بعيد ، فلم يُبال أن يتهم على الأعراض المصونة ، وأن ينسج حولها مفتريات يندى لها جبين الحرائر العفيفات .

فى عودة الرسول ﷺ من غزوة بنى المصطلق إلى المدينة ، نبت حديث الإفك وشاع ، واجتهد خصوم الله ورسوله أن ينقلوا شره فى كل مكان قاصدين - من وراء هذا الأسلوب الجديد فى حرب الإسلام - أن يدمروا على الرسول ﷺ بيته ، وأن يسقطوا مكانة أقرب الرجال لديه ، وأن يدعوا جمهور المسلمين - بعد ذلك - يضطرب فى عماية من الأسى والغم .

وللوصول إلى هذه الغاية ، استباح ابن أبي لنفسه أن يرمى بالفحشاء سيدة لما تجاوز مرحلة الطفولة البريئة ، لا تعرف الشر ، ولا تهم بمنكر ، ولا تحسن الحياة إلا فى فلك النبوة العالى . وهى التى تربت فى حجر صديق وأعدت لصحبة نبي فى الدنيا والآخرة وتلقف العامة هذا الحديث الغريب ، وهم فى غمرة الدهشة لا يدرون مبلغ الخطر الكامن فى قبوله ونقله .

إليك سرداً لهذا الحديث المتفتعل على لسان السيدة التى تعرضت له وبرئت منه .

* * *

حديث الإفك

قالت السيدة عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرجت معه ، فلما كانت غزوة « بنى المصطلق » خرج سهمي عليهن ، فارتحلت معه . قالت : وكان النساء إذ ذاك يأكلن العلق ، لم يهيجهن اللحم فيثقلن ، وكنت إذا رُحِّلَ بعيري جلست في هودجى ، ثم يأتى القوم فيحملوننى ، يأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه ، ثم يضعونه على ظهر البعير ويشدون به بالحبال وبعدئذ ينطلقون . قالت : فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذاك توجه قافلاً ، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات فيه بعض الليل ، ثم أذن مؤذن في الناس بالرحيل ، فتهيشوا لذلك وخرجت لبعض حاجتى ، وفي عنقي عقد لى ، فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري ، ورجعت إلى الرحل فالتصت عقدى فلم أجده ! وقد أخذ الناس في الرحيل ، فعدت إلى مكانى الذى ذهبْتُ إليه فالتصت حتى وجدته . وجاء القوم الذين كانوا يُرْحَلُونَ لى البعير - وقد كانوا فرغوا من إعدادة - فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشده على البعير ، ولم يشكوا أنى فيه . ثم أخذوا برأس البعير وانطلقوا ١١ .

ورجعتُ إلى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب . لقد انطلق الناس ! قالت : فتلففت بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى وعرفتُ أنى لو اُفتُتِدت لرجع الناس إلى فوالله إنى لمضطجعة ، إذ مر بى « صفوان بن المعطل السلمى » وكان قد تخلف لبعض حاجته ، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف علىّ - وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب - فلما رآنى قال : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١١٥) .. ظعينة رسول الله ! - وأنا متلفة فى ثيابى ١١ - .

(١١٥) البقرة : ١٥٦ .

ما تحلفك يرحمك الله ؟ قالت : فما كلمته ، ثم قرب إليّ البعير فقال : اركبني ، واستأخر عني . قالت : فركبت وأخذ برأس البعير منطلقاً يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت ونزلوا ، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقودني البعير ، فقال أهل الإفك ما قالوا . وارتج العسكر ووالله ما أعلم بشيء من ذلك .

ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة ، وليس يبلغني من ذلك شيء ، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبيي ، وهم لا يذكرون لي منه كثيراً ولا قليلاً . إلا أنني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه لي في شكواي هذه .

فأنكرت ذلك منه ، كان إذا دخل عليّ وعندى أمي تُمرّضني قال : كيف تيكمن ؟ لا يزيد على ذلك . قالت : حتى وجدت في نفسي - غضبت - فقلت يا رسول الله - حين رأيت ما رأيت من جفائه لي - : لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي ؟ قال : لا عليك ، قالت : فانقلبُ إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان ، حتى نكفت من وجعي بعد بعض وعشرين ليلة ، وكنا قوماً عرباً ، لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التي تتخذها الأعاجم ، نعافها ونكرها ، إنما كنا نخرج في فسخ المدينة ، وكانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن . فخرجت ليلة لبعض حاجتي ، ومعى أم مسطح ، فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرت في مرطها فقالت : تعس مسطح ؟ فقلت : بئس - لعمر الله - ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدمراً !!! .

قالت : أو - ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر ؟ قلت : وما الخير ! فأخبرتنى بالذي كان من أهل الإفك . قلت : أو - قد كان هذا !؟ .

قالت : نعم . والله لقد كان ! .

قالت عائشة : فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي . ورجعت ، فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي وقلت لأمي : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً ؟ قالت : أي بنية ، خفي عنك فوالله لقل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، ولها ضرائر ، إلا أكثرن وكثر الناس عليها .

قالت : وقد قام رسول الله ﷺ فخطبهم - ولا أعلم بذلك - فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس .. ما بال رجال يُؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق ؟ .

والله ما علمت عليهم إلا خيراً . ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً ولا يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معي ! قالت : وكان كبر ذلك عند « عبد الله بن أبي » في رجال من الخزرج . مع الذي قال : « مسطح » و « حمنة بنت جحش » وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ ولم تكن امرأة من نسائه تناصيني في المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً وأما « حمنة » فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارني بأختها . فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة ، قال أسيد بن حضير : يا رسول الله .. إن يكونوا من « الأوس » نكفكهم ، وإن يكونوا من إخواننا « الخزرج » فمرنا أمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تُضرب أعناقهم . فقام « سعد بن عباد » - وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً - فقال : كذبت لعمر الله ، ما تُضرب أعناقهم ، إنك ما قلت هذه المقالة إلا وقد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . فقال أسيد : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .

وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين شر ، ونزل رسول الله ﷺ ، فدخل عليّ ودعا « علي بن أبي طالب » و « أسامة بن زيد » فاستشارهما . فأما « أسامة » فأثنى خيراً ثم قال : يا رسول الله .. أهلك ، وما نعلم منهم إلا خيراً . وهذا الكذب والباطل ! .

وأما « علي » فقال : يا رسول الله إن النساء لكثير . وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها تصدقك .

فدعا رسول الله ﷺ « بريرة » يسألها ، وقام إليها عليّ فضربها ضرباً شديداً وهو يقول : أصدق رسول الله ! فتقول : والله ما أعلم إلا خيراً وما كنت أعيب على عائشة ، إلا أني كنت أعجن عجيني ، فأمرها أن تحفظه ، فتنام عنه فتأتي الشاة وتأكله !! .

قالت : ثم دخل على رسول الله ﷺ وعندي أبواي ، وعندي امرأة من الأنصار وأنا أبكي وهي تبكي ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا عائشة .. إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فابقي الله وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس ، فتوى إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده .

قالت : فوالله ، إن هو إلا أن قال ذلك حتى قلص دمعى ، فما أحس منه شيئاً ، وانتظرت أبواي أن يجييا عنى فلم يتكلما ! .

قالت عائشة : وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسى وأصغر شأناً من أن يُنزل الله في قرآناً ، لكنى كنت أرجو أن يرى النبى عليه الصلاة والسلام في نومه شيئاً يُكذِّبُ الله به عنى ، لما يعلم من براءتى ، أما قرآناً ينزل فى ، فوالله ، لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك .

قالت : فلما لم أر أبواي يتكلمان !! قلت لهما : ألا تحييان رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقالا : والله ما ندرى بم نجيبه ، قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام . ثم قالت : فلما استعجما على استعبرت فبكيت ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً ، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس - والله يعلم إني منه بريئة - لأقولن ما لم يكن ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى . قالت : ثم التمس اسم يعقوب فما أذكره فقلت : أقول ما قال أبو يوسف : ﴿ فَصَبِّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١١٦) .

فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه ، فسجى بثوبه ووضعت وسادة تحت رأسه ، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما فزعت وما باليت ، وقد عرفت أنى بريئة وأن الله غير ظالمى . وأما أبواي فوالذى نفس عائشة بيده ما سُرِى عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس ، ثم سُرِى عن رسول الله فجلس ، وإنه لينحدر من

(١١٦) يوسف : ١٨ .

وجهه مثل الجُمان في يوم شات ، فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : أبشرى يا عائشة ، قد أنزل الله عز وجل براءتك . فقلت : الحمد لله ، ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم الآيات :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١١٧)

والغريب أن الحد أقيم على من ثبتت عليهم تهمة القذف ، وهم « حسان ابن ثابت » و « مسطح » و « حمزة » أما عبد الله بن أبي مدبر الحملة وجرثومتها الخفية ، فإنه كان أحذر من أن يقع تحت طائلة العقاب . لقد أوقع غيره ثم أفلت بنفسه ..

وكتاب السيرة على أن « حديث الإفك » وغزوة « بنى المصطلق » كانا بعد الخندق ، لكننا تابعنا « ابن القيم » في اعتبارها من حوادث السنة الخامسة قبل هجوم الأحزاب على المدينة . والتحقق يساند « ابن القيم » ومتابعيه . فستعلم أن « سعد ابن معاذ » قُتل في معركة الأحزاب . مع أن لسعد في غزوة « بنى المصطلق » شأنًا يُذكر . إذ أن الرسول عليه الصلاة والسلام اشتكى إليه^(١١٨) عمل ابن أبي ولا يتفق أن يستشهد سعد بن معاذ في غزوة الخندق ثم يحضر بعد ذلك في « بنى المصطلق » ، لو صح أنها وقعت في السنة السادسة .

* * *

(١١٧) هذه القصة صحيحة رواها بهذا السياق ابن إسحاق بأسانيد صحيحة عن عائشة . ومن طريقه أخرجه ابن هشام في « السيرة » (٢٢٠/٢ - ٢٢٢) وهي عند البخاري (٤٤٧/٧ - ٣٥) ومسلم (١١٣/٨ - ١١٧) بنحو ما هنا - والآية من سورة النور : ١١ .
(١١٨) لعله وهم أو سبق قلم ، فإن المشتكى إليه إنما هو أسيد بن حضير كما في سيرة ابن هشام (٢١٧/٢) على أن إسناده مرسل فلا حجة فيه .. وفي الباب مما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم أشياء صحيحة فراجع لها « فتح الباري » (٣٤٥/٧) .

غزوة الأحزاب

أيقنت طوائف الكفار أنها لن تستطيع مغالبة الإسلام إذا حاربتة كل طائفة منفردة وأنها ربما تبلغ أملها إذا رمت الإسلام كتلة واحدة ، وكان زعماء يهود في جزيرة العرب أبصر من غيرهم بهذه الحقيقة ، فأجمعوا أمرهم على تأليب العرب ضد الإسلام وحشدتهم في جيش كثيف ينزل محمداً ﷺ وصحبه في معركة حاسمة . وذهب نفر من قادة اليهود إلى قريش يستنفرونهم لحرب رسول الله ﷺ . وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، وكانت قريش قد أخلفت عدتها مع النبي عاماً .

وهي لابد خارجة لقتال المسلمين إنقاذاً لسمعتها وبرأ بكلمتها . وها هم أولاء رجالات يهود يحالفونهم على ما يبغيون فلا مكان لتوجس أو إخلاف .

والغريب أن أحبار التوراة أكدوا لعبدة الأوثان في مكة أن قتال محمد ﷺ حق ، واستئصاله أَرْضَى اللَّه . لأن دين قريش أفضل من دينه . وتقاليد الجاهلية أفضل من تعاليم القرآن ، وسُرَّت قريش بما سمعت ، وزادها إصراراً على العدوان . فواعدت اليهود أن تكون معها في الزحف على المدينة .

وترك زعماء اليهود قريشاً إلى أعراب « غطفان » فعقدوا معهم حلفاً مشابهاً لما تم مع أهل مكة ودخل في هذا الحلف عدد من القبائل الناقمة على الدين الجديد . وبذلك نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ﷺ ودعوته ، وعرف المسلمون مبلغ الخطر المهدق بهم ، فرسموا - على عجل - الخطة التي يدفعون بها عن دعوتهم ودولتهم ، وكانت خطة فريدة لم تسمع العرب - قبلاً - بمثلها ، وبهم الذين لا يعرفون إلا قتال الميادين المكشوفة .

أما هذه المرة فإن المسلمين حفروا خندقاً عميقاً يحيط بالمدينة من ناحية السهل ويفصل بين المغيرين والمدافعين .

وأقبلت الأحزاب في جميع غفير لا قبَل للمسلمين برده .

قريش في عشرة آلاف من رجالها ومن تبعهم من « كنانة » و « تهامة » و « غطفان » في طليعة « نجد » .

وبرز المسلمون بعد ما جعلوا نساءهم وذرايعهم فوق الآطام الحصينة من يثرب . ثم انتشروا على حدود مدينتهم مسندين ظهورهم إلى جبل « سلع » ومرابطين على شاطئ الخندق الذي احتفروه بعد جهود مضنية ، وبلغت عدتهم في هذه المعركة نحو ثلاثة آلاف مقاتل .

* * *

علم رسول الله ﷺ أن الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة في ساحة ممهدة ليس طريق النصر . فما عسى أن تصنع قلة مؤمنة مكافحة مع هذا السيل الدافق ؟ .

لذلك لجأ إلى هذه المكيدة ، ويروى أن الذي أشار بها « سلمان الفارسي » وتقدم النبي رجاله لإحكامها وإنجازها ، فأخذ يحفر ويحمل الأتربة والأحجار على عاتقه وتأسي به الرجال الكبار ممن لم يألفوا هذا العمل قط ، فشهدت يثرب منظرًا عجيبًا ، وجوهاً ناصعة تتألف منها فرق شتى تضرب بالفئوس وتحمل المكاتل ، وتتعرى من لباسها وزينتها لتلبس حلالاً من نسج الغبار المتراكم والعرق واللغوب .

قال البراء بن عازب : كان رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغبر بطنه وهو يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أينا (١١٩)

(١١٩) حديث صحيح أخرجه الشيخان في صحيحهما .

وهذا الغناء من شعر « عبد الله بن رواحة » كان المشتغلون في الخندق يريون التعب عن أعصابهم بالاستماع إلى نغمة وترديد الكلمات الأخيرة من مقاطعه . وكان رسول الله ﷺ يمد صوته بها معهم فيقول : لاقينا ، أيينا (١٢٠) مما يعيد إلى أذهاننا صور « الفعلة » الذين يحفرون الترع بالريف ، أو يبنون القصور بالمدن .

إن الدفاع عن الإسلام ، ومخافة الفتنة لو انتصر المشركون ، جعلت الرسول ﷺ وصحابته يعالجون هذا العمل الثقيل ، ونفوسهم راضية مغتبطة مع ما يلقون فيه من عناء وصعوبة .

ولا تحسبن عمل رسول الله ﷺ في تعميق الخندق وقذف أثرته من قبيل التمثيل الذي يحسنه بعض الزعماء في عصرنا . كلا .. كلا .

إن الرجولة الكادحة الجادة في أنبل صورها . كانت تُقتبس من مسلك الرسول ﷺ في هذه المعركة . يقول البراء : لقد وارى عنى التراب جلدة بطنه وكان كثير الشعر (١٢١)

أجل إنه استغرق في العمل مع أصحابه فالرجولة الصادقة لا تعرف التمثيل .

وكان الفصل شتاءً ، والجو بارداً وهناك أزمة في الأقوات تعانها المدينة التي توشك أن تتعرض لحصار عنيف ، وليس هناك أقتل لروح المقاومة من اليأس فلو تعرض المحصور لسوراته القابضة ، فمزلق الاستسلام الدليل أمامه تنجر به الحضيض ، لذلك اجتهد النبي ﷺ في تدعيم القوى المعنوية لرجاله ، حتى يوقنوا بأن الضائقة التي تواجههم سحابة صيف عن قليل تنقشع .

ثم يستأنف الإسلام مسيره بع ، فيدخل الناس فيه أفواجا ، وتندك أمامه معاقل الظلم ، فلا يصدر عنها كيد ، ولا تحشى منها فتنة .

ومن أحكام السياسة أن يقارن هذا الأمل الواسع مراحل الجهد المضنى .

(١٢٠) حديث صحيح وهو رواية للبخارى عن البراء بن عازب .

(١٢١) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (٣١١/٧) .

قال عمرو بن عوف : كنت أنا وسلمان وحذيفة ، والنعمان بن مقرن ، وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً - من الأرض التي كُلِّفُوا بحفرها - فحفرنا حتى وصلنا إلى صخرة بيضاء كسرت حديدنا وشقت علينا ، فذهب سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره عن هذه الصخرة التي اعترضت عملهم وأعجزت معاولهم .

فجاء النبي عليه الصلاة والسلام وأخذ من سلمان المعول ، ثم ضرب الصخرة ضربة صدعتها . وتطاير منها شرر أضواء خلل هذا الجو الداكن . وكَبُرَ رسول الله عليه الصلاة والسلام تكبير فتح ، وكَبُرَ المسلمون . ثم ضربها الثانية فكذلك ثم الثالثة فكذلك .

تفتت الصخرة تحت ضربات الرجل الأيَّد الجلد ، الموصول بالسما ، الراسخ على الأرض . ونظر النبي ﷺ إلى صحبه وقد أشرق على نفسه الكبيرة شعاع من الثقة الغامرة والأمل الحلو ، فقال - يحدث صحبه عن السنا المنقذ بين حديد المعول وحدة الصخر - : أضواء لي في الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . وفي الثانية أضواء القصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . وأضواء لي في الثالثة قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . فأبشروا . فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله .. موعود صادق (١٢٢) .

فلما انسابت الأحزاب حول المدينة وضيقوا عليها الخناق لم تطر نفوس المسلمين شعاعاً بل جابهوا الحاضر المر وهم موطئو الأمل في غد كريم .

(١٢٢) ضعيف جداً بهذا السياق رواه ابن جرير في تاريخه من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده . و « كثير » هذا متروك بل قال الشافعي وأبو داود : ركن من أركان الكذب وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه (١٠٠/٤) « حديث غريب » وقصة الصخرة ثبتت في صحيح البخاري (٣١٧/٧) من حديث البراء مخلصاً ، وهي عند أحمد (٣٠٣/٤) من حديثه مطولاً ، وإسناده حسن كما قال الحافظ في « الفتح » (٣١٨/٧) فيحسن جعله مكان حديث « كثير » .

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (١٢٣) .

أما الواهنون والمرتابون ومرضى القلوب . فقد تنلدروا بأحاديث الفتح ، وظنوها أماني المغرورين ، وقالوا عن رسول الله ﷺ : يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا .

وفهم قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢٤) .

* * *

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر بل معركة أعصاب .

فقتلى الفريقين من المؤمنين والكفار يُعدون على الأصابع . ومع تلك الحقيقة فهي من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام ، إذ أن مصير هذه الرسالة العظمى كان فيها أشبه بمصير رجل يمشي على حافة قمة سامقة ، أو جبل ممدود ، فلو اختل توازنه لحظة وفقد السيطرة على موقفه ، لهُوى من مرتفعه إلى وادٍ سحيق ، ممزق الأعضاء ، ممزق الأشلاء . ولقد أمسى المسلمون وأصبحوا فإذا هم كالجذيرة المنقطعة وسط طوفان يتهددها بالغرف ليلاً أو نهاراً . وبين الحين والحين يتطلع المدافعون . هل اقتحمت خطوطهم في ناحية ما من منطقة الدفاع ؟ وكان المشركون يدورون حول المدينة غضاباً يتحسسون نقطة ضعيفة لينحدروا منها فينفسوا عن حنقهم المكتوم ، ويقطعوا أوصال هذا الدين الثائر .

وعرف المسلمون ما يترصد بهم وراء هذا الحصار ، فقرروا أن يربطوا في مكانهم ينضحون بالنبل كل مقترب ، ويتحملون لأواء هذه الحراسة التي تنتظم السهل والجل ، وتتسع ثغورها يوماً بعد يوم وهم كما وصف الله تعالى :

٢٢ : الأحزاب (١٢٣)

١٢ : الأحزاب (١٢٤)

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (١٢٥) .

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول المدينة على هذا النحو ، فإن فرض الحصار وترقب نتائج ليس من شيمتهم . فخرج عمرو بن ودّ ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب ، وأقبلوا تعقبهم خيلهم حتى وقفوا على حافة الخندق . فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها .

ثم تيمموا مكان ضيقاً من الخندق . وضربوا خيلهم فاقتحمته ، وأحس المسلمون الخطر المقترّب ، فأسرع فرسانهم يسدون هذه الثغرة يقودهم عليّ ابن أبي طالب .

وقال عليّ لعمر بن ودّ ، وهو فارس شجاع معلم : يا عمرو .. إنك عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلا إحدى خلتين إلا أخذتها منه . قال : أجل . فقال له عليّ : فإنّي أدعوك إلى الله ورسوله وإلى الإسلام . قال عمرو : لا حاجة لي بذلك . قال عليّ : فإنّي أدعوك إلى النزال . فأجاب عمرو : ولم يا ابن أخي ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك - استصغاراً لشأنه - قال عليّ : لكنني والله أحب أن أقتلك . فحمى عمرو ، واقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ثم أقبل على عليّ ، فتنازلا وتجاولا . فقتله عليّ ، وخرجت خيل المشركين من الخندق منهزمة حتى اقتحمته هاربة .

وكان الأولاد في البيوت يرقبون جهاد المدافعين وحركاتهم السريعة لصعد العدوان في مظانه . فعن عبد الله بن الزبير : جعلت يوم الخندق مع النساء والصبيان في الأطم ومعهم عمر بن أبي سلمة ، فجعل يطأطي لي فأصعد على ظهره فأنظر . قال : فنظرت إلى أبي وهو يحمل مرة هنا ومرة ههنا ، فما يرتفع له شيء إلا أتاه .

فلما أمسى وجاءنا إلى الأطم قلت : يا أبت ، رأيتك اليوم وما تصنع قال : رأيتني يا بني ؟ قلت : نعم . قال الزبير - مدلاً ولده - : فدى لك أبى وأمى .

في هذه الآونة العصيبة جاءت الأخبار أن بنى قريظة نقضوا معاهدتهم مع رسول الله ﷺ ، وانضموا إلى كتائب الأحزاب التي تحدد بالمدينة .

وذلك أن حبي بن أخطب - أحد نفر الذين حرّضوا قريشاً وسائر العرب على حرب الإسلام - جاء إلى كعب بن أسد ، سيد قريظة ، وقرع عليه بابه ، وكان كعب عند قلوب الأحزاب قد أغلق أبوابه ومنع حصونه ، وقرر أن يؤي بالعهد الذي بينه وبين المسلمين ، فلا يعين عليهم خصماً - وليته بقى على هذا العزم - إلا أن حبياً لزم الباب وهو يصرخ بكعب : ويحك افتح لى ، فقال له كعب : إنك امرؤ مشعوم ، وإنى عاهدت محمداً ، فلست بناقض ما بينى وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً وقال حبي : ويحك افتح لى أكلمك ، قال : ما أنا بفاعل ، فقال حبي : والله إن أغلقت بابى دونى إلا خوفاً على جيشيتك أن آكل معك منها ! .

فأحفظ الرجل ففتح له .

ودخل حبي يقول : ويحك يا كعب ، جئتك بعز الدهر وبحر طام ! قال : وما ذاك ! قال : جئتك بقريش على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم بمجتمع « الأسيال » من « دومة » و « بغطفان » على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم إلى جانب « أحد » قد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه .

قال كعب : جئتني - والله - بذل الدهر ، وبجهام قد هراق ماءه ، فهو يرعد ويبرق ، وليس فيه شيء ، دعنى وما أنا عليه . فإنى لم أر من محمد إلا وفاءً وصدقاً .

وتدخل آخرون فقالوا : إذا لم تنصروا محمداً كما يقضى الميثاق - فدعوه وعدوه .

بيد أن حبياً استطاع أن يقنع سائر اليهود بوجهة نظره ، وأن يزين لهم الغدر في هذه الساعة الحرجة ، وأن يضمهم إلى المشركين في قتالهم الذى أعلنوه وجعلوا الغاية منه ألا يرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه ، ومضياً في هذه الخطة الجائرة

الخنيسة أحضرت قريظة الصحيفة التي كتب فيها الميثاق فمزقتها فلما بعث النبي عليه الصلاة والسلام رجاله ليسجلوا موقف قريظة بإزاء عدوان الأحزاب قالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ! .

وحاول سعد بن معاذ أن يذكرهم بعقدهم فتصاموا عنه .
فلما خوفهم عقبي الغدر ، وذكر لهم مصير بني النضير ، قالوا له : أكلت أير أريك .. ! .

وتبين أن حرص قريظة الأول على التزام العهد كان خوفاً من عواقب الغدر فقط . فلما ظنت أن المسلمين أحيط بهم من كل جانب وأنها لن تؤاخذ على خيانة ، أسفرت عن خيانتها ، وانضمت إلى المشركين المهاجرين .

ووجم المسلمون حين عادت رسلهم تحمل هذه الأنباء المقلقة ، وربت مشاعر الكره في صدورهم لأولئك اليهود ، حتى لأصبحوا أشوه أمام أعينهم من عبادة الأصنام ووعوا أتم الوعي أن بني إسرائيل أقدموا على قرارهم هذا ، وهم يعلمون معناه وعقابه ، يعلمون أنه محاولة متعمدة للإجهاز على هذه الأمة ودينها ، وتسليمها إلى من يقتل رجالها ، ويسترق نساءها ، ويبيع ذرارها في الأسواق .

* * *

وتقنع الرسول عليه الصلاة والسلام بثوبه حين أتاه غدر قريظة فاضطجع وبكث طويلاً حتى اشتد على الناس البلاء . ثم غلبته روح الأمل فنهض يقول : أبشروا بفتح الله ونصره !! وفكر في أن يرد عن المدينة بعض القبائل التي فرضت الحصار لقاء ثلث الثمار يذله لها ويتقى به شرها . وكاد يصل في مفاوضاته مع قواد غطفان إلى هذا الحل .

ولكن سادة الأوس والخزرج ، عز عليهم أن يرضوا به ، وقدروا للنبي عليه الصلاة والسلام شفقتهم وألمه لاجتماع العرب ضدهم .

بيد أنهم قالوا : ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، وطال الحصار .

قال موسى بن عقبة : وأحاط المشركون بالمسلمين حتى جعلوهم في مثل الحصن من كتائبهم . فحاصروهم قريباً من عشرين ليلة ، وأخذوا بكل ناحية حتى لا يدري : أثم هم أم لا ؟ - هل اجتلوا البلد أم لا ؟ قال : ووجهوا نحو منزل رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فقاتلها المسلمون يوماً إلى الليل ، فلما حانت صلاة العصر دنت الكتيبة - من المنزل - فلم يقدر النبي عليه الصلاة والسلام ولا أحد من أصحابه ، أن يصلوا العصر على نحو ما أرادوا .

وانكفأت الكتيبة المشتركة مع الليل ، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال : « شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم ناراً » (١٢٦) .

فلما اشتد البلاء نافق ناس كثير ، وتكلموا بكلام قبيح .

ورأى رسول الله ما بالناس من البلاء والكرب ، فجعل يبشرهم ويقول : « والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة ! وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً ، وأن يدفع الله إليّ مفاتيح الكعبة ! وليلهكن الله كسرى وقيصر ، ولتتفقن كنوزهما في سبيل الله » (١٢٧) .

ووقع ثقل المقامة على صحاب الإيماں الراسخ والنجدة الرائعة . كان عليهم أن يكتبوا مظاهر القلق التي انبعثت وتكاثرت في النفوس الخوارة الهلوع وأن يشيعوا موجة من الإقدام والشجاعة تغلب أو توقف نزعات الجبن والتردد التي بدت هنا وهناك . وطبائع النفوس تتفاوتت تفاوتاً كبيراً لدى الأزمات العضوض .

منها الهش ، الذي سرعان ما ينوب ويحملة التيار معه كما تحمل المياه الغشاء والأحوال .

ومنها الصلب ، الذي تمر به العواصف المجتاحة ، فتتكسر حدتها على متنه وتتحول رغبة خفيفة وزبداً .

(١٢٦) حديث صحيح ، أخرجه الشيخان ، وغيرهما من حديث علي رضي الله عنه ، وقال المقرئ في « امتاع الأسماع » (ص ٢٣٤) : « وهو حديث ثابت من طرق عنه » .
(١٢٧) لم أجده الآن .

أجل .. من الناس من يهجم على الشدائد ليأخذها قبل أن تأخذه . وعلى لسانه قول الشاعر :

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما
ومنهم ، من إذا مسه الفزع طاش له ، فولى الأدبار ، وكلما هاجه طلب
الحياة وحب البقاء ، أوغل في الفرار .
وقد نعى القرآن الكريم على هذا الصنف الجزوع موقفه في معركة الأحزاب
فقال :

﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمَتَّعُونَ
إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ،
وَلَا يَجْلُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (١٢٨) .

وعندما حاولت قريش اقتحام الخندق ، وعندما حاولت احتلال بيت النبي ،
وعندما عجمت عود المرابطين تبحث عن نقطة رخوة ، لتشب منها إلى قلب المدينة ،
كان أولئك المؤمنون الراسخون سراعاً إلى دعي الفداء ، يبيحون من كل صوب
ليستيقن العدو أن دون مرامه الأهوال ..

روى ابن إسحق أن عائشة أم المؤمنين كانت في حصن بنى حارثة يوم
الخندق . وكان من أحرز حصون المدينة . وكانت أم سعد بن معاذ معها في
الحصن . قالت عائشة : وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب .

فمر سعد وعليه درعه مقلصة خرجت منها ذراعه كلها . وفي يده حربته يرقل
بها ويقول :

لبث قليلاً يشهد الهيجا حمل (١٢٩) لا بأس بالموت إذا حان الأجل !

(١٢٨) الأحزاب : ١٦ ، ١٧ .

(١٢٩) أراد به حمل ابن سعدانة بن حارثة بن معقل بن عليم بن جناب الكلبي كما في « الروض الأنف »
والبعض يسحقها « حمل » بالجم وهو غلط .

فقلت له أمه : الحق يا بني فقد - والله - أخرت ..

قالت غائشة : فقلت لها يا أم سعد ، والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي . قالت : ونخت عليه حيث أصاب السهم منه فرمى سعد بن معاذ بسهم قطع منه الأكحل .

ويظهر أن جراحة « سعد » كانت شديدة وليس سعد بالرجل الذي يهاب المنايا . ولكنه عميق الرغبة في متابعة الجهاد حتى يستقر أمر الإسلام وتنكس رؤية خصومه . فدعا الله قائلاً : « اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها ، فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولا تمتني حتى تفر عيني من بني قريظة » .

ودعوة سعد الأخيرة تصوّر مبلغ ما انطوت عليه قلوب المسلمين من غيظ الخيانة يهود وتمزيقها المعاهدة القائمة .

ومسلك بني إسرائيل بإزاء المعاهدات التي أمضوها قديماً وحديثاً يجعلنا نخزم بأن القوم لا يدعون خستهم أبداً ، وأنهم يرعون الموائيق ما بقيت هذه الموائيق متمشية من أطماعهم ومكاسبهم وشهواتهم ، فإذا وقفت تطلّعهم الحرام نبذوها نبذ النواة ، ولو تركت الحمير نهيقها ، والأفاعي لدغها ، ترك اليهود نقضهم للعهود . وقد نبه القرآن إلى هذه الخصلة الشنعاء في بني إسرائيل ، وأشار إلى أنها أحالتهم حيواناً لا أناسي ، فقال :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ (١٣٠) .

ونقل سعد إلى خيمة بالمسجد ، لتقوم على تمريضه إحدى المؤمنات الماهرات .

* * *

(١٣٠) الأنفال : ٥٥ ، ٥٦ .

وجاء المسلمون إلى رسول الله ﷺ يسألونه : هل من شيء نقوله ؟ فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال : « نعم .. اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا » (١٣١) .

وعن عبد الله بن أوفى : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم » (١٣٢) .

والله تبارك وتعالى لا يقبل الدعاء من متوكل كسول ، وما يستمع لشيء استماعه لهتاف مجتهد : أن يبارك له سعيه . أو دعاء صابر : أن يجمل له العاقبة .

وقد أفرغ المسلمون جهدهم في الدفاع عن رسالتهم ومدينتهم ، حتى لم يبق في طوق البشر مدخر ، فبقى أن تتدخل العناية العليا لتقمع صعر الظالم وتقيم جانب المظلوم .

ومن ثم أخذ سير المعركة يتطور على نحو لا يدرك الناس كنهه .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ (١٣٣) .

ضاق الأعراب النازلون بالعراء ذرعاً لهذا المقام الغريب ، لقد خيموا حول أطراف يثرب أيام لا تؤذن بدايتها بإنهاء . وهم لم يجهشوا ليستنفدوا أقواتهم أمام خندق صعب الاجتياز ، وجبال رابط المسلمون أمامها ، واستقتلوا دون أن يقترب أحد منها .

ثم إن الجو اغبرت أرجاؤه وترادفت أنوآؤه ، وهبت الرياح نكباء موحشة الصغير ، تكاد في هبوبها تطوى الخيام المبعثرة وتطير بها في الآفاق .

والصلة بين أولئك الحلفاء لا تغرى بدوام الثقة ، إن غطفان وقبائل نجد أقبلت يخلوها السلب والنهب ، وهى قد قبلت العودة من حيث أتت ، عندما أغريت ببعض ثمار المدينة لولا أن المسلمين كبر عليهم أن يطعموهم منها رهباً .

(١٣١) حديث سنن أخرجه أحمد (٣/٣) وابن أبي حاتم في تفسيره من حديث أبى سعيد الخدرى .

(١٣٢) صحيح : أخرجه البخارى ومسلم في صحيحهما .

(١٣٣) المدثر : ٣١ .

وماذا صنعت قريظة ؟ .

نقضت الموثق ونكصت عن الهجوم منتظرة من العرب أن يقوموا هم به ! .
إن يهودياً خرج يطبق بحصن للمسلمين فنزلت إليه صفية بنت عبد المطلب
فقتلته ، ولا غرو ، فهي أخت حمزة ! .

وتلفت أبو سفيان يمناً ويسرة ، يتطلب عوناً على ما يبغى فلا يرى مأمناً ،
مما أوقع الوهن في قلبه ، وصفوف قريش معه .

وكان رسول الله ﷺ يعرف هذا التصدد الخفى في صفوف الأحزاب ،
فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله لجانبه ، فلما جاءه نعيم بن مسعود مسلماً ،
أوصاه أن يكتن إسلامه ورده على المشركين يوقع بينهم ، وقال له : « إنما أنت فينا
رجل واحد فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » فخرج « نعيم » حتى أتى
بنى قريظة - وكان لهم نديماً في الجاهلية ، فقال : يا بنى قريظة ، فقد عرفتم ودى
إياكم وخاصة ما بينى وبينكم ، قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن
قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونسأؤكم لا تقدون على
تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد
ظاهروهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونسأؤهم بغيره . فليسوا كأنتم ! فإن رأوا نهزة
أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم .
ولا طاقة لكم به إن خلا بكم . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من
أشرافهم . يكونون بأيديكم . ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تنجزوه .
فقالوا له : لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج حتى أتى قريشاً . فقال لأبى سفيان ومن معه : قد عرفتم ودى لكم
وفراقى محمداً . وإنه قد بلغنى أمر رأيتم على حقاً أن أبلغكموه ، نصحاً لكم .
فاكتموه عنى . فقالوا : نفعل . قال : تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا
فيما بينهم وبين محمد . وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن
نأخذ لك من القبيلتين ، قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم ، فتضرب
أعناقهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم ؟ فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من
رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً .

ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يا معشر غطفان إنكم أصلى وعشيرتى وأحب الناس لى ، ولا أراكم تهمنى ، قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم ، قال : فاكتبوا عنى ، قالوا : نفعل . ثم قال لهم مثل ما قال لقريش ، وحذرهم ما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس كان من صنع الله لرسوله أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً - ﷺ - حتى تعطونا رهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً ، فإننا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال - أن تنشتموا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان : والله إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلى بنى قريظة ، إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال ، فاخرجوا فقاتلوا ، فقالت بنو قريظة - حين انتهت الرسل إليهم بهذا - : إن الذى ذكر لكم نعيم لحق ، ما يريد القوم أن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشتموا إلى بلادهم (١٣٤) .

* * *

وهكذا أفلح المسلمون فى فصم عرى التحالف بين الأحزاب المجتمعة عليهم .
فما مضت أسابيع ثلاثة على ذلك الحصار المضروب حتى دب القنوط

(١٣٤) ذكر هذه القصة ابن إسحاق بدون إسناد وعنه ابن هشام (١٩٣/٢ - ١٩٤) لكن قوله ﷺ : « الحرب خدعة » ، صحيح متواتر عنه ﷺ رواه الشيخان من حديث جابر وأبى هريرة وغيرهما ، انظر الجامع الصغير مع شرحه « فيض القدير » للمناوى .

والتخاذل في صفوف المهاجمين على حين بقيت جبهة المدافعين سليمة لم تثلم .
وفي ليلة شاتية ، لفحت سبراتها الوجوه والجلود ، وأقعدت الرجال في أماكنهم ينشدون الدفء ، ويفرون من القر المتساقط على الصخور والرمال ، اتجهت نيات القوم إلى اتخاذ قرار حاسم في هذا القتال الفاشل ؟ .

وكأنما كان زئير الرياح الهوج سوطاً يلهب المهاجمين حتى لا يتوانوا في الخلاص من هذا الموقف ، ونظر رسول الله ﷺ من وراء أسوار المدينة . وحوله أصحابه جاثمون في مكانهم يرمقون الأفق بحذر ، ويرقبون الغيب بأمل ، والظلام البارد الثقيل يرين على كل شيء في الصحراء المترامية .

قال حذيفة بن اليمان ، رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود ، وأبو سفيان ومن معه فوقنا ، وقريظة أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً منها ، تطن في رياحها أصوات أمثال الصواعق ، وما يستطيع أحدنا أن يرى أصبعه من قتامها السائد ، ولم يكن عليّ جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لا مرأتى لا يجاوز ركبتى فأتانى الرسول ﷺ وأنا جاث على الأرض فقال : من هذا ؟ فقلت : حذيفة ، فقال : حذيفة ؟ فتقاصرت في موضعي وأنا أقول : بلى يا رسول الله - كراهية أن أقوم . فندبني لما يريد وقال : إنه كائن في القوم خبر فأتني به ، فخرجت وأنا أشد الناس فرعاً وأشدهم قرأ ، فدعا لي بخير ، فمضيت لشأني كأنما أمشي في حمام - إنها حرارة الإيمان وحماسة الطاعة - جعلت الرجل يغلب بعاطفته المتقدة قسوة الجو .

قال حذيفة : وأوصاني الرسول ﷺ - حين وليت ألا أحدث في القوم حديثاً حتى آتية ، فلما دنوت من معسكر القوم نظرت ضوء نار توقد ، وإذا رجل أدهم ضخم يمد يديه إلى النار مستدفئاً ويمسح خاصرته ، ويقول : الرحيل الرحيل ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فوضعت سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميه . ثم ذكرت وصاة رسول الله ﷺ فأمسكت . ولو رميته لأصبته .

وأحسست عصف الريح في جنبات المعسكر لا تقر قدراً ولا ناراً ولا بناءً . ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، قد هلك

الكراع والخلف ، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإن مرتحل ، ثم قام إلى جملة وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم^(١٣٥) .

ورجع أبو حذيفة إلى النبى يقص عليه ما رأى .. وطلع النهار فإذا ظاهر المدينة خلاء .. ارتحلت الأحزاب ، وانفك الحصار ، وعاد الأمن ، ونجح الإيمان فى المحنة ! .

وهتف رسول الله يقول : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده .. » !!^(١٣٦) .

* * *

ورجعت الطمأنينة إلى النفوس وظهرت خيبة الأحزاب بعد ما أقبلت من كل فج لتجتاح يثرب ، وظهرت صلابة المسلمين فى مواجهة الأزمات المرهقة .

ولذلك قال رسول الله ﷺ - بعد هذه النتيجة الباهرة - : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا » ..^(١٣٧) .

* * *

(١٣٥) هذه القصة صحيحة وسياقها - هنا - مركب من ثلاث روايات ، الأولى عند الحاكم والبيهقى فى الدلائل من طريق عبد العزيز ابن أخى حذيفة عن حذيفة ، وقد ذكر لفظه ابن كثير فى التاريخ (١١٤/٤ - ١١٥) . الثانية عند ابن هشام فى « السيرة » (١٩٤/٣) عن محمد بن إسحاق بسنده عن محمد بن كعب القرظى عن حذيفة ، وكذلك أخرجه أحمد (٣٩٢/٥ - ٣٩٣) من مسند حذيفة عن ابن إسحاق وظاهر إسناده الاتصال فهو صحيح .

والرواية الثالثة أخرجه مسلم (١٧٧/٥ - ١٧٨) من طريق إبراهيم التيمنى عن أبيه عن حذيفة ، ولها طريق رابعة أخرجه الحاكم فى « المستدرک » (٣١/٣) من طريق بلال العيسى عن حذيفة . وقال : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبى ، وأخرجه البزار أيضاً كما فى « المجمع » (١٣٦/٦) وقال : « رجاله ثقات » .^(١٣٦) أخرجه البخارى فى « غزوة الخندق » من صحيحه (٣٢٦/٧) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : .. فذكره ، وهذا مطلق ليس فيه ذكر الخندق والله أعلم .

(١٣٧) حديث صحيح أخرجه البخارى (٣٢٥/٧) من حديث سليمان بن صرد رضى الله عنه .

مع قريظة

انفضت حشود الأحزاب حول المدينة ، وعادت المطي بها من حيث أتت
تذرع رحاب الصحراء ، وليس تحمل معها إلا الفشل والخيبة ، وبقي يهود قريظة
وحدهم ، أو بقوا وبقيت معهم غدرتهم التي فضحت طواياهم ، فأصبحوا وأمساوا
أشبه بالمجرم الذي ثبتت إدانته ، فهو يرقب - بوجه كالح - قصاص العدالة منه .

وكانت مشاعر التغيظ في أفئدة المسلمين نحو أولئك اليهود قد بلغت ذروتها ،
لأنهم هم الذين استخرجوا العرب استخراجاً ، واستقدموهم إلى دار الهجرة
ليجتاحوها من أقطارها ، ويستأصلوا المسلمين فيها ، إن جراحات المسلمين لطردهم
من ديارهم ومطاردتهم في عقيدتهم ، واستباحة أموالهم ودمائهم لكل ناهب ومقتال ،
لما تندمل بعد ، بل لن تندمل أبداً ، فكيف ساغ لأولئك الخونة من بنى إسرائيل
أن يرسموا بأنفسهم الخطة لإهلاك الإسلام وأبنائه على هذا النحو الذليل ؟ .

ثم ما الذي يجعل بنى قريظة خاصة - وهوم لم يروا في جوار محمد إلا البر
والوفاء - يستديرون بأسلحتهم منضمين إلى أعداء الإسلام كي يشركوهم في قتل
المسلمين وسلبهم ؟ .

وها قد دخل في حصونهم حبي بن أخطب رأس العصابة التي طافت بمكة
ونجد تحرض الأحزاب على الله ورسوله ، وتزعم أن الوثنية أفضل من التوحيد ..

لذلك ، ما إن وثق المسلمون من منصرف الأحزاب عن المدينة حتى أمر
رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر
إلا في بنى قريظة (١٣٨) .

(١٣٨) حديث صحيح ، أخرجه ابن هشام (١٩٤/٢ - ١٩٥) عن ابن إسحاق : حدثني الزهري به
مرسلاً ، وقد أخرجه البخاري (٣٢٧/٧) ومسلم (١٦٢/٥) وغيرهما من حديث ابن عمر به ، دون قوله :
« من كان سامعاً مطيعاً » .

والأذان للقتال في هذه الصحوة المشرقة بالظفر والنجاة قرع مسامع المسلمين ندياً جلياً ، فهم في غمرة من الشعور بتأييد الله وملائكته لهم ، أين هم اليوم مما كانوا عليه بالأمس القريب ؟ إنهم مدينون بحياتهم وكرامتهم للعناية العليا وحدها .

أما خصومهم ، فإن قوى الكون المسخر بإذن الله هي التي فضت جموعهم وقلت حدودهم . فلا غرو إذ قال رسول الله ﷺ للمؤمنين - محدثاً عن الروح الأمين - : « ما وضعت الملائكة السلاح بعد .. إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم فمززل بهم » (١٣٩) .

وقد صدع الرسول بالأمر وشدد على المسلمين أن يسارعوا في إنفاذه ، روى البيهقي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : عزمت عليكم أن لا تصلوا صلاة العصر حتى تأتوا بنى قريظة ، فغربت الشمس قبل أن يأتوهم ، فقالت طائفة من المسلمين : إن رسول الله لم يرد أن تدعوا الصلاة فصلوا . وقالت طائفة : والله إنا لفي عزيمة رسول الله ، وما علينا من إثم ، فصلت طائفة إيماناً واحتساباً ، وتركت طائفة إيماناً واحتساباً ، ولم يعنف رسول الله واحداً من الفريقين (١٤٠) .

وذلك يمثل احترام الإسلام لاختلاف وجهات النظر مادامت عن اجتهاد برىء سليم ، والناس غالباً أحد رجلين ، رجل يقف عند حدود النصوص الظاهرة لا يعدوها ، ورجل يتبين حكمتها ويستكشف غايتها ، ثم ينصرف في نطاق ما وعى من حكمتها وغايتها ، ولو خالف الظاهر القريب .

وكلاً من الفريقين يشفع له إيمانه ، واحتسابه ، سواء أصاب الحق أو نذ عنه ! ومن العلماء من أهدر الوقت المعين للصلاة بعذر القتال . وذلك مذهب البخارى وغيره ، وهذا - عندى أدنى إلى الصواب . فإن ترتب الواجبات المنوطة

(١٣٩) هو من حديث الزهري المتقدم . لكن أمر جبريل النبي ﷺ بالمسير ثابت في صحيح البخارى (٣٢٧/٧) والمسند (٥٦/٦ ، ١٤١/١٣١ ، ٢٨٠) من حديث عائشة .
(١٤٠) حديث صحيح رواه البيهقي في « دلائل النبوة » من حديث عبيد الله بن كعب ، وحديث عائشة ، وأخرجه عنها الحاكم (٣٤/٣ - ٣٥) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

بأعناق العباد من أهم ما يحدد رسالة المسلم في الحياة ، بل إنه لا يفهم دينه فهما صحيحاً إلا إذا فقه هذا الترتيب المطلوب .

إن الإسلام تعاليم وأعمال شتى . فيها الفرائض وفيها النوافل .

ولا بد أن نعلم أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة . فالرجل الذي يستكثر من أعمال التطوع في الوقت الذي يهمل فيه فرائض لازمة . رجل ضال .

والفرائض المطلوبة لحفظ الإيمان . كالأغذية المطلوبة لحفظ الجسم .

وكما أن الجسم لا يقوم بالمواد النشوية وحدها ، أو الزلالية وحدها ، بل لابد من استكمال جمل متنوعة من الغذاء ، وإلا تعرض الجسم لعلل قد تنهكه أو تقتله .

فكذلك الدين ، إنه لا قيام له في كيان الفرد أو صفوف الجماعة إلا بجملة من الفرائض الملونة ، تصون حياته وتضمن عافيته ونمائه .

وعلى المسلم أن يقسم وقته وأن ينظمه على هذه الفرائض المطلوبة فلا يشغله واجب عن واجب . وبالأحرى لا تشغله نافلة عن واجب ! .

وقد رأى رسول الله ﷺ أن مباغته بنى قريظة قبل أن يستكملوا عدتهم ويقبوا حصونهم ، هو الواجب الأول في تلك الساعة فلا ينبغي أن يشغل المسلم عنه ولو بالصلاة .

فحدود وقت الصلاة تذوب أمام ضرورات القتال .

وتستطيع - على ضوء هذا الإرشاد النبوي - أن تحكم على مسالك المسلمين اليوم ، إن المدرس الذي يشغل عن تعليم تلامذته . والتاجر الذي يشغل عن تجميع ثروته ، والموظف عن أداء عمله لا يقبل الله من أحدهم عذراً أبداً في تضييع هذه الفرائض ولو كان أحدهم قد عاقه عن واجبه أنه صلى مائة ركعة . أو قرأ ألف آية ، أو عد أسماء الله الحسنى سبعين ألف مرة . كما يفعل جهال المتصوفة .

ذلك أنه انشغال عن الفرائض المطلوبة بنوافل لم تطلب ، وتعطيل لأمة ستحيل أن تنهض إلا إذا أجهدت نفسها في محاربة جهلها وفقرها وفوضاها .

والجهاد العام فريضة لا يغض من قدرها شيء ، ولا تزامنها على وقتها عبادة كما رأيت .

* * *

حمل راية المسلمين إلى حصون قريظة عليّ بن أبي طالب ، واستبق المسلمون يحتشدون حولها ، حتى إذا اقترب الجيش من منازل اليهود كان القوم لا يزالون على غوايتهم ، فقد نظروا إلى المسلمين ، ثم سبوا رسول الله ونساءه سباً قبيحاً .

فرأى عليّ أن يصرف النبي ﷺ بعيداً عن أولئك السفهاء ، فاعترض طريقه ، وهو مقبل قائلاً : يا رسول الله لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث . فقال : « لم ؟ أظنك سمعت لي منهم أذى » ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال : « لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً » .

فلما دنا من حصونهم قال : « يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته » (١٤١) ؟ قالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولاً .

هذه خلال اليهود ، يسفّهون إذا أمنوا ، ويقتلون إذا قدروا ، ويذكرون الناس بالمثل العليا إذا وجلوا ، ليستفيدوا منها وحدهم لا لشيء آخر .

أما اليهود ، فهي آخر شيء في الحياة يقفون عنده .

على أن سفاهتهم لم تغنهم ، فقد أحكم المسلمون الحصار عليهم ، وأمسكوا بخناقهم فاستيقن القوم أن الاستسلام لا محيص عنه ، وامتألت قلوبهم باليأس والفرع .

قال « كعب » سيد بنى قريظة : يا معشر يهود .. قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنى عارض عليكم خلافاً ثلاثاً ، فخذوا أيها شتم . قالوا : وما هي ؟ .

(١٤١) ضعيف أخرجه ابن إسحاق عن الزهري مرسلاً ، وعنه ابن هشام (١٩٤/٢ - ١٩٥) ، ورواه الحاكم (٣٤/٣ - ٣٥) من حديث ابن عمر ، وإسناده ضعيف .

يُتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٢﴾ .

واستمر الحصار خمساً وعشرين ليلة سمح المسلمون في أثنائها لليهود الذين رفضوا الغدر بالرسول عليه الصلاة والسلام أيام الأحزاب أن يخرجوا ، فجزوهم عن وفائهم خيراً . وخلوا سبيلهم ، ينطلقون حيث يرغبون .

ثم قرروا أن يهجموا على الحصون المغلقة ويقتحموها عنوة .

فصاح عليّ : يا كتيبة الإيمان - ومعه الزبير بن العوام - والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم . فقال بنو قريظة : يا محمد نزل على حكم سعد بن معاذ .

فاستنزلوا من حصنهم . وسيقوا إلى محبسهم ، حتى جىء بسعد بن معاذ ليقضى في حلفائه بما يرى ..

وكان « سعد » سيد الأوس وهم حلفاء بنى قريظة في الجاهلية ، وقد توقع يهود أن هذه الصلة تنفعهم ، وتوقع الأوس أيضاً من رجلهم أن يتساهل مع أصدقائهم الأقدمين ، فلما استقدمه الرسول عليه الصلاة والسلام ليصدر حكمه . جاء من الخيمة التي يمرض فيها إثر إصابته بسهام الأحزاب واكتنفه قومه يقولون له : يا أبا عمرو ، أحسن في مواليك ..

لكن سعداً لم ينس - في ضجيج الرجاء الموجه إليه - إن الإسلام وأبناءه ، والمدينة وثمارها وحرثها ونسلها وحرمانها ، لم تنج من وطأة الأحزاب الهاجمين ، إلا بأعجوبة خارقة . وأن بنى قريظة هؤلاء ومن آوؤهم ، كانوا من المحرضين والشركاء المقبوحين في هذه الحرب التي أعلنت لاستئصال التوحيد الحق واجتياح أهله .

ولم ينس سعد : كيف نقضت قريظة عهدها ، واستقبلته بالألفاظ البذيئة عندما ذهب يناشدها الوفاء ! ألم يقل لهم يومئذ : أخشى عليكم مثل يوم بنى النضير وأمر منه ؟ . فكان ردهم عليه : أكلت أير أريك !! .

(١٤٢) التوبة : ١٠٢ .

لذلك ما لبث سعد أن صاح بقومه - وقد أكثروا عليه الرجاء - : قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم .

* * *

وحكم سعد أن يُقتل الرجال ، وتُسبى الذرية ، وتُقسم الأموال ، وأقر النبي هذا القضاء الحازم قائلاً لسعد : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » (١٤٣) .

وحفرت الخنادق بسوق المدينة لتنفيذ هذا الحكم ، وسبق إليها مقاتلة اليهود أرسالاً - طائفة بعد أخرى - ليدفعوا ثمن خيانتهم وغدرهم .

قال اليهود لسيدهم كعب وهم يساقون لمصارعهم : ما تراه يصنع بنا ؟ قال : أفى كل موطن لا تعقلون ؟ ألا ترون الداعي لا ينزع وإنه من ذهب به منكم لا يرجع ؟ هو - والله - القتل .

أجل .. هو القتل . وإنما تقع تبعات الحكم به على من تعرض له بسوء صنيعة ، وبما أسلف من نيات خبيثة لم يسعفها الحظ فتتحقق ، ولو قد تحققت لكان ألوف المسلمين هلكى تحت أقدام الأحزاب المنسابة من كل ناحية يُحرّضهم ويُؤازرهم أولئك اليهود .

وربما كانت مغامرات نفر من طلاب الزعامة سبباً في هذه الكارثة التي حلت ببني قريظة ، ولو أن حى بن أخطب وأضرابه سكنوا إلى جوار الإسلام وعاشوا على ما أتوا من مغنم ، ما تعرضوا ولا تعرض قومهم لهذا القصاص الخطير .

لكن الشعوب تدفع من دمها ثمناً فادحاً لأخطاء قادتها .

وفي عصرنا هذا ، دفع الروس والألمان وغيرهم من الشعوب أثمناً باهظة ، لأثرة الساسة المخلوعين ..

(١٤٣) حديث صحيح أخرجه إسحاق وعنه ابن هشام (١٩٧/٢) عن علقمة بن وقاص الليثي مرسلًا ، لكن أخرجه الشيخان في صحيحهما عن أبي سعيد الخدرى دون قوله : « من فوق سبع سموات » فهذا ضعيف .

ولذلك ينبغي القرآن على أولئك الرؤساء مطامعهم ومظالمهم التي يحملها
غيرهم قبلهم :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ
يَصْلَوْنَهَا ، وَفِيْسَ الْقَرَارُ ﴾ (١٤٤) .

لقد جرى بحسبي ليلقى جزاءه . وحيى - كما علمت - جرثومة هذه الفتنة ؟ .
فنظر إلى رسول الله ﷺ ثم قال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكن
من يخذل الله يُخذل ، ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس . لا بأس بأمر الله ،
كتاب وقدر ، وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل ! ثم جلس ، فضربت عنقه ! .
وفي ذلك يقول الشاعر :

لعمري ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يُخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها وقلقل يبغي العز كل مقلقل
والحق أن من مشركى قريش ومن رجال يهود أناساً واجهوا الموت بثبات .
ولن تعدم المبادئ الباطلة والنحل الهازلة أتباعاً يفتدنها بالأرواح والأموال ،
غير أن شيئاً من هذا لا يجعل الباطل حقاً ، ولا الجور عدلاً .
إن موقف اليهود من الإسلام بالأمس ، هو موقفهم من المسلمين اليوم .
فألوف من إخواننا ذبحهم اليهود في صمت وهم يحتلون فلسطين .

والغريب أن اليهود تركوا من نصب لهم المجازر في أقطار أوروبا ، وجبنوا عن
مواجهتهم بشر ! واستضعفوا المسلمين الذين لم يسيئوا إليهم من إثني عشر قرناً ،
فنكلوا بهم على النحو المخزى الفاضح ، الذى لا يزال قائماً في فلسطين .. تشهده
وتؤيده وتسانده ، دول الغرب .

* * *

(١٤٤) إبراهيم : ٢٨ ، ٢٩ .

في طرد الأحزاب ودحر قريظة ، نزلت الآيات :

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا . وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْطُوهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (١٤٥) .

فقد المسلمون في هذا الصراع - مع المشركين أولاً ، ومع أهل الكتاب ثانياً - عدداً يسيراً من رجالهم منهم « سعد بن معاذ » . أجاب الله دعوته فمات شهيداً من جراحته التي أصابته يوم الأحزاب بعد أن شفى الله غيظه من يهود قريظة وبعد أن تبين فشل قريش في هجومها على المدينة ، وانقلابها لتغزى في عقر دارها ، لا لتغزو الآخرين .

ولم تنته الخصومة بين المسلمين واليهود بانتهاء قريظة وإنكسار شوكتها ، فإن بعض مؤلبي الأحزاب على الإسلام فرّ إلى خيبر لائذاً بخصونها مستظهراً بإخوانه فيها ، مثل أبي رافع بن أبي الحقيق ، وهو شريك حبي في التطواف بالقبائل يستجلبها إلى يثرب بغية الإتيان على الإسلام وأهله ، وليس يؤمن لليهود شر ما بقيت لهم قدرة على فعله . وقد صور حديث الرسول نقمة اليهود على الإسلام بقوله : « ما خلا يهودى بمسلم إلا هم يقتله » (١٤٦) ولا نعرف لهذه النقمة الدفينة علة ، إلا انحراف أصحابها عن الجادة . ومن حق المسلمين أن يحذروها ، وأن لا يدعوا لها بقية تنمو على الزمن .

لذلك خرج من المدينة خمسة من الخزرج ذاهبين إلى خيبر ، بغيتهم القضاء على أبي رافع وإلقاء الذعر في قلوب شيعته وقد أمر الرسول عليهم عبد الله بن عتيك ، ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة (١٤٧) .

(١٤٥) الأحزاب : ٢٥ - ٢٧ .

(١٤٦) حديث ضعيف أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣١٦/٨) وقال : « حديث غريب جداً » .

(١٤٧) حديث صحيح أخرجه البخارى عن البراء بن عازب .

وقدم المغامرون في أرض خيبر . وانتهاوا إلى دار ابن أوى الحقيق وقد أظلمهم المساء قال عبد الله بن عتيك لصاحبه : - عندما دانوا من الحصن - : امكثوا أنتم حتى أنطلق أنا فأنظر : قال : فاحتلت لأدخل الحصن ، فإذا الخدم فقدوا حماراً لهم فخرجوا بقبس يطلبونه !! ، فخشيت أن أعرف ، فغطيت رأسى وجلست كأنى أقضى حاجة .

فقال البواب - بعد ما استرجعوا حاجتهم - : من أراد أن يدخل فليدخل قبل أن أغلقه ، فدخلت واختبأت في مربوط اللواب عند باب الحصن .

وتعشى أبو رافع وصاحبه ، وأخلوا يسمرون حتى ذهبت ساعة من الليل ثم انصرف عنه جلساؤه قافلين إلى بيوتهم ، وهدأت الأصوات فما أسمع حركة .

وخرجت ، وأنا أعرف أين وضع البواب مفاتيح الحصن فأخذتها وفتحت الباب حتى إذا أحس بى القوم انطلقت على مهل . ثم عمدت إلى أبواب غرفهم فغلقتها من ظاهر ، ثم صعدت إلى أوى رافع - حيث يبيت فى العلالى - فإذا البيت مظلم قد أطفئ سراجة . فلم أدر أين الرجل ؟ . فقلت : يا أبا رافع ! قال : من هذا ؟ فعمدت نحو الصوت فضربتة ، فصاح ولم تغن الضربة شيئاً .

وجئت كأنى أغيبه فقلت : ما لك يا أبا رافع ؟ - وغيرت صوتى - قال : لأملك الويل ، دخل على رجل فضربنى بالسيف ! فعمدت إليه فضربتة ضربة ثانية . فصاح ، وقام أهله ، فجئت مرة أخرى إليه وهو مستلق على ظهره فأجهزت عليه ثم خرجت دهشاً حتى أتيت السلم أريد أن أنزل ، فسقطت منه فأنخلعت رجلى ، فعصبتها وأتيت أصحابى أحجل .

وعاد القوم إلى المدينة يبشرون من وراءهم أنهم أراحوا من طريق الدعوة عقبة كأداء .

تضعض الكفر بعد هذه الوقعات الغليظة . ورست أصول الإسلام واطمأنت دولته . فما انتهت السنة الخامسة للهجرة حتى أصبح المسلمون قوة تفرض نفسها وتذيق المعاندين بأسها . واستيقنت قريش وأحلافها أن رد المسلمين إلى عبادة الأوثان

ضرب من المستحيل ، كما استيقن اليهود أن خصامهم الخبيث للدين الجديد والرسالة الخاتمة لم يزددهم إلا خيلاً .

ولم تقع بعد غزوة الأحزاب هذا العام إلى أخريات السنة السادسة - أى إلى عمرة الحديبية - أحداث ذات بال .

وحاولت هذيل أن تجمع للإغارة على المدينة ، فقتل قائدها خالد بن سفيان ، فقعدت . وهجم لصوص الأعراب على المدينة يقودهم « عينة بن حصن » في خيل لغطفان . واستاقوا إبلها ثم ولوا هارين . غير أن « سلمة بن الأكوع » صرخ بأهل المدينة مندرأ وتبع المغيرين وحده يرميهم بالنبل ويسترد منهم اللقاح المنهوبة حتى أدركه فرسان المسلمين ، فلما رآهم المشركون فروا بعد ما قتل بعضهم وتركوا ما معهم .

ويروى البخارى أن ذلك كان بعد الحديبية لا قبلها ، ولعله أصح .

وفى هذه الفترة تزوج النبى بأُم حبيبة بنت أُمى سفيان ، وكانت مهاجرة مع زوجها بالحبيشة . فارتد صاحبها وهلك ، وبقيت وحدها .

فرأى النبى - إعزازاً للسيدة التى تركت أباه - وهو زعيم مكة وآثرته الهجرة إلى الله على البقاء فى كنفه - أن يتزوجها ، فأرسل إلى النجاشى مهرها ووكله عنه فى العقد عليها .

وتزوج كذلك زينب بنت جحش ، وستكلم عن تفاصيل ذلك فى الباب الذى نفرده بعد لتعدد الزوجات ، وزوجات الرسول - كذلك . ويقال : إن الإسلام وقع فى قلب « عمرو بن العاص » فى هذه الأيام .

فقد أثاره ما يلقاه محمد من ظفر ، وقال لبعض صحبه :

إنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً ، ثم اقترح عليهم أن يلحقوا بالحبيشة ، ويرقبوا نتائج الصراع بين المسلمين وقومهم !! .

فلما ذهب إلى الحبيشة ورأى إكرام نجاشيها للرسول ومن ينتمى إليه ، مال إلى الدخول فى دين الله .

ولكنه كتم ما فى قلبه حتى اقترب فتح مكة ، والتقى بخالد بن الوليد ، وكان خالد قد أجمع أمره على الإسلام وانتوى الذهاب إلى النبي ﷺ فى مهجره ليتبعه ، قال له عمرو : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام المنسم - وضح الطريق - وإن الرجل لنبي ! أذهب - والله - فأسلم .. حتى متى ؟ .

وسر عمرو أن يجد له صاحباً كخالد ، فصارحه بما فى نفسه ، وانطلق الرجلان إلى يثرب مسلمين مهاجرين .

وقصة إسلامهما - كما قلنا - قبيل الفتح ، فإن خالداً كان فى عمرة الحديبية قائداً لجيش قريش . وهي تصد المسلمين عن زيارة البيت العتيق



الفصل السابع طُورجَدِيد

عمرة الحديبية

جاء تفكير المسلمين في زيارة المسجد الحرام بداية لمرحلة متميزة في تاريخ دعوتهم . ليسوا يغالنون بعزمهم على دخول مكة وهم الذين طُردوا منها بالأمس وحُوربوا حيث استقرت بهم النوى ؟ وظلت حالة الحرب قائمة بينهم وبين قريش لم تسفر عن نتيجة حاسمة ؟ فكيف ينوون العمرة في هذه الظروف ؟ .

والجواب أن النبي ﷺ أراد بهذا النسك المنشود إقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم ، وإفهام المشركين أن المسجد الحرام ليس ملكاً لقبيل يحتكر القيام عليه ويمكنه الصده عنه ، فهو ميراث الخليل إبراهيم . والحج إليه واجب على كل من بلغه أذان أبى الأنبياء من قرون :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (١) .

ومن ثم فليس يجوز لأهل مكة أن يحجبوا المسلمين عنه ، ولئن استطاعوا قديماً إقصاءهم ، إنهم - بعد ما وقع من قتال - لن يصروا على خطئهم القديم .

وإحرام النبي وصحبه بالعمرة فحسب - وهم يريدون دخول مكة - آية على الرغبة العميقة في السلم ، وعلى الرغبة في نسيان الخصومات السابقة ، وتأسيس علائق أهدأ وأرق .

(١) الحج : ٢٦ ، ٢٧ .

ومتى يحدث هذا ؟ بعد أن استفرغت قريش جهدها في إيذاء المسلمين ، وبعد ما بدا فشلها الذريع في ذلك . لقد استمرت بضع سنين تقاتل وتبذل من دمها ومالها لتزعم الإسلام فلم ترجع آخر الأمر إلا بالخسائر الفادحة والأزمات العضوض ، على حين رسخت أقدام المسلمين ، وعلت راياتهم ، وانكمش عدوهم ، وها هم أولاء يخرجون إلى مكة عبّاداً مخبتين ، لا غزاة منتقمين ، أجل إنهم لا ييغون إلا أن ينالوا مثل ما لغيرهم من حق الاعتار والحج ، ولا يسوغ أن يحرموا من ذلك أبداً ، وبذلك القصد السمع المهدب ، استنفر رسول الله ﷺ جمهور المسلمين وأعراب البوادي ، وآذنه أنه يريد العمرة ولا يريد قتالاً ، وساق أمامه الهدى الذى سيدبح ليطعم فقراء مكة . الفقراء الذين حشدوا لاستئصاله يوم الأحزاب .

أكان الكافرون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام يفقهون هذه النية ويقدرّون مكان صاحبها ؟ .

لا .. إنهم بقوا على العهد بهم من فساد الضمير ونية سوء .

فالأعراب المنتشرون حول يثرب ، ومن كان على شاكلتهم من المنافقين . عرفوا أن أهل مكة سوف يقاتلون محمداً عليه الصلاة والسلام ، وأمر قتال ، وأنه إذا أتى إلا زيارة البيت - كما أعلن - فلن تدعه قريش حتى تهلكه أو تهلك هى دون إبلاغه مأربه .. فهى عمرة مخوفة بالأخطار فى نظريهم ، والفرار منها أجدى !! .

ولو فرض أن الرسول عليه الصلاة والسلام نجح فى مقصده هذا ، فالاغتدار إليه بعد عودته سهل .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِالسَّيْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً . بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنِّ السَّوِّءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ (٢) .

(٢) الفتح : ١١ ، ١٢ .

وخرج المؤمنون الوائقون مع رسول الله عليه الصلاة والسلام وعددهم قريب من ألف وأربعمائة ، وذلك في ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة . وساروا ملين يطوون الطريق إلى البيت العتيق فلما بلغوا « عسفان » على مرحلتين من مكة جاء الخبر إلى المسلمين أن قريشاً خرجت عن بكرة أبيها ، وقد أقسمت ألا يدخل بلدهم مسلم ، وأن جيشهم استعداد للنضال ، ويقود خيله خالد بن الوليد .

وبدأ شبح الحرب أمام الأعين بملاً هذه البقاع المحرمة بالدماء والأشلاء والمسلمون لم يجهشوا لهذا ، وما كان لأهل مكة أن يلجئهم إليه . فقال رسول الله ﷺ : « يا ويح قريش .. لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب . فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ! وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لأزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة » - يعنى إلى الموت - (٣) .

* * *

ومضياً مع الرغبة عن القتال ، وتخليصاً للنسك المقصود من شائبة تحد سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام : « من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها (٤) ؟ » .

فجاء رجل من أسلم فسلكت بهم طريقاً وعراً أجرد . شق على المسلمين اجتيازه ثم أفضى بهم إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى ، انثنى المسلمون بعدها يمينا ليهبطوا عند الحديبية أسفل مكة ! .

(٣) حديث صحيح أخرجه ابن إسحاق بسند صحيح عن مسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، ومن طريقه أخرجه أحمد (٣٢٣/٤ - ٣٢٦) وابن هشام (٢٢٦/٢) وهو قطعة من حديث طويل في صلح الحديبية وقد أخرجه البخارى (٣٥١/٥ - ٣٧١) وأحمد (٣٢٨/٤ - ٣٣١) من طريق أخرى عنهما بطوله . لكن عند البخارى وكذا أحمد أن هذا القول صدر منه ﷺ بعد قصة الناقة الآتية عند مجيء بديل بن ورقاء إليه ﷺ وإخباره إياه أنه لم يأت لحرب . وهذا أصح قطعاً من رواية ابن إسحاق .

(٤) حديث صحيح رواه ابن إسحاق في حديث الحديبية المشار إليه آنفاً .

ولم تخف هذه الحركة عن فرسان قريش ، فتراكضوا راجعين إلى مكة كي يحولوا بين المسلمين ودخولها .

ومضى النبي عليه الصلاة والسلام بأصحابه في وجهتهم المحددة ، فإذا بناقته تبرك لا تجاوز مكانها ! ودهش الناس لما عراها فقالوا : خلأت القصواء ! فقال النبي ﷺ : « ما خلأت ، وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » ، ثم أمر الناس أن يحلوا حيث انتهى بالناقة المسير^(٥) .

ونزل المسلمون كما أمروا ينتظرون مع الغد القريب أن تفتح لهم أبواب مكة فيطوفوا ويسعوا ، ثم يعودوا وافرين راجحين . إنهم واثقون من إدراك بغيتهم ، ولماذا يشكون وقد سمعوا من رسول الله ﷺ بشرى كثيرة بأنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين ، محللين رؤوسهم ومقصرين ؟ .

أما قريش فقد ذعرت لهذا الزحف المباغت ، وفكرت جادة في إبعاده عن مكة مهما كلفها من مغارم . وذلك أنها نظرت إلى الأمر من زاوية ضيقة ، فرأت أن مهابتها ستنزع من أفئدة الناس قاطبة إذا دخل المسلمون بلدهم على هذا النحو . بعد ما وقع من حروب طاحنة .

غير أن قريشاً تعرف حروجه موقفها إن نشب قتال جديد .

فحجتها فيه أمام نفسها وأمام أحلافها داحضة . وقد ينتهي بكارثة تودي بكيانها كله ، ولهذا سيرت الوسطاء يفاوضون محمداً ﷺ عليهم ينتهون معه إلى مخلص من هذه الورطة !! .

وكان أول من جاءه « بديل بن ورقاء » في رجال من خزاعة ، فكلموه وسألوه ما الذي جاء به هنا ؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً حرمة .

(٥) حديث صحيح ، من حديث الحديبية عند البخارى وغيره .

فرجعوا إلى قريش يقولون : يا معشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد ، إن محمداً لم يأت لقتال ؛ وإنما جاء زائراً لهذا البيت . فاتهموهم وجبهوهم ، وقالوا : وإن جاء لا يريد قتالاً .. فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا تحدث بذلك عنا العرب ؟ .

ثم بعثت قريش « مكرز بن حفص » فعاد بما عاد بن بديل الخزاعي .
ثم بعثوا سيد الأحابيش « الحليس بن علقمة » فلما رآه رسول الله ﷺ قال :
« إن هذا من قوم يتألهون ، فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه » (٦) .

فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي ، عاد إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله ، إعظماً لما شاهد فقال لهم ذلك ، فأجابوه : اجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك ، فاستشاط الحليس وصاح : يا معشر قريش .. والله ما على هذا حالناكم ولا على هذا عاقدناكم ، أيصّد عن بيت الله من جاء معظماً له ؟ والذي نفس الحليس بيده ، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .. فقالوا : مه .. كُف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ « عروة بن مسعود » وكره عروة أن يعود من مفاوضة المسلمين فيسمعه رجال قريش ما يسوؤه فقال : يا معشر قريش : إني قد رأيت ما يلقي منكم من بعثتمون إلى محمد من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وإنى ولد .

وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي . ثم جئكم حتى آسيتمكم بنفسى ، قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال : يا محمد .. أجمعت أوشاب الناس ثم جئت إلى بيضتك لتفشها ؟ - إلى قومك لتجتاحهم - إنها قريش خرجت معها العوذ المطافيل - يقصد النساء والأطفال - قد لبسوا جلود الثور ، يعاهدن الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً .

(٦) حديث صحيح ، رواه ابن إسحاق في حديث الحديبية .

وكان أبو بكر خلف رسول الله ﷺ يسمع ، فلما وصل في حديثه إلى التعريض بالمسلمين قال لها هائئاً : امصص بظر اللات ! أنحن ننكشف عنه ؟ .

فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أبي قحافة ! ، فرد عروة على أبي بكر يقول : أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها . ولكن هذه بهذه .

وعاود عروة حديثه مع رسول الله ﷺ ، وجعل يتناول لحيته وهو يكلمه - كأنه ينبه إلى خطورة ما سيقع بقومه - إلا أن المغيرة بن شعبة كان يقرع يده كلما فعل ذلك وهو يقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا يصل إليك ، فقال عروة له : ويحك : ما أفظك وأغلظك ، ثم سأل النبي : من هذا يا محمد ؟ .

فأجاب الرسول ﷺ وهو يبتسم : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة . فقال عروة للمغيرة : أى غدر .. هل غسلت سؤأتك إلا بالأمس^(٧) .

وقد رد النبي عليه الصلاة والسلام على عروة بما يقطع اللجاجة وينفي الشبهة ، إنه لا يبغي حرباً ، وإنما يريد أن يزور البيت كما يزوره غيره فلا يلقي صاداً ولا راداً .

ورجع عروة ينوه بإجلال الصحابة لرسول الله ﷺ ويقول : إني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه ، لقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم^(٨) .

* * *

إن الرجال الذين تكلموا باسم قريش في هذه المفاوضات لم تنهض له حجة ، بل إنهم عادوا إلى أهل مكة وهم أميل إلى ملاينة المسلمين وتمكينهم من أداء نسكهم ، ولم يلحف بعضهم في التصريح بذلك إلا لما لمسه من كبرياء قريش وعزوفها عن الحق

(٧) كان المغيرة قبل إسلامه داهية فاتكاً ، قتل نقرأ فوداهم عروة إطفاءً للفتنة .

(٨) هذا كله من عمام قصة الحديبية عند ابن إسحاق . وهو عند البخارى بنحوه .

بعد ما تبين أن الترق استبد بهم وأطاش ألبابهم ، فقرروا ألا يدخل المسلمون البلد الحرام وليكن ما يكون .

وبقى المسلمون في أماكنهم يلتمسون للمشكلة حلولاً أخرى أفضل من اقتحام مكة في هجوم عام ، وحاول فريق من السفهاء أن يُشعل المعركة ، لكن المسلمين لزموا الهدوء وملكوا أعصابهم .

فعن ابن عباس أن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم - أو خمسين ، وأمرهم أن يطيّفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا هم من أصحابه أحداً فأُخِلوا وأتى بهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فعفا عنهم وخليّ سبيلهم ، وكانوا رموا في المعسكر بالحجارة والنبل^(٩) .

وفي فظاظة قريش وسماحة المسلمين نزل قوله عز وجل :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾^(١٠) .

ومن السكينة التي تنزلت على المسلمين أن رسل قريش كانت تغدو على رسول الله ﷺ وتروح ، فلا يعترضها أحد ، أما رسل المسلمين إلى قريش فقد تعرضت للهلاك ، كاد خراش بن أمية الخزاعي يُقتل ، لولا أن أنقذه الأحابيش ، فرجع وقد عُقِرَ جملة ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام أرسله ليبلغ أهل مكة حقيقة مجيئه ، وأنه يريد العبادة لا الحرب .

والرسل لا تُقتل : بيد أن غليان قريش أفقدها الوعي .

والرجل إذا فقد وعيه لا يبالي أن ينتحر ، وقد انحرف كبراء مكة عن الصراط

(٩) ضعيف رواه ابن هشام (٢٢٨/٢) عن ابن إسحاق ، وفيه رجل لم يسم ورواه نحوه مختصراً أحمد (٨٦/٤ - ٨٧) من حديث عبد الله بن معقل بسند صحيح وفيه أن عدد المشركين كان ثلاثون شاباً ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم ﴾ الآية .
(١٠) الفتح : ٢٦ .

السوى ولم يكثرثوا للمصير القاتل الذى ينتظرهم إذا ركبوا رؤوسهم ، فلوا اصطدم المسلمون بهم ما قامت لهم قائمة ولأصيبت حرمت مكة فى صميمها .

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (١١) .

ولكن رسول الله ﷺ كره أن تجرى الأمور على هذا النحو ، ورأى أن يعيد محاولاته لإقناع أهل مكة ، بتركه يزور ، ويعود لشأنه .

فدعا (١٢) عمر بن الخطاب ليذهب إلى القوم يحدثهم بما خرج المسلمون فيه :

فقال عمر : يا رسول الله .. ليس بمكة أحد من بنى عدى يغضب لى إن أُوذيت ، فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته لاتزال بمكة وإنه مُبَلِّغُ عنك ما أردت .

ودخل عثمان مكة فى جوار قريه أبان بن سعيد بن العاص ، واستطاع أن يبلغ رسالته كاملة وأن يفهم من لقيه الحقيقة الكريمة التى جاء المسلمون قاطبة بها فكان الرد الذى حظي به عثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله .

ومما يذكر هنا أن مكة لم تخل من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات .

كانت قلوبهم معلقة بالمسلمين المحجوزين خارج مكة .

لقد انتشر الإسلام سراً فى بيوت كثيرة طالما تشوقت إلى اليوم الذى تستطيع فيه أن تظهر إيمانها ، وتتخلص من سطوة الكفر عليها .

ويظهر أن عثمان اتصل بأولئك النفر المؤمن وبشرهم بقرب الفتح ، فرأت قريش أن عثمان قد عدا الحلود المعهودة ، وأمرت باحتباسه عندها ، وشاع - لدى المسلمين - أن عثمان قُتل .

(١٢) من تمام القصة عند ابن إسحاق .

(١١) الفتح : ٢٢ ، ٢٣ .

وحين بلغت هذه الشائعة مسامع النبي عليه الصلاة والسلام قال : لا نبرح حتى نناجز القوم^(١٣) .

ودعا الناس إلى مبايعته ، وكان تحت شجرة متشابكة الغصون ، فهرع أصحابه إليه يبايعونه على الموت أو على أن لا يفروا .

حدّث جابر بن عبد الله بعد ما كُف بصره قال : قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية : أنت خير أهل الأرض ، وكنا ألفاً وأربعمائة ، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة^(١٤) .

وروى عن جابر أن عبداً لحاطب جاء يشكون إلى الرسول ﷺ ويقول : ليدخلن حاطب النار . فقال له الرسول ﷺ : كذبت ، لا يدخلها ، شهد بديراً والحديبية^(١٥) ، وتسمى هذه البيعة « بيعة الرضوان » إشارة إلى قول الله في أصحابها :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾^(١٦) .

وقد قُطعت الشجرة ونُسِي مكانها ، وذلك خير ، فلو بقيت لضربت عليها قبة وشدت إليها الرحال ، فإن الرعاع سراع التعلق بالمواد والآثار التي تقطعهم عن الله .

عن طارق بن عبد الرحمن ، انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون ، فقلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع النبي عليه الصلاة والسلام بيعة الرضوان . فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قال : فلما كان العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها ، ثم قال : سعيد : إن أصحاب محمد لم يعلموها ! وعلمتموها أنتم ! فأنتم أعلم .

(١٣) ضعيف أخرجه ابن إسحاق وعنه ابن هشام (٢٢٩/٢) عن عبد الله بن أبي بكر مرسلاً .

(١٤) صحيح أخرجه البخاري (٣٥٧/٧) .

(١٥) صحيح أخرجه مسلم (١٦٩/٧) ، وتصديره « روى » يشعر بضعفه فليحذف .

(١٦) الفتح : ١٨ .

وعند أخذ البيعة من المسلمين ضرب رسول الله ﷺ بإحدى يديه على الأخرى وقال : هذه لعثمان (١٧) .

على أن عثمان لم يطل احتباسه ، فإن قريشاً جزعت أن تصيبه بأذى وهو من سراتها بمكان ، وسارعت إلى بعث « سهيل بن عمرو » ليعقد مع محمد صلحاً . ولم يكن يعنها في هذا الصلح إلا أن يرجع المسلمون هذا العام ، على أن يعودوا بعد إذا شاعوا ، وذلك إبقاءً على مكانة قريش في العرب !! .

* * *

واستقبل رسول الله ﷺ مفاوض قريش وهو أرغب ما يكون في موادة القوم ، وإن كان قادراً على تحكيم السيف وإنزال خصومه على منطقته الذي آثروه مذ صلّوه عن البيت ، وتكلم « سهيل » فأطال وعرض الشروط التي يتم في نطاقها الصلح ، ووافق عليها النبي ﷺ ولم يبق إلا أن تسجل في وثيقة يمضيها الفريقان . وحدثت في معسكر المسلمين دهشة عامة للطريقة التي سلكها رسول الله ﷺ مع أوليائه ومع أعدائه .

فأما مع أعدائه ، فقد ذهب في ملايتهم إلى حلود بعيدة ، وأولى به أن يقسو عليهم .

وأما مع أصحابه - فإنه على غير ما ألفوا منه - لم يستشرهم في هذا الإنفاق المقترح .

مع أنه في شؤون الحرب والسلام التي سلفت ، كان يرجع إليهم ، وربما نزل على رأيهم وهو له كاره ، لكنه اليوم ينفرد بالعمل ويقر ما يكرهون على غير ضرورة ملجئة ..

(١٧) صحيح أخرجه البخارى (٢٩١/٧) .

وقد شرحنا في غير هذا المكان^(١٨) موقف النبي عليه الصلاة والسلام في عمرة الحديبية خاصة ، وأبنا أن تقدير الأمور لم يُترك للنظر المعتاد ، بل كان للإلهام الأعلى توجهه الصائب .

إن الله الذي عقل الناقة أن تتابع سيرها لا يأذن لهذه الكتاب أن توالى زحفها وتشعر رماحها ، وقد تحرز نصراً أقل على الإسلام - في جدواه - من سلم مباركة النتائج .

قال الزهري : فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب فأقأ أبا بكر فقال : يا أبا بكر .. أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ . قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ! .

قال أبو بكر : يا عمر إلزم غرزه - أمره - فإني أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ! .

ثم أتى رسول الله فقال : ألسنت برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ .

قال : بلى .

قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ . قال : بلى .

قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ .

قال : « أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعني »^(١٩) .

(١٨) في كتابنا : « الإسلام والاستبداد السياسي » .

(١٩) حديث صحيح ، وهو من تمام قصة الحديبية ، والزهري أحد رجال إسنادها وليس من مراسلته خلافاً لما يبلو من السياق . وقد رواه موصولاً أحمد من طريق ابن إسحاق ، وهو عند البخاري وأحمد من طريق أخرى بنحوه .

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ : اكتب : باسمك اللهم ، فكتبها ، ثم قال : اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب : اسمك واسم أبيك ! فقال رسول الله ﷺ : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .. » اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ! .

وأن بيننا عيبة مكشوفة - صدوراً منطوية على ما فيها من خير - وأنه لا إسلال ولا إغلال - لا سرقة ولا خيانة - وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعنده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . وأنتك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك . فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب : السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها .

فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب ، إذ جاء ابن المفاوض عن قريش نفسه ! .. جاء أبو جند بن سهيل بن عمرو يريد الالتحاق بالمسلمين ، فقد دخل في دين الله ولقى العذاب من أهله ، وها هو ذا يرسف في الحديد ، وتثقل به قيوده .. ما كان المسلمون يشكون في فتح مكة ، فإن الرسول ﷺ قص عليهم رؤيا أنه دخلها ، وطُوف بالبيت العتيق فيها ، فلما رأوا ما رأوا من شروط الهدنة وأمر الصلح والعودة ، وتعت سهيل مع النبي ﷺ ، وافتياته على شخصه ، دخل عليهم من ذلك كله أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ، ثم جاءت قصة أي جندل فزادت الطين بلة ..

ورأى سهيل ابنه فقام إليه يضرب وجهه ، وأخذ بتليبيه ثم قال : يا محمد .. قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ! قال : صدقت . فجعل سهيل ينتر

ابنه بتلبيه ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : « يا معشر المسلمين ، أُرِد إلى المشركين يفتنوني في ديني » ؟ .

فزاد ذلك الناس إلى ما بهم .

وقال رسول الله ﷺ : يا أبا جندل .. اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم .

ونفذت القضية ، وأعلنت خزاعة دخولها في عقد المسلمين ، وأعلنت بنو بكر دخولها في عقد قريش ، ومضت شروط الهدنة^(٢٠) .. ! .

* * *

والنظرة الأولى لهذه الشروط تدل على أنها مجحفة بحقوق المسلمين مرضية لكبراء قريش وحميتها الجاهلية ، وقد تساءل أصحاب رسول الله ﷺ مستنكرين : لماذا يردون إلى قريش من جاء منهم مسلماً ولا ترد قريش من جاءها من المسلمين مرتدأ ؟ .

وفسر رسول الله ﷺ هذا الشرط بأن من ذهب إليهم كافرين ، فلا رده الله ، وقد وقى المسلمون خبيثه . أما المستضعفون من المسلمين . فستعفى قريش بأمرهم ، كما عجزت عن سابقهم ، وستكون العقبي لهم .
ألم يكن النبي ﷺ ومن معه مستضعفين ؟ ثم نصرهم الله وخذل قريشاً أمامهم ؟ .

ثم هاجت في نفوس المسلمين مرة أخرى خيبة الأمل ، لقد حُدثوا أنهم داخلون في المسجد الحرام ، وها هم أولاء قد ارتدوا عنه . لكن الرسول ﷺ بين أنهم عائدون إلى دخوله كما وُعدوا ، فهو لم يذكر لهم أنهم سيطوفون به هذا العام .

(٢٠) هذا كله من تمام قصة الحديبية عند ابن إسحاق والسياق له ؛ والبخارى وأحمد .

وعرا المسلمين وجوم ثقيل لهذه النهاية الكثيبة وزاغت نظراتهم لما ركبهم من الحرج المفاجيء . فلما فرغ الرسول ﷺ من قضية الكتاب قال لهم : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » - ليتحللوا من عمرتهم ويعودوا إلى المدينة - فلم يقم منهم رجل ! حتى قال ذلك ثلاث مرات ! فلما لم يقم منه أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس . فقالت أم سلمة : يا رسول الله .. أتحب ذلك ؟ . اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك ، وتدعو حالقك فيحلقك .

فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك .

فلما رأى المسلمون ما صنع النبي زال عنهم الذهول . وأحسوا خطر المعصية لأمره فقاموا - عجلين - ينحرون هديهم ، ويحلق بعضهم بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل الآخر لفرط الغم^(٢١) .

ليت نيات الخير والشر تُؤتي ثمارها الحلوة والمرّة بالسرعة التي ظهرت في عهد الحديبية الآنف ، إنه لم تمر أيام طوال على إبرامه حتى كان تشدد المشركين فيه وبالألم عليهم ، فأخذوا يتشكون من النصوص التي فرضوها أو فرضتها حميتهم الغليظة .

ونظر المسلمون كذلك مبهورين إلى عواقب التسامح البعيد الذي أبداه النبي ﷺ ، فوجدوا من بركاته ما ألهم ألسنتهم بالحمد ! .

لقد انفرط عقد الكفار في الجزيرة منذ تم هذا العقد . فإن قريشاً كانت تعتبر رأس الكفر وحاملة لواء التمرد والتحدى للدين الجديد . وعندما شاع نبأ تعاهدها مع المسلمين خمدت فتن المنافقين الذين يعملون لها ، وتبعثرت القبائل الوثنية في أنحاء الجزيرة وخصوصاً لأن قريشاً جمدت على سياستها النفعية واهتمت بشؤونها التجارية فلم تجتهد في ضم أحلاف لها ، في الوقت الذي اتسع فيه نشاط المسلمين الثقافي والسياسي والعسكري ، ونجحت دعايتهم في تألف قبائل غفيرة وإدخالها في الإسلام .

وكثير من المؤرخين يُعَدُّ صلح الحديبية فتحاً ، بل إن الزهرى يقول فيه : ما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس .

(٢١) صحيح : وهو من تمام قصة الحديبية عند البخارى وأحمد .

فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب ، وآمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، لم يُكلم أحداً بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ولقد دخل في تنيك السنتين - بعد الحديبية - مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر .

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة ، ثم خرج عام فتح مكة - بعد ذلك بسنتي - في عشرة آلاف .

أما المسلمون المعذبون في مكة ، فقد فر منهم أبو بصير عبيد بن أسيد ، وهاجر إلى المدينة يبغي المقام فيها مع المسلمين ، فأرسلت قريش وراءه اثنين من رجالها يرجعان به إليها تنفيذاً لنصوص المعاهدة ، فقال رسول الله ﷺ : يا أبا بصير ... إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ! وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك . وحزن أبو بصير وقال : يا رسول الله .. أتردني إلى المشركين ليفتنوني في ديني ؟ فلم يزد النبي عن تكرار رجائه في الفرج القريب . ثم أرسل أبا بصير مع القريشيين ليعودوا جميعاً إلى مكة (٢٢) .

ورفض أبو بصير أن يستسلم لهذا المصير فاحتال في أثناء الطريق على سيف أحد الحارسين وقتله به ففر الآخر مذعوراً وقفل راجعاً إلى المدينة يخبر رسول الله ﷺ بما وقع لصاحبه ، وإذا أبو بصير يطلع متوشحاً بالسيف يقول : يا رسول الله .. وفّت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم وامنعت بديني أن أفتن في أو يُعبث بي .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : ويل أمه ، مَسَعَرُ حرب لو كان معه رجال (٢٣) .

(٢٢) رواه ابن إسحاق بليون إسناد وعنه ابن هشام (٢٢٣/٢) وقد أخرجه البخاري مختصراً على قوله : « فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين » .

(٢٣) صحيح . وهو من تمام القصة عند البخاري وأحمد .

وأدرك أبو بصير أنه لا مقام له في المدينة ، ولا مأمن له في مكة ، فانطلق إلى ساحل البحر في ناحية تدعى العيص ، وشرع يهدد قوافل قريش المارة بطريق الساحل ، وسمع المسلمون بمكة عن مقامه ، وعن كلمة الرسول فيه « مُسَعَّرُ حَرْبٍ لو كان معه رجال » فتلاحقوا بأبي بصير يشدون أزره حتى اجتمع إليه قريب من سبعين ثائراً فيهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو .

وألف أولئك المعذبون الناقمون جيشاً . ضيق الخناق على قريش فلا يظفر بأحد منهم إلا قتله . ولا تمر بهم غير إلى اقتطعوها .

وإذا قريش تُرسل إلى رسول الله ﷺ تناشده الرحم أن يؤوى إليه هؤلاء فلا حاجة لها بهم .

وبذلك نزلت قريش عن الشرط الذي أملتته تعنتاً ، وقبله المسلمون كارهين .

وقصة أبي بصير وأبي جندل وإخوانهما لها دلالة مثيرة ، فهي قصة العقيدة المكافحة - في لؤم من الأعداء ووحشة من الأصحاب ! - وهي توضّح أن الإيمان بالله أخذ طريقه إلى قلوب أولئك النفر مجرداً من كل شيء إلا سلامة جوهره . إنهم قد فقدوا الأمداد الروحية التي تبيّهم من مخالطة الرسول ﷺ والإصغاء إليه وهو يتلو وينصح ، بيد أنهم عُوضوا عنها من الاتصال بكتابه والاقتراب من آدابه ، فكانوا - في اهتدائهم للحق وإبائهم للضميم وإيثارهم للمغامرة - مثلاً حسنى للإسلام المكافح العزيز .

ولم يعد أبو بصير إلى رسول الله ﷺ ، ذلك أن الإذن بالمقام معه جاء وهو محتضر ، وروى موسى بن عقبة أن رجال أبي بصير صادروا قافلة كان فيها أبو العاص ابن الربيع صهر النبي ﷺ - وهو لما يدخل الإسلام بعد - وأسروا من فيها ماعداً أبا العاص لمكانته ، فذهب أبو العاص إلى زينب امرأته ، وشكا لها ما وقع لأصحابه وما ضاع لهم من أموال ، وحدثت زينب رسول الله ﷺ في ذلك . فقام رسول الله ﷺ فخطب الناس قائلاً : « إنا صاهرنا أناساً وصاهرنا أبا العاص فنعم الصهر وجدناه » . وأنه أقبل من الشام في أصحاب له من قريش فأخذهم أبو جندل وأبو بصير ، وأخذوا ما كان معهم ، وإن زينب بنت رسول الله ﷺ - سألتني

أن أجيرهم فهل أنتم مجيرون أبا العاص وأصحابه ؟ فقال المسلمون : نعم^(٢٤) .
وبلغ هذا الحوار أبا جندل فأفرجوا عن الأسرى ؛ وردوا عليهم كل شيء أخذ
منهم حتى العقال .

ثم جاء كتاب رسول الله ﷺ إلى أنى بصير ليرك مكانه ويرجع حيث يجب ،
وكان أبو بصير يجود بأنفاسه الأخيرة . فمات والكتاب على صدره ودفنه أبو جندل
أما أبو العاص بن الربيع فارتحل ببضائع قريش حتى قدم مكة ، فأدى إلى الناس
أموالهم . حتى إذا فرغ قال : يا معشر قريش .. هل بقي لأحد منكم عندى مال
لم أردّه عليه ؟ قالوا : لا ، فجزاك الله خيراً ، قد وجدناك وفياً كريماً .

قال : والله ما منعى أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا أن تظنوا أنى أسلمت
لأذهب بأموالكم ، فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

وعاد إلى المدينة فرد عليه رسول الله ﷺ^(٢٥) . وكان اختلاف الدين
قد فرّق بينهما ، ولم ينشئ في ذلك عقداً جديداً .

* * *

وقد أنى المسلمون عقيب صلح الحديبية أن يردوا النسوة المهاجرات بدينهن إلى
أوليائهن ، إما لأنهم فهموا أن المعاهدة خاصة بالرجال فحسب ، أو لأنهم خشوا على
النساء اللاتي أسلمن أن يضعفن أمام التعذيب والإهانة ، وهن لا يستطعن مضطرباً
في الأرض ورداً للكيد ، كما فعل أبو جندل وأبو بصير وأضراجهما .

(٢٤) لا يصح . لأن ابن عقبة رواه عن الزهري مرسلأ . كما في « الفتح » (٣٦٩/٥) والاستيعاب
لأن عبد البر في ترجمة أبى بصير . غير أن ابن إسحاق أخرج القصة سياق آخر ، ومن طريقه أخرجه ابن هشام
في « السيرة » (٨٢/٢ - ٨٣) مرسلأ ، وقد وصله الحاكم في « المستدرک » (٢٣٦/٣ - ٢٣٧) من حديث
عائشة ، وإسناده جيد فالأولى الاعتماد على هذا السياق دون ما في الكتاب ، وله شاهد من حديث أم سلمة عند
البيهقى في سته (٩٥/٩) .

(٢٥) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود (٢٥٠/١) والترمذى (١٩٦) والحاكم (٢٣٧/٣) وأحمد
(رقم ١٨٧٦ ، ٢٣٦٦ ، ٣٢٩٠) وابن هشام في « السيرة » (٨٣/١) من حديث ابن عباس . وإسناده جيد
وقال الترمذى : « ليس به بأس » وصححه أحمد .

وأياً ما كان الأمر ، فإن احتجاز من أسلم من النساء تم بتعليم القرآن ، وكلف المسلمون أن يدفعوا لأزواجهن المشركين عوضاً يستعينون به على زواج آخر إذا لم يشاءوا الدخول في الإسلام والعودة به إلى أزواجهم الأوليات .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ، وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ (٢٦) .

والآية تشير - بجانب ما فيها من أحكام - إلى ما كانت تستمتع به المرأة من استقلال فكرة وكيان أدنى محترم .

ولو حدث ذلك اليوم لتساءل فريق كبير من المسلمين . من الذى يمتحن ؟ أهو رجل أم امرأة ، وإن رجلاً ، فهل يكون شاباً أو شيخاً ؟ وهل تمتحن المرأة مباشرة أو من وراء حجاب ؟



مع اليهود مرة أخرى

بقي أمام المسلمين فريقان من الخصوم الألداء .

أعراب البادية الذين يسيحون في عرض الصحراء كالإبل السائمة لا يعقلون شيئاً فإذا لاح مغنم طاروا وراءه ، وقلما يلتفتهم حديث الإيمان بالله واليوم الآخر .
وبنو إسرائيل الذين ظنوا أن النبوة حكراً عليهم ، فهم لا يفتأون يجبهون المسلمين ويكذبون محمداً ويحجدون رسالته ، وقد أغرتهم القشور التي ورثوها من التوراة فجادوا المسلمين جدالاً طويلاً ، وحرصوا أشد الحرص ألا يعترفوا بهم ثم ذهبوا إلى حد التأليب عليهم كما رأيت ، فكانت سيرتهم مزيجاً غريباً من الحقد والكبر والدس ، ومع ما ألهب جلودهم من سياط كاوية في صراعهم مع المسلمين ، فإنهم لم يتحولوا عن خطتهم المريبة قيد أنملة .

وجمعت عداوة الإسلام بين الأعراب البله ، وأهل الكتاب اليهود ، وعندما فشلت الأحزاب في اقتحام يثرب ، وجنت قريظة عقبى غدرها ، لم يهدأ يهود خيبر ، أو يحاولوا إصلاح شئونهم مع المسلمين ، كلا .. إنهم شرعوا يصلون حبالهم بغطفان والأعراب الضارين حولهم ليؤلفوا ضد الإسلام جبهة أخرى ، تكيد من جديد لمحمد وصحبه ، لكن المسلمين كانوا أيقظاً لهذه المؤامرات ، فما إن عادوا من عمرة الحديبية آخر السنة السادسة حتى توجهوا في المحرم من السنة السابعة إلى خيبر لكسر شوكة بنى إسرائيل بها .

ولم يفت المسلمين ، قبل مسيرهم ، أن يفصموا الجبهة المؤلفة ضدهم من يهود غطفان فأوهمو غطفان أن الهجوم متجه إليهم ، وأن قوة المسلمين توشك أن تلتف بهم ، قال ابن إسحاق : بلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعت له ، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في

أموالهم وأهلهم حساً فظنوا أن القوم خالفوهم إليهم فرجعوا على أعقابهم ، وأقاموا في
أهلهم وأموالهم ، وخلّوا بين رسول الله وبين خيبر !! .

’ وهكذا نجحت الخطة في عزل يهود خيبر عن حلفائهم المشركين .

فلما أشرف رسول الله على القرية المحصنة ، وتنبأ لمنازلة أهلها ، قال
لأصحابه : قفوا ، ثم تضرع إلى الله بهذا الدعاء :

« اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَمَا أَظْلَلْنَ ، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ وَمَا أَقْلَلْنَ ، وَرَبَّ
الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ ، وَرَبَّ الرِّيَّاحِ وَمَا أَذْرَيْنَ .. فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
وَخَيْرِ أَهْلِهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا » (٢٧) .

ثم قال : « أقدموا باسم الله » (٢٨) .

ويظهر أن اليهود ظنوا - أول وهلة - أن زحف المسلمين صوب غطفان
فلم يعبروا الأمر التفاتاً بل أصبحوا غادين إلى حقولهم بمساحيمهم ومكاتلهم حتى
فوجئوا بالمسلمين يسرون نخوهم ، فارتدوا إلى حصونهم فزعين ، وهم يقولون :
محمد والخميس ! .

إن اليهود - على ما ألف المسلمون من حروبهم - لا يعتمدون على تسيير
الجيش في الفضاء الرحب ، تصيب ويصاب منها .. إنهم يكرهون اللقاء في تلك
الميادين الكشوفة ، وديدنهم الذي لا ينفكون عنه : هو الكفاح من وراء الجدران .

(٢٦) الممتحنة : ١٠ .

(٢٧) حديث حسن ، أخرجه ابن هشام (٢٣٦/٣) عن ابن إسحاق عن أبي معتب ابن عمرو . وفيه
رجل لم يسم ، وسماه البيهقي في روايته « صالح بن كيسان » كما في « البداية » (١٨٣/٤) لكن الراوى عنه
إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع ضعيف ولذلك صرح البيهقي في السنن (٢٥٢/٥) بتضعيف هذا الطريق لكن يشهد
له ما أخرجه هو والحاكم (٤٤٦/١ ، ١٠١/٢) وابن السنن (رقم ٥١٨) من حديث صهيب رضي الله عنه
قال : أن النبي ﷺ لم يرقية يريد دخولها إلا قال حين يراها ... فذكره . وقال الحاكم : « صحيح الإسناد »
ووافقه الذهبي . وفيه نظر لكن له شاهداً آخر من حديث أبي لبابة بن المنذر رواه الطبراني في الأوسط وإسناده
حسن كما قال الهيثمي في « المجمع » (١٣٤/١٠) .

(٢٨) ضعيف ، وهو تمام حديث أبي معتب المخرج آنفاً ، وقد عرفت علته ؛ ولم أجد لهذا المصدر منه
شاهداً ، فبقى على ضعفه .

أذلك بقية من حرصهم على الحياة وتوقهم الموت ؟ .

فلما رآهم النبي عليه الصلاة والسلام ، يهرعون إلى حصونهم ، أراد أن يقذف في قلوبهم الرعب فصاح : « الله أكبر ، هلك خير ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » (٢٩) .

والقرى الفاجرة تجر على نفسها الهلاك إن عاجلاً وإن آجلاً ، روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا شاع الزنا والزنا والرأ في قرية فقد أحلت بنفسها غضب الله » (٣٠) .

واليهود يشيع فيهم هذا الفساد المزروع ، فهم إلى اليوم دهاقين الربا في العالم وهم قادة التبرج والعهر ، ونسوتهم لا يرددن يد لأمس ، ولا ينفي هذا أن فيهم فئة تعرف الخلق والعفة ، ولكنهم قليل : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْتُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (٣١) . والكثرة - لا القلة - هي التي تحدد مصائر الشعوب .

* * *

وشن المسلمون هجومهم على الصحن المشيدة ، فبدأت تتداعى تحت وطأتهم حصناً بعد حصن ، ودافع اليهود عنها دفاع المستميت ، فإن خير أخصب أرضهم وأمنع بقاعهم .

ولما بدأ الحصار يمتد ، وبنو إسرائيل إذا سقطت لهم قلعة تمسكوا بأخرى . قال رسول الله : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » ! فبات الناس يذكرون أيهم يُعطاها ؟ .

فلما أصبحوا غدوا إليه متطلعين إلى أخذها ، فنادى النبي ﷺ على بن أبي طالب فأعطاها إياه ، فقال على : يا رسول الله .. أقاتلهم حتى يكونوا

(٢٩) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (٣٧٦/٧ - ٣٧٧) عن أنس .

(٣٠) حديث صحيح ، أخرجه الحاكم (٣٧/٢) من حديث ابن عباس وقال : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي . وهو كما قال ، ورواه أبو يعلى عن ابن مسعود وإسناده جيد كما في « الترغيب » (٥١/٣) .

(٣١) الأعراف : ١٥٩ .

مثلاً؟ قال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم» (٣٢) .

ولمّا سبق رسول الله هذا النصيح الرشيد حتى يقطع النفوس إلى المغنم المعجلة ، فإن ثروة يهود -- إذا هزموا - ضخمة . ولكن ثواب مقاتلتهم - إذا هتدوا - أضخم .

ولو نزل القوم على أحكام الله . وتركوا الخلال الدنيئة التي عاشوا بها وعلموا الناس بسوئها لأراحوا واستراحوا . غير أنهم أبوا إلا الحرب : فهاجمهم على وشدد النكر . حتى سقط الحصن واحتله المسلمون .

وكان الشعار يوم خيبر : يا منصور .. أمت ، أمت .

وخرج من حصون اليهود فارس يدعى « مرحباً » فنادى في المسلمين من يبارز ؟ وهو ينشد :

قد علمت خيبر أنى مرحب شاكي السلاح بطل مُجَرَّب
أطعن أحياناً ، وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تُحَرَّب

فقليل : فتك به على بن أئى طالب ، وقيل : بل قتله محمد بن مسلمة (٣٣) وكان محمود بن مسلمة أخوه قد أُلقيت عليه في أثناء الحصار رحي فصرعه فثأر محمد له بقتل مرحب ، وبرز بعد قتل مرحب أخوه ياسر ، فتصدى له الزبير ، وكانت صفية أم الزبير بين النسوة اللاتي خرجن مع الجيش معاونات في قتال بنى إسرائيل فخشيت على ابنها أن يُقتل ، فقال لها النبي ﷺ : « بل ابنك يقتله إن شاء الله » ، فصرع

(٣٢) حديث صحيح أخرجه البخارى (٣٨٤/٧ - ٣٨٥) ومسلم (١٢١/٧ - ١٢٢) عن سهل ابن سعد .

(٣٣) قلت : والصحيح الأول لأنه ثابت في « صحيح مسلم » (٩٥/٥) والمستدرک (٣٩/٤) من حديث سلمة بن الأكوع وقد قال الحاكم (٤٣٧/٣) : « أذا الأخبار كثيرة متواترة أن قاتل مرحب هو على » .

الزبير ياسراً^(٣٤) .. وتشبث اليهود بما بقى من حصونهم يذودون عنها زياد اليائس ، وشدّد المسلمون عليهم الحصار ، يريدون الانتهاء من هذا القتال مسرعين ، فقد أجهدهم الجوع وضاق بهم المقام ، وأصيب كثير منهم بعزل شتى لرداءة الجو ووخامة المستنقعات ، ثم جاء إلى النبي ﷺ من أخبره أن اليهود لن يبالوا بهذا الحصار ، فإن لهم مشارب خفية ، يخرجون إليها ليلاً فيستقون ويعودون ، فأمر النبي ﷺ بقطع مشاربهم^(٣٥) ليكرههم على القتال أو التسليم ، فخرجوا واشتبكوا مع المسلمين في صراع شديد استشهد فيه عدد من المسلمين بعد أن مهّدوا الطريق لسقوط الحصن ، ويسمى حصن الزبير وهو نهاية سلسلة من القلاع تسمى النظاة ، استولى المسلمون عليها جميعاً بعد ما دخلوا حصون ناعم ، والصعب ، والوطيح ، والسلام .

وبقيت هناك سلسلة أخرى تهيأ المسلمون لمهاجمتها ، فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها : سموان ، فقاتل عليها أشد القتال ، وخرج منها رجل يسمى عزولاً ، يبغى المبارزة ، فهم عليه « الحباب بن المنذر » فضربه بالسيف ضربة أطاحت يده اليمنى بنصف ذراعه ، ثم وقع السيف من يده وفر اليهودى راجعاً فأدركه الحباب فقط عرقوبه ، وبرز آخر : فقام إليه رجل من المسلمين فقتله اليهودي ، فلحق به « أبو دجانة » فقتله وثأر لصاحبه ثم كبر المسلمون وتحاملوا على الحصن وأمامهم « أبو دجانة » فاقتحموه بعد لأى ، ووجدوا به أثاثاً وطعاماً وغنماً ومتاعاً .

وأقلت بعد المحصورين فانضموا إلى إخوانهم بحصن البزاة وزحف المسلمون إليهم ، وتراشق الفريقان بالنبل فأصيب بنان النبي ﷺ في المعركة ، ولكن المسلمون استبسلوا في الكر على العدو ، حتى افتتحوا هذا الحصن الآخر ، وأخذوا من فيه باليد . ثم همّ المسلمون بنصب المنجنيقات لهدموا الحصون الباقية على من اعتصم فيها ، فأيقن اليهود بالهلكة ولم يروا محيصاً من الاستسلام ، فنزل ابن أبي الحقيق ، وعرض الصلح على أن يجلو من أرض خيبر . ولهم ما حملت ركا بهم ، وللمسلمين

(٣٤) ضعيف أخرجه ابن هشام (٢٣٩/٢) من طريق ابن إسحاق عن هشام بن عروة مضعلاً .

(٣٥) لا يصح ، رواه الواقدي مضعلاً كما في « البداية » (١٩٨/٤) ، والواقدي متروك .

سائر ما بقى . فقبل الصلح واشترط عليهم رسول الله ألا يكتموا ولا يُغيّبوا شيئاً ،
فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد^(٣٦) .

فلما ثبت على بعضهم الغدر بما تمت عليه شروط الصلح ، قُتل .

وخضعت سائر يهود ثم جاءت تعرض على رسول الله ﷺ أن يعاملهم
بالنصف في زراعة الأرض فقبل ، ولم يجعل ذلك على الأبد ، مخافة عبثهم ، بل قال
لهم : « إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم »^(٣٧) .

* * *

وحدث في إبان المعركة أن عبداً حبشياً اسود كان يرعى لسيدته اليهودى غنمه
فلما رأى أهل خيبر يحملون السلاح ويتأهبون للحرب سألمهم : ما تريدون ؟ قالوا :
نقاتل هذا الذى يزعم أنه نبي . فوقع في نفس الرجل ذكر النبوة وصاحبها ، فأقبل
بغنمه على رسول الله ﷺ وسأله : ماذا تقول ؟ وإلا تدعو الناس ؟ فأجابه : أدعوا
إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسوله ، وأن لا تعبد غيره . قال
العبد : فما لى إن شهدت وآمنت ؟ قال : لك الجنة إن مت على ذلك ؟ فأسلم ثم
قال : يا نبي الله .. إن هذه الغنم عندي أمانة . فقال رسول الله ﷺ : أخرجها من
عندك وارمها بالخصباء فإن الله سيؤدى عنك أمانتك ، ففعل ، فرجعت الغنم إلى
صاحبها ، فعلم اليهودى أن غلامه أسلم ، ثم قام رسول الله ﷺ وقد تهيأ الناس
للقاتل فوعظهم وحضهم على الجهاد . والتحنم الفريقان ، فقتل العبد الأسود بين من
قتل من المسلمين وحملت جثته إلى المعسكر . فرووا أن رسول الله ﷺ اطلع في
الفسطاط الذى ضم جثمان الشهيد ، ثم أقبل على أصحابه يقول : « لقد أكرم الله هذا
العبد وساقه إلى خير ، رأيت عند رأسه ثنتين من الحور العين ولم يصل لله
سجدة قط »^(٣٨) .

(٣٦) حديث صحيح ، أخرجه البيهقى في سننه (١٣٧/٩) عن ابن عمر بسند صحيح ، وكذلك رواه
أبو داود (٣٨/٢) .

(٣٧) حديث صحيح . أخرجه البخارى (١٧/٥) ومسلم (٢٧/٥) وأبو داود (٣٩/٢) وغيرهم
من حديث ابن عمر بمعناه .

(٣٨) ضعيف . ذكره ابن كثير (١٩٠/٤ - ١٩١) عن عروة مرسلأ . وروى البيهقى عن شرحبيل بن

وفي هذه الغزاة أذن النبي ﷺ لمن تطوعن من النساء أن يخرجن معه .

قال ابن إسحاق : شهد خير مع رسول الله ﷺ نساء من نساء المسلمين ، فغرضن
لهن رسول الله ﷺ من الفىء - أعطاهن يسيراً - ولم يضرب هن بسهم^(٣٩) .

وروى الإمام أحمد عن حشر بن زيادة عن جدته أم أبيه قالت : خرجنا مع
رسول الله ﷺ في غزاة خير ، وأنا سادسة ست نسوة . قالت : فبلغ النبي أن معه
نساء فأرسل إلينا فدعانا . قالت : فرأينا في وجهه الغضب قال : ما أخرجكن ؟
وبأمر من خرجتن ؟ قلنا : نناول السهام ونسقى السويق ، ومعنا دواء للجرحى ،
ونغزل الشعر فنعين به في سبيل الله . قال : فانصرفن .

قالت : فلما فتح الله عليه خير أخرج لنا سهماً كسهام الرجال . فقلت لها :
يا جدة .. ما الذى أخرج لكن ؟ قالت : تمرأ^(٤٠) .

ويرى ابن كثير : أن الرسول أعطاهن من تمرات الأرض كالرجال ، فأما أنه
أسهم لهن في الأرض نفسها كالرجال فلا . وهذا حق .

وفي حديث أبى داود : أن نسوة من بنى غفار قلن : يا رسول الله ..
قد أردنا أن نخرج معك في وجهك هذا - وهو يسير إلى خير - نداوى الجرحى
ونعين المسلمين بما استطعنا . فقال : « على بركة الله »^(٤١) .

* * *

= ابن سعد حابر نحو هذه القصة . وشرحيل كان احتلط . ومن طريقه أخرجه الحاكم (١٣٦ / ٢) وصححه وتعنفه
الذهبي بقوله : « بل كان شرحيل منها » .

(٣٩) ذكره ابن إسحاق بدون إسناد كما ذكره ابن هشام (٢٤٢ / ٢) عنه ، غير أنه استدل على ذلك
بحديث النسوة من بنى غفار الآتى ، وهو ضعيف كما سنبينه .

(٤٠) ضعيف وهو في المسند (٣٧١ / ٦) وكذا أبو داود (٤٢٩ / ١) ، وعلته حشر هذا
فإنه لا يعرف كما قال الذهبي وأشار لذلك الحافظ في التقريب . وسكت على الحديث في « الفتح »
(٥٩ / ٦ - ٦٠) .

(٤١) ضعيف أخرجه أبو داود (٥١ / ١) وأحمد (٣٨٠ / ٦) وابن هشام (٢٤٢ / ٢) كلهم
من طريق ابن إسحاق بإسناده عن امرأة من بنى غفار ، وفيه أمية بنت أبى الصلت لا يعرف حالها كما قال
الحافظ .

وكانت صفية بنت حبي بن أخطب زعيم اليهود بين من أسرن من نساء خيبر ، وقعت في يد أحد الصحابة . فاستردها منه الرسول . ثم اعتقها وبنى بها ، وجعل مهرها عتقها^(٤٢) .

فلما اطمأن به المقام أهدت له امرأة سلام بن مشكم شاة مسمومة وأكثر من السم في ذراع الشاة لما عرفته أن الرسول يؤثرها .

وقد تناول النبي مضغة منها ، فلاكها ثم لفظها ، وهو يقول : « إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم » وكان معه « بشر بن البراء » فأساغ اللحم وازدردده .

وجيء بالمرأة الجانية فاعترفت بما صنعت ، وقالت للنبي : بلغت من قومي ما لم يخف عليك . فقلت : إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيُخبر ، فتجاوز عنها النبي ، ثم مات « بشر » بعد ما سرى السم في جسمه^(٤٣) ، فقيل : اقتص له منها ، وقيل : بل أسلمت وعفا عنها .

ومكث يهود خيبر يزرعون الأرض على النصف من نتاجها ، إلا أن بغضاءهم للمسلمين حملتهم على اقتراح بعض الجرائم . فقد اغتيل رجل من الأنصار ، وفدعت يدا عبد الله بن عمر أيام خلافة أبيه ، فخطب عمر الناس قائلاً : إن رسول الله كان عامل يهود خيبر على أن نخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبد الله بن عمر ، ففدعوا يديه كما قد بلغكم ، مع عدوهم على الأنصارى قبلهم لا نشك أنهم أصحابه ليس لنا

(٤٢) حديث صحيح ، أخرجه البخارى ومسلم عن أنس .

(٤٣) حديث صحيح ، رواه هكذا ابن هشام (٢٤٠/٢٤ - ٢٤١) عن ابن إسحاق بدون إسناد . وقد رواه البخارى (١٧٦/٥) ومسلم (١٤/٧ - ١٥) من حديث أنس أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها ، فجاء بها فقيل : ألا تقتلها ؟ قال : لا . والبخارى (٢٨/٧ ، ٢٠٠/١٠٠ - ٢٠١) وغيره من حديث أنس حريرة نحوه وفيه إقرار اليهود بوضع السم في الشاة وقولهم : « أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك وإن كنت نبياً لم يضرك » ، ومثله عند أحمد (رقم ٢٧٨٥) من حديث ابن عباس وسنده حسن كما قال ابن كثير (١٠٩/٤) وعزاه الحافظ (١٠١/١٠) لابن سعد بسند صحيح ومثله عند أنس داود (١٤٦/١) والدارمى (٣٣/١) عن جابر ، وهو منقطع لكن يقويه مرسل أنس سلمة وقد وصله الحاكم وصححه عن أنس سلمة عن أنس حريرة ، وسنده حسن ، وفيه أنه ﷺ قتلها .

هناك عدو غيرهم فمن كان له مال بخير فليلحق به ، فإنى مخرج يهود .
فأخرجهم^(٤٤) . ولا ريب أن الهزيمة التى أصابت بنى إسرائيل فى خير قطعت على
كيانهم العسكرى فى الجزيرة قضاءً تاماً . فجاء يهود « فذك » يطلبون الأمان .

وقاتل يهود وادى القرى بعد ما دُعوا إلى الإسلام ، وأخبرهم رسول الله أنهم
إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحققوا دماءهم . وحسابهم على الله^(٤٥) . فلما أبوا نشبت
بين الفريقين معركة محدودة ، انتهت مع الصباح بسقوط الوادى اليهودى عنوة .
واستسلم يهود تيماء .

ومد الإسلام رواقه على هذه الأرض بعد أن ظلت حيناً من الدهر فى أيدي
اليهود ، يعيشون عليها كما يشتهون .

والعظة التى نستخلصها من هذه المعارك وما أعقبها من جلاء ، أن الأرض لله
يورثها من يشاء . وهو لا ينتزعها من قوم ، ويعطيها آخرين محابة . كلا .. ولكن
الأمة التى تفسد على النعمة تُسلبها . ثم تُساق النعمة إلى من يقدّرها ويشكر الله
عليها ! والأمة التى تتكبر مع الحرية وتبتطر ، تفقد امتلاكها لنفسها ، وحقها ،
وأمرها ، لتقع فى إسار الآخرين فيصرفون شئونها كما يشتهون .

وقد طُبّق هذا القانون على بنى إسرائيل بقسوة عندما أهدروا أحكام التوراة
وتبعوا الهوى ! وطُبّق بعد ذلك على المسلمين يوم سدروا فى الغواية وجحدوا
ما لديهم من هداية .

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ
شَدِيدٌ ﴾^(٤٦) .

إن الحياة كروفر ، وإقبال وإدبار . والنظرة العجلى إلى تاريخ البشر توحى بأن
مكان الصدارة لم يثبت لأمة من الأمم إلا ريثما تنهأ أمة أخرى لانتزاعه .

(٤٤) حديث صحيح ، أخرجه الشيخان عن ابن عمر ، وقد تقدم قريباً .

(٤٥) رواه الواقدي ، بدون سند كما فى « البداية » (٢١٨/٤) .

(٤٦) هود : ١٠٢ .

والدول التي سادت ، أشبه بلُجج البحر التي ترتفع حيناً ثم لا تلبث أن تضمحل رويداً رويداً حتى تنداح على الشاطئ ضعيفة متطامنة ، ولا مانع من أن تعود مرة أخرى مع المد ، لتبلغ الأوج ، ثم تنفك عنها أسباب القوة فتبهط مستكينة من جديد .

وقد ملك بنو إسرائيل وعزّوا بقدر حكيم ، ثم سلبوا الملك والعزة بقدر كذلك لثرتهما. دولة الإسلام الفتى الناهض ، وتم هذا التحول لخير البشر قاطبة .

لماذا تُظاھر اليهود الوثنية ضد الإسلام ؟ ولمصلحة من يقع هذا ؟ إن بنى إسرائيل ينظرون إلى الدنيا والدين من خلال منافعهم الخاصة ، وذلك ما حدا بهم إلى مقاومة الإسلام بعنف . أما القدر الأعلى ، فيريد أن يجعل من الأمة الجديدة رسالة تغيير شامل لما شاع في العالم أجمع من مفساد ، ولما عرا حضارته من تعفن وركود . فإذا وقفت حفنة من الأعراب أو حفنة في اليهود لتعرض هذا التحول الهائل بدوافع من الحقد الرخيص أو المطامع الدُّنيا ، فهي التي جنت على نفسها إذا غرقت في الطوفان .

لو ظل اليهود ألف سنة أخرى في جزيرة العرب مازادوها إلا انقساماً ، وما اكتسبت أقطار الأرض من بقائهم شيئاً ، ربما نالت مزيداً من الحبوب والفواكه التي يتفنون زراعتها ، بيد أنها لن تظفر بهذه الزيادة إلا ومعها كفل من الفساد الذي يُصدِّره بنو إسرائيل إلى العالم مع معاملات الربا وأخلاق العهر والتحلل . أما الإسلام فقد خرج من الجزيرة يوم خرج ، رسالة إيمان وإصلاح .

ومما يحمله في طواياه من حق ونفع استحق الانتصار والانتشار .

فلما جرى على أُمته من أسباب البلى والخمول ما جرى على اليهود الأولين تعرّضت للطرد من أوطانها ، والشرذ هنا وهناك ، كما تعرّض غيرهم ، حذوك النعل بالنعل .

* * *

عودة مهاجري الحبشة

ووافق فتح « خير » قدوم « جعفر بن أبي طالب » ومن معه من المهاجرين إلى الحبشة . وقد سر رسول الله ﷺ أيما سرور ، لمحبي هؤلاء الصحابة الكرام .
لأنهم خرجوا من مكة فارين بدينهم من الفتان ، واليوم يعودون وأمر الإسلام يعلو ، وسلطانه يمتد شمالاً الجزيرة وجنوبها ، فلا خوف من غشم أو ظلم .
وعندما حلّوا بالمدينة قال رسول الله ﷺ مبتهجاً : « والله ما أدري بأيهما أفرح ؟ بفتح خير أم بقدوم جعفر ؟ »^(٤٧) وجعفر وإخوانه مكثوا في الحبشة بضعة عشر عاماً ، نزل خلالها قرآن كثير ، ودارت معارك شتى مع الكفار ، وتقلب المسلمون قبل الهجرة العامة وبعدها في أطوار متباينة ، حتى ظن البعض أن مهاجري الحبشة - وقد فاتهم هذا كله - أنزل قدراً من غيرهم . فعن أبي موسى الأشعري :
« .. كان أناس يقولون لنا : سبقناكم بالهجرة ، ودخلت أسماء بنت عميس - على حفصة زوج النبي زائرة - وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها . فقال حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء بنت عميس . قال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟ قالت أسماء : نعم ! قال عمر : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم ! فغضبت وقالت .

(٤٧) حديث حسن ، وأخرجه الحاكم (٢١٢/٤) والطبراني في الكبير عن الشعبي مرسلًا وسنده صحيح وقد وصله الحاكم من طريق أخرى عن الشعبي عن جابر - وفي سنده ضعف ، ولذلك قال الذهبي في التلخيص : « الصواب مرسل » وله طريق آخر رواه البيهقي كما في « البداية » (٢٠٦/٤) من طريق أبي الزبير عن جابر وفي سنده من لا يعرف . وله شاهد من حديث أبي جحفة . أخرجه الطبراني في « المعجم الصغير » (ص ٨) وسنده ضعيف ، لكن أخرجه في الكبير من طريق آخر كما يستفاد من « المجموع » (٢٧٢/٩) . وبالجملة فالحديث قوى بهذه الطرق ، وقد صححه الحاكم .

كلا والله .. كنتم مع رسول الله ﷺ يُطعمم جائعكم ويعظ جاهلكم . وكنا في أرض البعداء والبغضاء بالحبيشة ! وذلك في الله وفي رسول الله ، وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله وأسأله ، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه . فلما جاءت النبی قالت : يا نبي الله .. إن عمر قال كذا وكذا ، قال : فما قلت له ؟ قالت : قلت كذا وكذا .

قال : « ليس بأحق بي منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة . ولكم أنتم - أهل السفينة - هجرتان » (٤٨) . ولم يمض كبير وقت على أولئك العائدين حتى اكتسبوا ما فاتهم من علم القرآن والسنة ، وانتظموا في مواكب الجهاد مع من سبقوهم بإحسان .

وقد أشركهم النبي في مغنم خيبر (٤٩) مع أهل الحديبية (٥٠) ولم يقسم لأحد غيرهم معهم فإن الله جعل خيبر مكافأة سخية لمن ساروا إلى مكة ، وبايعوا على الموت تحت شجرة الرضوان .



(٤٨) حديث صحيح ، أخرجه الشيخان في صحيحهما .
 (٤٩) حديث صحيح ، أخرجه البخاري (٣٠٢/٨) من حديث أبي موسى .
 (٥٠) حديث حسن أخرجه أبو داود في سننه (٤٠/٢) والحاكم (٣١/٢) والبيهقي (٣٢٥/٦) وأحمد (٤٢٠/٣) من حديث مجمع بن جازية أن خيبر قسمت على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد ... وقال الحاكم : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه الطيالسي (١٠٥/٣) والبيهقي (٣٤٤/٦) وسنده حسن في الشواهد ، وقد قال ابن إسحاق في « سيرة ابن هشام » (٣٤٦/٢) : « وقسمت خيبر على أهل الحديبية من شهد خيبر ومن غاب عنها ، ولم يغب عنها ، إلا جابر بن عبد الله ... » .

تأديب الأعراب

أما عبدة الأصنام من البدو فإن المسلمين شرعوا يتعقبونهم منذ خلصوا من مشكلات اليهود . وقد أشرنا إلى أن شمل هؤلاء الأعراب انتكث بعد المواجهة التي تمت في الحديبية بين قريش والمسلمين . كانوا أمس يحاصرون دار الإسلام أحزاباً متحدة ، لكن الحال تبدلت اليوم . تمزق بنو إسرائيل وانسحب أهل مكة ، وأمكن للمسلمين أن ينفردوا بأولئك القوم قبيلة قبيلة . ولن يعجز المسلمون عن حسم شرورهم ووقف فوضاهم . إن البدو جنس جاف غليظ ولن ننسى أنهم حتى القرن الأخير كانوا يستمرئون الفتك بقوافل الحجاج ، وقد يذبحون الحاج للدرهم معدودة .

وعلمهم بشعون الدنيا وحقوق الآخرة يعنى المدرسين ، وقد بذل الإسلام جهوداً جبارة في رفع مستواهم المادى والأدبى . إلا أن اغتيال الدعاة من القراء المربين جعل الإسلام يظهر رجاله هؤلاء بالقوة التي تمنع الشعب وتقطع دابر الفساد .

وكان بث السرايا في فيافي « نجد » من أهم ما شغل المسلمين بعد ما رجعوا من خيبر في صفر من السنة السابعة حتى شئوا الرحال إلى مكة لعمرة القضاء ، كما نص على مواعدهم في عهد الحديبية .

ولا يعنينا كثيراً أن نتبع هذه السرايا في مسيرها فهي - وإن وطئت هبة المسلمين العسكرية - أقرب إلى فرق الشرطة منها إلى الجيوش المعبأة .

والهدف الأكبر من بعثها توطيد الأمن ، ومنع الغارات على المدينة ، وتمكين الدعاة إلى الله أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرسالة دون غدر أو خيانة .

إن أحوال هذه القبائل قريبة الشبه بأحوال قرانا في عهد الإقطاع القريب ،

كان العمدة يملك ألف صوت ناخب في قريته . فالحديث عن الحرية السياسية في هذا الجو ، حديث خرافة . كذلك كان رؤساء القبائل الأولون ، تلتف حولهم عشائرتهم وبطونهم ليتناصروا في الحرب والسلم على ما يهوى السادة .

فإذا كثر في أولئك الحاكمين من يُوصف بالأحمق المطاع ، وإذا اشتغل أولئك الحمقى بالكر والفر على نحو ما قال دريد بن الصمة :

يُغار غُلينا واطرين فيشتفى بنا إن أصبنا ، أو نغير على وتر !
قسما بذلك الدهر شطرين بيننا فما ينقضى إلا ونحن على شطر !

أفترى أن الدعاة يسرون عزلاً في هذه البيئة التي تخطف الأموال والعقائد ! .

إن العمل على توطيد الأمن شيء ، غير إكراه الناس على الإيمان والعقائد ، هدف الأول إقصاء الضغط والفتنة على المجتمع حتى إذا آمن فرد في قبيل ، لم يجد من يصب عليه سوط عذاب ، أما الآخر فيريد بالسوط أن يحمل الناس على عقيدة معينة .

والسرايا التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يُسيّرهما إلى كل فج كانت تحمل معها كتاب الله لتقرأ منه .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٥١) .

فالسعي لمعاجزة الآيات أمر خطير . ولو كانت معاجزة باللسان ، ما اكثر لها أحد ، فهميات أن تغلب الخرافة الحق في معرض جدل حر ، إنها معاجزة بالسطو والقهر .

﴿ وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ، يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. ﴾ (٥٢) .

وقد مضى المسلمون في نشر الدعوة داخل جزيرة العرب على ذلك الأساس العادل ومنذ أمضوا عهد الحديبية ، وهم دائبون على البلاغ والبصرة ، ولذلك نجحوا نجاحاً ملحوظاً في هذا المضمار ، فدخلت قبائل كثيرة في عهدهم على حين انصرفت جموع الأعراب عن قريش فلم يدخل في عهدهم أحد ، وسير الأمور في هذا الاتجاه كان التمهيد الفعّال لغلبة الإسلام ، ثم لفتح مكة نفسها فيما بعد .

والدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة لم تشغل النبي عن حق آخر من حقوق الله عليه ، وهو إعلام الناس كافة بما آتاه الله من بينات .

فليرفع السراج إلى أعلى لتصل أشعته الهادية إلى مواطن أبعد ، مواطن غرقت في الظلام دهرأ .

﴿ وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَلَا لَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٥٣) .

فليتجه إلى المجوس ، وإلى النصارى ، يدعوهم إلى توحيد الله والإسلام له والخضوع لأحكامه .



مكاتبة الملوك والأمراء

كان الفرس يحتلون أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة ، وكان الرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمالها . وقد انتشرت ديانة المحتلين في الأقاليم التي أخضعوها لنفوذهم ومن العتب إرجاع هذا الانتشار للحرية العقلية المحضة ، وعلى أية حال فإن الجوسية سادت الأقاليم التابعة لفراس ، والنصرانية سادت الأقاليم التابعة للرومان ، وكان أمراء هذه الأقاليم يعينون من قبل الدول الحاكمة وينصاعون لأوامرها .

وقد رأى النبي أن يرسل بكتبته إلى رؤساء الدول الكبرى وإلى أمراء الولايات المحتلة على سواء يدعوهم إلى الله ويعرض عليهم الإسلام .

وروى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي - وهو غير الذى صلى عليه - وإلى كل جبار ، يدعوهم إلى الله عز وجل .

* * *

بعد رسول الله ﷺ « دحية بن خليفة » بكتابه إلى قيصر الرومان ، وليس الوصول إلى قيصر بدعوة غريبة على مسامحة أمراً سهلاً ، فكيف وهى - فى نظر الرومان - من أعرأى شاذج ينتمى إلى قوم تحت سلطانهم .

وتقديراً لهذه الأوضاع ، اختار النبي لتلك المهمة من يقوم بها إيماناً واحتساباً غير مبال بعواقبها عليه ولا نتائجها عند من يدعو .

فعن ابن جبان أن رسول الله قال : « من ينطلق بصحيفتى هذه إلى قيصر وله الجنة » ؟ فقال رجل : وإن لم يقبل ؟ قال : « وإن لم يقبل ! فأخذ دحية الكتاب وسافر به إلى أرض الروم فوافق هرقل وهو مقبل على بيت المقدس يزوره عقب انتصاره على الفرس ، قرأ إلى الله .

وتناول قيصر الكتاب فقرأ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد .. فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يُؤتكَ الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأكرين - الفلاحين - :

و ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٥٤) .

وقد هاجت حاشية هرقل لاكتراث القيصر بهذه الرسالة ، وازدادوا هياجاً عندما عرض عليهم - لا ندرى جداً أم هازلاً - أن يعتنقوا هذا الدين ! .

وهرقل - فى نظرنا - رجل سياسى ، وأمر الدولة لا يعنيه إلا بقدر ما يُدعيم ملكه ويُنمي قوته ، وقد تولى شعون الدولة فى وقت كانت الخلافات الكنسية حول طبيعة المسيح تغلغليان المرجل ، وتثير فى الأمة انقسامات مخيفة ، وقد حاول التقريب بين وجهات النظر المتباينة ، وجمع الكنائس المتخاصمة على مذهب واحد فعجز . وتمرد عليه اليعاقبة وغيرهم فى مصر والشام .

فالكلام فى الإلهيات ليس غريباً عليه ، والتقريب بين وجهات النظر - لمصلحة الدولة - ديدنه ، ولعله فى أعماق قلبه يحس سخف أولئك المختلفين جميعاً .

وربما تألقت فى نفسه ، لوقت محدود ، فكرة الخروج من عقيدة التثليث إلى بساطة التوحيد ، ثم انطفأت لما ستجره على الدولة من خلاف أشق فى وهمه ، وأمر المملكة - عنده - أهم من أى شأن آخر .

وشاءت لباقية قيصر السياسى أن يستدعي دحية ، وأن يحاول إيهامه بأنه مسلم ؟ ثم أعطاه قدراً من الدنانير .. وصرفه ! .

(٥٤) حديث صحيح من قوله : « وتناول قيصر » إلى ما أخرجه البخارى (١٣٣/٢١) ومسلم (١٦٥/٥ - ١٦٦) عن ابن عباس - والآية من سورة آل عمران : ٦٤ .

وعاد دحية إلى رسول الله بالنبا : فقال النبي ﷺ : « كذب عدو الله ، ليس بمسلم » وأمر بالدنانير فقسمت على المحتاجين (٥٥) .

* * *

أما الولايات العربية التابعة للرومان فإن النبي أرسل إلى امرائها يعرض عليهم الإسلام فكانت إجابتهم أحسن وأقضى من رد القيصر نفسه ! .

قرأ أمير دمشق خطاب الرسول له : « بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى ملكك » (٥٦) .

فلما قرأه رمى به الأرض . وقال : من ينزع ملكي مني ؟ وأخذ يعد العدة لقتال المسلمين .

والحارث ليس بالملك الأصيل حتى يشمخ بملكه على هذا النحو ، إنه مولى من قبل الرومان الغالين ليخدم أهواءهم ، ويمشي في ركابهم فهو كنفر من ملوك الشق في عصرنا هذا . صنعهم المستعمرون ليكونوا حبالاً تنجر بها الأمم المستضعفة وراء غاصبيها .

والهدية التي ردها ، هي الأمل الوحيد لجعله حاكماً شريفاً ، لو أنه قبلها وأشاعها .

وبعث النبي إلى أمير بصرى - من ولايات الروم - مثل ما بعث به إلى أمير دمشق ، وحمل الكتاب « الحارث بن عمير الأزدي » فاعترضه في الطريق « شرحبيل ابن عمرو الغساني » وسأله : أأنت من رسل محمد ؟ قال : نعم . فأمر به شرحبيل فقتل .

(٥٥) أخرجه أبو عبيد في « الأموال » (ص ٢٠٥) عن بكر بن عبد الله المزني وإسناده صحيح ، لكنه مرسل ، بيد أن الزرقاني نقل في « شرح المواهب » (٢٥٠/٣) عن « الفتح » أنه في مسند أحمد أيضاً . فليُنظر فإنه لم يذكر صاحبيه .

(٥٦) ذكره الواقدي بدون إسناد كما في « البداية » (٢٦٨/٤) .

وترامت هذه الأخبار إلى المسلمين في المدينة فجرحت كرامتهم ، وأبانت لهم أن علائقهم بالرومان لن تندفع في طريق العدل والاحترام إلا بعد جهود شاقة .

* * *

ورد « المقوقس » على النبي رداً حسناً فلم يؤمن به ولم يتهم عليه ، ولم تسلم كتابه من « حاطب بن أبى بلتعة » قال له : ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجته من بلده ؟ فقال حاطب : ما منع عيسى - وقد أخذه قوماً ليقتلوه - أن يدعو الله عليهم فيهلكهم ؟ فقال المقوقس : أحسنت .. أنت حكيم جاء من عند حكيم .

وكتب إلى رسول الله يقول « محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط .. سلام عليكم ، أما بعد .. فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه وتدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط ، وبثياب ، وأهديت لك بغلة تركبها » .

وماذا يفعل محمد بهذا ؟ لقد قبل الهدية تقديراً للعاطفة التي أملت بها ، وإن كان يرى أن الإيمان بالله وحده أفضل ما يُهدى إليه ، وخير ما ينتظره ويهش له . وجدير بنا أن نذكر كلام حاطب للمقوقس . حتى يعرف القارئ أن هذه البعوث بلغت حداً من الفقه والحصافة يستحق الإعجاب البالغ .

قال حاطب : إن هذا النبي دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشاره موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد . وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل .

وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته . فحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدرك هذا النبي ، ولسنا ننهك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به .

وكان أثر هذه الدعوة الحارة ، الخطاب الذى سقناه آنفاً .

* * *

تلك مثل لرسائله إلى رجالات النصرانية ومواقفهم منها . وقد ساق النبي كذلك مبعوثيه إلى رؤساء المجوسية يدعونهم إلى الله . ويحدثونهم عن الدين الذي لو تبعوه لنقلهم من الغي إلى الرشاد .

وقد تفاوتت ردودهم ، بين العنف واللفظ ، والإيمان والكفر .

كتب رسول الله ﷺ إلى « كسرى أبرويز » ملك فارس يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله .. أدعوك بدعاية الله ، فإنني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس » (٥٧) .

ومزق كسرى الكتاب وهو محقق .

ولعله حسب الجراءة على مكانته السامية بعض ما رماه به القدر من مصائب فقد هزمه الروم هزيمة منكرة ، وها قد جاء العرب يعلمونه ما لم يكن يعلم .

وأصدر كسرى أمره إلى والي اليمن - وكانت لما تنزل في حكمه - يأمره أن يرسل اثنين من رجاله الأشداء ، ليأتيا إليه بالرجل الذي تجرأ على مكاتبته .

و « أبرويز » هذا رجل أحقق ، ومنصبه يُضفى عليه ملك الملوك ، والوثنية السياسية إذا ظاهرتها وثنية دينية أمست ظلماً بعضها فوق بعض ، وقد غلب على الرجل السفه في تصريفه شئون الدولة وحكمه على الأشخاص والأشياء ، حتى ضاق قومه أنفسهم به . بل ضاق به أقرب الناس إليه وهو ابنه « شيرويه » فوثب عليه فقتله .

(٥٧) حديث حسن ، رواه ابن جرير في تاريخه (٢٩٥/٢ - ٢٩٦) عن يزيد بن أبي حبيب مرسلأ ، وأبو عبيد في « الأموال » (ص ٢٣) عن سعيد بن المسيب مرسلأ نحوه .

وَيُرَوَّى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لما بلغه ما صنع كسرى أبرويز بكتابه قال : « مَرَّقَ اللَّهُ ملكه » (٥٨) .

والطريف أن والى اليمن لما صدر إليه أمر كسرى سارع إلى تنفيذه .
فأرسل اثنين من لَدَنِهِ إلى المدينة ، يعرضان على النبي عليه الصلاة والسلام أن ينطلق معهما لِيُسْتَلَّ عما فعل .. !! .

ونظر النبي ﷺ إلى الرجلين فوجدهما من ذلك النوع الذى تربيته الملوك فى القصور كما تُرى النسوة فى بلادنا الديكة الرومية .. مناظر فارهة ، وبواطن تافهة .
فلما رأى شواربهما مفتولة ، وخذودهما مخلوقة ، أشاح عنهما وقال (٥٩) :
« ويحكمنا .. من أمركما بهذا ؟ قالا : أمرنا ربنا !! يعنيان كسرى .

إن تأليه الملوك ضلال قديم ، وبعد أن انتشر الإسلام ذهبت حقيقة التأليه ، ثم عادت الآن آثاره وخصائصه ، فالملك يُلقَّب صاحب جلالة ، ولا يُسْتَلَّ عما يفعل ، ويُبطل شرائع الله ليقيم شرائع الهوى ، ويمتد هو وبطانته ، لتكتمش أمامهما أمتة ..

ولما سمع النبي عليه الصلاة والسلام كلام الرجلين أمرهما أن يعودا من حيث أتيا إلى والى اليمن ، وقال : « أخبروه أن ربي قد قتل ربه الليلة » . وكان رسول الله قد علم قبلهما بمصرع كسرى .

وقد وقع الإسلام فى قلب والى اليمن ورجاله بعد هذه القصة وانتشر انتشاراً عظيماً فى الجنوب بين الطائفتين جميعاً نصارى ومجوس .

* * *

(٥٨) حديث صحيح رواه البخارى فى صحيحه (١٠٤/٨) وأبو عبيد عن سعيد بن المسيب مرسلأ ومرفوعاً وروى من وجوه أخر مرسلأ ، فراجع لها من شاء « البداية والنهاية » (٢٦٨/٤) .
(٥٩) حديث حسن ، أخرجه ابن جرير (٢٦٦/٢ - ٢٦٧) عن يزيد بن أبى حبيب مرسلأ .
وابن سعد فى « الطبقات » (ج ١ ق ٢ ص ٤٧) عن عبيد الله بن عبد الله مرسلأ أيضاً وسنده صحيح ، ووصله ابن بشران فى الأمانى من حديث أبى هريرة بسند واه وفيه من الطرق الثلاث زيادة كان يحسن إيرادها وهى « لكنى أمرنى ربي عز وجل أن أعفى لحيتى ، وأن أحفى شاربي » .

وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام إلى أمير البحرين كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام ونهذ المجوسية ، حمّله إليه « العلاء بن الحضرمي » (٦٠) وكان « المنذر ابن ساوى » أمير البحرين ، رشيداً موفقاً ، فرحب بالدعوة وانشرح صدره لقبولها . وقد أبلغ العلاء في ترغيبه وإبراز محاسن الإسلام له .

فما قاله : « .. يا منذر .. إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغر عن الآخرة .. إن هذه المجوسين شر دين .. ليس فيها تكريم العرب ، ولا علم الكتاب ، ينكحون ما يُستحي من نكاحه ، ويأكلون ما يُتنزه عن أكله ، يعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة .. ولست بعديم عقل ولا أرى فانظر : هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ألا نصدقه ؟ ولن لا يخون ألا نأمنه ؟ ولمن لا يخلف ألا نثق به ؟ .

هذا هو النبي الأمي الذي - والله - لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهي عنه ، أو ما نهي عنه أمر به ! أو ليت زاده في عفوه أو نقص من عقابه . إذ كل منه على أمانة أهل العقل ، وفكر أهل النظر .. » .

وقد أسلم « المنذر » وعرض على قومه الإسلام فمَنهم من أعجبه فدخل فيه ، ومنهم من كرهه وبقي على مجوسيته ، أو على يهوديته . فلما استشار رسول الله ﷺ ما يفعل بإزائهم كتب له : « .. من أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » (٦١) .

* * *

إن توسيع ميدان الدعوة بحيث تشمل المعروف المعمور من أرض الله يومئذ أمر يثير التأمل ، لقد كان العرب يستكثرون النبوة على واحد منهم ، ويوسعونه جحوداً وكنوداً ! .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ (٦٢) .

(٦٠) رواه الواقدي في آخر كتاب « الردة » بسنده عن أبي حنيفة كما في « نصب الراية » للزيلعي (٤١٩/٤ - ٤٢٠) .

(٦١) ضعيف ، أخرجه الواقدي بإسناده عن عكرمة قال : وجدت في كتب ابن عباس .. فذكره .

(٦٢) الفرقان : ٤١ .

فما يكون شأن الروم والعجم ، وهم يرون العرب دونهم منزلة وحضارة وثقافة وسياسة ! ألا يكونون أسرع إلى السخرية وأدنى إلى الكفران ؟ .

بيد أن أصحاب الرسالات لا ينظرون إلى الأمور على ضوء الحاضر الضيق المنكور فإن ثقتهم العميقة في سيادة فكرتهم وامتداد نطاقها ، تُصَغِّرُ العقبات المفروضة في الطريق . وتجعلها - ولو كانت الشم الرواسي - هباءً منثوراً .

ولو انحصر « كارل ماركس » في حدود مذهبه - وهو فكرة مطاردة تصل بذويها إلى السجون - لأصابه الشلل وقضى عليه وعلى أفكاره ، لكنه مضى في سبيله وهو على أمل بالغ أن تقوم بتوجيهها دول كبرى . فإن كان هذا شأن الماديين من أصحاب الأفكار الضالة فلا جرم أن المرسلين المؤيدين بالوحي يكتاتون الملوك والأمراء وهم موقنون بأن ما لديهم من حق سيعلو صاعداً ، وذلك ما كان يحول في نفس الرسول الكريم وهو يعالج هداية الأعراب الشاردين في الصحراء طوراً باللين وطوراً بالشدّة . ثم هو - في الوقت نفسه - ينصح لقادة الشعوب الأخرى أن يفكروا في هذا الدين الجديد أو يعتنقوه وافرّين .

إن الخرافة التي أفسدت عقل بدوى تُترب إهابه وثيابه رياح « نجد » هي بعينها الخرافة التي تفسد فكر كسرى ، عاهل الفرس العظيم .

ما الفارق بين الحمى تصيب ملكاً أو تصيب صعلوكاً ؟ إن الطبيب يصف لها - على الحالين - دواءً واحداً ، ويتخذ ضد عدواها حصانات واحدة ! .

وقد أراد النبي ﷺ أن يشفى الكبار والصغار من أمراض نفوسهم وأن يناولهم جميعاً الدواء الذي يَصْحُون به .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٦٣) .

فلا غرو إذا جمع في مصححة بين الأحمر والأسود ، والسادة والعبيد . أجل .. قد يكون أولئك الملوك محجّبين وراء أسوار مشيدة ، وحولهم من الأتباع والجند

والأبهة والرياش ما يبهز العين ، لكن أى عين تنبهر لهذه المظاهر ؟ إن الطبيب المعالج لا يعنيه من مريضة إلا جسده الشاحب العليل ، والأنبياء لا يرون فى القوم إلا أنهم جُهَال يجب أن يتعلموا . سفهاء يجب أن يسترشدوا ، وأن ما حولهم من الدنيا يجعل تبعثهم أخطر ، وجزاءهم على الهدى والضلال أضخم .

على أن هذه القوى المسخرة فى حماية الباطل لن يطول أمدها ، إلا كما يطول الليل على المورق ، ثم تطلع الشمس ، ويمحو الله بالآية المبصرة سدول الظلام .

ولذلك قال النبى لرسول الى اليمن حين جاءوه : « أخبراه أن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهى إلى الخف والحافر وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملكنك على قومك » (٦٤) .

إنه - وهو فى المدينة - يؤلى ويعزل ، عن حق لا عن غرور ، أليس موصولا بمالك الملك ، مبعوثاً من رب السموات والأرض ؟ .

ومن الطبيعى أن يعرف مشركو العرب أنباء هذه البعوث النبوية ، وأن يرقبوا نتائجها عن كثب ، وقد استبشروا أول الأمر حين بلغهم صنع كسرى بن هرمز وقال بعضهم لبعض : كُفِّتَ الرجل ، فقد نصب له كسرى ملك الملوك ! وشاعت هذه القالة فى مكة والطائف .

ثم مرت الأيام ، وطاح كسرى ، وبقي الإسلام يغزو الأفئدة والبلاد .. وجاءت الأنباء أن بعوث محمد ﷺ فى بعض الأرجاء أمكنها نشر الإسلام وتثبيت هدايته ، حتى دخلت فيه اليمن وعمان والبحرين ، فارتد استبشار المشركين خذلاناً ، وفكرت قبائل شتى فى الانقياد لحكمه ، خصوصاً ورقة الكفر تنكمش يوماً بعد يوم أمام موجات الوحي الجارف ، وإن بقيت أخرى مصرة على جاهليتها .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ . قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ، وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴾ (٦٥) .

(٦٤) ضعيف : أخرجه ابن جرير فى تاريخه (٢٩٧/٢) عن يزيد بن أبى حبيب مرسلأ .

(٦٥) الأنبياء : ٤٤ ، ٤٥ .

عمرة القضاء

أوشكت السنة السابعة أن تنقضى ، وحق للمسلمين أن يعودوا إلى مكة ليؤدوا مناسك العمرة التي حُرِّموا من أدائها قبلاً ، لقد تأخروا عاماً وهم كارهون ، لكن مكاسبهم للدعوة في هذه الفترة أربت على الأمانى ، وها هم أولاء يسوقون الهدى إلى الحرم مرة أخرى ، ويجرون وراءهم أذيال نصر عريض .

وأحب أهل مكة أن يعزوا أنفسهم وهم يجلون عنها - وفق الاتفاق المبرم - فدخلها النبي ﷺ وصحابته معتمرين ، فأشاعوا أن المسلمين يعانون عسرة وجهداً ! .

قال ابن عباس : صفوا له عند « دار الندوة » لينظروا إليه وإلى أصحابه ، فلما دخل رسول الله المسجد ، اضطجع بردائه ، وأخرج عضده اليمنى ثم قال : « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » (٦٦) ، ثم استلم الركن وأخذ يهرول ، ويهرول أصحابه معه حتى واراها البيت عنهم .

والتطواف بهذه السرعة إظهار لبأس المسلمين ، وتكذيب لإشاعات الضعف ، وقد مضت السنة به بعد ذلك .

(٦٦) ضعيف . رواه ابن هشام (٢٥٤/٢) عن ابن إسحاق : حدثني من لا أتهم عن ابن عباس مرفوعاً . ورواه ابن جرير (٣٠٩/٢) عن ابن إسحاق فقال عن الحسن بن عماره عن الحكم بن عتيبة عن مقسم عن ابن عباس ، فإن صحت هذه الرواية فهي تقل عن الطريق الأولى لأن الحسن بن عماره منهم بالوضع ، وإن لم يصح في الطريق الأولى من لم يسم .

ويعنى عنه ما في المسند (رقم ٣٥٣٦) عن ابن عباس أن قريشاً قالت : أله محمد وأصحابه قد وهتهم حمى يثرب فلما قدم رسول الله ﷺ لعامة الذي اعتمر فيه قال لأصحابه : أرملوا بالبيت ليرى المشركون قوتكم ، فلما أرملوا قالت قريش : ما وهنتهم . وسنده صحيح ، علقه البخارى (٤١١/٨) .

وروى^(٦٧) أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة كان عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقته وهو ينشد :

خلوا بني الكفار عن سبيله تخلوا فكل الخير في رسوله !
يا رب إني مؤمن بقبيله أعرف حق الله في قبوله !

وأقام المسلمون ثلاثة أيام ، جاء في نهايتها نفر من قريش يذكرونه بانقضاء الأجل المضروب ويقولون له : اخرج عنا ، فقال لهم الرسول : « لو تركتموني فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه »^(٦٨) ؟ .

قالوا : لا حاجة لنا في طعامك ، فاخرج عنا .

وكان العباس عم رسول الله قد زوجه من ميمونة بنت الحارث ، خالة عبد الله ابن عباس ، فعقد عليها في مكة ، وبني بها في سرف ، في هذه العمرة نزل قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ، لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾^(٦٩) .

* * *

(٦٧) عند ابن هشام (٢٥٥/٢) عن ابن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي بكر مرسلأ لكن رواه عبد الرزاق من وجهين عن أنس ، والأول صحيح على شرط الشيخين ، والآخر على شرط مسلم كما قال الحافظ في الفتح (٤٠٣/٨ - ٤٠٤) ومن الوجه الثاني أخرجه الترمذى وحسنه ، والنسائي (٠/٢) .
(٦٨) ضعيف ، رواه ابن هشام (١٥٥/١) عن ابن إسحاق بغير إسناد ، والقصة في البخارى (٤٠٣/٧ - ٤٠٧) من حديث البراء ، و (١٤٠/٧) عن ابن عمر . وليس في روايتهما : « لو تركتموني .. » وإنما فيها : « فلما أن أقام بها ثلاث أمره أن يخرج فخرج » .
(٦٩) الفتح : ٢٧ .

غزوة مؤتة

عز على المسلمين مصرع رسولهم إلى أمير بصرى ، والطريقة الشائنة التي عُمِل بها ، فقد أوثق « جبيل بن عمرو » رباطه ثم قدمه فضرب عنقه ، ولم يقتل أحد غيره من بعوث الرسول الكثيرة إلى الآفاق ، والرسول لا يُقتلون ، لذلك كان وقع هذه الإهانة شديداً على المسلمين ، فعزموا على الاقتصاص لرجلهم ، وعلى زلزلة الوالى الأثيم الذى صنع ما صنع لحساب الرومان .

وتجهز المسلمون فى جيش يعتبر بالنسبة لهم كبيراً ، إذ بلغت عدته ثلاثة آلاف ، وخرج أهل المدينة يودعون الجيش الزاحف وهم يقولون : صحبكم الله بالسلامة ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين ، فقال « عبد الله بن رواحة » يرد على هذا الوداع :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزبد !
أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبد !
حتى يقال - إذا مروا على جدث يا أرشد الله من غاز وقد رشدا !

ورتب النبى قادة الجيش ، فجعل الأمير « زيد بن حارثة » وقال : إن أُصيب فجعفر بن أبى طالب ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة^(٧٠) .
وانطلق الجيش إلى مشارف الشام .

إلا أن أخباره سبقتة إلى الروم ، ولابد أن تهاويل كثيرة أحاطت بسمعة المسلمين وطاقتهم الحربية مما جعل القوم يستعدون للقتال بجيش كثيف .

(٧٠) حديث صحيح أخرجه البخارى (٤١١/٧) وغيره عن ابن عمر ، وأحمد (١٩٩/٥) ، ٣٠٠ - ٣٠١) عن أبى قتادة ، وسنده صحيح .

فلما وصل المسلمون إلى « معان » عرفوا أن في انتظارهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف أخرى من نصارى العرب .

والهجوم على جيش تلك عُدتته مجازفة مخوفة ، فأقام المسلمون ليلتين بـ « معان » يتدبرون أمرهم ، وقال نفر منهم : نكتب إلى رسول الله نخبه بعدد عدونا ، فيما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا فنمضى له ، ولم يرق ذلك لعبد الله ابن رواحة فشجع الناس قائلاً : يا قوم ، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون . - الشهادة ! - وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة .

وكان لهذه الكلمة الملهبة أثرها ، فاخفتت من صفوف المسلمين مشاعر التردد ، وقرروا القتال ، مهما كانت النتائج .

وابن رواحة شاعر حد العاطفة ، وقد أحس منذ خروجه أن الاستشهاد مقبل عليه فهو يتبهاً له بقلبه ولسانه ، وقد تكون الحكمة العسكرية في تصرف غير ما أوحى به ، غير أن المسلمين ما أن سمعوا حديث الفداء والموت في سبيل الله حتى جاشت أنفسهم بحبة الآخرة ، ثم ذكروا أنهم نُصروا في معارك سابقة باستعداد أقل من غدوهم ، فأقدموا مطمئنين .

عن أبي هريرة قال : شهدت مؤتة ، فلما دنا المشركون رأينا ما لا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكراع والديباج والحريز والذهب ، فبرق بصري !! فقال لي ثابت بن أرقم : يا أبا هريرة .. كأنك ترى جموعاً كثيرة ؟ قلت : نعم . وأبو هريرة ممن أسلموا بعد الحديبية - فقال له ثابت : إنك لم تشهد بدرأ معنا ، إنا لم نُصر بالكثرة .

* * *

والتقى الجمعان ، وعبث أن ننتظر من ثلاثة آلاف بطل أن يصابولوا في ميدان مكشوف فيالق تربو على سبعين ضعفاً .

قاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم .
وتلقف الراية جعفر بن أبي طالب فأقبل على الروم يجالدهم بعنف .
روى أبو داود حديث شاهد عيان يقول : لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم
على فرس له شقراء ثم عقرها ، ثم قاتل القوم حتى قُتل وهو ينشد :
يا حبذا الجنة واقتراها ! طيبة ، وبارداً شرابها !
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها !
على إن لاقيتها ضرابها !
قيل إن رجلاً من الروم ضربه ضربة قطعتة نصفين ..
وقيل : أخذ اللواء يمينه فُقطعت ، فأخذه بشماله فُقطعت ، فاحتضنه
بعضديه حتى قُتل ، وقد رُزق جعفر هذه الشهادة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .
فلما قُتل حمل عبد الله بن رواحة الراية ، ثم تقدم بها وهو على فرسه ،
فلما أحس دقة الموقف وشدة الضغط عراه بعض التردد ، ثم أقنع نفسه بورود المصير
الذي ذاق صاحبه على الساحة المضطربة وهو يقول :
يا نفس إن لا تُقتلى تموتى ! هذا حمام الموت قد صُليت !
وما تمنيت فقد أعطيت ! إن تفعل فعلهما هُديت !
ثم أقدم وجاءه ابن عم له بقطعة لحم فناولها وهو يقول : شد بها صلبك ،
فإنك قد لقيت في أيامك ما لقيت ، فما كاد يقطع منها مضغة حتى سمع الحطمة في
ناحية من الجبهة استعرت بها الحرب ، فقال لنفسه : وأنت في الدنيا ؟ ورمى بالطعام
من يده .. ثم انتضى سيفه وتقدم حتى قُتل .

وأخذ الراية التي تداولتها أيدي الأمراء الثلاثة « ثابت بن أقرد » وساح :
يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ! قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل !
فاصطلح الناس على « خالد بن الوليد » ، وثابت أبى القيادة . لانكوصاً عن الموت
بل شعوراً بوجود الأكفأ منه في الجماعة ، وحملاؤه الراية خشية أن تسقط ، ومن
آيات الجرأة في هذا الموقف العصيب . وليت كل امرئ يعرف أقدار الناس ينزلهم

منازلهم التي يستحقونها ، فلا يُكلف أُمته أن تحمل عجزه وأثرته .
وأخذ الراية « خالد » فشرع يُقاتل ويحتال للخلوص بالجيش من هذا المأزق المتضايق .

وقالت الانسحاب شاق مرهق ، خصوصاً وخالد لا يريد إشعار الروم بهذه الخطة .

روى البخارى عن خالد : اندقت في يدى يوم « مؤتة » تسعة أسياف وما ثبت في يدى إلا في صفيحة يمانية . ودخل الليل على المتحارين ، فكان هدنة مؤقتة ، فلما طلع الصبح كان خالد قد أعاد تنظيم قواته القليلة ، فجعل المقدمة ساقة والميمنة ميسرة .

وجعل هدفه مناوشة الرومان بحيث يلحق بهم أفدح الخسائر دون أن يعرض كتلة الجيش لالتحام عام ، وقد أفلحت هذه الخطة في إنقاذ الآلاف القليلة التي معه ، وإنقاذ سمعة المسلمين في أول معركة لهم مع الدولة الكبرى .

والعجيب أن الرومان أعياهم هذا القتال وأصيبوا فيه بخسائر كبيرة ، بل إن بعض فرقتهم انكشف ، وولى مهزوماً . واكتفى خالد بهذه النتيجة ، وآثر الانصراف بمن معه .

عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ : نعى زيدا وجعفرأ وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - قال : ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » (٧١) .

وروى ابن إسحاق (٧٢) عن رسول الله ﷺ : « لقد رُفِعوا إلى الجنة - فيما يرى النائم - على سرر من ذهب ، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة

(٧١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٤١٣/٧) وغيره .

(٧٢) رواه بلاغاً كما في سيرة ابن هشام (١٥٨/١ - ١٥٩) وغيرها فهو ضعيف الإسناد .

إزوراراً عن سريري صاحبيه ، فقلت : مم هذا ! فقيل لي : مضيا ، وتردد عبد الله بعض التردد . ثم مضى » .

* * *

والدلالة التي تعلقو على الريب في هذه المعركة أن شجاعة المسلمين وبسالتهم بلغتا حدّاً لم تعرفه أمة معاصرة ، وقد أكسبهم هذا الروح العالى إقداماً حَقَّرَ أمامهم كبرياء الأمم التي عاشت مع التاريخ دهرًا ، تصول وتجول لا يقفها شيء .

إن الاستهتار بالخطر والطيران إلى الموت ليس فروسية احتكرها الرجال المقاتلون وحدهم ، بل هي قوة غامرة قاهرة تعدت الرجال إلى الأطفال فأصبحت الأمة كلها أمة كفاح غال عزيز . وحسبك أن جيش « مؤتة » لما عاد إلى المدينة قابله الصبية بصيحات الاستنكار يقولون : يا فُرَّار ، فررتم في سبيل الله ؟ إن أولئك الصغار الأغرار يرون انسحاب خالد ومن معه فراراً يقابل بحشو التراب ، أى جيل قوى نابه هذا الجيل الذى صنعه الإيمان بالحق ؟ أى نجاح بلغته رسالة الإسلام في صياغة أولئك الأطفال العظام ؟ من آباؤهم ؟ من أمهاتهم ؟ كيف كان الآباء يربون ؟ وكيف كانت الأمهات يدلن ؟ .

إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس .

* * *

تحدث النبي ﷺ عن قادة الجيش الذى قُتلوا ، فقال لأصحابه : « ما يسرهم أنهم عندنا » (٧٣) أجل ، إن الجوار الذى صاروا إليه أحب لنفوسهم وأقر لعيونهم من الدنيا وما فيها . وأما أسرهم ففي كفالة الله ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

عن عبد الله بن جعفر - ابن الشهيد - جاءنا النبي ﷺ ، بعد ثلاث من موت جعفر فقال : « لا تبكوا على أخى بعد اليوم ، وادعوا لى بنى أخى » .

(٧٣) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (١٣٥/٦) من حديث أسس المتقدم فى رواية له ، لكن بلفظ « ما يسرنى » أو قال : « ما يسرهم » على الشك .

قال عبد الله : فجىء بنا كأننا أفراخ . فقال : ادعوا إلى الخلاق . فجىء بالخلاق فخلق رؤوسنا ، ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام - مداعباً : « أما محمد فشبيه عمنا أبى طالب . وأما عبد الله فشبيه خلقى وخلقى . ثم أخذ بيدي فأشالها وقال : اللهم اخلف جعفرأ في أهله . وبارك لعبد الله في صفقة يمينه » - قالها ثلاث مرات .

قال عبد الله : وجاءت أمنا فذكرت له يتمنا وجعلت تحزنه فقال لها النبي : « العيلة تخافين عليهم وأنا ولهم في الدنيا والآخرة » ؟؟ (٧٤) .

ولم ير المسلمون في نتائج « مؤتة » ما يسكن ثائرتهم ، فإن القبائل المنتصرة بالشمال استظهرت بالرومان على مقاتلتهم ، واستطاعت بذلك النجاة من عدوانها على الحارث بن عمير ، ولا بد من قذف الرعب في قلوبهم ، وإشعارهم بأن بعوث الإسلام لا تلقى هذا الهوان ، وهكذا اتجه نشاط المسلمين العسكرى إلى ميدان جديد بعيد .



(٧٤) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (رقم ١٧٥٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم ، وبعضه عند أبى داود والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي .

ذات السلاسل

كان « مؤتة » في جمادى الأولى من السنة الثامنة ، ولم يلبث المسلمون طويلاً بعدها حتى عادوا إلى مشارف الشام يلاحقون خصومهم قبل أن يستريحوا ، فخرج « عمرو بن العاص » ليؤدب القبائل الضاربة هناك إلا أنه خشي من كثرة عدوه ، فأرسل إلى النبي ﷺ يطلب مدداً ، وانجاز إلى ماء يسمى السلاسل حتى يجيئه العون .

وبعث رسول الله ﷺ جيشاً من المهاجرين الأولين - فهم أبو بكر وعمر - يقوده أبو عبيدة بن الجراح . ووصاه رسول الله حين وجهه لنجدة « عمرو » فقال : « لا تختلفا » (٧٥) .

فلما وصل أبو عبيدة قال له عمرو : إنما جئت مدداً لى ، فقال له أبو عبيدة : لا .. ولكنى على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه ! فقال عمرو : أنت مدد لى - ! وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً ، هيناً على أمر الدنيا - فقال : يا عمرو .. إن رسول الله ﷺ قال لى : لا تختلفا . وإنك إن عصيتنى أطعتك ! قال عمرو : فأنى أمير عليك ، وإنما أنت مدد لى ، قال : فدونك . فصلى عمرو بالناس وتولى قيادهم جميعاً .

وأخذ عمرو يطارد القبائل الموالية للروم . فتوغل فى بلاد : بلى وعذرة وبلقين وطيء . وكلما انتهى إلى موضع قيل له : كان هناك جمع فلما سمعوا بك تفرقوا ، وظفر مرة بواحد من هذه الجموع فاقتتلوا ، وحمل عليهم المسلمون فهزموها ، وأعجزوهم هرباً فى البلاد .

(٧٥) ضعيف ، رواه ابن إسحاق عن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمي مرسلاً .

ومع أن عمرواً دوح أولئك الأعراب وشتت شملهم إلا أنه لم يلقهم في معركة حاسمة وعلى أية حال فإن سمعة المسلمين انزاح عنها غبار كثير بهذه الغزوة .

* * *

وحدث أن عمرو بن العاص احتلم في ليلة باردة .. وخشى على نفسه إن اغتسل أن يعتل فتيمة وصلى بالناس وكأن بعض الصحابة شك في هذا الصنيع من عمرو ، فذهب إلى النبي ﷺ يقول له : إن عمرواً صلى بنا وهو جنب ! فقال الرسول : « يا عمرو .. أصليت بأصحابك وأنت جنب » ؟ فأخبره بالذي منعه من الاغتسال . لقد خاف على نفسه قسوة البرد ، والله يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (٧٦) .

فضحك الرسول ولم يقل شيئاً (٧٧) .

وفقه عمرو في هذه المسألة صحيح ، فإن التيمم يجوز إذا كان في استعمال الماء مظنة الضرر .



(٧٦) النساء : ٢٩ .

(٧٧) صحيح ، أخرجه أبو داود والدارقطني والحاكم والبيهقي بإسناد صحيح عن عمرو بن العاص ، وقد تكلمت على الحديث في « صحيح سنن أبي داود » (رقم ٣٦٠ ، ٣٦١) .

الفتح العظيم

شُغل المسلمون بعد عهد الحديبية بنشر الدعوة وعرض تعاليم الإسلام على كل ذي عقل . وكان وفاؤهم لقريش أمراً مقررأ فيما أحبوا وفيما كرهوا . ورأى الناس من ذلك الآيات البينات ..

لكن قريشاً ظلت على جمودها القديم في إدارة سياستها ، غير واعية للأحداث الخطيرة التي غيرت مجرى الأحوال في الجزيرة العربية ، وتوشك أن تغيره في العالم كله .

وقد جرَّها فقدان هذا الوعي إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لغواً . وذلك أنها - مع حلفائها من بنى بكر - هاجموا خزاعة - وهي مع المسلمين في حلف واحد - وقتلواهم فأصابوا منهم رجالاً . وانحازت خزاعة إلى الحرم ، إذ لم تكن متأهبة للحرب ، فتبعهم بنو بكر يقتلونهم ، وقريش تدمهم بالسلاح وتغنيهم على البغي .

وأحس نفر من بنى بكر أنهم دخلوا الحرم - حيث لا يجوز قتال - فقالوا لرئيسهم نوفل بن معاوية : إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك . فقال نوفل : لا إله اليوم يا بنى بكر .. أصيبوا ثأركم .. ! .

وفزعت خزاعة لما حل بها ، فبعثت إلى رسول الله « عمرو بن سالم » يقص عليه نبأها . فلما قدم المدينة ، وقف على النبي ﷺ وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس يقول :

يا رب إني ناشد محمداً حلف أئينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والداً ثم أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا

ففيهم رسول الله قد تجردا أبيض مثل البدر يسمو صعدا
 إن سيم خسفاً لوجهه تربدا في فيلق كالبحر يجري مزبدا
 إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقتك المؤكدا
 وجعلوا لي في كداء رصدًا وزعموا أن لست أدعو أحدا
 وهم أذل وأقل عددا هم بيتونا بالوتير هجدا
 وقتلونا ركعاً وسجداً

فقال له رسول الله : « نُصرت يا عمرو بن سالم » (٧٨) .

* * *

وأحست قريش - بعد فوات الأوان - خطأها ، فخرج أبو سفيان إلى المدينة
 يصلح ما أفسده قومه .. ويحاول أن يعيد للعقد المهترع حرمة .

وبلغ المدينة فذهب إلى ابنته أم حبيبة ، وأراد أن يجلس على الفراش فطوته
 دونه . فقال : يا بنية .. ما أدري ، أرغبت لي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ .

فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس . قال : والله
 لقد أصابك بعدى شر ! ثم خرج حتى أتى رسول الله فكلمه ، فلم يرد عليه
 شيئاً (٧٩) .

واستشفع أبو سفيان بأبي بكر ليحدث النبي في هذا الشأن فرفض . فتركه
 إلى عمر ، فقال عمر : أنا أشفع لكم عند رسول الله ؟! لو لم أجد إلا الذر
 لجاهدتكم به .

فتركهما إلى عليّ فرد عليه : والله يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله على أمر

(٧٨) ضعيف ، رواه ابن هشام (٢٦٥/٢) وابن جرير (٣٢٤/٢ - ٣٢٥) عن ابن إسحاق بدون
 إسناد ، ووصله الطبراني في « المعجم الصغير » (ص ٢٠٢) وكذا الكبير من حديث ميمونة بنت الحارث
 رضي الله عنها بإسناد ضعيف .

(٧٩) ضعيف ، رواه ابن إسحاق بدون إسناد . كما في سيرة ابن هشام (٢٦٥/٢) وابن جرير
 (٣٢٥/٢ - ٣٢٦) .

ما نستطيع أن نكلمه فيه . ثم نصحه ان يعود من حيث جاء ، ففعل أبو سفيان إلى قومه يخبرهم بما لقي من صدود .

وأمر النبي ﷺ الناس أن يتجهزوا ، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة ، وأوصاهم بالجد والبدار وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها » (٨٠) .

واستمع المسلمون لأمر نبيهم ، فمضوا يعثون قواهم للقاء المنتظر ، وهم مدركون أن الساعة الفاصلة مع أهل مكة قد دنت .

* * *

وقع في هذه الفترة الدقيقة حادث مستغرب . فإن رجلاً من أهل السابقة في جهاد المشركين تطوع بإرسال كتاب إلى قريش يخبرهم فيه أن محمداً سائر إليهم بجيشه .. !! .

وقد رأيت أن المسلمين حراس على إخفاء خطة الغزو . أليس مما يقرب نجاحهم ويخفف خسائرهم ؟ ولعله يدفع قريشاً إلى التسليم دون أن تُسفك الدماء عبثاً .

وما معنى الكتابة إليهم إلا التحريض على حرب الله ورسوله ، والاستكثار من أسباب المقاومة ؟ .

عن علي بن أبي طالب : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة « خاخ » فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة . فقلنا : أخرجي الكتاب . فقالت : ما معي ! فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب !! فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله ﷺ .

(٨٠) ضعيف ، رواه ابن إسحاق بدون إسناد ، ومعه في حديث ميمونة المخرج آفأ .

فإذا فيه « من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله » فقال : يا حاطب . ما هذا ؟ فقال : يا رسول الله لا تعجل على .. إلى كنت امرأةً ملصقةً في قريش - كنت حليفاً لها ولم أكن من صميمها - وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم . فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم - أن ألتزم عندهم يداً يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ : أما إنه قد صدقكم ! فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ! فقال : إنه شهد بديراً . وما يدريك ! لعل الله قد اطلع على من شهد بديراً فقال : اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم .. ؟ .

ونزل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (٨١) .

إن حاطباً خرج عن جادة الصواب بهذا العمل .

وما كان له أن يواد المشركين وهم الذين تبجحوا بالكفران وتظاهروا على العدوان وصنعوا بالمسلمين ما « حاطب » أعلم به من غيره .

لكن الإنسان الكبير تعرض له فترات يصغر فيها ، والله أبر بعباده من أن يؤاخذهم بسورات الضعف التي تعرو نورهم فيخبو ، وسعهم فيكبو .

وقد استكشف النبي ﷺ خبيثة حاطب ، فعرف أنه لم يكذبه في اعتذاره ، إنهم مقبلون على معركة كبيرة قد ينهزمون فيها ، فتقوم العصبيات القديمة بحماية الأقارب الشاردين ، ويبقى حاطب لا حمى له ، فليتخذ تلك اليد عند قريش ، حيلة للمستقبل .

(٨١) حديث صحيح ، أخرجه الشيخان وغيرهما - والآية من سورة الممتحنة : ١ .

ذلك ما فكر فيه حاطب ، وهو خطأ ، فإن المشركين لم يذكروا في عداوة الإسلام رحماً ولا أهلاً ، وما ينبغي - ولو دارت علينا الدوائر - أن نبقي لهم ودّاً . وقد خاصمناهم في ذات الله ، وأخذ علينا العهد أن نبذل في حربهم أنفسنا وأموالنا .. ولو جاز اتخاذ يد عندهم فكيف يتوسل بعمل يعد خيانة كبيرة فادحة : الإضرار بالإسلام ، وأهله ؟ .

على أن حاطباً شفع له ماضيه الكريم فجبرت عثرته ، وأمر النبي ﷺ المسلمين أن يذكروا الرجل بأفضل ما فيه ، وبهذا التقدير السمع علمنا الإسلام ألا ننسى الحسنات والفضائل. لمن يخطئون حيناً بعد أن أصابوا طويلاً .

* * *

سرى القلق في ربوع مكة عقب أوبة أبي سفيان ، ورأى العباس بن عبد المطلب أن يُسلم هو وعياله وأن يهجروا مكة إلى المدينة ، فقابلوا رسول الله ﷺ في الطريق مقبلاً بجيشه على مكة ، وخرج كذلك أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبي أمية . فلحقا النبي ﷺ بالأبواء - وهما ابن عمه وابن عمته - وكانا من أشد الناس إيذاءً له بمكة ، فأعرض عنهما لما ذكر من مساءتهما .

لكن على بن أبي طالب أشار على ابن عمه أبي سفيان بوسيلة يترضى بها رسول الله ﷺ . قال له : ائتته من قبل وجهه ، وقل ما قال لإخوة يوسف ﴿ تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ (٨٢) . فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جواباً . ففعل ذلك أبو سفيان . فقال له رسول الله ﷺ :

﴿ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٨٣) .

وأنشده أبو سفيان أبياتاً جاء فيها :

لعمرك إني حين أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد

(٨٣) يوسف : ٩٢ .

(٨٢) يوسف : ٩١ .

لِكَا المِذلِجِ الحِيرانِ أَظْلَمَ ليلَه فِهْذا أَوانى حينَ أَهْدى فَأَهْدى
هَدى هادِ غيرَ نَفْسى وذُلْنى عَلى اللَّهِ من طَرَدْتَه كَلِ مطرَدِ
فَضْرَبَ الرِّسولَ عَلى صَدْرِهِ وَهُوَ يَقولُ لَه : « أَنْتَ طَرَدْتَنى كَلِ مطرَدِ » (٨٤) .

وسارَ الجِيشُ يَطوئُ الوهادَ والنِجادَ مَسرِعاً إلى مَكَّةَ ، حَتى بَلَغَ « مَرِ
الظَهْرانِ » قَريباً مَنا فى العِشاءِ ، فَنَزَلَ الجِيشُ ، وَنَصَبَتِ الحِيامُ وَأَقْدَتِ النيرانُ فى
مَعسَكِرِ يَضُمُ عِشرَةَ آلافَ حَتى أَضاءَ مَنا الوادى ، وَأَهْلُ مَكَّةَ فى عِمايَةٍ مِنْ أَمْرِهِم
لا يَدرونَ عَنِ القِضاءِ النازلِ شَيْئاً .. وَعَزَّ عَلى العِباسِ أَنْ تَجتاحَ مَكَّةَ فى أَعقابِ قَتالِ
تَتَفانى فِيهِ وَلا يَغْنِيها فِتيلاً .

فَخَرَجَ يَبْحِثُ عَنِ وَسيلَةٍ تَقْنَعُ قَريشاً بِمِسالَمَةِ النَّبِىِّ ﷺ وَتَدْخُلُها فى أَمانِهِ .
وَصادَفَ ذَلكَ أَنَّ ثَلاثَةَ مِنْ كِبراءِ مَكَّةَ خَرَجوا يَتَعَرَفونَ الأَخْبارَ وَيَتَسَمِعونَ
ما يَقالُ ، فَلِما اقْتَرَبوا مِنَ الوادى راعَهُم ما بِهِ .

قالَ أَبُو سَفيانَ زَعيمُ مَكَّةَ : ما رَأيتُ كَاللَّيلَةِ نيراناً قَطْ وَلا عِسْكَراً !! .
فَقالَ بَدِيلُ بْنُ رِقاءَ : هَذه - وَاللَّهِ - خِزاعَةٌ حَمَشَتِها الحَرْبُ .

فَرَدَّ أَبُو سَفيانَ : خِزاعَةٌ أَقلُّ وَأَذَلُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ هَذهَ نيرانها وَعِسْكَرُها .

وَكانَ المُسْلِمونَ عَلى خِطَّتِهِم المَرسومةَ يَبْشُرُونَ العِيونَ حَولَهُم حَتى يَأْخُذوا قَريشاً
عَلى غَرةِ فلا تَرى مِنَ التَّسليمِ بَداً ، فَعَثَرَتْ خِياَلُهُم عَلى رِجالِ قَريشِ أَوَّلُك ، وَمَعَهُم
حَكيمُ بْنُ حِزامٍ فَأَخَذَتِهِم ، وَعادَتِ بِهِم مَسرَعَةً إلى رِسالِ اللَّهِ ، وَلَحِقَ العِباسُ
بِالأَسرى وَهُوَ يَعلَنُ أَنَّهُم فى جِوارِهِ ، فَلِما دَخَلوا عَلى النَّبِىِّ ﷺ حادِثُهُم عابَةً اللَّيلِ ،
فانْشَرَحَتْ صُدُورُهُم بِالإِسلامِ ، وَإِنْ كانَ أَبُو سَفيانَ قَدِ تَأَخَّرَ حَتى طَلَعَ الصَّبِيحُ ..

ثُمَّ سَأَلُوهُ الأَمانَ لِقَريشِ ، فَقالَ رِسالُ اللَّهِ : « مِنْ دَخَلَ دارَ أُنّى سَفيانَ فَهُوَ

(٨٤) حَدِيثُ حَسَنِ ، أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٣٢٩/٢) وَالْحَاكِمُ (٤٣/٣ - ٤٤) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ
وَقالَ : « صَحِيحٌ عَلى شَريطِ مُسْلِمٍ » وَوافَقَهُ الذَّهَبِيُّ وَإِمامُ هُوَ حَسَنٌ فَقَطْ .

آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » (٨٥) .

وإنما أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان هذه الميزة لإرضاء لعاطفة الفخر في نفسه ، وقد أَرْضَاه بما لا يضر أحداً ولا يكلف جهداً ، ولا عليه أن يتحجب إلى نفس بمثل هذا الثمن الميسور . وأراد رسول الله ﷺ أن يستوثق من سير الأمور بعيداً عن الحرب والضرب ، فضم إلى ذلك المسلك مع أبي سفيان أن أوصى العباس باحتجازه في مضيق الوادي حتى يستعرض القوى الزاحفة كلها فلا تبقى في نفسه أثارة لمقاومة ، وهو سيد مكة المتبوع ، قال العباس : فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ﷺ ، ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : سليم . فيقول : ما لي وللسليم ؟ ثم تمر به القبيلة ، فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة . فيقول : ما لي وللمزينة حتى نفذت القبائل ، ما تمر قبيلة إلا سألتني عنها ، فإذا أخبرته قال : ما لي ولبنى فلان ؟ حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال : سبحان الله ، يا عباس .. من هؤلاء ؟ .

قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار .

قال : ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة ! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ..

قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن (٨٦) .

(٨٥) حديث صحيح ، أخرجه ابن هشام (٢٦٨/٢) عن ابن إسحاق معضلاً ، لكن وصله عنه ابن جرير (٣٣٠/٢ - ٣٣٢) عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس عن عكرمة عن ابن عباس . وحسين هذا ضعيف ، لكن قال الهيثمي في « المجمع » (١٦٥/٦ - ١٦٧) : « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح » فالظاهر أنه عنده من غير هذا الطريق الضعيف ، ورواه أبو داود (٤١/٢) عن ابن إسحاق بإسناد آخر له عن ابن عباس . وفيه رجل لم يسم ، وله عنده إسناد ثالث ورجاله ثقات . لكن لم يصرح فيه ابن إسحاق بالسماع ثم أخرجه هو ومسلم (١٧٢/٥ - ١٧٣) من حديث أبي هريرة إلا أنه قال : « ومن ألقى السلاح فهو آمن » بدل : « ومن دخل المسجد فهو آمن » .

(٨٦) حديث صحيح رواه ابن هشام (٢٦٨/٣ - ٢٦٩) عن ابن إسحاق بكون إسناد . لكن رواه عنه =

ودخل أبو سفيان مكة مبهوراً مذعوراً ، وهو يحس أن من ورائه إعصاراً إذا انطلق اجتتاح ما أمامه فما يقف دونه شيء ، ورأى أهل مكة الجيش الفاتح يقبل من بعيد رويداً رويداً فاجتمعوا على سادتهم ينتظرون الأوامر بالقتال ، فإذا صوت أئى سفيان ينطلق عالياً واضحاً : يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبَل لكم به ، فمن دخل دار أئى سفيان فهو آمن ، وشُدِّهت امرأته هند بنت عتبة وهي تسمع من زوجها هذا الكلام ، فوثبت إليه وأخذت بشاربه تلويه وصاحت : اقتلوا الحميت الدسم الأحمش - أئى هذا الزق المنتفخ - قُبِّحت من طليعة قوم !! .

ولم يكثر أبو سفيان لسباب امرأته فعاود تحذيره : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبَل لكم به . فمن دخل دار أئى سفيان فهو آمن .. قالوا : قاتلك الله ؟ وما تغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

وأصبحت « أم القرى » وقد قيد الرعب حركاتها ، واسترخت تجاه القدر المنساق إليها فاخفى الرجال وراء الأبواب الموصدة ، أو اجتمعوا في المسجد الحرام يرقبون وهم واجمون . على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ، ورسول الله على ناقته ، تتوج هامته عمامة دسما ، ورأسه خفيض من شدة الخشوع لله ، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجم حتى كان عثونه يمس واسطة الرحل^(٨٧) . إن الموكب الفخم المهيّب الذى ينساب به حثيثاً إلى جوف الحرم ، والفيلق الدارع يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن ، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول كيف خرج مطارداً ؟ وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيداً . وأئى كرامة عظمى حفه

= ابن جرير والطبرانى موصولاً عن ابن عباس كما تقدم آنفاً . وبعضه فى صحيح البخارى (٤/٨ - ٦) وابن جرير (٣٣٢/١ - ٣٣٣) عن عروة رسلاً . فهو شاهد قوى .

(٨٧) ضعيف ، رواه ابن هشام (٢/٢٦٩) عن ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر رسلاً . ووصله الحاكم (٣/٤٧) وكذا أبو يعلى من حديث أنس بنحوه ، وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » وأقره الذهبى ! وهو من أوهامهما ، فإن فى سنده عبد الله بن بكر المقدمى وهو ضعيف كما قال ابن عدى ثم ساق له الحديث كما فى الميزان وهذا المقدمى غير عبد الله بن أبى بكر شيخ ابن إسحاق ، فإن هذا متأخر من طبقة الأمام أحمد ، وذلك تابعى صغير يروى عن أبى رضى الله عنه وهو ثقة .

الله بها في هذا الصباح الميمون ! وكلما استشعر هذه النعماء ازداد الله على راحته خشوعاً وانحناءً ويبدو أن هناك عواطف أخرى كانت تجيش في بعض الصدور .

فإن « سعد بن عباد » زعيم الأوس ، ذكر ما فعل أهل مكة ، وما فرطوا في جنب الله ، ثم شعر بزمام القوة في يده فصاح : اليوم يوم الملحمة . اليوم تُستحل الحرمه ، اليوم أذل الله قريشاً .

وبلغت هذه الكلمة مسامع الرسول ﷺ فقال : « بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة »^(٨٨) . اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً ، وأمر أن يُنزع اللواء من سعد ويُدفع إلى ابنه مخافة أن تكون لسعد صولة في الناس .

* * *

وسار رسول الله ﷺ فدخل مكة من أعلاها^(٨٩) . وأمر قادة جيشه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم^(٩٠) فدخلت سائر الفرق من أنحاء مكة الأخرى .

ودخل « خالد بن الوليد » من أسفل مكة . وكان هناك نفر من قريش ، غاظهم هذا التسليم ، فتجمعوا عند « الخندمة » يقودهم « عكرمة بن أبي جهل » و « سهيل بن عمرو » و « صفوان بن أمية » إلا أن الحقيقة الكبرى صدمت غرورهم فبددته ، فإن خالداً حصدهم حصداً حتى لاذ القوم بالفرار . ومن طريف ما وقع أن « حماس بن خالد » من قبيلة بني بكر ، كان قد أعد سلاحاً لمقاتلة المسلمين . وكانت امرأته إذا رآته يصلحه ويتعهده تسأله : لماذا تعد ما أرى ؟ فيقول : لحمد وأصحابه . وقالت امرأته له يوماً : والله ما أرى إنه يقوم لحمد وصحبه شيء ! فقال : إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم .. ثم قال :

(٨٨) ضعيف ، أخرجه البخاري وغيره في حديث عروة مرسلأ ، وقد سبق تخريبه قريباً ، وأما باقي الحديث فرواه يحيى بن سعيد الأموي كما في شرح المواهب للزرقاني (٣٠٦/٢) ولم يتكلم على سنده بشيء ولا ساقه لينظر فيه ، وقد أشار ابن كثير في البداية (٢٩٥/٤) لضعفه .
(٨٩) صحيح ، أخرجه البخاري (١٤/٨ ، ١٥) عن ابن عمر وعائشة .
(٩٠) ذكره ابن هشام (٢٨٣/٣) عن ابن إسحاق بدون إسناد .

إن يقبلوا اليوم فما لى علة هذا سلاح كامل وأله^(٩١)
وذو غرارين سريع السله

فلما جاء يوم الفتح ناوش « حماس » هذا شيئاً من قتال مع رجال
« عكرمة » .

ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد ، فخرج منهزماً حتى
بلغ بيته فقال لامرأته : أغلقى على الباب ! .

فقالت المرأة لفارسها المعلم : فأين ما كنت تقول ؟ فقال - : يعتذر - لها :

إنك لو شهدت يوم الخدمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمه^(٩٢) واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه ضرباً فلا تسمع إلا غمغمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمه لم تنطقى باللوم أدنى كلمه !!

وسكنت مكة واستسلم سادتها وأتباعها . وعلت كلمة الله في جنباتها ، ثم
نهض رسول الله إلى البيت العتيق فطُوف به وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله .
ويضربها بقوسه ظهراً لبطن ، فتقع على الأوض مهشمة متناثرة .

كانت هذه الحجاره - قبل ساعة - آلهة مقدسة وهى - الآن - جص وتراب
وأنقاض ! يهدمها نبي التوحيد وهو يقول :

﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً .. ﴾^(٩٣) .

ثم أمر بالكعبة ففتحت . فرأى الصور تملؤها ، وفيها صورتان لإبراهيم
وإسماعيل يستقسمان بالأزلام ؟ فقال - ساخطاً على المشركين - : « قاتلهم الله ،

(٩١) آله : حربة .

(٩٢) الأسطوانة ، وأبو يزيد : سهيل بن عمر .

(٩٣) حديث صحيح : أخرجه الشيخان في صحيحهما عن ابن مسعود ومسلم من حديث أنى هريرة
- والآية من سورة الإسراء : ٨١ .

والله ما استقسما بهذا قط»^(٩٤) ، ومحا ذلك كله^(٩٥) . حتى إذا طهر المسجد من الأوثان أقبل على قريش وهم صفوف صفوف ، يرفبون قضاءه فيهم ، فأمسك بعضادتي الباب - باب الكعبة - وهم تحته ، فقال : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

ثم قال : « يا معشر قريش ، ما ترون إني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : « فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء »^(٩٦) .

وعندما كان رسول الله بالمسجد يجهز على الوثنية في عاصمتها الكبرى اقترب منه « فضالة بن عمر » يريد أن يجد له فرصة ليقتله .

فنظر إليه النبي نظرة عرف بها طويته إلا أنه في غمرة النصر الذي أكرمه الله به ، لم يجد في نفسه على الرجل . بل استدعاه ثم سأله : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ .

قال : لا شيء ! كنت أذكر الله !! فضحك النبي ثم قال : استغفر الله .

وتلطف معه الرسول ، فوضع يده على صدره ، فانصرف الرجل وهو يقول : ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله أحب إليّ منه^(٩٧) .

وكانت لفضالة في جاهليته هنات ، - وهو راجع إلى أهله - بامرأة لها معه شأن . فلما رآته قالت : هلم إلى الحديث ! فانبعث يقول :

(٩٤) حديث صحيح : أخرجه البخارى عن ابن عباس .

(٩٥) حديث صحيح : أخرجه أحمد (٣٣٥/٣ ، ٣٣٦ ، ٣٨٣ ، ٣٩٦) من حديث جابر بسند صحيح والطيالسي (٣٥٩/١) من حديث أسامة بن زيد وسنده جيد كما قال الحافظ في « الفتح » (٢٦٨/٣) .

(٩٦) ضعيف ، رواه ابن إسحاق معضلاً كما في « ابن هشام » (٢٧٤/٢) ، وقد ذكره الغزالي في « الإحياء » (١٥٨/٢) من حديث أبي هريرة دون قوله : « اذهبوا » وقال الحافظ العراقى في تحريجه « رواه ابن الجوزى في « الوفاء » من طريق ابن أبى الدنيا وفيه ضعف » ثم ذكره الغزالي من حديث سهيل بن عمرو ، فقال العراقى : « لم أجده » .

(٩٧) ضعيف ، رواه ابن هشام (٢٧٦/٢) بإسناد معضل .

قالت : هلم إلى الحديث ، فقلت لا يأبى عليك الله والإسلام
لو رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيناً والشرك يغشي وجهه الإظلام

وصعد بلال فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة وأنصت أهل مكة للنداء الجديد
على آذانهم كأنهم في حلم ، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالرعب في
أفئدة الشياطين فلا يملكون أمام دويها إلا أن يولوا هارين ، أو يعودوا مؤمنين : الله
أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر . .

هذه الصيحات المؤكدة تُذكر الناس بالغاية الأولى من محياهم ، وبالمرجع الحق
بعد مماتهم ، فكم ضلت البشر غايات صغيرة أركضتهم على ظهر الأرض ركض
الوحوش في البراري ، واجتذبت انتباههم كله فاستغرقوا في السعي وراء الحطام !
وامتلكت عواطفهم كلها ، فالحزن يقتلهم بالحرمان والفرح يقتلهم بالامتلاء ،
ولم يسفه المرء نفسه بالغيوبة في هذه التوافة ؟ .

إن صوت الحق يستخرجه من وراء هذه الحجب المتراكمة ، ليلقى في روعه
ما كان ينساه وهو تكبير سيد الوجود ورب العالمين .. سيده ومولاه .
أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله .

لقد سقط الشركاء جميعاً ، طالما ضرع الناس للوهم ، واعتزوا بالهباء ، وأملوا
الخير فيمن لا يملك لنفسه نفعاً . وانتظروا النجدة ممن لا يدفع عن نفسه عدوان
ذبابة .

ولم الخبط في هذه المتاهات ؟ إن كان المغفلون يشركون مع الله بعض
خلائقه ، أو يؤلهونها دونه ؟ فالمسلمون لا يعرفون إلا الله رباً ، ولا يرون غيره
موثلاً .

والتوحيد المحض ، هو المنهج العتيد للغاية التي استهدفوها .
ولكن من الأسوة ؟ من الإمام في هذه السبيل ؟ من الطليعة الهادية المؤنسة ؟
إن المؤذن يستتلي ليذكر الجواب .

أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله .

سيرة هذا الرجل النبيل هي المثل الكامل لكل إنسان ينبغي الحياة الصحيحة ، إن محمداً إنسان ، يرسم بسنته الفاضلة السلوك الفريد لمن اعتنق الحق وعاش له . وهو يهيب بكل ذى عقل أن يقبل على الخير ، وأن ينشط إلى مرضاة ولى أمره ، وولى نعمته ، فيحث الناس أولاً على أداء عبادة ميسورة رقيقة .

حي على الصلاة ، حي على الصلاة .

هذه الصلوات هي لحظات التأمل في ضجيج الدنيا ، هي لحظات المآب كلما انحرف الإنسان عن الجادة ، هي لحظات الخضوع لله كلما هاج بالمرء النزق ، وطغت على فكره الأثرة فنظر إلى ما حوله ، وكأنه إلى صغير . هي لحظات الاستمداد والإلهام .

وما أفقر الإنسان - برغم غروره - إلى من يلهمه الرشد فلا يستحق ، ويمده بالقوة فلا يعجز ويستكين . ثم يحث الناس - أخيراً - على تجنب الخيبة في شئونهم كلها .

والخيبة إنما تكون في الجهد الضائع سدى . في العمل الباطل لأنه خطأ ، سواء أكان الخطأ في الأداء ، أو المقصد .. وهو يحذر من هذه الخيبة عندما يدعو : حي على الفلاح ، حي على الفلاح .

ويوم يخرج العمل من الإنسان ، وهو صحيح في صورته ونيته ، فقد أفلح ، ولو أكان من أعمال الدنيا البهتة ، ألم يُعلم الله نبيه أن يجعل شئون حياته ، بعد نسكه وصلاته خالصة لله :

﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٩٨) .

(٩٨) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

ولا سبيل إلى ذلك إلا بإصغار ماعدا الله من غايات ، والتزام توحيده أبداً ،
ومن ثم يعود إلى تقرير الغاية والمنهج ، مرة أخرى .
الله أكبر الله أكبر .. لا إله إلا الله .

إن كلمات الأذان تمثل العناوين البارزة لرسالة كبيرة في الإصلاح ،
ولذلك جاء في السنن الثابتة أن المسلم عندما يسمعها يقول :
« اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة
والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، إنك لا تخلف الميعاد » (٩٩) .

* * *

وفي يوم الفتح قد ترج بنا الذكريات إلى رجال لم يشهدوا هذا النصر
المبين ، ولم يسمعا صوت بلال فوق ظهر الكعبة بشعار التوحيد ، ولم يروا الأصنام
مكبوبة على وجوهها مسواة بالرغام ، ولم يروا عبادها الأقدمين وقد ألقوا السلم
واتجهوا إلى الإسلام .

إنهم قُتلوا أو ماتوا إبان المعركة الطويلة ، التي نشبت بين الإيمان والكفر .
ولكن النصر الذي يجنى الأحياء ثماره اليوم لهم فيه نصيب كبير ، وجزاؤهم
عليه مكفول عند من لا يظلم مثقال ذرة .

إنه ليس من الضروري أن يشهد كل جندي النتائج الأخيرة للكفاح بين
الحق والباطل ، فقد يخترمه الأجل في المراحل الأولى منه ، وقد يصرع في هزيمة
عارضة كما وقع لسيد الشهداء « حمزة » ومن معه .

والقرآن الكريم يبينه أصحاب الحق إلى أن المعول في الحساب الكامل على الدار
الآخرة ، لا على الدار الدنيا ، فهناك الجزاء الأوفى للمؤمنين والكافرين جميعاً .

(٩٩) حديث صحيح ، أخرجه البخارى في « صحيحه » وفي « أفعال العباد » وأصحاب السنن الأربعة
والطبراني في « الصغير » وابن السنى في « عمل اليوم والليلة » وأحمد والبيهقى من حديث حابر مرفوعاً به ، دون
قوله : « إنك لا تخلف الميعاد » فتفرد بها البيهقى وهى شاذة لا تصح .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِنَّا نَرْجِعُونَ ﴾ (١٠٠) .

ودخل رسول الله مكة في رمضان ، وظل بها سائر الشهر يقصر ويفطر أكثر من خمسة عشر يوماً ، وكان قد خرج من المدينة صائماً ثم أفطر هو وصحبه في الطريق (١٠١) .

فلما استقر الأمر ، شرع يبايع الناس على الإسلام (١٠٢) فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء فتمت البيعة على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا (١٠٣) .
وسنة رسول الله في مبايعة النساء أن يأخذ عليهن الميثاق كلاماً لا مصافحة .
فعن عائشة : « لا والله ما مست يد رسول الله يد امرأة قط » (١٠٤) .

* * *

وهكذا دخل أهل مكة في الإسلام ، وإن كان بعضهم بقي على ريبته وجاهليته يتعلق بالأصنام ويستقسم بالأزلام ، وأولئك تركوا للأيام تشفى جملهم وتُحیی ما مات من قلوبهم وألبابهم .
ومادامت الدولة التي تحمي الوثنية وتقاتل دونها قد ذهبت ، فسوف تتلاشى هذه الخرافة من تلقاء نفسها .

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة ، ولقد أفلحت خطة المسلمين في تعمية الأخبار على قريش حتى بوغتوا في عقر دارهم فلم يجدوا مناصاً من الاستسلام

(١٠٠) غافر : ٧٧ .

(١٠١) أما قصره ﷺ في مكة فنائب في « البخارى » (١٧/٨) عن ابن عباس قال : أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يصلى ركعتين . وأما إفطاره فهو في « الصحيحين » من حديث ابن عباس أيضاً .

(١٠٢) حديث حسن رواه أحمد (٤١٥/٣ ، ١٦٨/٤) من حديث الأسود بن خلف وسنده حسن .

(١٠٣) ضعيف ، رواه ابن جرير (٢٣٧/٢) بدون إسناد ، أو من حديث قتادة مرسلًا والطريق إليه

ضعيف .

(١٠٤) صحيح ، أخرجه الشيخان وغيرهما .

فما استطاعوا الجلاذ ولا استجلاب الأمداد ، وفتح العرب جميعاً أعينهم فإذا هم أمام الأمر الواقع ، حتي نُحِيل إليهم أن النصر معقود بألوية الإسلام فما ينفك عنها ! .

* * *

معركة حنين

يبد أن هذا الغلب كله كان له رد فعل معاكس لدى القبائل الكبيرة القريبة من مكة ، وفي مقدمتها « هوازن » و « ثقيف » وتعتبر « الطائف » قصبتها وهي أكبر المدن في الجزيرة بعد مكة ويثرّب .

اجتمع رؤساء هذه القبائل على « مالك بن عوف » سيد « هوازن » ، وأجمعوا أمرهم على المسير لقتال المسلمين . قبل أن تتوطد دعائم الفتح ، وقبل أن يتحركوا لاستئصال ما بقى من معالم الوثنية المدبرة .

وكان « مالك بن عوف » شجاعاً مقداماً ، إلا أنه كان سقيم الرأي سىء المشورة .

فأمر قومه - وهم خارجون للغزو - أن يأخذوا معهم نساءهم وأموالهم وذرائعهم ، ليشعر كل رجل وهو يقاتل أن ثروته وحرمة ورائه فلا يفر عنها .

وقد اعترضه « دريد بن الصمة » ، وهو فارس مجرب محنك ، وقال له : هل يرد المنهزم شيء ؟ إن كانت الدائرة لك ، لم ينفك إلا رجل برمح وسيفه ، وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك .

فسفه مالك رأيه ، وأصر على خطته .

وعلم المسلمون بمخرج أعدائهم ، فأرسلوا عيونهم يتعرفون عدتهم وهيئتهم .

روى أبو داود أن رجلاً جاء إلى رسول الله فقال له : إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا « بهوازن » عن بكرة أبيهم بظعنهم

وبنعمهم وشأتهم ، اجتمعوا إلى « حنين » .. فتبسم رسول الله وقال : « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله » (١٠٥) .

إن السهولة التي تم بها فتح مكة ، وإحساس جمهور المؤمنين أن الجاهلية تلفظ أنفاسها الأخيرة فلن تبدى مقاومة تذكر . وظن حدثاء العهد بالإسلام أن شيئاً ما لن يقف في طريقه ، كل ذلك جعل الجيش يزحف للقاء المشركين وهو غير مكترث لما سوف يواجهه ، ولم يكثرث ؟ .

إنهم - وهم قلة - كانوا يكسبون المعارك الطاحنة ، فكيف وهم اليوم يخرجون في عدد لم يجمعوا مثله قبلاً ؟ قيل : إن أبا بكر الصديق لما نظر إلى الجيش قال : لن نُغلب اليوم من قلة ! .

ذلك أن المسلمين بلغوا اثني عشر ألفاً ، بمن انضم إليهم من أهل مكة .

* * *

هزيمة

وسار الجيش الوثائق حتى وصل إلى وادي « حنين » .

وكان « مالك بن عوف » ورجاله قد سبقوا إلى احتلال مضايقه ، وانبثوا في الشعاب والأجناب المنيعه ، ثم تهيئوا لاستقبال المسلمين .

وأقبلت الطلائع الغفيرة تتدافع نحو الوادي - وهي غافلة عما يكمن فيه - وكان وادياً أجوف منحدرًا ، ينحط فيه الراكبون كلما أوغلوا كأنهم يسرون إلى هاوية .

لما تكاثرت في دروبه الفرق الزاحفة ، لم يرعهم إلا وابل من السهام يتساقط فوقهم من المكامن العالية ، وكان غبش الفجر لا يزال يترك بقاياها في الجو الغائم فارتاعت المقدمة لهذه المفاجأة ، فهي في عماية من الليل ، وعماية من أمرها ، لا تعرف إلا أن تستدير ثم تولى الأدبار .

(١٠٥) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٣٩١/١ - ٣٩٢) عن سهل بن الخنظلية بسند صحيح .

وانتشرت موجة الفزع ، فكسرت الصفوف المرصوصة وبعثرتها .
 واستغل رجال « مالك بن عوف » ، هذا الارتباك ، فهاجمت كتائبهم ،
 وحملت الخيل على ما أمامها ، فانكفأ المسلمون مهزومين لا يلوى أحد على أحد .
 ونظر زعماء مكة إلى الجيش المولى نظرة تشف وفرح .
 وعاد إلى بعضهم كفره بالله ورسوله فقال أبو سفيان : لا تنتهى هزيمتهم دون
 البحر ! ولا عجب فإن الأزام التى يستقسم بها فى جاهليته لاتزال فى كنانته .
 وقال « كلدة بن الجنيد » : ألا بطل السحر اليوم .
 فأجابه « صفوان بن أمية » - ولما يزل مشركا - : اسكت فض الله فاك ،
 فوالله لأن يربنى رجل من « قريش » أحب إليّ من أن يربنى رجل من « هوازن » .

* * *

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ، وقد أغضبه هذا الفرار ، فقال : « أين
 أيها الناس ؟ هلموا إليّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » .
 فلا يرد عليه شيء ، وركبت الإبل بعضها بعضاً وهي مولىة بأصحابها (١٠٦) .
 ولمح النبي وراءها رجلاً من « هوازن » على جمل له أحمر ، بيده راية سوداء
 فى رأس رح طويل ، و « هوازن » خلفه ، إذا أدرك الفارين طعن برمح ، وإذا فاتوه
 رفع رمح لمن وراءه فاتبعوه .

إن الذى تولى كبر هذه المهزلة الشائنة هم الطلقاء من أهل مكة ورعاع
 البلو . ووقف النبي ﷺ ساكن الجأش ، يدبر الرأى فى خطة ينقذ بها سمعة الإسلام
 ومستقبله ، وقد أحاط به لفيف من المهاجرين الأولين ، ومن أهل بيته .

(١٠٦) صحيح ، أخرجه ابن هشام (٢٨٩/٢) وابن جرير (٣٤٧/٣) كلاهما عن ابن إسحاق بسنده
 الصحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

فأمر العباس بن عبد المطلب - وكان جهير الصوت - أن ينادى : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب البيعة يوم الحديبية^(١٠٧) .

لقد هداه الحق أن يهتف بأصحاب العقائد ، ورجال الفداء عقد الصدام فهم - وحدهم - الذى تنجح بهم الرسالات وتفرج الكروب .

أما هذا الغناء من العوام الحُرَّاص على الدنيا ، السعاة إلى المغام ، فما يقوم بهم أمر ، أو تثبت بهم قدم .

* * *

الثبات والنصر

وفى ضجة الفزع الذى ساد المعركة أولاً ، علت صيحات العباس ، ووصلت إلى آذان الرجال المشلولين لما وقع ، فأخذوا يكافحون ليلغوا مصدر الصوت .

وإذا أراد أحدهم أن يعطف بغيره ليعود به ، لا يقدر من ضغط الفارين ، فما يجد بداً من أن يقذف درعه من عنقه ، ويحمل سيفه وترسه ثم يؤم الصوت .

واجتمع حول رسول الله عدد من الرجال الذين دعاهم ، وهم يصيحون : لبيك . حتى قارب القوم مائة ، فاستقبل النبي بهم المشركين ، وقد ملك زمام الموقف ، وأعاد الكرة عليهم ، فاجتلب الفريقان ، اجتلاباً شديداً .

وقصد « على » وأحد الأنصار إلى حامل العلم فى طليعة هوزان ، فضرب « على » عرقوى جملة فوق على عجزه ، ثم استمكن منه الأنصارى فهوى به عز رحله .

وكان النبي على بغلته يقول :

« أنا النبي لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب »^(١٠٨) .

(١٠٧) رواه ابن إسحاق بسند صحيح عن العباس وقد ساقه ابن جرير ، وابن هشام عنه ، وهو فى مسلم (١٦٦/٥ - ١٦٧) نحوه .

(١٠٨) صحيح ، أخرجه الشيخان عن البراء بن عازب .

ويدعو : اللهم أنزل نصرك (١٠٩) .

والمهاجرون والأنصار قد التحموا مع رجال هوازن وثقيف .

قال « العباس » : ونظر رسول الله - وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال : « لأن حمي الوطيس » ثم أخذ حصيات ، فرمى بهن في وجوه الكفار ، ثم قال : « انهزموا ورب محمد » .

قال « العباس » : فذهبت أنظر ، فإذا القتال على هيئته فيما أرى ، فما هو إلا أن رماهم فمازلت أجد حدهم قليلاً ، وأمرهم مدبراً (١١٠) .

ولم يطل وقت ، حتى كان رجال « ثقيف » ومن معهم يوغلون مولين الأدبار فإذا هم بزون الأسرى مكتفين ! .

وفي هذه المعركة نزل قول الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّحِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (١١١) .

* * *

واعتصم بعض المنهزمين بناحية يقال لها : « أوطاس » .

فأرسل النبي ﷺ في أعقابهم « أبا عامر الأشعري » فقاتلهم حتى قُتل فأخذ الراية منه ابن عمه « أبو موسى الأشعري » فمازال يناوش القوم حتي بدد شملهم ، وهزموا شر هزيمة (١١٢) .

(١٠٩) صحيح ، تفرد به مسلم (١٦٨/٥) عنه .

(١١٠) رواه مسلم عن العباس .

(١١١) التوبة : ٢٥ ، ٢٦ .

(١١٢) صحيح ، ذكره ابن إسحاق بدون إسناد ، ومعناه في البخارى (٣٣/٨ - ٣٥) وابن جرير

(٣٥١/٢) من حديث أبى موسى الأشعري .

واضطر « مالك بن عوف » ومن معه من رجالات قومه أن يمشوا في الفرار حتي يصلوا إلى « الطائف » فيمتنعوا بحصنها تاركين في - هذا الفرار - مغنم هائلة .
فإن مالكا - كما علمت - خرج يغزو ، ومعه نساء القبيلة وما تملك .
فخلف في الميدان أربعة وعشرين ألفاً من الإبل ، وأكثر من أربعين ألفاً من الغنم ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة هذا إلى جانب ستة آلاف من السبي .

* * *

الغنائم

وكره رسول الله ﷺ أن يقسم على الناس هذه الغنائم ، وتأنى ، يتنهي أن يرجع القوم إليه تائبين ، فيحرزوا ما فقدوا .
ومكث ينتظرهم بضع عشرة ليلة فلم يجبه أحد (١١٣) .

فشرع يسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة ، وبدأ بقسمة المال فكان المؤلفه قلوبهم أول من أعطى ، بل أول من حظي بالأنصبة الجزلة .
أخذ « أبو سفيان » مائة من الإبل ، وأربعين أوقية من الفضة فقال : وابنى معاوية ؟ فمنح مثلها لابنه معاوية . فقال : وابنى يزيد ؟ فمنح مثلها لابنه يزيد (١١٤) !! .

وأقبل رؤساء القبائل وأولوا التهمة ، يتسابقون إلى أخذ ما يمكن أخذه .
وشاع في الناس أن محمداً يعطي عطاءً من لا يخشي الفقر :
فازدحموا عليه ييغون المزيد من المال ، وأكب عليه الأعراب يقولون :

(١١٣) صحيح ، أخرجه البخارى (٢٦/٨ - ٢٧) .

(١١٤) ذكر ابن هشام (٣٠٨/٢) نحوه عن ابن إسحاق بدون إسناده ورواه ابن جرير (٢٥٨/٢) عنه عن عبد الله بن أبى بكر مرسلاً ، وإعطاؤه ﷺ في هذه الغزوة للمؤلفة قلوبهم ومنهم أبو سفيان ثابت في مسلم (١٠٨/٣) .

يا رسول الله ، اقسم علينا فيئنا ، حتى اضطرروه إلى شجرة فانترعت رداءه !
فقال :

« أيها الناس ، ردوا على ردائي فوالذى نفسى بيده لو كان لكم عندى عدد شجر تهامة نعمة لقسمته عليكم ، ثم ما ألفتيمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً » .
ثم قام إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبرة ، فجعلها بين إصبعيه ، ثم رفعها
فقال :

« أيها الناس ، والله ما لى من فيئكم ولا هذه البرة ، إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم »^(١١٥) .

إن أعين القوم تكاد تخرج من الحاجر تطلعاً إلى الدنيا .
وهؤلاء الأعراب والطلقاء والرؤساء ، ما أغنوا عن الإسلام شيئاً فى مآزقه الأولى بل كانوا هم العقاب الصلدة التى اعترضت مسيله حتى تحطمت تحت معاول المؤمنين الراغبين فى ثواب الآخرة ، المؤثرين ما عند الله .

ولكنهم اليوم - بعد ما أعلنوا إسلامهم - ييغون من الرسول أن يفتح عليهم خزائن الدنيا ، فحلف لهم أنه ما يستبقى منها شيئاً لشخصه ، ولو امتلك ملء هذه الأودية مالاً يوزعه عليهم .

والحق أن الرسول وسع بحلمه وكرمه مسالك بينة للطيش والجشع فى سبيل تألف هؤلاء الناس وتحبيبهم فى الإسلام .

ولو عاقبهم على جنبهم فى « حنين » لنال منهم أى منال .

روى الإمام أحمد^(١١٦) أن « أبا طلحة » - وهو من فرسان المسلمين

(١١٥) صحيح رواه أحمد (رقم ٦٧٢٩) والبيهقى (٣٣٦/٦ - ٣٣٧) بسند حسن عن عبد الله ابن عمرو ، والبخارى (١٩٣/٦ - ١٩٤) . عن جبير بن مطعم إلى قوله : « كذاباً » والباقي عند الحاكم (٤٩/٣) من حديث عادة بن الصامت ، وعند البيهقى (٣٣٩/٦) من حديث عمر بن عبة .
(١١٦) فى المسند (١٩٠/٣) وسنده صحيح على شرط مسلم .

المعلودين لقي « أم سليم » ومعها خنجر ، فقال لها : ما هذا ؟ قالت : إن دنا مني بعض المشركين أبعج بطنه - وذلك في معركة حنين - فقال أبو طلحة لرسول الله : أما تسمع ما تقول أم سليم ؟ فضحك النبي . فقالت أم سليم : يا رسول الله : اقتل من بعدها من الطلقاء الذين انهزموا بك ! فقال : « إن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم » .

والعجيب أن هؤلاء الذين فروا عند الفزع ، هم الذين كثروا عند الطمع .

و شاء النبي أن يلفظ معهم ، وينسى ماضيهم تكرماً وتأليفاً .

وماذا يصنع ؟ إن في الدنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم ، لا من عقولهم ، فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليها فمها حتى تدخل حظيرتها آمنة ! فكذلك هذه الأصناف من البشر ، تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتمش له .

عن أنس بن مالك قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ ، وعليه برد نحراي غليظ الحاشية ، فأدركه أعراي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته قال : مر لي من مال الله الذي عندك ! فالتفت إليه ، فضحك .. ثم أمر له بعطاء^(١١٧) .

إن هذا الأعراي لا يعجبه المنطق الدقيق ، ولا الطابع الرقيق ، قدر ما يعجبه عطاء يملأ جيوبه ، ويكون مطامعه .

ومن هنا قال صفوان بن أمية : مازال رسول الله يعطيني من غنائم « حنين » وهو أبغض الخلق إلي ، حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه^(١١٨) .

(١١٧) صحيح ، أخرجه مسلم (١٠٣/٣) وكذا البخاري .

(١١٨) رواه مسلم (٧٥/٧) والترمذي (٤/٨) وأحمد (٤٠١/٣) عن سعيد بن المسيب أن صفوان بن أمية قال : ... كذا هو عند مسلم وظاهره الانقطاع بين سعيد وصفوان وعند أحمد والترمذي عن صفوان ، وظاهر الاتصال ولكن الترمذي رجح الأول وأيده ابن العري في المعارضة فقال : « لأن سعيداً لم يسمع من صفوان شيئاً » .

حكمة هذا التقسيم

وهذه السياسة البعيدة لم تُفهم أول الأمر ، بل أطلقت ألسنة شتى الاعتراض ، فهناك مؤمنون ظنوا هذا الحرمان ضرباً من الإعراض عنهم والإهمال لأمرهم .

روى البخارى عن « عمرو بن تغلب » قال : أعطى رسول الله قوماً ومنع آخرين ، فكأنهم عتبوا عليه فقال : إني أعطى قوماً ، أخاف هلعهم وجزعهم ! وأكِل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى ، منهم « عمرو بن تغلب » . قال عمرو : فما أحب أن لى بكلمة رسول الله حُمرَ النعم .

فكانت هذه التزكية تطيباً لخاطر الرجل ، أرجح لديه من أثن الأموال !! . وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة .

لقد حُرِّموا جميعاً أعطية حنين ، وهم الذين تُودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع رسول الله ﷺ ، حتى تبدل الفرار انتصاراً ، وها هم أولاء ، يرون أيدي الفارين تعود ملأى .

أما هم .. فلم يُمنحوا شيئاً قط ؟ .

عن أبى سعيد الخدرى : لما أصاب رسول الله الغنائم يوم حنين ، وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم ، ولم يكن في الأنصار شيء منها ، قليل ولا كثير ، وجد هذا الحى من الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله قومه . فمشى « سعد بن عباد » إلى رسول الله فقال : يا رسول الله .. إن هذا من الأنصار وجدوا عليك في أنفسهم !! قال : فيم ؟ قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ، ولم يكن فيهم من ذلك شيء . قال رسول الله : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : ما أنا امرؤ من قومي .

فقال رسول الله : اجمع لى قومك فى هذه الخطيرة ، فإذا اجتمعوا فأعلمنى ! .

فخرج « سعد » فصرخ فيهم فجمعهم فى تلك الخطيرة ..

حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه ، فقال : يا رسول الله .. اجتمع لك هذا الحى من الأنصار حيث أمرتنى أن أجمعهم .

فخرج رسول الله ، فقام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معشر الأنصار .. ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟؟؟ قالوا : بلى : قال رسول الله : ألا تحبون يا معشر الأنصار ؟ .

قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ وبماذا نجيبك ؟ المن لله ورسوله .

قال : والله لو شئتم لقلتم فصدقتهم وصدقتهم : جئتنا طريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، وخائفاً فأمنّاك ، ومخذولاً فنصرناك ..

فقالوا : المن لله ورسوله .

فقال : أوجدتم فى نفوسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوماً أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام !! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعر وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟ .

فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار .

اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم . وقالوا : رضينا بالله رباً ، ورسوله قسماً .

ثم انصرف .. وتفرقوا (١١٩) .

والأنصار - في تاريخ الدعوات - مثل فريدة للرجال الذين تقوم بهم الرسائل العظمى حتى إذا استوت على سوقها ، وتجاوزت أيام محنتها ومؤنتها ، وتدلّت ثمارها وخلاجاتها ، جاءت أيد غير أيديهم فقطعت ما تشتهي ، ولم تكتف بذلك ، بل لطمت أيدي الغارسين حتى لا تلتقط من الثمار الساقطة قليلاً ولا كثيراً .

ولا نقول ذلك تعليقاً على توزيع الغنائم في هذا المقام ، فقد اتضح وجه الرشد في هذه القسمة الحصيفة .

ولكننا نذكر في مناقب الأنصار ، وافتراض ترفعهم عن الدنيا في سبيل الدين وتأليف الناس عليه ، أن شئون الحكم ابتعدت عنهم ، واختارها غيرهم وهم لها أكفاء . فلم تمض ثلاثون سنة حتى كانت في أيدي الطلقاء .

ولا ريب في أن أولئك المتجردين لله سوف يلقون جزاءهم الأوفى ، وأن شأن الدنيا أنزل قدراً من أن يأسى عليه رجل العقيدة .

غير أننا نتساءل : أكان من مصلحة الرسائل نفسها أن تقع هذه الأثر ؟ أم كان من سوء حظ الإسلام أن يلقى هذا اللون من الحكام ، فيقصي أصحاب السبق وأولوا النصرة ، ويملك زمام الدين آخر الناس دخولاً فيه وبصراً به .

* * *

(١١٩) حديث صحيح ، رواه أحمد (٧٦/٣ - ٧٧) وابن هشام (٣١٠/٢ - ٣١١) وابن جرير (٣٦٠/٢ - ٣٦١) كلهم عن ابن إسحاق بسنده الصحيح عن أبي سعيد الخدري ، وذكره ابن كثير في « البداية » (٣٥٨/٤ - ٣٥٩) من رواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق والسياق له ثم قاله ابن كثير : وهو صحيح ، والقصة في البخاري (٣٨/٨ - ٤٢) بنحوها مختصراً .

عودة وفد هوازن

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً ، وسألوا رسول الله ﷺ أن يرد عليهم سببهم وثروتهم ، فقال لهم : إن معي من ترون ، وإن أحب الحديث إلى أصدقه . فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً .

فقام رسول الله في المسلمين ، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد .. فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءوا تائبين ، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سببهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مال يفىء الله علينا فليفعل ، فقال الناس : قد طيبنا ذلك يا رسول الله ، فقال لهم : إنا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم .

فرجع الناس فكلّمهم عرفاؤهم ، ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه أنهم قد طيبوا وأذنوا (١٢٠) .

* * *

حصار الطائف

أما ثقيف فإنها - بعد أن تراجعت منزهة في « حنين » و « أوطاس » - دخلت حصونها وتهايت فيها لحصار طويل . وعرف المسلمون أن القوم لا يزالون على إصرارهم والبقاء على جاهليتهم ، وأن الخسائر التي لحقت بهم لم تكسر شوكتهم ولم ترهق عزيمتهم ، فقرروا السير إليهم ومناجزتهم ، وللمسلمين خبرة قديمة بهذا

(١٢٠) صحيح أخرجه البخارى (٢٦/٨ - ٢٨) عن مروان والمصور وابن مخزومة معاً .

الأسلوب من القتال ، فقد حاصروا وحوصروا ، وعرفوا انجح طرائق الهجوم والدفاع ، ونهض رسول الله بجيشه حتى اقترب من الطائف فعسكر حولها ، وأخذت ثقيف من حصونها تقذف بالنبال فأصيب نفر من المسلمين ، واضطر الجيش أن يؤخر مواقفه حتى لا يتسهدف لقتلهم .

ويظهر أن النبي لم يحرص على اقتحام هذه الحصون واستنزال أهلها قسراً كما فعل بنى إسرائيل . لقد أمل فيهم خيراً . وأدار المعركة حولهم من حدود ضيقة وبضحايا يسيرة وظل يحاصرهم خمس عشرة ليلة . ثم بدا له أن يدعهم وشأنهم ، وأشار على المسلمين بذلك . فرغبوا أولاً في إطالة حصارها حتى تفتح عليهم . ثم نزلوا - أخيراً - على رأيه .

وروى : أن رسول الله « استشار نوفل بن معاوية » فقال : يا نوفل .. ما ترى في المقام عليهم ؟ فقال : يا رسول الله : ثعلب في جحر ، إن أقمت عليه اخذته ، وإن تركته لم يضرک^(١٢١) ! فأمر النبي عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل^(١٢٢) .

فلما قفلت بهم المطايا قالوا : يا رسول الله .. أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم . فقال : اللهم اهد ثقيفاً^(١٢٣) .

ولم يطل بقاء ثقيف على شركها . فما هي إلا شهور قلائل حتى أرسلوا وفدهم إلى المدينة يخبر النبي برغبتهم في الإسلام وانفساح قلوبهم له .

* * *

(١٢١) ضعيف جداً ، رواه الواقدي كما في « البداية » (٣٥٠/٤) وهو متهم بالكذب .
 (١٢٢) ضعيف ، ذكره ابن هشام (٣٠٣/٢) عن ابن إسحاق بلاغاً ، ورواه ابن لهيعة عن أبي الأسود عروة . وهو مع إرساله ضعيف .
 (١٢٣) ضعيف ، أخرجه الترمذی (٣٧٩/٣) عن أبي الزبير عن جابر وقال : « حديث حسن صحيح » ، قلت أبو الزبير مدلس وقد عنعنه ، وقد تابعه عبد الرحمن بن سابط عند أحمد (٣٤٣/٣) ولكنه لم يسمع من جابر ، كما قال ابن معين .

إلى دار الهجرة

عاد المسلمون من الطائف إلى مكة ، لا ليعاودوا المقام فيها بعد أن فتحها الله عليهم بل لينظموا أمورهم ثم يرحلوا إلى مهجرهم الخالد ..
إن صلتهم بالمدينة أضحت من العمق والقوة ، بحيث لا يرجحها وطن قديم ولا ذكريات عزيزة .

رؤى أن النبي لما فتح مكة ودخلها قام على الصفا يدعو وقد أحذقت به الأنصار فتهامسوا فيما بينهم : أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ لا شيء يا رسول الله ! فلم يزل بهم حتى أخبروه . فقال : معاذ الله ، الحيا محياكم ، والممات مماتكم^(١٢٤) ! .

ولما كان أهل مكة حدثاء عهد بالإسلام وفقههم في أحكامهم ومراميه قليل ، فإن النبي خلف فيهم « معاذ بن جبل » يعلمهم كتاب ربهم وسنة نبيهم^(١٢٥) .
وجعل « عتاب بن أسيد » أميراً على مكة^(١٢٦) وعمره يومئذ عشرون سنة .

(١٢٤) حديث صحيح رواه بهذا السياق ابن هشام بلاغاً ، ووصله مسلم (١٧٠/٥ - ١٧١) وغيره من حديث أبي هريرة نحوه فتصديده بلفظ « روى » غير جائز .

(١٢٥) ضعيف ، وذكره ابن هشام (٣١١/٢) عن ابن إسحاق بدون إسناد ، ورواه الحاكم (٢٠/٣) عن عروة مرسلاً ، وإسناده - على إرساله - ضعيف . وقد روى ابن عبد البر في ترجمة معاذ من « الاستيعاب » بإسناد صحيح عن عبد الله بن كعب بن مالك أن النبي ﷺ أرسل معاذاً إلى اليمن عام فتح مكة . وهذا مرسل أيضاً فإذا صح فيكون إرساله بعد استخلافه في مكة والله أعلم .

(١٢٦) إلى هنا حديث حسن ذكره ابن هشام وابن جرير (٣٦١/٢ - ٣٦٢) عن ابن إسحاق بدون سند ، ورواه الحاكم (٥٩٤/٣ - ٥٩٥) عن مصعب بن عبد الله الزبيري معضلاً ، وعمر بن شبة في كتاب مكة عن عمر مولى عفرة معضلاً أيضاً والمخاملى في الجزء الخامس من « الأمل » عن أنس بن مالك بسند ضعيف ، ولكنه يتقوى بما قبله شاء الله ؛ وأما باقي الحديث ، فلم أجده له سداً وإن كان مشهوراً .

وكان « عتاب » شاباً ذكياً ، قنوعاً شجاعاً ، وقد تقرر له من مال المسلمين درهم كل يوم ، هو مرتب الإمارة ، فقرت بذلك عينه ، بل إنه خطب الناس فقال : أيها الناس ، أجاج الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله درهماً كل يوم ، فليست لي حاجة إلى أحد .

* * *

ثم قدم رسول الله ﷺ المدينة في الشهر الأخير من السنة الثامنة ، لله ما أفسح المدى بين هذه الأوبة الظافرة بعد أن توج الله هامته بالفتح المبين وبين مقدمه إلى هذا البلد النبيل منذ ثمانية أعوام ! .

لقد جاء مطّارداً ، يبغي الأمان ، غريباً مستوحشاً ينشد الإيلاف والإيناس ، فأكرم أهله مثواه وآووه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، واستخفوا بعداوة الناس جميعاً من أجله ، وها هو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التي استقبلته مهاجراً خائفاً لتستقبله مرة أخرى . وقد دانت له مكة ، وألقت تحت قدميه كبرياءها وجاهليتها ، فأنهضها ليعزها بالإسلام ، وعفا عن خطيئتها الأولى .

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢٧) .

* * *

موقف المنافقين

وكان حقيقاً بالذين خالجتهم الريبة في رسالة محمد أن يتوسموا في هذه الآيات البينات ما يقربهم من دينه ويغريهم بالتصديق ونبد الجفوة والعدا .

إلا أن النفوس الخسيسة تزداد شراً وجحوداً كلما ازداد خصومها نجاحاً وصعوداً ، فما تظنه سبب إقبالها ، قد يكون سبب انتكاسها .

لذلك لا يُستغرب أن يرجع رسول الله إلى المدينة ، فيجد قلوب المنافقين

(١٢٧) يوسف : ٩٠ .

لا تزال مطوية على دخلها تبسم للفاتح العائد ، وهي تود لو لم تر شبحة ، يستوى في ذلك رؤساء العشائر الذين وهى سلطانهم أمام انتشار الإسلام ، وسواد الأعراب الذين يمرحون في البادية كالسوائم الغفل ، لا يكادون يفقهون حديثاً .

و ثم أمر آخر زاد في غواية المنافقين وتربصهم الشر بالإسلام ونبي الإسلام ، ذلك هو عرفانهم بالخصومة التي نشبت بين المسلمين والرومان ، وإدراكهم لما تحمله في أطوائها من خطورة وعنف .

فالعرب ينظرون إلى دولة الروم نظرة أهل إفريقيا اليوم إلى أوروبا وأمريكا ، إنها قوة لا تُنال ولا تُناوش .

ولكن كان الرومان بهذه المثابة المرهوبة .. إن محمداً - كما عرف القوم من سيرته - لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض ، وقد مضى برسائله يذيب ما اعترضه من عوائق ، فمحا الوثنية ، وأجلى اليهودية ، وقاوم بطش الروم مقاومة الواصل المعتمد .

والمناققون مسرورون بهذه الخصومة الجديدة ، يحسبون أن مقبرة الإسلام ستحفر فيها .

لذلك لما أعلن النبي في المدينة أنه منطلق إلى « تبوك » تجمع رهط من المنافقين فقال بعضهم لبعض - مشيرين إلى المسلمين - أتتسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ .

والله لكأنا بكم غداً مُقرنين في الحبال .. إرجافاً وترهيباً للمؤمنين !! .

* * *

تبوك

عزم النبي أن يُرسى العلائق بين الإسلام والنصرانية على دعائم مكينة . وهو لا يقبل مساومة في ترك دعائه أحراراً يعرضون دينهم على الناس ، فإن راقهم دخلوه ، وإن ساءهم تركوه .

يجب أن تُتاح الفرص المعقولة لإفهام الجماهير ما تُدعى إليه .
أما أن تُقطع أعناق الدعاة وتُقام الأسوار الكثيفة في وجوههم ، فهذا ما يقاومه الإسلام بالقوة .

ثم إن الرومان في الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان قوة غزاة لا تربطهم بأهل البلاد الأولين إلا صلات القهر المادى والأدنى .

فالذي يعترض على زحف الإسلام إلى الشمال يجب أن يسأل نفسه قبل ذلك : لم سكت عن زحف الرومان إلى الجنوب ؟ وعن الطريقة التي يباشرون بها حكم هذه الأقطار المغلوبة على أمرها ؟ .

والمقارنة المنصفة تجعل ما يطلبه النبي شيئاً لا غبار عليه .

دعوا العقائد المختلفة تبين عن نفسها ، وتجذب الشعوب إليها ، أو تصرفهم عنها : لكن هذا الطلب قابل بالرد المسلح .

فلا دولة الروم تفتح أبواب المصيدة عن الفرائس التي تضطرب داخل جدرانها .

ولا كنيسة الروم ترحب بهذا الجو الجديد .

قلنا في كتابنا « التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام » في صدد غزوة تبوك :

« .. والكنيسة لا تطيق أن يعيش بجانبها رأى يخالف في الفروع النافهة .

فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها ؟ لأنه - لا يرى بين العباد وربهم وسائط - وينكر عقيدة الفداء التي تركز عليها - لأنه يبنى الجزاء على عمل الإنسان وحده - .

فليس للإنسان إلا ما سعى ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ثم هو ينكر مبدأ الشركة في الألوهية ، فليس للعالم إلا رب واحد ، يخضع له عيسى وأمه . لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرة فيضربوا الإسلام في شمال الجزيرة

ضربة ترده من حيث جاء . وتوصد عليه أبواب الحدود فلا يستطيع التسرب منها ..
وتضمن الكنيسة بعدئذ انفرادها بالضمير البشرى ، حتى إذا قرعت أجراسها
لم يشب رنينها صدى لمؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده ، ويدعو للصلاة والفلاح .
وترامت إلى النبی فی المدينة أنباء هذا الإعداد الماكر ، وتاريخ النصرانية - منذ
تولت الحكم - تؤكد نية العدوان لدى رجال الكهنوت ..

فلم ير النبی بُداً من استنفار المسلمين ، لملاقاة هذا العدوان المبيت .
والتهیؤ لملاقاة الروم جاء فی أيام قیظ وقحط .
والسیر إليهم يتطلب جهداً مضنياً ونفقة كبيرة .

وقتل الروم ليس صداماً مع قبيلة محدودة العدد والعدة ، بل هو كفاح مرير
مع دولة تبسط سلطانها على جملة قارات ، وتملك موارد كثيرة من الرجال
والأموال .

على أن أصحاب العقيدة لا ينكصون أمام الصعاب ، والسكوت على تحدى
النصارى لهذا الدين ورغبتهم الملحة فی القضاء عليه يعتبر انتحاراً وبوراً فليتحمّل
المسلمون على أنفسهم إذاً وليواجهوا مستقبلهم بما يفرض من تضحيات وتفديات .
وللظروف العصبية التي اكتنفت إعداد هذا الجيش سمي جيش العسرة .

والآیات التي أنزلها الله فی كتابه - متعلقة بغزوة « العسرة » هي أطول ما نزل
فی قتال المسلمين وخصوصهم .

وقد بدأت باستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية على الإسلام ، وإفهام
المسلمين مغبة تقصيرهم فی أداء هذه الفريضة ، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة من
تفريط فی حماية دينه ونصرة نبيه ، وأن التراجع أمام الصعوبات الحائلة - دون قتال
الروم - يعتبر مزلة إلى الردة والنفاق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اتَّقَلْتُمْ إِلَى
الْأَرْضِ ، أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ
إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً ،

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٨﴾ .

ومضت الآيات تتحدث في صرامة وعنفة ، ففضحت المنافقين ، وكشفت عن المترددين . وأهانت طلاب الدعة والراحة ، الذين آثروا ظل القعود في بيوتهم وحقوقهم ، على حر الصحراء ، ووعشاء السفر . ومتاعب الجلال :

﴿ فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعِدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ، لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (١٢٩) .

وأبناء جيش العسرة تفيض بها صفحات طوال من سورة التوبة ، ولعل من البين في أسلوب القرآن وهو يصف هذا الجهاد ، أنه لم تأخذه هوادة في التنويه بمن اشتركوا فيه ، والتنديد بمن تخلفوا عنه ، ولا عجب ، فتحديد موقف الإسلام من النصرانية ، هو بَت في مستقبل الدين كله إلى الأبد . فإما ثبت المسلمون أمام لدد الكنيسة المتعصبة ، وإما أحرقتهم نارها ، فلم يبق لديهم أثر .

وكان لهذا الحزم أطيب النتائج ، فخرج المسلمون في تعبئة لم يخرجوا من قبل في مثلها ، وانطلقوا صوب الشمال ، حيث تربض جيوش الروم .. » .

* * *

وتجلت - في هذا الإعداد - طوايا النفوس ، ومقدار ما استودعت من إخلاص وسماحة ونشاط ، فهناك أغنياء أخرجوا ثرواتهم لتجهيز الجيش وإمداده بحاجته ، من الرواحل والسلاح والخيول ، منهم « عثمان بن عفان » الذي سبق في بذله سبقاً بعيداً حتى إن الرسول عجب من كثرة ما أنفق ، وقال : « اللهم ارض عن عثمان فإنني عنه راض » (١٣٠) .

(١٢٩) التوبة : ٨١ .

(١٢٨) التوبة : ٣٨ ، ٣٩ .

(١٣٠) ضعيف بهذا اللفظ ، رواه ابن هشام (٣١٦/٢) بإسناد معضل ، وقد رواه ابن شاهين في كتابه :

ومنهم الفقراء الذين شاقهم الجود بأنفسهم في سبيل الله ثم أعجزتهم الوسائل تبلغهم الميدان فسحّت أعينهم الدمع لهذا الحرمان .

رُوى عن عليّة بن يزيد أنه قام من الليل يصلى ، فتهجد ما شاء الله ثم بكى وقال : اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه . ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به ، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه .. وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها فى مال أو جسد أو عرض ..

وأصبح الرجل - على عادته - مع الناس فقال رسول الله : أين المتصدق هذه الليلة ؟ فلم يقدّم أحد ، ثم قال : أين المتصدق ؟ فليقم ، فقام إليه فأخبره . فقال رسول الله ﷺ : « أبشر ، فالذى نفسى بيده لقد كتبت فى الزكاة المتقبلة » (١٣١) .

وهناك أهل الريّة الذين يلتمسون للفرار الأعذار ، وتقعدهم كراهيتهم للإسلام عن إسداء أي عون له ، فهيهات أن يعدوا للخروج عدة أو يتمنوا للخارجين عوداً .

ومن أسخف الأعذار التى تمحلها أولئك القاعدون المنافقون ما قال « الجد ابن قيس » للنبي - وقد عرض عليه الجهاد - : يا رسول الله .. أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشدّ عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر « الروم » ألا أصبر .

فأعرض عنه رسول الله وفيه نزلت الآية :

« ترح مذهب أهل السنة » (ج ١٨ رقم ٢٣ من نسختى) من حديث عائشة لكن فيه أن النبي ﷺ دعا بهذا فى مناسبة أخرى : وسنده ضعيف جداً ، بل موضوع وإمّا قال ﷺ بمباشرة جيش العسرة : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » رواه ابن شاهين رقم ٣ والحاكم (١٠٢/٣) وغيرهما من حديث عبد الرحمن بن سمرة وصححه الحاكم . ووافقه الذهبي ، وله شواهد ذكرها الحافظ ابن كثير فى تاريخه (٦/٥) ، وآخر عد ابن شاهين (رقم ٦١) .

(١٣١) صحيح ، ذكره ابن إسحاق فى « المغازى » بدون إسناد وقد ورد مسنداً موصولاً من حديث مجمع بن حارثة وعمر بن عوف وأبى عيسى . وعليه بن زيد بعنه وقتيبة كما بينه الحافظ فى « الإصابة » فليراجعها من شاء .

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ، اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٣٢) .

وهناك الذين فترت - أول الأمر - همهم ، فلما جد الرحيل وانطلق الجيش ، أجسوا خطر التخلف على إيمانهم ، فنهضوا يدركون ما يوشك أن يفوتهم ، منهم « أبو خيثمة » عاد يوماً إلى أهله - بعد مسير النبي وصحبه - وكان اليوم قائظاً ، فوجد امرأته كلتيهما ، قد أعدتا له الطعام الشهي والماء البارد الروى ، ووجد مسكنه مبللاً رطباً ، وسط بستانه الذى أخذ بصره الأحمر ينضح ويسود .

فاستيقظ ضمير الرجل ، وقال : رسول الله فى الشمس والريح والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد ؟ وطعام مهياً ؟ وامرأة حسناء فى ماله مقيم ؟ والله ما هذا بالنصف ! .

ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ، فهى إلى ففعلتا ، ثم قدم ناضحه فارتحلته .

وأسرع الرجل المؤمن ، يطلب رسول الله ، حتى أدركه حين نزل تبوك .

* * *

وعانى الجيش الذهاب إلى تبوك مصاعب ثقيلة .. روى الإمام أحمد فى تفسير قول الله عز وجل : ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ (١٣٣) .. قال خرجوا فى غزوة « تبوك » الرجلان والثلاثة على بعير واحد ، وخرجوا فى حر شديد ، وأصابهم عطش ، حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ، ويشربوا ماءها ، فكان ذلك عسرة فى الماء ، وعسرة فى النفقة ، وعسرة فى الظهر .

وعن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب : حدثنا عن شأن ساعة

(١٣٢) ضعيف ، رواه ابن هشام (٣١٦/٢) عن ابن إسحاق بسنده مرسلأ ، وكذلك رواه عنه ابن جرير (٢٦٦/٢ - ٢٦٧) - والآية من سورة التوبة : ٤٩ .
(١٣٣) التوبة : ١١١ .

العسرة فقال عمر : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع . حتى أن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشر به . ثم يجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله .. إن الله عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ! فقال : أو تحب ذلك ؟ قال : نعم .. فرفع رسول الله يده إلى السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء - أى آذنت تمطر - فأطلت ، ثم سكبت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر^(١٣٤) .

قال ابن إسحاق : وكان في الجيش رجل منافق فقالوا : ويحك هل بعد هذا من شيء ؟ فقال : سحابة مارة ! .

وفي الطريق مر المسلمون بالديار التي كانت ثمود تسكنها وهي أطلال هامة وآثار بقيت تُذكر بغضب الله على من كذبوا رسله وتعجلوا عقابه فقال رسول الله : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم »^(١٣٥) .

والظاهر أن النبي يريد ألا يغفل المسلمون عن مواطن العظة ، وألا يستهينوا بما خلا قبلهم من مثلات ، فإن المرء لو قيض الله له أن يزور السجون ، ويشهد مثلاً غرفة الإعدام - فليس يليق أن ينظر إلى جبل المشنقة وهو شارد أو ضاحك ، لا أقل من بعض الأسى لأحوال المجرمين ومصارعهم ! .

وروي أحمد عن جابر : لما مر النبي بالحجر قال : لا تسألوا الآيات - خوارق العادات - فقد سألها قوم صالح ، فبعث الله لهم ناقة فكانت ترد من هذا

(١٣٤) ذكره ابن كثير في التاريخ (٩/٤) من رواية عبد الله بن وهب بسنده عن ابن عباس ؛ ثم قال : « إسناده جيد » وهو عندي غير جيد لأنه من رواية عتبة بن أبي عتبة . وقد ذكره الحافظ في « اللسان » (١٢٩/٤) وذكر أن العقيلي أوردته في « الضعفاء » ثم ساق له حديثين ثم قال : « ولا يتابع على الحديثين جميعاً » نعم قد أورد الحديث الهيثمي في « المجمع » (١٩٤/٦ - ١٩٥) ثم قال : « رواه البزار والطبراني في الأوسط » و « رجال البزار ثقات » فإذا صح هذا - والحديث حسن إن شاء الله أو صحيح .
(١٣٥) صحيح أخرجه أحمد (رقم ٥٢٢٥ ، ٥٣٤٢ ، ٥٤٠٤ ، ٥٤٤١ ، ٥٦٤٥ ، ٤٧٠٥ ، ٥٩٣١) من حديث ابن عمر وهذا أحد ألفاظه ؛ وأخرجه البخاري (١٠٢/٧) ومسلم (٢٢٢/٨) نحوه .

الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها ، فأخذتهم صيحة أهدم الله بها من تحت أديم السماء منهم» (١٣٦) .

والنهي عن سؤال الآيات عود الناس إلى الأحوال المألوفة ، إذ لا جدوى في الخروج عليها ، وخير للسائلين أن يبذلوا طاقاتهم في أداء ما يُكلفون به ، وأن يرفقوا قلوبهم حتى تلين لأمر الله .

فإن من قبلهم شهد العجائب ، ثم أغرتهم قسوة القلب بازدرائها ، فحاقت بهم اللعنة .

وبلغ المسلمون « تبوك » فلم يجدوا بها كيداً . أو يواجهوا عدواً .

ولابد أن الروم آثروا الاختفاء داخل حدودهم عن ملاقات هذه القوة الفتية ، وصالح النبي متنصرة العرب الضارين في هذه الأرجاء .

فدخل في عهده أهل « أيلة » و « أذرع » و « تيماء » و « دومة الجندل » وأيقنت القبائل التي تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على ساداتها الأقدمين قد فات أوانه .

وغزوة « تبوك » تشبه غزوة الأحزاب ، فإن بلاء المسلمين أولها كان شديداً ثم جاء ختامها طمأنينة وعزة ، ومكث الرسول هنالك بضعة عشر يوماً ، يد بصره وراء الصحراء حيث اختفى الرومان ، يرقب منهم حركة ، فلما رأى القوم قابعين مستكينين ، قرر أن يقفل عائداً إلى المدينة ، موفوراً منصوراً .

(١٣٦) في المسند (٢٩٦/٤) من طريق عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر . وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه (١١/٥) : « إسناده صحيح » وكذلك صححه الحاكم من هذا الوجه (٣٤٠/٢ - ٣٤١) ووافقه الذهبي . واقتصر الحافظ في « الفتح » (٢٩٤/٦) على تحسينه وهذا أقرب . وفي كل ذلك عندى نظر ! فقد تعلمنا منهم أن أبا الزبير مدلس وأنه لا تقبل روايته المعنعة إلا إذا كانت من رواية الليث بن سعد عنه « هذه ليست منها » ! وقد قال الذهبي : « وفي صحيح مسلم عدة أحاديث لم يوضح فيها أبو الزبير السماع عن جابر ولا هي من طريق الليث منه . ففي مسلم القلب منها شيء قلت : فكيف يصح إذن ما ليس منها في صحيح كهذا ؟ »

وقد رسول الله ﷺ المدينة ، ولاحت له معالمها من بعيد . فقال : هذه طابة ! وهذا « أحد » جبل يحبنا ونحبه^(١٣٧) ! وتسامع الناس بمقدمه فخرج النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع

لقد قوبل جيش العسرة في مرجعه هذا بحفاوة بالغة . إنه أكبر جيش خرج مع رسول الله ، إذ وصل تعداده نحو الثلاثين ألفاً ، ولم ينس النبي في ذهابه وإيابه أصحاب القلوب الكبيرة الذين صعب عليهم أن يجاهدوا معه فتخلفوا راغمين والعبرات تملأ عيونهم . عن أنس بن مالك : أن رسول الله رجع من غزوة تبوك . فدنا من المدينة فقال : « إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، فقالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة ! قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر »^(١٣٨) .

بهذه المواساة الرقيقة كرم النبي الرجال الذين شيعوه بقلوبهم وهو ينطلق إلى الروم فأصلح بالهم وأزاح همماً ثقيلاً عن أفئدتهم .

أما المنافقون من مؤمل الشر ودعاة الهزيمة ، والأعراب الذين اعتبروا الإسلام نكبة حلت بهم ، فهم يتربصون الدوائر بأهله ! أما هؤلاء وأولئك فأمامهم عناء طويل .

* * *

المخلفون^(١٣٩)

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد ، فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فجاءه المخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ويخلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين

(١٣٧) صحيح ، أخرجه الشيخان وغيرهما .

(١٣٨) صحيح ، أخرجه البخاري (١٠٣/٨) . (١٣٩) هذه الرواية من خلاصة لراد المعاد .

رجلا فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم . ووكل سرائرهم إلى الله .

وجاءه « كعب بن مالك » فلما سلم عليه . تبسم تبسم المغضب ، ثم قال له : تعال .

قال : فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى والله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً . ولكني والله لقد علمت إن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عليّ ، ليوشكن الله أن يمسحك عليّ ، ولن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه ، إني لأرجو فيه عفو الله عني .

والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ! .

فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك . فقامت .

وثار رجال من بني سلمة ، فاتبعوني يؤنبونني ، فقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً تبطل هذا . ولقد عجزت أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك . قال : فوالله ما زالوا يؤنبونني ، حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي .

ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم رجلان ، قالوا مثل ما قلت فقليل لهما مثل الذي قيل لك ، فقلت : من هما ؟ قالوا : « مرارة بن الربيع العامري » و « هلال بن أمية الواقفي » فذكروا رجلين صالحين شهدا بداراً ، فيهما أسوة ! . فمضيت حين ذكروهما لي .

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من يختلف عنه .

فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي الأرض ، فما هي التي أعرف ! .

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحبى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما ييكيان . وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ، ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هل حرك شفثيه برد السلام أم لا ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل على ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى .

حتى إذا طال على ذلك من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة - وهو ابن عمى وأحب الناس إالى - فسلمت عليه ، فوالله ما رد على السلام ! .

فقلت : يا أبأ قتادة .. أنشدك بالله ، هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت . فعدت له ، فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ! .

ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسورت الجدار .

فبينما أنا أمشي بسوق المدينة . وإذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على « كعب بن مالك » ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى دفع إلى كتاباً من ملك غسان ، فإذا فيه : أما بعد .. فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيفة ، فالحق بنا نواسك .

فقلت لما قرأتها - : وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله ﷺ يأتينى فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا ؟ قال : لا ، ولكن اعتزلها ولا تقر بها .

وأرسل إلى صاحبى مثل ذلك . فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك ، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر .

فجاءت امرأة هلال بن أمية فقالت : يا رسول الله .. إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربك . قالت :

إنه - والله - ما به حركة إلى شيء ، والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال « كعب » : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بنى أمية أن تخدمه ؟ فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ؟ .. ولبت بعد ذلك عشر ليال ، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حيث نهي رسول الله ﷺ عن كلامنا .

فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة ، على سطح بيت من بيوتنا ، وبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى ، قد ضاقت علي نفسي وضافت علي الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل يبلغ بأعلى صوته : يا كعب ابن مالك ، أبشر ! .

فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج من الله .

وآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون . واركض إلي رجل فرساً ، وسعى ساع من أسلم ، فأوفى على ذروة الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس .

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى ، نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ ! فتلقاني الناس فوجاً فوجاً ، يهتفونني بالتوبة يقولون : ليهنك توبة الله عليك .

قال كعب : حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس ، وحوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ، ولست أنساها لطلحة .

فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال : - وهو يبرق وجهه من السرور - : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قال : قلت : أهو من عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا .. بل من عند الله .

وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه .

فلما جلست بين يديه ، قلت : يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك .
قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخير .

فقلت : يا رسول الله إن الله أنجاني بالصدق . وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، فوالله ما أعلم أحد من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله إلى يومي هذا ما أبلاني ، والله ما تعمدت بعد ذلك إلى يومي هذا كذباً ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت ، فأنزل الله تعالى على رسوله :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ (١٤٠) .

إلى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١٤١) .

فوالله ما أنعم الله عليّ نعمة قط - بعد أن هداني للإسلام - أعظم في نفسي من صدق لرسول الله أن لا أكون كذبه ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد .. قال :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ (١٤٢) .

إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١٤٣) .

قال كعب : وكان تخلفنا - أيها الثلاثة - عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ أمرنا ، حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا ﴾ (١٤٤) وليس الذي ذكر الله

(١٤١) التوبة : ١١٩ .

(١٤٣) التوبة : ٩٦ .

(١٤٠) التوبة : ١١٧ .

(١٤٢) التوبة : ٩٥ .

(١٤٤) التوبة : ١١٨ .

مما خلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه (١٤٥) .

* * *

مسجد الضرار

سلك النبي ﷺ مع الذين يتظاهرون بالإسلام طريق الملاينة والإغضاء ، يقبل منهم أعدائهم - وهي مختلفة - ويتكرم عن فضحهم وهم يتفلتون من قيود السمع والطاعة . فإذا تلبس أحدهم بخيانة تهدر دمه ، رغب في التجاوز عنه حتى لا يُقال : إن محمداً يقتل أصحابه .. وما هم في صحبته من شيء ولكن هكذا يقول الناس .

ولو أن هؤلاء المنافقين كانوا على قليل من الخير ، لأسرهم هذا الحلم وانخلعوا من خداعهم الصغير وأقبلوا على الإسلام طيبين خالسين ، بيد أن هذا الأسلوب العالى في معاملتهم لم يزدهم على الله ورسوله إلا جرأة فزاد إفتياتهم وربت شرورهم ، ولم يبق بُد من كشف خبثهم ، وإشعار جمهور الأمة بما تنطوى عليه نفوسهم وأعمالهم .

وقد نزلت الآيات أخيراً تندد بما فعل أولئك المنافقون ، وتمزق الأستار التى يتوارون خلفها ، وكانت ألاعيبهم قبل « تبوك » وبعدها هى النهاية الحاسمة للسماحة التى مرحوا فى سعتها طويلاً ولم يُقدِّروها حق قدرها . فأمر النبي ﷺ أن يُعلن على الناس ذبذبتهم ونكوصهم وكُلف ألا يقبل منهم وألا يصلى عليهم ، بل عُرِف أن استغفاره لهم لن يجاب ، ثم طُلب المسلمون كافة أن يقطعوهم .

ومن أعجب ما تفتقت عنه حيل المنافقين أن يبنوا مسجداً يلتقون فيه وحدهم ، ويمكرون فيه بالإسلام تحت ستار التجمع على العبادة ، وقد ذهبوا للرسول قبل رحيله إلى تبوك يقولون له : بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة ونحن أن تأتينا فنصل لنا فيه ؟ فاعتذر لهم بأنه على جناح سفر وحال شغل . وقال :

(١٤٥) صحيح ، أخرجه البخارى (٩٢/٨ - ١٠٠) بطوله ، وكذا مسلم (١٠٦/٨ - ١١٢) .

« لو قدمنا - إن شاء الله - أتيناكم ، فصلينا لكم فيه » (١٤٦) .

فلما آب النبي ﷺ بجيشه ، وتخرج موقف المنافقين ، وانكشفت خباياهم ، أرسل اثنين من أصحابه إلى هذا المسجد وأمرهم أن يحرقوه ويهدموه ، وجاء الصاحبان إلى المسجد يحملان الشعل الحارقة ، وأخذا يأتیان عليه وفيه أهله الذين فروا مذعورين لمراى اللهب ، يدمر آخر ما شاد النفاق من حيل .

ونزل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ (١٤٧) .



(١٤٦) ضعيف رواه ابن هشام (٣٢٢/٢) عن ابن إسحاق بدون إسناد . لكن ذكره ابن كثير في التفسير (٣٨٨/٢) عن ابن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر ، وابن قتادة وغيرهم مرسلًا ، والله أعلم .
(١٤٧) التوبة : ١٠٧ ، ١٠٨ .

طليعة الوفود

استغرق المسير إلى تبوك والمآب منها أياماً طويلاً . فقد خرج المسلمون إليها في رجب ، وعادوا في رمضان ليؤدوا ما عليهم من فريضة الصيام ، ولم يلبثوا طويلاً حتى جاءت البشريات بأن وفد ثقيف قد قدم إلى المدينة ليفاوض رسول الله على الدخول في الإسلام ، لقد استجاب الله دعوة نبيه لأهل الطائف أن يسلس قيادهم للحق فيأتوا طائعين ، وكان أهل الطائف - بعد أن انفض الحصار المضروب عليهم - قد أخذوا يتروّون في شأنهم ومصيرهم إلا أن جمهورهم لما يزل على ولائه للأصنام وصدوده عن الإسلام .

وحاول رئيسهم « عروة بن مسعود » أن يتحدث إليهم في نبذ هذه الجاهلية ، وعروة فيهم سيد مطاع محبوب ، غير أن نخوة الامتناع استبدت بهم ، فلما أظهر الرجل دخوله في الإسلام ودعاهم إلى ذلك ، رموه بالنبل فقتلوه ..

ولم يأس العقلاء من رشد قومهم ولم تستطع ثقيف كذلك تجاهل ما حولها ، فإن دولة الأصنام تدبر في كل مكان . وأمر الإسلام يعلو يوماً بعد يوم .

فاجتمع « عمرو بن أمية » بـ « عبد ياليل بن عمرو » وقال له : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، إنه كان من أمر هذا الرجل ما رأيت ، وقد أسلمت العرب كلها وليست لكم بحريهم طاقة ، فانظروا في أمركم .

ورأت ثقيف أن تبعث وفدها إلى رسول الله ليصل إلى وضع تقرُّ به ، وتألّف الوفد من ممثلين لعشائر ثقيف كلها ، حتى يلتزموا ما يصل إليه من شروط .

وجادل الوفد رسول الله جدالاً طويلاً يبغي أن يظفر منه بإقرار لبعض العشائر لبعض مآثر الجاهلية ، ورسول الله يأبى أشد الإباء ، وطلبوا منه أن يدع « اللات » ثلاث سنين ثم يهدمها ، ثم ساوموه على سنتين ، ثم سنة ، ثم شهر واحد بعد

مقدمهم ، والنبي يأبى إلا هدمها دون توقيت أمد معين .
فلما يمسوا سألوه ألا يكسر أوثانهم بأيديهم ، فأجابهم إلى ذلك بإرسال من يكسرها لهم ! .
وسألوه أن يضع عنهم الصلاة ! فقال رسول الله ﷺ : « لا خير في دين بلا صلاة » (١٤٨) .

وعاد الوفد إلى الطائف ، ومعه المغيرة بن شعبة وأبو سفيان بن حرب لهدم « اللات » وكان هدم « اللات » يوماً مشهوداً فإن نسوة ثقيف خرجن حاسرات الرؤوس يكيّن ويصرخن وهن يرين الفئوس تهدم إلهن ، وطالما خشعن له وذبحن حوله وسقن النذور ، ويروي أن المغيرة كلما هوى بالفأس على بنيان الصنم قال أبو سفيان : واهاً لك ! آهالك ! تأسفاً ، ولعله كان يسخر أو يواسي نساء ثقيف .
ولا مراء في أن استسلام ثقيف ثم دخولها في الإسلام يعد كسباً كبيراً ، وفتحاً جديداً فلم يبق قبيل عزيز الجانب في الجزيرة إلا وقد دان لله ورسوله .

أما القبائل التي لما نزل على جاهليتها . فهي أوزاع توشك أن تستبين الحق وتستريح له . إن الليل المضروب عليها لن يطول سواده بل إن تباشير الفجر قد خالطته هنا وهناك حتي لم يبق لظلمته مكان تتشبث به .

قال ابن إسحاق : لما افتتح رسول الله مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه .

وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت الحرام ، وصريح ولد إسماعيل - وقادة العرب لا ينكرون ذلك - وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله وخلافه .

(١٤٨) ضعيف ، ذكره ابن هشام (٣٢٥/٢ - ٣٢٦) عن ابن إسحاق معضلاً ، والحملة الأخيرة وصلها أبو داود (٤٣٥٢) وأحمد (٣١٨/٥) عن الحسن بن عثمان بن أبي العاص مرفوعاً نحوها . ورحاله ثقات لكن الحسن وهو البصري مدلس وقد عنعه .

فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوخها الإسلام ، عرفت العرب أنها لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله أفواجاً يضربون إليه من كل وجه .

يقول سبحانه وتعالى لنبيه : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (١٤٩) .

بعد كم من السنين بلغ النبي هذه المرحلة ؟ بعد اثنين وعشرين سنة من الدعاية الحثيثة ، والتذكير الدائم ، وتحمل الأذى ، وكفاح العدوان .

فإن كانت هناك بقايا من الغافلين لاتزال تضرع للأصنام وتحيا على الفوضى ، فإن فطامها عن هذه الرذائل لا ينكره ذو لب أو مروءة ، ومن ثم اتجه الإسلام إلى ضرورة تطهير الجزيرة كلها من عبادة الأوثان ، وإشعار المشركين بأن أمامهم مهلة محدودة للتخلص من أدرانها . ثم تعريفهم كذلك بأن الأصنام التي كانوا يقصدونها حول الكعبة قد أزيلت فأصبحت الكعبة قبلة مسجد يؤمه الموحدون ، وليست مطاف جهال يتركون بالحجارة ، وأن تقاليد العرى التي شاعت في الجاهلية وجعلت المطاف يزدحم بالسوءات المكشوفة قد نبذها الإسلام ، فلن يسمح في عهده بالتبذل القديم .

وأقبل موسم الحج في السنة التاسعة ، والمشركون على ما ألفوا ، إنهم يؤمنون البيت العتيق ، ولا يتعظون من مصير الأصنام التي تكسرت !! أين الآلهة التي قضوا أعمارهم ينحنون لها ويتوسلون بها ؟ لقد هشمت وديست ! ومع ذلك فإن عبادة لبثوا مشركين .. وقد تكون في نفوسهم حسرات لخلو الكعبة منها .

إن من حق المسلمين أن يضعوا حداً لهذه المهازل ، وأن يزيحوا عن كرامة البشر هذا الهوان .

* * *

حج أبى بكر

بعث رسول الله أبا بكر أميراً على الحج ليقم بالمسلمين المناسك ، فخرج من المدينة يسوق البُدن أمامه ، مولياً وجهه شطر المسجد الحرام ، ونزل الوحي بسورة براءة بعد انصراف أبى بكر ، ووفد الحجاج ، فأشير على رسول الله ﷺ أن يبعث بالآيات إليه ليقراها على أهل الموسم كافة .

ورأى رسول الله ﷺ أن يرسل بها على بن أبى طالب قائلاً : لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى^(١٥٠) ، وذلك من رسول الله تمش مع عادة العرب في عهود الدماء والأموال .

ألا ترى أنه قبل هجرته ، وكَلَّ إلى على رد الأمانات إلى أهل مكة ؟ إن أواصر القرى تقتضى التكافل التام في هذه الشؤون فكأن الرسول أدى بيده ما أداه على عنه ، وكأنه قال بلسانه في الموسم ما سيقروه على بين الناس .

ورعاية هذه الأفهام ليست فريضة بل هي من النبى زيادة حيطة وإعذار .

قال ابن إسحاق : ثم دعا على بن أبى طالب فقال له : « اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بـ « منى » : أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته » .

فخرج على يمتطي العضباء - ناقة رسول الله - حتى أدرك أبا بكر بالطريق .

(١٥٠) حديث حسن رواه ابن هشام (٣٢٨/٢) عن ابن إسحاق عن أبى جعفر محمد بن على مرسلأ ، لكن له شواهد يتقوى بها ذكرها ابن كثير في تاريخه (٣٧/٥ - ٣٨) .

فلما رآه أبو بكر سألته : أأمير أم مأمور ؟ قال : بل مأمور : ثم مضى^(١٥١) :
أبو بكر - كما كلفه رسول الله - يقيم للناس المناسك ، وعلى يؤذن في الناس
بما أمر به - ويقرأ على العرب صدر السورة التي فصلت في أمرهم وأجهزت على
الوثنية في بلادهم .

وكان هناك مؤذنون آخرون منهم أبو بكر في الجامع الكبيرة يعينون علياً على
إبلاغ رسالته ويصيحون هنا وهناك . لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت
عريان ! وعن زيد بن يُفيع : سألنا علياً بأى شيء بعثت في الحجة ؟ قال : بعثت
بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع
مسلم وكافر في المسجد الحرام بعد عامه هذا ، ومن كان بينه وبين النبي عهد فعهد
إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر^(١٥٢) .

* * *

وقد تكلمنا في موضع آخر عن مكانة المعاهدات^(١٥٣) في الإسلام ، وشرحنا
ما تضمنته صدر سورة براءة من أحكام .

وليعلم من يشاء أن تشريع قانون بمحو الوثنية كتشريع قانون بمحو الأمية ،
عمل إنساني نبيل ، وأن اعتراضاً عليه لا يصدر من رجل يؤثر الخير للأمم ويتمنى لها
السمو والكرامة ! .

وبحسب الإسلام أنه ظل اثنتين وعشرين عاماً يحارب الخرافة بالتعليم والتربية
كلما أتاحت له فرص لنشر المعرفة وغرس الأدب ، وبالقصاص والقتال كلما وقف
في طريقه الجهال والضلال يبطلون سعيه أو يصدون عنه .

وقد منح الإسلام الوثنية أول الأمر حق الحياة ، وترك من يرتد عنه يرجع إليها
إذا شاء ، ولم يفعل ذلك إعزازاً لها ، إنما هو حسن ظن بعقل الإنسان وضميره .

(١٥١) حديث حسن ، وهو تمام حديث أبى جعفر المتقدم .

(١٥٢) صحيح ، أخرجه أحمد (رقم ٥٩٤) والترمذى (١١٦/٤) وصححه .

(١٥٣) كتابنا « تأملات في الدين والحياة » .

فقل من يسفهم أنفسهم ، ويتركون الله العظيم ، إلى صورة من حجر أو خشب أو طعام .

فلما تبين أن الوثنيين يستخفون بكل شيء ، وأنهم يستغلون الحق الممنوح لهم في الفتنة والعدوان والقتل .. لم يبق لتركهم من حكمة .

إن الكلب العقور لا يُترك طليقاً . فإذا أفلت من قيده فأهدر دمه ، فمن السفه اعتبار ما حدث جريمة قتل .

والذين يظنون ، أو يحلو لهم الظن ؛ بأن الإسلام عندما طارد الوثنية ، حنق حرية الرأي . هم أشخاص واهمون أو مغرضون .

وعلى هدى التجارب والمصائب التي عاناها المسلمون طوال اثنتين وعشرين عاماً تعرف سر الغضب الذي اشتعل آخر الأمر ، ولم نزل الوحي يعالّن المشركين بالقطيعة ويرفض منهم كل اعتذار ؟ ثم يسرد ما أسلفوا من سيئات على أنه خليقة فيهم ، لم ينفكوا عنها يوماً ، ولا يرجى أن ينفكوا عنها أبداً .

ومن ثم فلا مكان لأصنامهم بعد المهلة المضروبة لهم .

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . فسيحوا في الأرض أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ . وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ .. (١٥٤) .

* * *

ومن قبل هذا النذير المخوف ومن بعده كانت أفواج الوافدين تنطلق صوب المدينة تباع رسول الله على أن تخلع رداء الجاهلية ، وتدخل في الدين الحق . وهذه الوفود المقبلة ، عرفت - خلال السنين السابقة - طرفاً يسيراً عن الإسلام .

(١٥٤) التوبة : ١ - ٣ .

فقد شاع في أرجاء الجزيرة كلها نبأ الرسالة الجديدة وما تضمنته من عقائد ،
وما تفرضه على أتباعها من تعاليم .

وتتبع المحبون والمبغضون كفاحها الموصول في طلب الحياة ، ومبلغ ما بذلت
وبذل أعداؤها حتى انتهت الأمور بهذا الختام المبين .

ونحن نعلم أن الحزب الذي يبدأ نشاطه بأنصار قلائل يتضاعف الإقبال عليه
عندما تلمع له وقفات مشرقة ، ويتاح له نصر كبير .

فكيف إذا اختفى خصومه ، وتألفت نجومه ؟ .

فلا جرم أن المدينة تتدفق عليها سيول الراغبين في اعتناق هذا الدين ،
أو الراغبين في مسالته ، ورسم سياسة تقوم على التعاون معه .

ولسنا بسبيل إحصاء هذه الوفود القادمة من المشرق والمغرب .

ولكننا نسوق مثلين لوفدين : أحدهما وثنى ، أقبل يبغي الإسلام ، والآخر
نصراني ، جاء يستطلع النبأ ويفاوض ويعاهد بعد جدال ولجاجة .



وفد للأميين ووفد لأهل الكتاب

أرسلت قبيلة سعد بن بكر « ضمام بن ثعلبة » وفداً إلى رسول الله .
 فامتطى « ضمام » بعيره ، حتى دخل المدينة فأناخه على باب المسجد ثم
 عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله جالس في أصحابه .
 وكان « ضمام » رجلاً جلدأ . أشعر ، ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على
 رسول الله في أصحابه . فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟
 فقال رسول الله : أنا ابن عبد المطلب ! قال : أحمد ؟ قال : نعم !
 قال : يا ابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك المسألة ، فلا تجدن في
 نفسك .
 قال : لا أجد في نفسي ، فنسل عما بدا لك .
 قال : أنشدك الله إلهك ، وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك : آله
 بعثك إلينا رسولاً ؟
 قال : اللهم نعم .
 قال : فأنشدك الله إلهك ، وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك . آله
 أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده ، ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التي
 كان آباؤنا يعبدون معه ؟
 قال : اللهم نعم .
 وفي رواية أنه قال : يا محمد .. أتاننا رسولك ، فزعم لنا أنك تزعم أن الله
 أرسلك !

قال : صدق . قال : فمن خلق السماء ؟ قال : الله ! قال : فمن خلق الأرض ؟ .

قال : الله ! قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله .
قال : فبالذى خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال : الله أرسلك ؟ .
قال : نعم ..

قال ضمام : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا ؟ قال : صدق ! .

قال : فبالذى أرسلك : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ! .
ثم جعل يذكر فرائض الإسلام وشرائعه على هذا النحو ، حتى إذا فرغ قال :
فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض
وأجتنب ما نهيتنى عنه . ثم لا أزيد ولا أنقص ، وانصرف إلى بعيره راجعاً .

فقال رسول الله : إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة^(١٥٥) .

فأتى ضمام بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا
إليه . فكان أو ما تكلم به أن قال : بعست اللات والعزى !! قالوا : مه يا ضمام !
اتق البرص ، اتق الجزام ، اتق الجنون .. قال : ويلكم ، إنهما - والله - لا يضران
ولا ينفعان . إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً ، استنقذكم به مما كنتم فيه ،
وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد
جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه .

قال : فوالله ما أمسى فى الحي من ذلك اليوم رجل ولا امرأة
إلا مسلماً^(١٥٦) .

(١٥٥) قال الحافظ ابن كثير (٦١/٥) : « هذا يدل على أنه (يعنى ضماماً) رجع إلى قومه قبل الفتح
لأن « العزى » حربها خالد بن الوليد أيام الفتح » .
(١٥٦) حديث حسن . بهذا الهمام ، رواه أبو داود (٧٩/١) والحاكم (٥٤/٣ - ٥٥) وأحمد
(رقم ٢٣٧٠) من حديث ابن عباس ، وقال الحاكم : « صحيح » ووافقه الذهبي ورواه مسلم (٣٢/١) وغيره
مختصراً ، والرواية الأخرى له .

ذاك وفد يمثل بساطة الأميين في منطقهم ، وسلامة طويتهم في جدهم
وتساؤلهم وخلو أذهانهم من العقد التي تعترض الحق في مسيله السصح .

ولا نكران في أن جهاد الدعوة القديم ، له أثره في الوصول إلى هذه النتائج
السريعة .

وهذا طبيعي فإن تغيير دين ليس كتجديد زى ، و « ضمائم بن ثعلبة » كان
يستحضر في ذهنه وهو يسأل النبي ثم وهو يخطب قومه أن هذه الرسالة الجديدة
مرت بأطوار شتى من الحن والفتن ، كشفت عن صدقها وسلامة جوهرها ، فليس
إيمانه وإيمان قومه ، وليد ساعة من كلام .

ذاك وفد الأميين ، وهو مثل لوفود أخرى كبرت أو صغرت ، أمت المدينة
لترى هذا النبي وتبايعه ، ثم تؤوب إلى قومها ، حاملة الهدى والخير .

* * *

أما أهل الكتاب فإن قلة منهم شرحت صدرها بالحق ، وسارعت إلى اعتناق
ومؤازرته ، والكثرة الباقية ، اختلفت عداوتها له شدة وفتوراً .

أى اليهود إلا إبادة الإسلام فوقعوا في شروز نيتهم ، وباد سلطانهم العسكرى
والسياسى ، قبل أن يدركوا هذه الغاية .

وقبلهم الإسلام في دولته القائمة أفراداً يبقون على ديانتهم ما أحبوا ،
ولا يمكنون من تجمع على عدوان ودس .

وذلك حقه لا ريب !! .

ولم تصادر الحقوق الشخصية ليهودى تحت سلطان الإسلام ، وحسبك أن
النبي نفسه - لكى يقترض من يهودى - ارتنه درعه^(١٥٧) وما فكر قط في إحراجه
بما يملك من سلطان بعيد ..

(١٥٧) صحيح ، أخرجه البخارى وغيره .

وكان النصارى أخف خصومة ، حيث ابتعدوا عن سلطان الكنيسة .. فأسلم بعضهم عن طوعية وإعجاب بما في الإسلام من سهولة واستقامة وبقي الآخرون على ما ورثوا ..

وسارت العلاقة بين الدينين في مجراها الذي أبتأ عنه آنفاً ، حتى تحولت إلى حرب طاحنة بين المسلمين والرومان ..

وكانت النصرانية - مع تفوق الرومان السياسى والعسكرى - تسود شمال الجزيرة وجنوبها ..

فرأى المسلمون - وهم في حرب مع دولة الروم - أن يحددوا موقفهم من نصارى الجنوب ، خصوصاً وأن الروم كانوا يغدقون العطايا على مبشريهم هناك وبينون لهم الكنائس ، ويسيطون عليهم الكرامات ، ويشجعونهم على المضى في تنصير القبائل المتوطنة بهذه الأرجاء .

فأرسل النبي ﷺ إلى أهل نجران كتاباً جاء فيه : « باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، أما بعد .. فأني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد .

فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب ، والسلام » (١٥٨) .

فأرسلت نجران - وهى كعبة النصرانية جنوباً - وفدها إلى المدينة ليقابل رسول الله ﷺ ويتفاهم معه ، ووافى الوفد المدينة بعد العصر ، ودخل المسجد .

فكان أول ما صنع أن اتجه إلى بيت المقدس يصلى الله على ما تقضى به طقوس المسيحية ، وأراد الناس منعهم ، فقال رسول الله : دعوهم (١٥٩) . حتى انتهوا من عبادتهم ..

(١٥٨) ضعيف ، ورواه البيهقى عن يونس بن بكير عن مسلمة بن يسوع عن أبيه عن جده . وهذا سد محمول مسلمة هذا ، ومن فوقه ، لم أجد من ترجمهم ، وأبو يسوع لم يورده الحافظ في « الكنى » من الصحابة . فאלله أعلم . ثم رأيت ابن كثير قد ذكره في التفسير (٣٦٩/١) ووقع فيه : « سلمة بن عبد يسوع » ولعله الصواب .

(١٥٩) ضعيف ، أخرجه ابن هشام (٤٦/٢) عن ابن إسحاق : حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال : فذكره . وهذا مرسل أو معضل .

ورآهم النبي ﷺ قد لبسوا لملاقاته أردية الكهنوت الفاخرة ، وتحلوا بخواتم الذهب ، وجاءوا يخبون في الحرير ، وتبدو لهم - بين القلائس والطبالس - سيماء التكلف الشديد .

فأبى أن يتحدث معهم ، حتى يرجعوا إلى ملابس سفرهم ، ويدعوا هذه الزينة (١٦٠) .

والغريب أن بعضهم سأل النبي . أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما يُعبد عيسى بن مريم ؟ وإلى ذلك تدعوننا ؟ .

فقال رسول الله ﷺ : معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثني ولا أمرني (١٦١) .

وأُنزل الله عز وجل في ذلك : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّائِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٦٢) ١؟ .

وعرض النبي ﷺ على أحبار « نجران » وسائر الوفد أن يسلموا فقالوا له : أسلمنا قبلك ، قال : كذبتكم ، يمنعكم من الإسلام ادعائكم لله ولداً ، وعبادتكم الصليب ، وأكلكم الخنزير .

فجادلوه في عيسى ، وقالوا : من أبوه ؟ فروى أن النبي رد عليهم قائلاً : أَلستم تعلمون أن الله حي لا يموت ، وأن عيسى يأتي عليه الفناء ؟ قالوا : بلى ، قال : أَلستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى .

قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا : لا .

(١٦٠) هذا من حديث عبد يسوع السابق ١ .

(١٦١) ضعيف ، رواه محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس كما في تفسير ابن كثير ، وفيه محمد ابن أبي محمد وهو الأنصاري ، قال الذهبي : « لا يعرف » وأما ابن حبان فوثقه ١ .

(١٦٢) آل عمران : ٧٩ ، ٨٠ .

قال : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ؟
قالوا : بلى ، قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما عُلِّمَ ؟ قالوا : لا ! .

قال : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا صَوَّرَ عِيسَى فِي الرَّحِمِ كَيْفَ يَشَاءُ ؟ وَأَنَّ رَبَّنَا لَا يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَلَا يَشْرَبُ الشَّرَابَ وَلَا يَحْدُثُ الْحَدَثَ ؟ قالوا : بلى ! .

قال : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ عِيسَى حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَمَا تَحْمِلُ الْمَرْأَةُ ، ثُمَّ وَضَعَتْهُ كَمَا تَضَعُ وَلَدَهَا ثُمَّ غُذِيَ كَمَا يُغْذَى الصَّبِيُّ . ثُمَّ كَانَ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُ الشَّرَابَ وَيَحْدُثُ الْحَدَثَ قالوا : بلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ .

فقالوا : أَلَسْتَ تَقُولُ فِي عِيسَى : إِنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحَ مِنْهُ
قال : بلى .

فلما رأى النبی أن الجدل يتبادى بالقوم . وأنهم مصرون على اعتبار عيسى إلهاً
أو ندأ للإله قال لهم : أقيموا غداً حتى أخبركم .

فنزلت آيات المباهلة : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ
ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ
بَعِيدٍ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا
وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ (١٦٤) .

فأصبح رسول الله من الغد ، وقد أقبل بنفسه ، وحفيديه : الحسن ،
والحسين ، وابنته فاطمة .

واستعد أن يشترك مع وفد نجران في صلاة جامعة تستنزل فيها لعنة الله على
المفترين .

(١٦٣) هنا رؤاه ابن إسحاق في مرسل محمد بن جعفر بن الزبير السابق . وأما الرواية الأخرى فلم أجدها
الآن عنده بهذا النص وإنما جاء بعضها في حديث عبد يسوع المتقدم .
(١٦٤) آل عمران : ٥٩ - ٦١ .

واستمع وفد نجران إلى هذا الاقتراح ، فأوجسوا خيفةً من قبوله ! من يدرى ؟ قد يكون محمد صادقاً في أن عيسى بشر مثله ويكونون - هم - واهمين في انتحال الألوهية له .

فلماذا يتهلون إلى الله أن يحقهم .

ونظروا إلى محمد وطفليه وابنته ، فشعروا أن الكاذب منهما لن يهلك وحده بل ستهلك معه أسرته ، فخشوا على أولادهم وأهلهم البوار إن هم قبلوا هذه المباهلة ، ثم خلصوا نحيباً .

قال بعضهم للآخر : إن كان هذا الرجل ملكاً ، فلن نأمن طعننا عليه وخصامنا له . فإن دولته مقبلة ، وربما أصابنا قومه بجائحة .

وإن كان نبياً مرسلًا فلا غناء ، فلن يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك . فما الرأي ؟ .

فجاءه متحدث القوم شرحبيل بن وداعة ، وقال له : رأيت خيراً من ملاعنتك .

فقال النبي : ما هو ؟ قال : أدع لك الحكم فينا فمهما قضيت فهو جائز ! .

فقال رسول الله : لعل وراءك أحداً يُثرب عليك ؟ قال شرحبيل : سل عني . فلما سأل الرسول عنه أخبر أن أهل الوادي لا يصدرون ولا يردون إلا عن رأيه ، فقال : جاحد موفق .

ورجع رسول الله ولم يلاعنهم ، وعقد معهم صلحاً أصبحوا - بمقتضاه - من رعايا الدولة الإسلامية .

وجاء في شروط هذا الصلح « أن لنصارى نجران جوار الله وذمة محمد النبي ، على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم . وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرتهم وتبعهم . وأن لا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا ما تحت أيديهم من قليل أو كثير .

وليس عليهم رية ولا دم جاهلية ولا يحشرون - يكلفون بجهد -
ولا يعشرون - يكلفون بزكاة - ولا يطاء أرضهم جيش .

ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا
فدتمى منه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر .

وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد رسول الله حتى يأتى الله بأمره
ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منقلبين بظلم » .

وشهد على هذه المعاهدة أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك
ابن عوف ، والأقرع بن حابس ، والمغيرة بن شعبة .

فماذا كُلف به نصارى نجران بإزاء هذه الحقوق ؟ أن يدفعوا الدولة ألفى حلة
فى السنة ! وهى بدل تافه عن الزكاة التى يدفعها المسلمون وحدهم ، والجهاد الذى
يحملونه وحدهم .

وتلك هى الجزية التى ضُربت على نجران ، بعد المفاوضات التى رأيت .

وبذلك قطع الإسلام الصلة بين أولئك العرب المنتصرين وبين دولة الروم التى
يشتبك معها فى الحرب ، بعد ما ضمن الحرية الدينية لمن سألوه وكفوا عنه .

ونحن نسأل - على وجه التحدى - هل عاملت الطوائف المسيحية بعضها
بعضاً بهذه السماحة الرائعة ؟ أم كان ذلك مسلماً أضاء به الإسلام وحده ظلمات
القرون الأولى ؟ .

ثم نسأل مرة أخرى : هل احترام أهل الكتاب ما عليهم من واجب ، وهل
أنصفوا الدين الذى رعى ذمامهم ؟ .

لقد دخلت السنة العاشرة على الإسلام وهو ييسط تعاليمه على حساب الوثنية
المتقلصة فإذا بعض القبائل فى الجنوب تثور ضده تحسب أن رجلاً من قريش ملك
العرب بإدعاء النبوة ، فليس يعجزها أن تقدم من مفاليكها من يزعم النبوة كذلك ؟ !
لعله يملك مثل ما ملك محمد بن عبد الله .

ومن المؤسف أن النصارى فى جنوب الجزيرة ساعدوا فى إشعال هذه الثورات ، وأن نصارى نجران كاتبوا الأسود العنسى فسار إليهم - وهو أحد المتنبيين - ثم رحل عنهم إلى اليمن ، فملكها حتى قتلته امرأته وأراحت الأرض منه .
أكانت هذه الفتنة معاونة لنصارى الشمال فى حربهم ضد الإسلام ، أم كانت شغباً يمليه الكره المجرد فحسب ؟ .

وما فعله نصارى نجران فى تأييد الأسود العنسى . فعل مثله نصارى تغلب فى تأييد مسليمة الكذاب حين ادعى - هو الآخر - أنه نبي .

ونحن نفهم أن يرفض أهل نجران وبنو تغلب الدخول فى الإسلام ، وأن يؤثروا البقاء على ما اقتنعوا به من ديانتهم الموروثة ، لكننا لم نفهم بته أن يكذب رجل بصحف الوحي العالى وأن يؤمن - مثلاً - بالبعكوكة^(١٦٥) .

ذاك إن كانوا قد آمنوا حقاً بالأسود ومسيلمة ..

أما إذا كان الأمر لا يعدو الإعانة على حرب الإسلام بأى سلاح ومع أى حليف ، فهذه مسألة^(١٦٦) أخرى يختار فى علاجها أطباء القلوب .



(١٦٥) صحيفة هزلية .

(١٦٦) راجع كتابنا : « التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام » .

الفصل الثَّامِنُ أَمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ

أثار بعض الكاتيبين غباراً حول مبدأ تعدد الزوجات ، وحاولوا تقييد ما أباحه الإسلام من ذلك أو منعه ، محتجين - تارة - بأن الإسلام لم تثبت فيه هذه الإباحة بصورة حاسمة ، وتارة أخرى ، بأن تطور الحياة وصالح الجماعة يقتضيان أن يكتفى الرجل بامرأة واحدة لا يعدوها . وحسبه أن يرفق في رعايتها وكفالة أولاده منها ..! ولا شك أن هذه الأفكار تولدت في بيئاتنا نتيجة عوامل شتى تحتاج إلى حسن النظر وقوة الرد ، ومنذ سنين حاول خصوم التعدد أن يستصعدوا قانوناً ، بذلك ، ثم توقفت محاولاتهم أمام غضب العلماء ، وهياج الجماعات المشتغلة بالشئون الإسلامية .

وقد كتبت آنئذ كلمة في طبيعة التعدد أرى إثباتها هنا بين يدي الموضوع الذى نتحدث فيه ، لما لها صلة ظاهرة به .

« للحياة قوانين عمرانية واقتصادية ثابتة ، تفرض نفسها على الناس حتماً ، عرفوها فاستعدوا لمواجهتها ، أم جهلوا فظهرت بينهم آثارها .

وصلة الرجل الفرد بعدد من النساء ، من الأمور التى تبت فيها الأحوال الاجتماعية . ويعتبر تجاهلها مقاومة عابثة للأمر الواقع .

وذلك أن النسبة بين عدد الرجال والنساء ، إما أن تكون متساوية ، وإما أن تكون راجحة في إحدى الناحيتين .

فإذا كانت متساوية ، أو كان عدد النساء أقل ، فإن تعدد الزوجات لا بد أن يختفى من تلقاء نفسه ، وستفرض الطبيعة توزيعها العادل قسراً .

ويكتفى كل امرئ - طوعاً أو كرهاً - بما عنده .

أما إذا كان عدد النساء أرى من عدد الرجال ، فنحن بين واحد من ثلاثة :

١ - إما أن نقضى على بعضهن بالحرمان حتى الموت .

٢ - وإما أن نبيح اتخاذ الخليلات ، ونقر جريمة الزنا .

٣ - وإما أن نسمح بتعدد الزوجات .

ونظن أن المرأة - قبل الرجل - تأبى حياة الحرمان ، وتأبى فراش الجريمة والعصيان .

فلم يبق أمامها إلا أن تشرك غيرها في رجل يحتضنها ويناسب إليه أولادها ، ولا مناص بعدئذ من الاعتراف بمبدأ التعدد الذى صرح به الإسلام .

ثم إن هناك اختلافاً كبيراً بين أنصبة الرجال من الحساسية الجنسية ، فهناك رجال أوتوا حظاً من كمال الصحة ويقظة الغريزة ونعومة العيش . لم يؤته غيرهم ، والمساواة بين رجل بارد المشاعر من نشأته ، وآخر قريب الاستثارة ، واسع الطاقة ، أمر بعيد عن العدالة ، ألسنا نبيع لذوى الشهية المتطلعة مقادير من الطعام ، لا نبيحها للمعوذين والضعفاء ؟ .

فهذه بتلك ..

ثم حكمة أخرى : قد تكون الزوجة على حال من الضعف أو المرض أو العقم أو تأخر السن ، فلماذا تترك لهذه الأعذار ؟ .

إن من حق العشرة القديمة أن تبقى في كنف الرجل ، وأن تأتى إلى جانبها امرأة أخرى تؤدى وظيفة الزوجة أداء كاملاً .

* * *

ومن المبررات الكثيرة للتعدد ، فإن الإسلام الذى أباحه ، رفض رفضاً باتاً أن يجعله امتداداً لشهوات بعض الرجال وميلهم إلى المزيد من التمتع والتسلط .

فالغرم على قدر المغنم ، والمتع الميسرة تتبعها حقوق ثقيلة .

ومن ثم لابد - عند التعدد - من تيقن العدالة التي تحرسه .

أما إذا ظلم الرجل نفسه وأولاده أو زوجاته ، فلا تعدد هناك .

الذى يعدد يجب أن يكون قادراً على النفقة اللازمة .

وإذا كان الشارع يعتبر العجز عن النفقة عذراً عن الاقتران بواحدة ، فهو

- من باب أولى - مانع من الزواج بما فوقها .

إن الشارع يوصي الشباب الأعزب بالصيام ، مادام لا يستطيع الزواج ،
ويأمر العاجز عن الواحدة بالاستعفاف .

﴿وَلَيْسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١) .

فكيف الحال بمن عنده واحدة ؟ إنه بالصبر أحق وبالأستعفاف أولى ، وكثرة
الأولاد تنبع - عادة - من كثرة الزوجات ، والإسلام يوجب رعاية العدل مع
الأولاد في التربية ، والتكريم ، ووسائل المعيشة ، مهما اختلفت أمهاتهم ، وفي الأثر :
« لعن الله من استعق أولاده »^(٢) فعلى المكثّر أن يحذر عقبي الميل مع الهوى .

وكذلك يوجب الإسلام العدل مع الزوجات .

ولئن كان الميل القلبي أعصى من أن يتحكم فيه إنسان ، إن هناك من الأعمال
والأحوال ما يستطيع كل زوج فيه أن يرعى الحدود المشروعة ، وأن يزن تصرفه
بالقسط ، وأن يخشى الله فيما استرعاه من أهل مال .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله سائل كل امرئ عما استرعاه حفظ ذلك
أم ضيعه »^(٣) .

وقال : « بحسب امرئ من الإثم أن يضيع من يعول »^(٤) .

تلك حدود العدل الذي قرنه الله بالتعدد ، فمن استطاع النهوض بأعبائها

(١) النور : ٣٣ .

(٢) لا أعرفه . ونحو ما رواه الطبراني عن أبي هريرة مرفوعاً : « أعيئوا أولادكم على البر ، من شاء
استخرج العقوق من ولده » لكن في سنده من لا يعرفون .

(٣) عزاه في الجامع الصغير للنسائي وابن حبان في صحيحه عن أنس ، وقد فتشت عنه في سنن النسائي
الصغيري في مظانه فلم أجده ، فلعله في سننه الكبرى التي لم تطبع وقد وفقت في الوقوف على إسناده فأخرجه
أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢٣٥/١) عن النسائي بسنده عن قتادة عن أنس ، وكذلك رواه أبو نعيم أيضاً
(٢٨١/٦) من غير طريق النسائي والسند صحيح إن كان قتادة سمعه من أنس فإنه موصوف بشيء من التدليس .

(٤) « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » أخرجه أبو داود (٢٦٨/١) وغيره من حديث ابن عمر
وصححه الحاكم (٤١٥/١) ووافقه الذهبي ، ورواه مسلم (٧٨/٣) من طريق أخرى عنه نحوه .

فليتزوج مشى وثلاث ورباع ، وإلا فليكتف بقرينته الفذة ﴿ فَإِنْ حِفْظُهُمْ إِلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ۝٥٥﴾ .

وقرأت لبعض الصحفيين يعترض على مبدأ التعدد ، لماذا يعدد الرجال الزوجات ولا تعدد النساء الأزواج ؟ ولقد نظرت إلى هؤلاء المتسائلين فوجدت جمهورهم بين داعر أو ديوث أو قواد ، وعجبت لأنهم يعيشون في عالم من الزنا ويكرهون أشد الكره إقامة أمر الأسرة على العفاف .

والجواب على هذا التساؤل المريض أن الهدف الأعلى من التواصل الجنسي هو إنشاء الأسرة وتربية الأولاد في جو من الحضانة النظيفة ، وهذا لن يكون في بيت امرأة يطرقها نفر من الناس يجتلدون للاستحواذ عليها ولا يعرف لأبيهم ولد منها .

ثم إن دور المرأة في هذه الناحية دور القابل من الفاعل ، والمقود المحمول من القائد الحامل . وإنك لتتصور قاطرة تجر أربع عربات ، ولا تتصور عربة تشد أربع قاطرات ، ومن الكفر بطبائع الأشياء المماراة في أن الرجال قوامون على النساء .

* * *

على أنه من المؤسف حقاً ، أن يهدر العوام هذه الحدود ، وأن يتجهوا إلى التعدد دون وعي لمعنى العدل المفروض ، بل تلبية لنداء الشهوة ، ولو أدى إلى الافتيات والجور الصارخ .

فالرجل قد يعجز عن نفقة نفسه ، ثم هو يسعى إلى الزواج .

وقد يعجز عن رعاية واحدة ، ثم هو يبحث عن غيرها !! .

وقد يحيف على بعض أولاده في التعليم ، وفي توزيع الثروة تمشياً مع هواه . وقد يتزوج الأخرى لهجر الأولى ويذرهما كالمعلقة .

وربما ترى الرجل يستطيع البناء بأربع . والإنفاق على ما ينبجن من بنين وبنات .

(٥) النساء : ٣ .

ومع ذلك الاقتدار ، فهو يحيا على التسول الجنسي والتقلب في أحضان الساقطات . فما دواء هذه الفوضى ؟ .

هل منع التعدد يشفي الأمة من هذه الأدواء ؟ .

كلا . إن تقييد مباح ليس مما يعنى سياسة التشريع في الإسلام .

إلا أن مبدأ التعدد لو سكت الدين عن إبداء الرأى فيه ، لوجب أن نبدى - نحن - الرأى فيه ونقول بإباحته ، صيانة للمصلحة العامة التى أوضحناها في صدر الكلام .

ولكن إقرار القاعدة شئ ، وسوء تطبيقها شئ آخر .

وعندما يجيء دور التشريع في إصلاح مجتمعنا وإقامة عوجه - من هذه الناحية - فلتتجه همة الباحثين إلى ضبط وسائل العدل ومظاهره إن أرادوا .

أما الخطب في مبدأ التعدد نفسه ، ومحاولة النيل منه فهو عبث .

وأستطيع القول بأنه أثر من آثار الغزو الصليبي الحديث لبلاد الإسلام .

فإن النصرانية - دون سائر الأديان من عهد نوح - انفردت بتحريم^(٦) التعدد ، وحبس الرجل - مهما كان شأنه - على امرأة واحدة ، وترك المجتمع بعد ذلك ، يعالج كثرة النساء ، وهياج الغرائز بوسائله الأخرى .

وفي طبقات كثيرة الآن ، ينظر إلى التعدد على أنه منكر ! وإلى الزنا على أنه مسلاة تافهة ! أى المشكلة الآن ، مشكلة الدين كله ، والأخلاق كلها .

وتقييد التعدد - والحالة هذه - محاولة سمجة ، لتلويث المجتمع على حساب الإسلام وباسم القانون .

إن جمهوراً كبيراً من النبيين والصالحين تزوج بواحدة وبأكثر من واحدة ، ولم يחדش ذلك تقواه ، وفي صحف العهد القديم الموجودة الآن ما يؤيد ذلك

والإسلام لا يرى التبتل عن النساء عبادة - كما يفعل الرهبان - ولا الزواج إلى أربع معصية ، كما ينسب إلى النصرانية .

إنما المعصية في ترك الغريزة الجنسية تنزهه كيف تشاء ، أو في كتبها لتسرب وراء وراء كما تسرب المياه الجوفية تحت أديم الغبراء .

* * *

والمحفوظ من سيرة نبي الإسلام أنه تزوج بالسيدة خديجة وهو في الخامسة والعشرين من عمره وكانت - هي - في سن الأربعين ، وظل معها وحدها ، لا يضم إليها أخرى حتى تجاوزت السيدة الفضلى الخامسة والستين . وماتت ، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - فوق الخمسين .

ولم يجرؤ أحد من أشد خصومه لئداً ، أن ينسب إليه دنساً أو يتهمه بريبة في هذه الفترة الخصيبة من عمر الإنسان .. كان رونق العفاف والشرف يتألق في جبينه حيث سار .

ولو أنه أحب الزواج بأخرى ما عاقه مانع من شرع أو عقل أو عادة . فإن التعدد كان مألوفاً بين العرب ، معروفاً في ديانة أنبياء إبراهيم ، إلا أنه ظل مكتفياً بمن استراح إليها واطمأن بصحبها ، ولو أنها طعنت في السن وبقي هو في كمال قوته وتمازج رجولته . ولهذا المسلك دلالة القاطعة .

فلما انتقلت السيدة خديجة ، وأحب النبي أن يتزوج ، لم يكن البحث عن الجمال في مظانه ، هو الباعث على تخيير شريكته في حياته ، أو شريكاته ، ولو قد فعل ذلك ما تعرض للوم .

بيد أن الباعث الأول كان الارتباط بالرجال الذين آزره في دعوته وعاونوه في رسالته .

فاختار « عائشة » بنت أبي بكر - على صغر سنها - واختار حفصة بنت عمر على قلة وسامتها .

ثم اختار « أم سلمة » أرملة قائده الذي استشهد في سبيل الله ، وعانت معه امرأته ما عانت في الهجرة إلى الحبشة ، وفي الهجرة إلى المدينة .

ومن قبل هؤلاء كانت معه « سودة » وهي امرأة نزلت عن حظها من الرجال لكبرها وعزوفها .

والعيشة مع أولئك الأربع لا تقوم على متاع ملحوظ ودنيا سارة .

ولو قد قامت على ذلك ما كان على رسول الله من حرج ، فلأي مؤمن أن يستمتع بأربع نسوة ، وتحقيق العدل متيقن في سيرة الرسول ﷺ .

قد تقول : لكن الرسول مات عن تسع نسوة ، فكيف وقع هذا ، ولم نال ما لم ينل غيره ؟؟ .

أليس هذا فتحاً لباب التشهي ، وإجابة لدواعي الملذة ؟ .

ونقول : أين مكان المتعة في حياة رجل لم يسترح يوماً من عناء الكفاح الموصول والجهاد المضنى ؟ .

إن حملة الرسائل الإنسانية المحدودة تعيهم هموم العيش ومشكلات الشعوب فلا يحظون بساعة راحة إلا ليستجموا قليلاً .. ثم ينهضوا لاستئناف اللغوب ! فكيف بصاحب الرسالة العظمى ! ولقد لقي من العرب ما رأيت ! .

ونسأل أيضاً : ما مكان المتعة في حياة رجل عزف عنها وهو شاب ، فكيف يفرق فيها وهو شيخ ؟ .

إن الظروف التي أحاطت بالزوجات الخمس الأخرى ، تجعل البناء بين بعض ما كُلف الرسول بتجشمه من سياسة الأفراد والجماعات ، وبعض ما كُلف بتحقيقه من إقامة الخير ومحو الضر .

خذ مثلاً زواجه بزینب بنت جحش ، كان هذا الزواج امتحاناً قاسياً لرسول الله ، أمره الله به لإبطال تقليد شائع عند العرب . وأقدم عليه الرسول وهو شديد التحرج والحياء والأذى .

و « زينب » هذه من قريبات الرسول ، فهو يعرفها حق المعرفة من طفولتها ، وقد رغب في أن يزوجه من زيد بن حارثة . فكهرت ذلك ورفض أخوها . اعتزازاً بما لأسرة زينب من مكانة ، فهي من ذؤابة قريش .. وما زيد ؟ .

إنه كان عبداً ، ولو أن الرسول أكرمه فيما بعد وألحقه بنسبه فصار يدعى زيد ابن محمد !! .

إلا أن زينب لم تجد بداً من الانصياع لأمر النبي ، فقد أراد أن يُحطم الاعتزاز بالأنساب وأن ينكح زيداً زينب ! فرضيت وفي نفسها غضاضة ، أو قبل أخوها وهو يؤدي حق السمع والطاعة فحسب ، بعد ما نزل قوله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٧) .

ودخل زيد بزينب ، فوجد امرأة مصروفة الفؤاد عنه ، تسمله جسدها ، وتحرمه العطف والتقدير ، فثارت رجولته وقرر ألا يبقى معها ، وتدخل النبي بين الحين والحين لإصلاح ذات الين دون جدوى .

في هذه الحال أوحى الله لنبيه أن يدع زيداً يطلق زوجته ، وأن يتزوجها هو بعد انتهائها منه .

فاعترى الرسول همٌ مقلق لهذا الأمر الغريب ، وساوره التوجس من الإقدام عليه بل أخفاه في نفسه خوفاً من مغبته ، فسيقول الناس : تزوج امرأة ابنه .. وهي لا تحل !! .

ولكن هذا الذي سيقوله الناس هو ما أراد الله هدمه ، ويجب على النبي أن ينفذه دون تهيّب .

وقد تراث النبي في إنفاذ أمر الله ، ولعله ارتقب من الله - لفرط تخرجه - أن يعفيه منه ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فعندما جاء زيد يشكو امرأته ويعرض نيته في تطليقها ، قال له النبي : « أمسك عليك زوجك واتق الله » .

عند ذلك نزل الوحي يلوم الرسول على توقفه ، ويعتب عليه تصرفه ، ويحضه

(٦) نحن نعتقد أن التعدد هو حكم الله في الأديان كلها - ومن بينها النصرانية - ولا نقيم وزناً لما عاده من قوانين وضعية .

(٧) الأحزاب : ٣٦ .

على إمضاء رغبة زيد في فراق امرأته ويكلفه بتزوجها ، ولو قال الناس تزوج امرأة ابنه . فإن إدعاء البتة لون من التزوير ، تواضع عليه العرب مراغبة للحق ، وينبغي أن يقلعوا عنه ، وأن يهدروا نتائجه ؛ وليكن عمل الرسول ﷺ بنفسه ، وبمن التصق به أول ما يهدم مآثر الجاهلية في العرف الشائع .

هذه هي القصة كما بدأ القرآن الكريم يرويها :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ (٨) .

على أن الغريب في هذه القصة ما أدخله المغفلون عليها من دسائس الشهوة ومظاهر الحب الرخيص ، فقد زعموا أن الرسول أحب زينب ، ثم كتم هذا الحب ، ثم ظهر ، فتزوجها بعد ما طُلقت ! .

ثم زعموا أن صدر الآية السابقة جاء عتاباً له على هذه العاطفة المكبوتة ! . ونحن نتعجب أشد العجب لهذا الخطب الهائل ، ومحاولة تلبيس الحق بالباطل . من كان يمنع محمداً من الزواج بزينب وهي من أسرته - بنت عمته - وهو الذي ساقها إلى رجل لم تكن فيه رغبة ، وطَّيب خاطرها لترضى به . أفبعد أن يقدمها لغيره يطمع فيها ؟ .

ثم لننظر إلى الآية وما يزعمون أنها تضمنته من عتاب .

إنهم يقولون : الذي كان يخفيه النبي في نفسه ، ويخشى فيه الناس دون الله هو ميله لزينب ، أى أن الله - بزعمهم - يعتبر عليه عدم التصريح بهذا الميل ! . ونقول : هل الأصل الخلقى أن الرجل إذا أحب امرأة لغط بين الناس مشهراً

(٨) الأحزاب : ٣٧ .

بنفسه وبمن أحب ، وخصوصاً إذا كان ذا عاطفة منحرفة ، جعلته يحب امرأة رجل آخر ؟ .

هل يلوّم الله رجل ، لأنه أحب امرأة آخر ، فكتم هذا الحب في نفسه ؟ ..
أكان يرفع درجته لو أنه صاغ فيها قصائد غزل ؟ .
هذا والله هو السفه !! .

وهذا السفه هو ما يريد بعض المغفلين أن يفسروا به القرآن !! .
إن الله لا يعاتب أحداً على كتمان حب طائش ، وإنما سياق الواقعة كما قصصنا عليك .

فالذى أخفاه النبي ﷺ في نفسه تأذيه من هذا الزواج المفروض ، وتراخيه في إنفاذ أمر الله به ، وخوفه من لغط الناس عندما يجدون نظام التبنى - كما ألفوه - قد أنهار .

وقد أفهم الله نبيه ، أن أمره لا يجوز أن يقفه توهم شيء ما . وأنه - بإزاء التكليف الأعلى - لا مفر من السمع والطاعة ، شأن من سبقه من المرسلين .
وإذا عدت إلى الآية التي تتضمن القصة ، وجدتها ختمت بقوله تعالى :
﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾^(٩) أى من حقه أن يقع حتماً .

ثم أعقبها ما يؤكد هذا المعنى :

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا . الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾^(١٠) .

إنك عندما تثبت قلب رجل تقول له : لا تخش إلا الله .
إنك لا تقول ذلك له ، وهو بصدد ارتكاب معصية ، إنما تقول ذلك له ،

(١٠) الأحزاب : ٣٨ ، ٣٩ .

(٩) الأحزاب : ٣٧ .

وهو يبدأ القيام بعمل فاضل كبير يخالف التقاليد المتوارثة .

وظاهر في هذه الآيات كلها أن الله لا يجرىء نبيه على التدله بحب امرأة ، وإنما يجرئه على إبطال عادة سيئة يتمسك الناس بها ، ويُراد منه كذلك ، أن ينزل على حكمها ، ولذلك يقول الله - بعد ذلك مباشرة - وهو يهدم نظام التبنى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (١١) .

أما السيدات الأخريات التي بنى بهن الرسول ﷺ فهن نساء تنمهن أصول عريقة حتى ليعتبرن بنات ملوك ! .

وقد أطاحت بهن - عند دخول الإسلام - ملابسات ، لا يليق أن يجهلها قائد دعوة .

فأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب سيد قريش وقائدها عشرين سنة في حرب الإسلام أو يزيد ، أئذا أسلمت ورغمت أباه وقومها في ذات الله ، ثم هاجرت إلى الحبشة تاركة مكة حيث يسود أبوها وتعلو كلمته ؟ .

أترى مثل هذه السيدة إذا مات زوجها تُترك لمن يخذل مكانتها ؟ .

لقد ضمها النبي إلى زوجاته ، إعزازاً لشأنها ، وتقديراً لصنيعها .

و « صفية » بنت حبي ، كان أبوها ملك اليهود .

وفي الصراع بين بني إسرائيل والإسلام هلك أبوها وأخوها وزوجها ، ووقعت في سهم جندي ، لا يعرف إلا أنها أسيرة حرب ، من حقه ، بملك اليمن ، أن يسلك معها كيف شاء .

فإذا رَقَّ النبي لحالها ، ووهبها حريتها ، ثم جبر كسرهما وقدر ماضيها ، فتزوجها ليستطيع - بإحسانه وإكرامه - تطيب خاطرها ، فهل ذلك مما يُلام عليه ؟ .

(١١) الأحزاب : ٤٠ .

و « جويرية » بنت الحارث ، إن أباه زعيم بنى المصطلق ، وقد انتهت حربته مع المسلمين بهزيمة نكراء ، وكادت قبيلته تهون وتذل عقب هذه الهزيمة ، فواسى النبي ﷺ القائد المهزوم ، ثم أصهر إليه حتى يشعر المسلمون بما ينبغي لأتباعه من كرامة ومعونة ، وقد وقع ما أحبه النبي ، فعادت الحرية إلى القبيلة رجالاً ونساءً ، إذ تخرج المسلمون أن يسيثوا إلى قوم تزوج النبي ابنتهم .

* * *

وقد يسبق إلى أذهان البعداء عن السيرة ، أن حياة رسول الله ﷺ الخاصة ، قامت على التوسع في المطاعم والمشارب .. والمتع الأخرى :

والصورة التي قد ترتسم بادية الأمر لرجل عنده عدة نساء ، أنه مغمور بالسعادة المادية يقوم بيته على الموائد الحافلة باللحوم والفواكه ، ويرتوى من الأشربة التي تسرى في أوصاله بالنشوة . ثم ينقلب بين أحضان البيضاوات والشقراوات ويصبح يستقبل الدنيا بعد ذلك خالى البال !! .

وقد تكون هذه الصورة مساوية أو مقاربة لما يدور في قصر الملوك .

لكن حذار أن تسفه نفسك فتحسب شية من هذا العيش الرخي في بيوت محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

انتقل على عجل إلى لون آخر من الحياة الخشنة لترى فيه رجلاً تعلقت همته بالحق وحده . فهو ينتعش بمعرفته . ويجتهد لجمع الناس عليه . وقرة عينه في خطوة تقربه من غايته شبراً . أما أهواء الدنيا فهي تحت قدميه ودبر أذنيه .

إذا استطاعت قذائف المدافع على ظهر الأرض أن تبلغ النجوم البعيدة ، استطاعت مغريات الحياة أن تقترب من قلب محمد الزكى النقى .

ذاك إنسان اصطفته العناية . فهو يخلق في مدى آخر . ويقول فيه : « ما لى وللدنيا .. إنما أنا كرجل قال^(١٢) تحت ظل شجرة ثم راح وتركها »^(١٣) .

(١٢) وقال ، من القبلولة : وهى شدة حر الشمس في الظهيرة .

(١٣) صحيح ، أخرجه الترمذى (٢٧٨/٣) وصححه ابن ماجه (٥٢٥/٢ - ٥٢٦) والحاكم =

يربط همم البشر بالمثل العليا . وما تصير إليه عند الله فيقول : « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها . ولغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها » (١٤) .

وحياته مع زوجاته نهج من الشظف لا يطيقه أحد .

روى البخارى عن أنس بن مالك قال : ما أعلم النبی رأي رغيفاً مرققاً حتى لحق الله ، ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط !! .

وعن عائشة قالت : إن كنا ننظر إلى الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين . وما وقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار ! .

فقال لها عروة بن الزبير : ما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان .. التمر والماء . وقالت عائشة أيضاً : « لقد توفى رسول الله ﷺ وما في ريفي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في ريف لي » .

أما الفراش الذي يأوى إليه هذا النبي ﷺ فهو آدم - جلد - حشوه ليف (١٥) يثوي فيه قليلاً ، فما أن يستدفء به حتى يسمع الصارخ - الديك - فينهض متأهباً لصلاة الفجر .

ولا نعى بهذا الوصف أن الإسلام يعاف الطيبات أو أن نبيه يسن للناس تركها .

كلا .. فشرعية الإسلام في هذا بينة نيرة ، وإنما نسرد الواقع من حياة رجل صدقت نفسه عما يقتتل الناس عليه ، إن الرجل قد يترك لأولاده الصغار لعبة

== (٣١٠/٤) وأحمد (٣٧/٩ ، ٤٢٠٨) عن ابن مسعود ، وله شواهد عن ابن عباس رواه أحمد (٢٨٤٤)

وإسناده حسن وصححه الحاكم على شرط البخارى ومسلم ، ووافقه الذهبي .

(١٤) صحيح ، أخرجه البخارى (١٩٤/١١) بتمامه ومسلم (٣٥/٦) بالشرط الثانى عن سهل

ابن سعد .

(١٥) صحيح ، أخرجه البخارى (٢٤٥/١١) عن عائشة أيضاً .

يفرحون بها ويختصمون عليها ، لأن طبيعة رجولته في شغل عن عبث الصبية .
 إن بعض المخترعين والمفكرين يذهلون عن الطعام المهيا لهم ، لا ازدراءً له ،
 ولكن استغراقاً فيما ملك عليهم مشاعرهم .
 وكأني أتخيل النبي ﷺ وهو يرى سواد الناس يتهافون على الحطام الذهب
 فبهز رأسه أسفاً ، ويقول : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم
 كثيراً » (١٦) .

ثم يضرع إلى الله : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » (١٧) .
 إن من الزاوية بالعقل والجور الفاحش على التاريخ أن يجيء رجل من عرض
 الطريق ، فرى - أو يقال له : إن محمداً كان لديه نسوة عديدات فيظن المكين أن
 ذلك دلالة استكثار من الشهوات وتشبع من الدنيا .

* * *

ولا يحسن أحداً هذا الإخشيشان فعل من لا يجد ! وأنه لو فتحت إلى بيوت
 النبي ﷺ نافذة تطل على بحبوحة الحياة الراغبة ، لاستمتع واكتنز ، واستمتع نسوته
 وابتهجن .

لا .. كان قادراً أن يحجز من المال الذي يمر به ويحكم فيه ما يشاء ،
 لو يشاء ، لكن النبي ﷺ كان فوق التطلع إلى اللذات الصغيرة ، لأن عينيه ترمقان
 هدفاً أسمى ، ولو سيقا إليه خزائن الأرض لفكر - قبل كل شيء - في إشباع نهمة
 الناس منها .

عن أبي ذر : كنت أمسى مع النبي في حرة المدينة ، فاستقبلنا أحد ، فقال :
 يا أبا ذر .. قلت : لبيك يا رسول الله ، فقال : « ما يسرنى أن عندى مثل أحد

(١٦) صحيح ، أخرجه البخارى (٢٦٨/١١) من حديث أبي هريرة وأنس .
 (١٧) صحيح ، أخرجه البخارى (٢٤٦/١١) ومسلم (٢١٧/٨) واللفظ له من حديث أبي هريرة ،
 وليس هو تمام الحديث الذى قبله كما يتبادر من عبارة المؤلف . بل كل من الحديثين مستقل عن الآخر ، ولا يدرى
 المتقدم منهما من التأخر .

ذهباً ، تمضي علىّ ثالثة وعندى منه دينار - إلا شيئاً أرصده لدين - إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا » عن يمينه وعن شماله ومن خلفه .

ثم مشى فقال : « إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، وقليل ما هم » (١٨) .

إن أشهى الطعام في فم الرجل الشبعان الممتليء لا مذاق له ، وقد كان النبي ﷺ شبعان القلب ، فما يخف إليه غيره من زينة الدنيا لا يحرك منه شعرة ، فلا غرو إذا بعثر ما يصل إليه علي المحتاجين والمترقبين ، أما هو فغناه في قلبه .

ذاك أدب أخذه الله به من قديم ، منذ قال له :

﴿ وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى . وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ، لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ، نَحْنُ نَرْزُقُكَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (١٩) .

غاية ما يبغيه هذا النبي أن ينجو من مآسى الدنيا ومظالم البشر ، فلا تستذله أو تستذل أهله فاقة ! .

إنه يعيش على قاعدة « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » (٢٠) ، وفي حدود هذا القليل الكافي ، يود أن يخلص من عقابيل الخلق ، لا له ولا عليه ، ولذلك كان يدعو الله : « اللهم إني أعوذ بك من الفقر والفاقة والذلة ، وأن أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يُجهل علي » (٢١) .

* * *

(١٨) صحيح ، أخرجه البخارى (٢٢٠/١١ - ٢٢٢) ومسلم (٧٥/٣) عن أبي ذر .

(١٩) طه : ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢٠) هذا حديث مرفوع إلى النبي ﷺ بسند صحيح ، فكان ينبغي التصريح بذلك . أخرجه أحمد (٢٠٧/٥) وكذا الطيالسي (رقم ٩٧٩) في حديث لأبي الدرداء وسنده صحيح على شرط مسلم وعزاه المنذرى (٣٩/٢) لأبي حبان في صحيحه والحاكم ، ورواه أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدرى وكذا الضياء المقدسى في « الأحاديث المختارة » والطبرانى من حديث أبي أمامة .

(٢١) صحيح ، وهو مركب من حديثين ، الأول عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول ﷺ

ويقول : « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » (٢٢)
- الاستغناء - .

وهذا المنهج الصارم في المعيشة تقاضى نساءه أن يتحملن شدة ما كن يعرفنها
من قبل .

لقد جئن إليه من بيوتات كبيرة .

وأكثرهن اعتادت في صدر حياتها الزاد الطيب والنعمة الدافقة ، إمام مع
آبائهن ، وإمام مع رجالهن السابقين .

فلا عجب إذا تمللن من هذه الحياة الجديدة ، وطبن الرغد والنعومة ،
واجتمعن - على ما بينهن من خلاف - ليسألن الرسول مزيداً من النفقة !! .

لئنهن في بيت أعظم رجل في العرب ، فيجب أن تتكافأ معيشتهن مع مكانتهن ،
وقد تزعم هذه المطالب عائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وتبعهن
الباقيات ! .

وحزن رسول الله لهذه المظاهرة ، إنه المسلم الأول على ظهر الأرض ، وأبصار
المؤمنين والمؤمنات ترنو إليه من كل ناحية ، وهو بصدد بناء أمة تشق طريقها وسط
ألوف مؤلفة من الخصوم المتربصين .

فإذا لم يعيش بيته عيشة المجاهد المحصور ، فكيف يواصل الكفاح ويكلف

فذكره دون قوله « الفاقة » وقوله في آخره « أو أجهل » أخرجه هكذا أبو داود (٢٤١/١) والنسائي (٣١٥/٢) والحاكم (٥٤٢/١) وأحمد (٣٠٥/٢ ، ٣٢٥ ، ٣٥٤) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي وهو كما قال . والثاني عن أم سلمة قالت : ما خرج النبي ﷺ من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال : « اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يُجهل علي » رواه أبو داود (٣٢٨/٧ - ٣٢٩) والنسائي (٣٢٢/٢) وغيرهما وقال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي وهو كما قال وصححه الترمذي .

(٢٢) صحيح بلفظ : « والعفاف » بدل « والعافية » كذلك أخرجه مسلم (٨١/٨) والترمذي (٢٥٦/٣) وصححه ابن ماجه (٤٣٠/٢) وأحمد (٣٦٩٢ ، ٣٩٥٠) عن ابن مسعود .

الرجال والنساء من أمته أن يذهلوا عن كل شيء إلا اليسير بدينهم حتى يبلغ مأمنه ؟ .

لذلك قرر النبي الاستجابة لرغبات نسائه في توسيع النفقة . وكره منهن هذا التطلع فقرر مقاطعتهم ، حتى شاع بين الناس أن النبي طلق نساءه جملة !! .

وفزع أبو بكر وعمر لهذه الإشاعة فابته كلهما عند رسول الله . فذهبا يستأذنان ليدخلا عليه ، وليتعرفا جلية الخبر . فلما دخلا وجدا النبي صامتاً ، وحوله نساؤه واجمات !! وسأله عمر : أَطْلَقْتَ نساءك يا رسول الله ؟ قال : لا .

إلا أن جو الحز كان يخيم على المكان ، فقال عمر : لأكلمن رسول الله لعله يضحك ! .

فقال : يا رسول الله .. لو رأيت ابنة زيد - يعنى زوجته - سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها ، فضحك النبي حتى بدا ناجذه . وقال : « هن حولى يسألنني النفقة » . فقام أبو بكر إلى عائشة يؤدبها ، وقام عمر إلى حفصة .

كلاهما يقول : تسألن النبي ما ليس عنده ؟ ! .

فنهى النبي الأبوين أن يصنعا بينتھما شيئاً . وكانت نساؤه - ناديات - يقلن : والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده .

وهجرهن النبي شهراً لا يتصل بهن حتى يشعرن بما فعلن ، ونزلت آيات التخيير من عند الله تطلب إليهن جميعاً إما التجرد للدار الآخرة مع رسول الله ، هذه طريقته في حياته ، وإما اللحاق بأهلهن حيث الملابس الحسنة والمآكل الدسمة .

وكان هذا الدرس كافياً لمحو آخر ما في أنفسهن من رغبة لم تتجاوز المباحات المشتهاة فاخترن - جميعاً - البقاء مع النبي على قاعدته العتيدة « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » (٢٣) ، وعشن معه للجهاد والتهجد ، والبذل والمواساة ، والتواضع والخدمة .

(٢٣) سبق تخريجه .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنِ أُمَتِّعْكُمْ وَأَسْرَحْكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا . وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٤) .

فآثرن الله ورسوله والدار الآخرة .. وعشن مع النبي ، معينات على الحق ، راغبات في الثواب .

* * *

وبهذا التفاني في خدمة الرسالة ، والإهمال لمطالب النفس ، رفع الله درجاتهن فلم يصبحن زوجات رجل يطلبن في ظله المتاع . بل صرن شريكات في حياة فاضلة غالية ، واستحققن قول الله عز وجل :

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (٢٥) .

وتوكيداً لهذه الأمومة الروحية ، شرع الحجاب الدقيق على أمهات المؤمنين فلا يجوز لأحد من الأجانب أن يلتقى بهن ولو مع محرم .

وسؤالهن في شئون الدين والدنيا ، إنما يكون من وراء الحجاب ، كما لا يجوز لأحد - بعد وفاة الرسول - أن يتزوج بإحداهن .

وبهذا التشريع الصارم ، قطع دابر الفضوليين والثقلاء الذين يكثرلون التردد على بيوت الزعماء ، كما قطع دابر المتربصين منهم الذين ينشدون الرفعة من وراء الاقتران بأولئك النساء ، ولا نستغرب مثل هذا التشريع ! فقد تأدت الجراة ببعض الناس أن يقول أحدهم : لو قبض النبي تزوجت عائشة ! . ومن حق النبي أن يُصان شعوره ، وأن يُصد عنه وعن أهله أولئك الأعراب السفهاء .

ولم يعقب الرسول من زوجاته أولئك ولداً .

(٢٤) رواه مسلم (١٧٨/٤) من حديث جابر ، وهو في البخارى (٤٢٢/٨) عن عائشة مختصراً - والآية من سورة الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩ .
(٢٥) الأحزاب : ٦ .

أما بناته اللاتي أعقبن من خديجة فقد متن وهو حي ، عدا فاطمة ، فإنها بقيت بعده شهوراً ثم كانت أول أهله لحوقاً به ..

* * *

ودخل رسول الله بمریم التي بعث بها المقوقس إليه بعد أن أسلمت ، وحملت منه ، ثم وضعت له ابناً أسماه إبراهيم ، باسم جده أبي الأنبياء ، ولم يعمر طويلاً إذ مات وهو رضيع .

قال أنس : لقد رأيته وهو يجود بنفسه بين يدي رسول الله .

فدمعت عليه عينا النبي ثم قال : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بك يا إبراهيم لخزنون » (٢٦) .

واتفق أن الشمس كسفت في ذلك اليوم ، فتحدث الناس أن الشمس كسفت لموت ابن النبي ، فقام النبي مصلياً بالناس ثم قال : « يا أيها الناس .. إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل ، لا ينكسفان لموت بشر ، فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فصلوا حتى تنجلي » (٢٧) .

* * *

استقرار

زالت غبرة الجاهلية عن آفاق الجزيرة كما تزول بقايا الليل أمام طلائع الشروق وصحت العقول العليلة فلم تعد تخشى وترجو إلا الله بعد ما ظلت دهوراً تعبد أصناماً جامدة ، وسمع الأذان للصلوات يشق أجواز الفضاء خلال الصحراء التي أحيها الإيمان الجديد . وانطلق القراء شمالاً وجنوباً يتلون آيات الكتاب وقيمون أحكام الله ، ويعلمون العرب ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم .

(٢٦) صحيح ، أخرجه البخاري (٣٥/٣) عن أنس .

(٢٧) صحيح ، أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث المغيرة بن شعبة وصح عن جماعة من الصحابة ذكرت ألفاظهم والطرق لهم في كتابي « صفة صلاة النبي ﷺ » صلاة الكسوف وما رأى فيها من الآيات .

إن هذه الجزيرة - منذ نشأ فوقها عمران - لم تهتز بمثل هذه النهضة المباركة ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها .

وكان النبي في المدينة يستقبل الوفود ويشيعها بعد ما ينفخ فيها من روحه الكبير ويزودها بحكمته الباهرة من حيث أتت لتنشئ في مواطنها القصبة معاقل للإسلام وصحائف بيضاء في تاريخ أمة .

ولم يكتف النبي بترقب الوفود المقبلة . بل أرسل رجاله الكبار إلى الجنوب ليزيد رقعة الإسلام هناك اتساعاً .

فإن في اليمن وما حولها قبائل كثيفة العدد ، ولأهل الكتاب السابقين نشاط قديم ، وقد نشأ الإسلام حقاً ، وتقلص ظل الفرس لغير عودة .
إلا أن هذه البقاع النائية تحتاج مزيداً من رعاية وتفقد .

ومن ثم بعث النبي خالد بن الوليد . ثم معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري . ثم علياً بن أبي طالب^(٢٨) .

وكان هاتفاً خفياً انبعث في قلب رسول الله يشعره أن مقامه في الدنيا يوشك على النهاية ! فإنه بعد أن علم معاذ بن جبل كيف يدعو من يلقاتهم وكيف يعرفهم دينهم خرج معه إلى ظاهر المدينة يوصيه . ومعاذ راكب ، ورسول الله يمشي تحت راحلته ! .

فلما فرغ قال : « يا معاذ .. إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ! ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري » ! فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله .

ثم التفت النبي بوجهه نحو المدينة فقال : « إن أولى الناس بي المتقون ، من كانوا وحيث كانوا »^(٢٩) .

وقد وقع ما أوماً إليه الرسول ، فإن معاذاً أقام باليمن حتى كانت حجة الوداع

(٢٨) بعث هؤلاء الأربعة في صحيح البخاري (٤٩/٨ - ٥٧) .

(٢٩) صحيح ، أخرجه أحمد (٢٢٥/٥) بسند صحيح عن معاذ .

ثم كانت وفاة النبي بعد الحج الأكبر بأحد وثمانين يوماً ، ومعاذ باليمن .
وقد كان للعناية باليمن ما يبررها ، فقد ظهر فيها وفي بنى حنيقة دجالان
يزعمان النبوة .

ولم يكن لكلا الدجالين من خلال الرجولة وآيات الخير ما يجمع عليه حفنة
من الرجال .

ولكن داء العصبية العمياء ، جعل قبلاً كبيراً من الرعاع يقول :
نحن نعلم أن مسيلمة كذاب ، ولكن كذاب ربيعة ، خير من صادق
مُضَرَّ !! .

وقد اشتعلت فتن المتنبيين حيناً ، ثم داستها أقدام المجاهدين بعد ، فأخمدت
جذوتها ، وذهبت نبوة مسيلمة وغيره . كما تذهب بولة شاة على أديم الثرى .



حجة الوداع

أعلن رسول الله نيته بالحج ، وأشعر الناس بذلك حتى يصحبه من شاء .
 فترك المدينة أواخر ذى القعدة ، بعد أن أمر عليها في غيابه « أبا دجانة » (٣٠) .
 والحج هذه المرة ، جاء مغائراً لما ألفته العرب أيام جاهليتها .
 انتهت العهود المعطاة للمشركين ، وحُظر عليهم أن يدخلوا المسجد الحرام .
 فأصبح أهل الموسم - قاطبة - من الموحدين الذين لا يعبدون مع الله شيئاً ،
 وأقبلت وفود الله من كل صوب تيمم وجهها شطر البيت العتيق ، وهي تعلم أن
 رسول الله ﷺ ، هو في هذا العام أمير حجهم ومعلمهم مناسكهم ! .
 ونظر رسول الله ﷺ إلى الألوف المؤلفة وهي تُلبى وتهرع إلى طاعة الله .
 فشرح صدره انقيادها للحق ، واهتداؤها إلى الإسلام وعزم أن يغرس في قلوبهم لباب
 الدين ، وأن ينتهز هذا التجمع الكريم ليقول كلمات تبدد آخر ما أبقّت الجاهلية من
 مخلفات في النفوس ، وتؤكد ما يحرص الإسلام على إشاعته من آداب وعلائق
 وأحكام .
 فألقى هذه الخطبة الجامعة (٣١) :

(٣٠) لم أجد من أسند هذا ، وإنما ذكره ابن هشام (٣٥٠/٢) معضلاً ولم يجوز به فإنه قال :
 « فاستعمل على المدينة أبا دجانة الساعدي ويقال : سباع بن عرفة الغفاري » .
 (٣١) رواها ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد وقد جاء سندها في أحاديث متفرقة يطول الكلام في
 بيانها . وتفصيل ذلك في كتابي الكبير « حجة الوداع » أرجو الله أن يوفقني لإتمامه . وقسم كبير منها في حديث
 جابر الذي رواه مسلم في صحيحه وقد جمعت طرقه وألفاظه في رسالة لطيفة طبعت في المطبعة السلفية بمصر .

« أيها الناس .. اسمعوا قولي ، فإنني لا أدري ، لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا ، بهذا الموقف أبداً .

أيها الناس .. إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تُظلمون .

قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله .

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب - وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل - فهو أول ما بدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد - أيها الناس .. إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يُطمع فيما سوى ذلك فقد رضى به ، مما تحقرون من أعمالكم ! فاحذروه على دينكم ! ..

أيها الناس : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلِلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، زَيْنَ لَهُمْ سَوْءُ أَعْمَالِهِمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٢) .

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حُرُم ، ثلاثة متوالية ، ورجب الذي بين جمادى وشعبان .

أما بعد : أيها الناس .. فإن لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً .

(٣٢) التوبة : ٣٧ .

لكم عليهم أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة .

فإن فعلن ، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين ، فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

واستوصوا بالنساء خيراً . فإنهن عندكم عوان^(٣٣) ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً . وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي فإنني قد بينت ..

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به . فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً ، كتاب الله وسنة نبيه ..

أيها الناس .. اسمعوا قولي واعقلوه .. تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ .

قالوا : اللهم نعم ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اشهد .

قال ابن إسحاق : كان الرجل الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ - وهو بعرفة - ربيعة بن أمية بن خلف .

يقول له رسول الله : « قل : يا أيها الناس .. إن الرسول يقول : هل تدرون أي شهر هذا ؟ فيقول لهم .. فيقولون : الشهر الحرام .. ؟! فيقول : « قل لهم : إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا » .

ثم يقول : « قل : يا أيها الناس إن رسول الله - ﷺ - يقول : هل تدرون أي بلد هذا ؟ فيصرخ به ! فيقولون : البلد الحرام ، فيقول : « قل : إن الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا » ! .

(٣٣) عوان : أسيرات .

ثم يقول : « قل : يا أيها الناس .. إن رسول الله يقول : هل تدرون أى يوم هذا » ؟ فيقول لهم .. فيقولون : يوم الحج الأكبر ! فيقول : « قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى تلحقوا ربكم كحرمة يومكم هذا » ..

* * *

كان الرسول ﷺ يريد - بعد بلاء طويل في إبلاغ الرسالة - أن يُفرغ في آذان الناس وقلوبهم آخر ما لديه من نصح .

كان يحس أن هذا الركب سينطلق في ببداء الحياة وحده ، فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بابنه الذى انطلق به القطار ، يوصيه الرشد ، ويذكره بما ينفعه أبداً .

وكان هذا النبى الطيب ، كلما أوجس خيفة من مكر الشيطان بالناس ، أعاد صيحات الإنذار ، واستثار أقصى ما فى الأعماق من انتباه . ثم ساق الهدى والعلم .. وقطع المعاذير المنتحلة ، وانتزع - بعد ذلك - شهادة من الناس على أنفسهم وعليه أنهم قد سمعوا ، وأنه قد بلغ ..

لقد ظل ثلاثاً وعشرين سنة يصل الأرض بالسماء ويتلو على القاصى والدانى آى الكتاب الذى نزل به الروح الأمين على قلبه ، ويغسل أدران الجاهلية التى التاث بها كل شىء ، ويرى من هؤلاء العرب ، الجيل الذى يفقه الحقائق ويفقه المعالم فيها .. وها هو ذا يقود الحجاج فى أول موسم يخلص فيه من الشرك ، ويتمحض فيه لله الواحد القهار ..

وها هو ذا على ناقته العضباء ، يستنصب الجماهير المائجة ، ليؤكد المعانى التى بُعث بها . والتى عرّفهم علمها ، ويُخلى ذمته من عهدة البلاغ والبيان التى نيطت بعنقه .

لقد أُجيبَت دعوة ألى الأنبياء إبراهيم ، حيث هتف وهو يبنى البيت العتيق :
﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣٤) .

إن العزيز الحكيم تجلى باسميه الجليلين على هذه الديار ، فوهب العزة والحكمة
أو قل : القوة والسياسة ، لمحمد بن عبد الله ، فعالج بها الآثار الجائئة على صدر
الأرض ، فما استعصى على الأناة والحلم ، استكان للتأديب والحكم .

وبهذا المنهج الجامع ، بين العدل والرحمة ، أخذت رقعة الباطل تنكمش رويداً
رويداً حتى اختفت الجاهلية ولوثاتها ، وثبت الإسلام . ثم أصاخ العرب - بعد
ما لان قيادهم - إلى صوت الحق الأخير في حجة الوداع .

* * *

وفي يوم عرفة من هذه الحجة العظيمة نزل قول الله عز وجل :
﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ
دِينًا ۚ ۖ ﴾ (٣٥) .

وعندما سمعها عمر بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال
إلا النقصان . وكأنه استشعر وفاة النبي صلوات الله عليه وسلامه .

والحق أن مشاعر التوديع للحياة والأحياء كانت تنضج بها بعض العبارات التي
ترد على لسان الرسول ﷺ ، منها ما سبق ذكره في خطبته بالموسم . ومنها ما يقع
في أثناء تعليمه الوفود المحتشدة حوله ، كقوله عند جمره العقبة : « خذوا عني
مناسككم ، فلعلى لا أرجع بعد عامى هذا » (٣٦) .

* * *

(٣٤) البقرة : ١٢٩ .
(٣٥) المائدة : ٣ .
(٣٦) صحيح ، رواه مسلم وغيره من حديث جابر المشار إليه آنفاً .

إلى المدينة

فلما قضى الرسول ﷺ مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة لا ليأخذ حظاً من الراحة ، بل ليستأنف حياة الكفاح والكدح لله .

إن المبطلين لا يدعون لأهل الحق مهلة يستجمعون فيها .

وأصحاب الرسالات أنفسهم ، لا يستعيدون نشاطهم في القعود عن العمل ، بل يستمدون الطاقة عن العمل من الشعور بالواجب .

وراحتهم الكاملة ، يوم يرون بواكير نجاحه دانية القطاف ! .

قفل الرسول ﷺ إلى المدينة ليعبىء جيشاً آخر يقاتل به الروم .

فإن كبرياء هذه الدولة على الإسلام ، جعلتها تأتى عليه حق الحياة ، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فيه .

كان « فروة بن عمر الجذامي » والياً من قبل الروم على « معان » وما حولها من أرض الشام « فاعتنق الإسلام » وبعث إلى النبي يخبره بذلك .

وغضب الرومان فجردوا على « فروة » حملة جاءت به وألقى في السجن حتى صدر الحكم بقتله ، فضرب عنقه على ماء يقال له « عفراء » بفلسطين وترك مصلوباً ، ليرهب غيره أن يسلك مسلكه ! وقيل : إنه لما قدم للقتل قال :

بلغ سراة المسلمين بأننى سلم لرى ، أعظمى ودمائى

فأعد رسول الله جيشاً كبيراً وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة .

وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، ييغى بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضارين على الحدود . حتى لا يحسبن

أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له ، وأن الدخول في الإسلام يجبر على أصحابه
الختوف فحسب .

ولما كان « أسامة » شاباً لا يتجاوز الثمانية عشر . فإن بعض الجهال ساءتهم
هذه الإمارة ، واعترضوا أن يقود الرجال الكبار شاب حدث .

ولا شك أن النبي لا يلتفت في ولايته إلا إلى الجدارة .

فمن استحق منصباً بكفائته ، قدّمه له ، غير مكترث بحداثة سنه .

فإن كبر السن لا يهب للأغبياء عقلاً ، ولا الصغر ينقص الأتقياء فضلاً .

فما الحداثة عن حلم بمناعة قد يوجد الحلم في الشباب والشيب

ولذلك قال رسول الله ﷺ - رداً على انتقاد الناقدين - : « لئن طعنتم فيّ في
تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبل ، وأيم الله إن كان لخليقاً بالإمارة ،
وإن ابنه من بعده لخليق بها ؟ وإن كان لمن أحب الناس إليّ » (٣٧) .

وانتدب الناس يلتفون حول « أسامة » وينتظمون في جيشه .

إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ أكرهتهم على التريث حتى
يعرفوا ما يقضى به الله .



(٣٧) صحيح ، أخرجه البخاري (١٢٤/٨) عن عبد الله بن عمر ، وصححه الترمذي (٣٥٠/٤) .

الفصل التاسع الرفيق الأعلى

شعر رسول الله ﷺ بوعكة المرض الذى نزل به أواخر صفر من السنة الحادية عشر . وبدأت آلامه صداعاً حاداً ، عاناه فى سكون ، حتى ثقل عليه الوجد ، وهو فى بيت زوجته ميمونة .. فلم يستطع الخروج .
وأذن له نساؤه أن يُمرّض فى بيت عائشة ، لما رأين من ارتياحه إلى خدمتها له .

فخرج من عند ميمونة بين الفضل بن العباس ، وعلى بن أبى طالب .
وكان الألم قد أوهى قواه . فلم يستطع مسيراً .
فانتقل بينهما معصوب الرأس ، تخط قدماه على الأرض .. حتى انتهى إلى بيتها^(١) .

واشتدت وطأة المرض على رسول الله ، واتقدت حرارة العلة فى بدنه .
فطلب أن يأتوه بماء يتبرد به .. ماء كثير !! : « أهريقوا علىّ سبع قرب من آبار شتى » .

قالت عائشة : فأقعدها فى مخضب لحفصة ، ثم صببنا عليه الماء . حتى طفق يقول : « حسبكم . حسبكم »^(٢) .

وعندما أحس الرسول بأن سورة الحر تحلت عن بدنه ، واستدعى الفضل بن عمه العباس . فقال : خذ بيدى يا فضل - وهو موعوك معصوب الرأس - قال الفضل : فأخذت بيده حتى دخل المسجد ، وجلس على المنبر . ثم قال : « نادى فى الناس » . فاجتمعوا إليه .

وكانت ظهيرة تظللها الكآبة وتغمرها الرقة ، اشرأبت فيها الأعناق إلى الرجل

(١) صحيح ، رواه ابن هشام (٣٦٦/٢ ، ٣٦٨) عن ابن إسحاق بسنده الصحيح عن عائشة ، ورواه الحاكم (٥٦/٣) من طريق أخرى عنها وصححها .
(٢) صحيح ، أخرجه ابن إسحاق عن عائشة بسنده السابق . وهو فى البخارى (١١٥/٨ - ١٦١) ومسلم (٢١/٢ - ٢٢) نحوه .

الذى أحيا موات القلوب ، وأخرجهم وذرياتهم ونساءهم ، من الظلمات إلى النور ، تطلعت إليه الأعين الحائرة ، فرأته متعباً .

انهزمت العافية في بدنه الجلد ، أمام سطوة المرض العاقى .

إلا أنه أخذ يحدثهم ويربهم . على عهدهم به دائماً . وأنصتوا ، فإذا هم يسمعون منه عجباً .. إنه لما أحس بدنو أجله ، أحب أن يلقي الله وليس هناك بشر يطلبه بتبعة :

إنه تحرى العدالة في شئونه كلها لكن من يدرى ؟ ربما عرض له سهو مما يعرض لبنى آدم ، أو خطأ ، فجار ، وهو الذى يبرأ من الجور وذويه ! .

إذن ليخطب الناس في هذا حتى يستريح ضميره .. قال :

« أما بعد أيها الناس . فإنى أحمد الله إليكم الله الذى لا إله إلا هو .

فمن كنت جلدت له ظهراً ، فهذا ظهري فليستقد منه ! ومن كنت شمت له عرضاً ، فهذا عرضي فليستقد منه ! .

ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني . ألا وإن أحبكم إلى من أخذ منى حقاً ! إن كان له ، أو أحلنى منه فلقيت الله وأنا طيب النفس .

وقد أرى أن هذا غير مغن عني حتى أقوم فيكم مراراً » .

قال الفضل : ثم نزل فصلى الظهر . ثم رجع فجلس على المنبر . فعاد لمقاتته الأولى في الشحناء وغيرها .

فقام رجل فقال : يا رسول الله .. إن لى عندك ثلاثة دراهم ؟ فقال : « أعطه يا فضل » .

ثم قال النبي : « أيها الناس . من كان عنده شيء فليؤده ، ولا يقل : فضوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة » ! .

فقام رجل فقال : يا رسول الله عندى ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله .

قال : « ولم غللتها ؟ قال : كنت محتاجاً .. قال : « خذها منه يا فضل » .

ثم قال : « يا أيها الناس .. من خشي من نفسه شيئاً فليقم أدع له » .
فقام رجل فقال : يا رسول الله . إني لكذاب ، إني لفاحش ، إني لنؤوم .
فقال النبي : « اللهم ارزقه صدقاً ، وإيماناً ، وأذهب عنه النوم » .
ثم قام رجل آخر فقال : والله يا رسول الله إني لكذاب ، وإني لمنافق ،
وما من شيء إلا قد جنيتة .

فقام عمر بن الخطاب فقال له : فضحت نفسك . فقال النبي : « يا ابن
الخطاب .. فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، اللهم ارزقه صدقاً ، وإيماناً ،
وصير أمره إلى خير » (٣) .

* * *

وعاد النبي إلى بيته اللاصق بالمسجد لينام في فراش السقام وهو الذي لم يتعود
أن يركن إليه أو يهدأ فيه .

كانت هناك مهام كثيرة ترتقب صحوة لبيت فيها ، ولكن أعباء العلة حبسته
في قيودها ، فلم يستطع منها فككاً .

وإذا استطاع أن يخرج في فترات قليلة تخف فيها حدة المرض . فإلى المسجد
ليلقى نظرات أخيرة على الأمة التي صنعها ، والرجال الذين أحبهم .

عن أنى سعيد الخدري : أن رسول الله ﷺ جلس يوماً على المنبر فقال :
« إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء ، وبين ما عند الله ،
فاختار ما عند الله » .

(٣) ضعيف جداً ، أخرجه العقيلي في « الضعفاء » والبيهقي في الدلائل من طريق القاسم بن يزيد
ابن عبد الله بن قسيط عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس عن أخيه الفضل قال ابن المديني : عطاء هذا هو عندى
عطاء بن يسار ، وليس له أصل من حديث عطاء بن أبي رباح ، ولا عطاء بن يسار ، وأخاف أن يكون عطاء
الخراساني لأنه يرسل عن ابن عباس . قال الذهبي : قلت : « أخاف أن يكون كذاباً مختلقاً » وقال الحافظ
ابن كثير في التاريخ (٢٣١/٥) : « وفي إسناده ومثله غرابة شديدة » .

فبكى أبو بكر ثم قال : فدينك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله ..

قال أبو سعيد : فتعجبنا له ، وقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد يُخَيَّر ويقول : فدينك بآبائنا وأمهاتنا ! .

قال : فكان رسول الله ﷺ هو الخيّر ، وكان أبو بكر أعلمنا به .

فقال رسول الله ﷺ : « إن أَمَنَ الناسَ عليَّ في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً ، لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام » .

وفي رواية : « ولكن صحبة ، وإخاء إيمان ، حتى يجمع الله بيننا عنده » (٤) .

وحدث في أثناء المرض أن مرت أوقات هادئة ، خيلت لمحبي الرسول ﷺ أن أمانهم في عافيته نجحت ، وأنه يوشك أن يقوم ليستأنف كفاحه في سبيل الله ، وليظل يحبهم بعطفه وحرصه وإيناسه ورحمته .

فعن عبد الله بن كعب بن مالك ، أن ابن عباس أخبره أن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه .

فقال الناس : يا أبا الحسن ، كيف أصبح رسول الله ﷺ ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئاً ! .

فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال : ألا ترى ؟ إنك بعد ثلاث عبد العصا ، وإنى أرى رسول الله ﷺ سيتوفى في وجعه هذا ، وإنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت .. فاذهب إلى رسول الله ﷺ فسله فيمن يكون هذا الأمر ، فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا استوصى بنا خيراً ، قال علي : والله لئن سألتها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس أبداً ، والله لا أسأله رسول الله ﷺ أبداً (٥) .

(٤) صحيح ، أخرجه البخارى (٩/٧ - ١٠ ، ١٨٣) والسياق له ، ومسلم (١٠٨/٧) عن أبي سعيد ، والرواية الأخرى عند ابن هشام (٣٦٩/٢) عن ابن إسحاق بسنده عن بعض آل أبي سعيد ابن المولى ، وهو ضعيف لجهالة هذا البعض وقد رواه أحمد (٢١١/٤ - ٢١٢) من طريق ابن أبي المولى عن أبيه . ورجاله ثقات غير الأبن المذكور فلم أعرفه وقد قال ابن كثير (٢٣٠/٥) وقالوا صوابه : « أبو سعيد بن المولى » .

وظاهر ان العباس يعنى الخلافة ! فقد شعر الرجل بأن النبى فى مرض الموت ، وخبرته بأقاربه حين يحتضرون جعلته صادق الحدس فى تبين مصايرهم .

ولما كان عميد بنى هاشم ، فقد أهمه أن يعرف لمن ستكون سيادة الناس بعد وفاة الرسول ﷺ ، وقد اتجه إلى عليّ بيته مكنون نفسه لأن علياً - بسابقتها وكفايته ومنزله فى الناس ، وموضعه من الرسول - يُعد أول بنى هاشم ترشيحاً لهذا الأمر . بيد أن علياً كره أن يُكلّم النبى فى ذلك ، وآثر ترك الأمر للجمهور المسلمين . وكان النبى نفسه قد همّ بكتابة عهد يمنع شغب الطامعين فى الحكم ، ثم بدا له فاختر أن يدع المسلمين وشأنهم ، ينتخبون لقيادتهم من يحبون^(٦) .

* * *

وزادت وطأة المرض على رسول الله ﷺ ، وعانى من برحائه ألماً مضاعفاً ، حتى تأذت فاطمة ابنته من شدة ما يلقي ، واكرب أبتاه ! .

فقال : « لا كرب على أبيك بعد اليوم »^(٧) .

وترامت الأخبار إلى جيش أسامة ، فشاع الحزن والاضطراب فى صفوفه . عن محمد بن أسامة عن أبيه قال : لما ثقل رسول الله ، هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة ، فدخلنا على رسول الله وقد أصمت لا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها عليّ ، فعرفت أنه يدعولى^(٨) .

وأغمى عليه مرة فللّهُ أهله ، فلما أفاق كره ذلك منهم^(٩) .

(٥) صحيح ، وأخرجه البخارى (١١٦/٨ - ١١٧) .

(٦) يشير إلى حديث ابن عباس مرفوعاً : (هلموا أكتب لكم كتاباً) . أخرجه البخارى (١١٠/٨) .

(٧) صحيح ، رواه البخارى (١٢١/٨) وغيره عن أنس .

(٨) صحيح ، رواه الترمذى (٣٥٠/٤) وحسنه ابن هشام (٣٧٠/٢) .

(٩) صحيح ، رواه البخارى (١٠٢/٨) عن عائشة .

وكان إلى جواره قدح فيه ماء ، يغمس فيه يده ثم يمسح وجهه بالماء ويقول :
اللهم أعنى على سكرات الموت « (١٠) .

وحين عجز النبي ﷺ عن الصلاة بالناس ، استقدم أبا بكر ليؤمهم .
فخشيت عائشة أن يكره الناس أباها ويتشاءمون من طلعتة .

فقال : إن أبا بكر رجل رقيق وإنه متى يقيم مقامك لا يطيق ! .

فقال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

فكرت عائشة اعتراضها فغضب رسول الله ﷺ : وقال : « إنكن
صواحب يوسف .. مروا أبا بكر فليصل بالناس » (١١) .

وصلى أبو بكر بالناس سبع عشرة صلاة .

وهذه الأيام التي تخلف فيها النبي ﷺ أن يوم المسلمين ، كانت من أشد
الأيام ثقلًا عليه . وصح عنه أنه قال : « إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم » (١٢) .

ومع فيح الحمى وحدة مسها لبدنه ، فقد ظل يقظ الذهن ، مهموماً بتعاليم
الرسالة ، حريصاً على تذكير الناس بها .

وكان يخشى أن ترتكس أمته ، فتعلق بالأشخاص و « الأضرحة » كما ارتكس
أهل الكتاب الأولون .

وشدته في إخلاص التوحيد لله هي التي جعلته ، وهو يعالج سكرات الموت ،
يرهب المسلمين من هذا المزلق .

عن عائشة وابن عباس قالا : لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له
على وجهه فإذا اغتم ، كشفها عن وجهه فقال : وهو كذلك - « لعنة الله على اليهود

(١٠) ضعيف ، أخرجه الترمذى (١٢٨/٢) وغيره من طريق موسى بن سرجس عن القاسم بن محمد
عن عائشة . وقال : « حديث غريب » يعنى ضعيف لأن موسى هذا لم يوثقه أحد فهو مجهول .
(١١) صحيح ، أخرجه البخارى (١٣٠/٢) ومسلم (٢٠/٢ - ٢٤) عن عائشة .
(١٢) أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود .

والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » - يُحذّر ما صنعوا^(١٣) .

وكان يخشى أن تغلب شهوات الغي والكبر على أُمته .

فإن الذين يتبعون شهوات الغي ، ينسون الصلاة ، والذين يتبعون شهوات الكبر ، يطغون على ما تحت أيديهم من خدم ومرؤوسين ورقيق .

والأمة التى تستبد بها هذه الشهوات ، لا تصلح للحياة ، ولا تصلح بها حياة .

ومن اليسير أن يتركها الله تلقى جزاء ما تصنع ، وهو خزي الدنيا ، وعذاب الآخرة .

هذه الخشية ، حملت النبى ﷺ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن ينبه المسلمين إلى معاهد الخير ليمسكوا بها .

عن أنس بن مالك قال : كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت - : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » . حتى جعل رسول الله ﷺ يغرغر بها صدره ، وما يكاد يفيض بها لسانه^(١٤) .

* * *

وربما غلبه الشوق لحضور الجماعة ورؤية الأصحاب فى أيامه الأخيرة فتحامل على جسمه المنهوك ، وانسل إلى المسجد من حجرة عائشة ، فصلى بالناس وهو قاعد .

(١٣) صحيح ، أخرجه البخارى (٤٢٢/١) ومسلم (٦٧/٢) .

(١٤) صحيح ، أخرجه ابن ماجه (١٥٥/٢) وأحمد (١١٧/٣) . وغيرهما عن قتادة عن أنس ، وفيه اختلاف على قتادة بينه الحافظ ابن كثير فى « البداية » (٢٣٨/٥ - ٢٣٩) وذكر عن البيهقى أنه قال : « الصحيح ما رواه عفان عن همام عن قتادة عن أبى الخليل عن سفينة عن أم سلمة به » قلت : وهذا سند متصل صحيح . وله شاهد من حديث على نحوه رواه ابن ماجه وأحمد (رقم ٥٨٥) وإسناده صحيح .

قال ابن عباس : لما مرض النبي ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس ثم وجد خفة فخرج .

فلما أحس به أبو بكر ، أراد أن ينكص ، فأوماً إليه الرسول ﷺ فجلس إلى جنب أبي بكر عن يساره واستفتح من الآية التي انتهى إليها أبو بكر فكان أبو بكر يأتهم بالنبي ، والناس يأتون بأبي بكر^(١٥) .

على أن أبا بكر ظل يصلي بالناس هذه الأوقات التي مرض فيها رسول الله ﷺ حتى صبيحة اليوم الذي قبض فيه وكان الرسول معلق القلب بشئون أمته .

وكان الله أراد أن يطمئنه على كمال انقيادها وحسن اتباعها ، فأشهره آخر وقت حضره وهو في الدنيا ، إذ أقبل المؤمنون من بيوتهم إلى المسجد فجر الإثنين الذي قبض فيه ، واصطفوا لصلاتهم خشعاً مخبتين ، وراء إمام رقيق التلاوة فياض الإخلاص ، ورفع النبي ﷺ الستر المضروب على منزل عائشة ، وفتح الباب وبرز للناس .

فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم ابتهاجاً برؤيته ، وتفرجوا يفسحون له مكاناً فأشار بيده : أن اثبتوا على صلاتكم ، وتبسم فرحاً من هيئتهم في صلاتهم . قال أنس بن مالك : ما رأيت رسول الله أحسن هيئة منه في تلك الساعة^(١٦) .

ثم رجع وانصرف الناس ، وهم يظنون أن رسول الله قد أفاق من وجعه . واطمأن أبو بكر لهذا الظن ، فرجع إلى أهله بالسنع - في ضواحي المدينة^(١٧) قالت عائشة : وعاد رسول الله من المسجد ، فاضطج في حجرى .

(١٥) صحيح ، أخرجه أحمد (٢٠٥٥ ، ٣٣٣٠ ، ٣٣٥٥) وابن ماجه (٣٨٣/١) من طريق أبي إسحاق عن الأرقم بن شرحبيل عن ابن عباس ، ورجاله ثقات لكن أعله البوصيرى بأن أبا إسحاق - وهو السبيعي - اختلط بآخر عمره ، وكان مدلساً وقد رواه بالعنعنة ، قلت : لكن تابعه عبد الله بن أبي الشعر إلا أنه قال : عن ابن عباس عن العباس ، فجعله من سند العباس وهذا اختلاف يسير لا يضر في صحة الحديث إن شاء الله ، وقد رواه من هذا الوجه أحمد أيضاً (١٧٨٤ ، ١٧٨٥) .

(١٦) صحيح ، أخرجه البخارى (١٠/٢ - ١٣١ ، ١١٧) ومسلم (٢٤/٢ - ٢٥) وغيرهما عن أنس بن مالك ، ورواه ابن هشام (٣٧٠/٢ - ٣٧١) عن ابن إسحاق عن الزهري عن أنس بلفظ الكتاب وفيه انقطاع .

(١٧) هو من تمام حديث أنس عن ابن إسحاق .

ودخل علينا رجل من آل بكر في يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله إلى يده نظراً عرفت منه أنه يريد .

فأخذته فألنته له ثم أعطيته إياه .

فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك قبله ، ثم وضعه .

ووجدت رسول الله يثقل في حجرى .

فذهبت أنظر في وجهه .

فإذا نظره قد شخص وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى في الجنة » .

قلت : خيّرْت فاخترت ، والذي بعثك بالحق ..

وقُبض رسول الله ﷺ (١٨) .

وتسرب النبأ الفادح من البيت المحزون ، وله طنين في الآذان . وثقل ترزح تحته النفوس ، وتلدور به البصائر والأبصار .

وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمت ، فتركهم لوعة الشكل حيارى ، لا يدرون ما يفعلون .

ووقف عمر بن الخطاب - وقد أخرجه الخبر عن وعيه - يقول : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفى ، وإن رسول الله ما مات ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة . ثم رجع بعد أن قيل قد مات .

والله ليرجعن رسول الله ﷺ ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات ! .

(١٨) صحيح ، رواه ابن هشام (٣٧١/٢) عن ابن إسحاق بسنده الصحيح عنها وهو في البخارى (١٠٧/٨ ، ١١١ - ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١١٨) نحوه مفرقاً ، وهذا آخر حديث في الكتاب . وبه ينتهى التخرىج والحمد لله على توفيقه وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .
دمشق : ١٣٧٥/٥/٢٨ هـ
« محمد ناصر الدين الألبانى »

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس .
فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة وهو
مسجى في ناحية البيت عليه بُردَ حبرة .

فأقبل حتى كشف عن وجهه ، ثم أقبل عليه فقَبَّله ، ثم قال : بأى أنت
وأُمى .. أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن يصيبك بعدها موت أبداً .
ورد الثوب على وجهه ، ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : على رِسلِك
يا عمر .. فأُنصت .

لكن عمر ظل مهتاجاً مندفعاً في كلام .

فلما رآه أبو بكر كذلك ، أقبل الناس وشرع يتكلم ، فلما سمعه الناس
انصرفوا عن عمر وأقبلوا عليه

وحمد أبو بكر الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس .. من كان يعبد محمداً ، فإن
محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا هذه الآية :
﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَمَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللَّهَ
الشَّاكِرِينَ﴾ (١٩) .

خاتمة

لم تمض أيام معدودات على وفاة الرسول حتى اشتبك الإسلام في صراع رهيب مع الوثنية التي عادتها الحياة فجأة ، والصليبية الرابضة في شمال الجزيرة تمنع الدخول في الإسلام وتحبط دعايته بالقوة .

ولم تشهد الصحراء في حياة النبي ﷺ نفسه مثيلاً لهذه المعارك الطاحنة . فقد اتسعت ميادينها ، وتتابعتم أمدادها ، وفدحت مغارمها ، وكثرت ضحاياها .

إلا أن الرجال الذين رباهم محمد ﷺ على معرفة الحق والفناء فيه ، صدقوا الله في عملهم ، ونهضوا كأعتى الأبطال بالأثقال الباهظة التي رموا بها . ضربوا الوثنية في الجزيرة ضربة كسرت فقارها ، واعتصرت روحها ، فهمدت إلى الأبد .

وطردوا الرومان عن الحدود التي توردوا بها وتجبروا فيها .

ثم عادوا إلى المدينة ليستجمعوا ، بل لينتشروا خلال المعمور من أرض الله يومئذ ، في نظام رتيب ، وبوحى شريعة محكمة .

وما هي إلا سنوات قلائل ، حتى كان الإسلام ملء البر والبحر ، ملء السمع والبصر .

والآن وقد مرت قرون أربعة عشر على هذه الحقبة الزاهرة .

إن الإسلام - بعد مجد كبير - لا يحكم أمته فضلاً عن أن يوجه العالم إلى برٍّ يُذكر أو خير يُشكر .

والأديان الأخرى تعيش على هامش الحياة .
الحضارات القائمة أو المتربصة . لا تمكّن الدين من زمامها .
الوثنية في الهند وفي الشرق الأقصى وفي بقاع أخرى لاتزال تظلل الجوانب
الداكنة من حياة العامة ومسالك الجماهير السائمة .
واليهودية تنحاز بأبنائها جانباً ، لتغرس في قلوبهم الحقد على البشر ، والنفاذ
من خلل الصفوف المتناحرة بأكبر غنم لإسرائيل .

أما الصليبية ، فهي كالنبات المتسلق في خط الاستواء .
تعتمد في بقائها على الالتحاق بالفلسفات السائدة والنظم الغالبة ، كى تضمن
حياة أي حياة ، لدعائهما الأولى من تثاليث وقرابين .
والمسلمون سرت إليهم لوثات الاحتراف والتعلق بالقشور والمراسيم .
وردتهم رذائل الضعف والجهالة ، إلى أحوال أشبه بما كان يسود اليهود
والنصارى على عصر النبوة والخلافة الراشدة .
وقلة سيرة منهم ، هي التي بقيت إلى يوم الناس هذا ، تغالب الجاهلية
وتتشبث بالحق .

وإذا كان مما يعين على الأمل أن الإسلام ظل من الناحية العلمية محفوظاً في
مصدره الخطيرين : الكتاب والسنة ، فإن هذا العلم المصون لا يُغنى أبداً عن
العمل .

على أن الذين يعملون للإسلام عملاً صحيحاً ، يلقون مقاومة عنيفة من شتى
الجهات الأخرى ، أعنى الجهات التي قاومت امتداده من أربعة عشر قرناً ، ولم تبرد
عداوتها له يوماً !! .

* * *

قد يسأل سائل : هل العالم اليوم بحاجة إلى هذا الإسلام ؟ .

ونقول : إذا كان العالم بحاجة إلى أن يعرف الله ويستعد للقاءه ويقدم حساباً على ما أدى في هذه الدنيا فلا بد له من الإسلام .

إن الارتقاء المادي ، لا يُغنى فتياً عن التقيد بهذه الحقائق الكبيرة .

قد يُقال : لكن من الناس من لا يؤمن بالله قائم أو يوم آخر .

ومنهم من يؤمن بذلك على نحو غير ما جاء به الإسلام .

فدعوا الناس وما يرون ..

ونقول : لير الناس ما يشاءون ، ولكن ليس من حق العميان أن يخلعوا عيني المبصر ، أو يضيقوا عليه الخناق ، لأنه يرى ما لا يرون ! .

فليدعوه بمشي بهدى بصره ، وليدعوه كذلك ، يصف ما يرى في طريقه وما يتوقع .

فمن تبعه من غير استكراه ، فليطلق معه ، وإلا فليدعه ، وليرفع من أمامه العوائق ، وذلك ما يبغيه الإسلام فحسب .

إن المبطلين يكرهون الإسلام لأنه حق ناطق ، يجادل عن نفسه ، ويستعلن بما فيه ، ويرفض أن يتوارى أو يصمت .

هذه الخاصة في الإسلام ، خاصة إحقاق الحق وإبطال الباطل ، أزجعت أعداءه وجعلتهم يخلعون له التهم .

فإذا رفض المداينة ، فهو مهاجم ، وإذا أبى أن يموت أمام كيد الخصوم ، فهو ينتشر بالإكراه ! .

وذاك سر الخرافة التي راجت ، أن الإسلام ساد بالسيف .

والإسلام إنما امتشق الحسام لينجو به من غوائل الرعاع والقطاع .

ولو ترك من غير ترويع ، ما أثقل عاتقه برمح ، ولا كتفى من السنان باللسان ، نعم ، إنه كان في هذه السبيل صارماً .

وهل ينتظر منه إلا ذلك في ملاقاته خصوم يجرون وراءهم كبرياء القرون الطوال وتعصبا ؟ وضلالات تحتمى وراء غابات متشابكة من الرجال والسلاح ؟ إنه لولا هذه الصرامة ، ما بقيت أصوله العلمية والنفسية سليمة إلى اليوم .

فإن الديانات التي ضعفت قبله ، أفلح أعداؤها في جرّها عن أصولها جراً شنيعاً فلم تعد إلى قواعد سائلة ؟ .

أما الإسلام ، فإنك واجده اليوم ، ولو في كتابه ، إن لم يكن في أصحابه .

* * *

قد تظن أنك درست حياة محمد ﷺ إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة . وهذا خطأ بالغ . إنك لن تفقه السيرة حقاً إلا إذا درست القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وبقدر ما تنال من ذلك . تكون صلتك بنبي الإسلام .

مؤلفات الشيخ / محمد الغزالي

طبعة دار الدعوة	فقه السيرة
طبعة دار الدعوة	خلق المسلم
طبعة دار الدعوة	عقيدة المسلم
تحت الطبع — دار الدعوة	جدد حياتك
تحت الطبع — دار الدعوة	تأملات في الدين والحياة
تحت الطبع — دار الدعوة	كيف نفهم الإسلام
	الإسلام والاستبداد السياسي
	التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام
	ليس من الإسلام
	الاستعمار أحقاد وأطماع
	نظرات في القرآن
	مع الله دراسات في الدعوة والدعاة
	معركة المصحف في العالم الإسلامي
	كفاح دين
	الإسلام والطاقات المعطلة
	حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة
	هذا ديننا
	حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي
	الجانب العاطفي من الإسلام
	دفاع عن العقيدة والشريعة
	علل وأدوية

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر ..	٥
مقدمة ..	٧
حول أحاديث هذا الكتاب ..	١٣
الفصل الأول	
رسالة وإمام ..	١٩
الوثنية تسود الحضارات القديمة ..	٢١
طبيعة الرسالة الخاتمة ..	٢٦
العرب حين البعثة ..	٣٠
رسول معلم ..	٣٤
منزلة السنة من الكتاب الكريم ..	٤٤
النبي وخوارق العادات ..	٥٤
الفصل الثاني	
من الميلاد إلى البعث ..	٦٥
شق الصدر ..	٧٣
بحيرا الراهب ..	٧٧
حياة الكدح ..	٧٩
حرب الفجار ..	٨٣
حلف الفضول ..	٨٤
قوة ونشاط ..	٨٦
خديجة ..	٨٨

الموضوع	الصفحة
الكعبة ..	٩٢
باحثون عن الحق ..	٩٥
في غار حراء ..	٩٨
ورقة بن نوفل ..	١٠٠

الفصل الثالث

جهد الدعوة ..	١٠٣
إلام يدعو الناس ؟	١٠٨
الرعي الأول ..	١١١
إظهار الدعوة	١١٣
أبو طالب ..	١١٦
الاضطهاد	١٢٠
عمار بن ياسر	١٢٢
بلال ..	١٢٣
خباب ..	١٢٣
مفاوضات ..	١٢٦
الهجرة إلى الحبشة ..	١٣٠
إسلام حمزة وعمر ..	١٣٦
المقاطعة العامة ..	١٣٨
عام الحزن ..	١٤٣
في الطائف ..	١٤٦
الإسراء والمعراج	١٥٠
حكمة الإسراء ..	١٥٥
إكمال البناء ..	١٥٧
سلامة الفطرة ..	١٥٩
فرض الصلاة ..	١٦٠

الموضوع الصفحة

قريش والإسراء ١٦٢

الفصل الرابع

الهجرة العامة : مقدماتها ونتائجها ١٦٥

فروق بين البلدين ١٦٩

صنع اليهود ١٧١

بيعة العقبة الأولى ١٧٣

بيعة العقبة الكبرى ١٧٥

طلائع الهجرة ١٧٩

في دار الندوة ١٨٥

هجرة الرسول ١٨٧

درس في سياسة الأمور ١٩٠

في الغار ١٩١

في الطريق إلى المدينة ١٩٣

دعاء ١٩٥

الوصول إلى المدينة ١٩٨

استقرار المدينة ٢٠٠

الفصل الخامس

أسس البناء للمجتمع الجديد ٢٠٥

المسجد ٢٠٨

الأخوة ٢١١

غير المسلمين ٢١٣

المصطفون الأخيار ٢٢٠

معنى العبادة ٢٢٥

قيادة تهوى إليها الأفئدة ٢٣٣

الموضوع

الفصل السادس

٢٤١	الكفاح الدامي
٢٤٨	سرايا
٢٥١	سرية عبد الله بن جحش
٢٥٤	معركة بدر
٢٧٠	محاسبة وعتاب
٢٧٥	في أعقاب بدر
٢٧٧	بدء الصراع بين اليهود والمسلمين
٢٨٤	مناوشات مع قريش
٢٨٨	معركة أحد
٢٩٩	عبر المحنة
٣٠٨	شهداء أحد
٣١٣	آثار أحد
٣٢٠	إجلاء بنى النضير
٣٢٤	بدر الآخرة
٣٢٥	دومة الجندل
٣٣٠	حديث الإفك
٣٣٥	غزوة الأحزاب
٣٥١	مع قريظة

الفصل السابع

٣٦٣	طور جديد
٣٦٥	عمرة الحديبية
٣٨٣	مع اليهود مرة أخرى
٣٩٣	عودة مهاجري الحبشة

الموضوع	الصفحة
تأديب الأعراب	٣٩٥
مكاتبة الملوك والأمراء	٣٩٨
عمرة القضاء ..	٤٠٧
غزوة مؤتة ..	٤٠٩
ذات السلاسل	٤١٥
الفتح الأعظم	٤١٧
معركة حنين ..	٤٣٢
هزيمة ..	٤٣٣
الثبات والنصر	٤٢٥
الغنائم	٤٣٧
حكمة هذا التقسيم	٤٤٠
عودة وفد هوازن	٤٤٣
حصار الطائف	٤٤٣
إلى دار الهجرة	٤٤٥
موقف المنافقين	٤٤٦
تبوك ..	٤٤٧
المخلفون	٤٥٥
مسجد الضرار ..	٤٦٠
طليعة الوفود ..	٤٦٢
حج أنى بكر	٤٦٥
وفد للأميين ووفد لأهل الكتاب	٤٦٩
الفصل الثامن	
أمهات المؤمنين	٤٧٧
استقرار ..	٤٩٩
حجة الوداع	٥٠٢
إلى المدينة	٥٠٧
	٥٣١

الفصل التاسع

٥٠٩	الرفيق الأعلى
٥٢١	خاتمة
٥٢٧	الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٦٩٨ / ١٩٨٨

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN



دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

